

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

أطروحة لنيل درجة دكتوراه علوم في الفلسفة:

النقد الثقافي عند إدوارد سعيد

إشراف الأستاذ الدكتور

عمر بوساحة

إعداد الطالب:

حسين حيمر

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د السعدي أزواو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
أ.د عمر بوساحة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مقررا
أ.د نور الدين جباب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	عضوا
أ.د وحيد بن بوعزيز	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	عضوا
أ.د منير بهادي	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا
أ.د عبد الله موسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة سعيدة	عضوا

السنة الجامعية 2014 / 2015

الإهداء

إلى والديَّ . .

اللذين كانا دعاؤهما سرّ توفيقِي وغرسا فيَّ حبَّ العلم والصبر والمثابرة،
إلى كل من علّمني حرفاً، أساتذتي الأفاضل الذين كانوا نبزاً في درب المعرفة،
إلى كل من مدّ لي يد العون في رحلتي العلمية، الزوجة الكريمة، وأبنائي،
أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع، راجياً أن يكون علماً نافعاً وعملاً خالصاً لوجه الله تعالى .

إدوارد وديع سعيد رحالة عبر حدودا جغرافية ومعرفية ليصبح مثقفا كونيا مسكونا بـمهموم المقهورين والمظلومين والمهمشين، جمع بين العلوم والفنون، ساهم كتابات وافرة في حقول السياسة والثقافة، وبمفاهيم نقدية متنوعة عن المثقف والمنفى والتمثيل والاستشراق، والنقد الديني والنظرية المرتحلة والموسيقى والنزعة الانسانية. لم يكن عملي النقد الثقافي عند إدوارد سعيد، من باب التكريم والمجاملة، لأن سعيد بذاته لا يرضى بهما، بل كان من مبدأ التضامن مع النقد، أي النقد البناء وهو الذي صاغه، وعملي هذا مقسم إلى أربعة فصول محورية هي على التوالي:

الفصل الأول: نماذج من مرجعيات فكر إدوارد سعيد بمبحثين، هما تأثير فيكو وغرامشي في فكر سعيد وفرانتز فانون وأحمد إقبال كأصوات مستقلة ومقاومة للكلونيالية. ثم فصل ثاني يتضمن تمثيلات المثقف وتأملاته في منفاه من خلال أعمال سعيد، وفيه أيضا مبحثين، الأول منهما هو كيفية انتقال المثقف من سلطات الضغط بأشكالها المختلفة إلى سلطته المستقلة، وثانيهما هو المثقف بين متاعب المنفى وامتعه في كتابات سعيد. وأما الفصل الثالث فيتعلق بنماذج نقدية ثقافية في أعمال سعيد، شأنه كشأن الفصلين السابقين، إذ يحتوي على مبحثين خاصين بالمقاومة الثقافية وجزء من تطبيقات للقراءة الطباقية على بعض النصوص، وأخيرا الفصل الرابع، النقد السياسي في نظرية سعيد الفكرية، وهو بدوره يتناول مبحثين متكاملين فيما بينهما، مكانة القضية الفلسطينية في تفكير إدوارد سعيد، ونقده لأمريكا الرسمية من أجل فهم أمريكا الأخرى.

حاولت استكشاف بعض ينابيع فكر إدوارد سعيد وعلاقاته بمفكرين كبار، وطريقته في قراءة أعمالهم والتأثر بها، وكان بحثي مركزا في هذا الشأن على وجه الخصوص

على فيكو وغرامشي، ثم أحمد إقبال وفرانز فانون، ولا تفوتني الإشارة في هذه العجالة إلى أن المصادر الفكرية لإدوارد سعيد متعددة ومتنوعة، تمتد جذورها إلى ثيودور آدورنو وجوزيف كونراد ووالتر بن يامين وغيرهم، ويذكر سعيد في مقابلة استثنائية قبل رحيله بفترة وجيزة، في الفيلم التسجيلي الذي أخرجه مايك ديب بعنوان (المقابلة الأخيرة)، مفكرين أثرا عليه كثيرا، جيوفاني جيامباتستا فيكو، وجوزيف كونراد، فذكر الأول قبل كونراد، وتكاد تكون أعمال سعيد لا تخلو من إشارة ضمنية أو صريحة إلى فيكو الذي لازم أعمال سعيد، للاستشهاد بأفكاره والانطلاق منها في كتابات سعيد الأولى خاصة، حيث نجده يخصص في خاتمة كتابه البدايات: القصد والمنهج، الذي نشره عام 1975، يتحدث عن منهج فيكو التكاملي، أو ما يسميه فيكو المنهج السياقي.

وأضفت مفكرا ماركسيا ايطاليا آخر هو أنطونيو غرامشي، الذي أحالتنا إليه كتابات سعيد في الكثير من المرات، ما يجعله هو الآخر مرجعية من مرجعياته الفكرية الأساسية، وينبغي الوقوف على أن سعيد تعامل مع غرامشي الثوري بطريقة ملائمة، حيث أضافه إلى مصادر فكره الأخرى، وانتهى إلى إشكال فكري سعيدي إن صح هذا التعبير. ومنع عن غرامشي استقلاله الذاتي، لهذا اهتم سعيد بمفاهيم غرامشي كالثقف الجمعي وفلسفة البراكسيس وحرب المواقع لأنها مفاهيم مرتبطة بإشكال سياسي قوامه الثورة الاشتراكية، وكان ذلك في مجتمع غربي رأسمالي متقدم له تقاليد ديمقراطية، يختلف عن مجتمعات شرقية مغايرة في الاتجاهين (التقدم والديمقراطية)، بينما ينطلق سعيد من تجربته الأكاديمية التي يسأل فيها أكاديميين غربيين ينشرون معرفة شوهت ولا تزال تشوه الشرق وتشجع السيطرة عليه.

لا يمكننا حجب مفارقة فكرية عجيبة في فكر سعيد، حينما أعلن صراحة تأثره بماركسيين كرايموند ويليامز ووالتر بن يامين وجورج لوكاش، دون رجوعه إلى كارل ماركس الذي كان المصدر الأول لكل الماركسيين، والسبب قد يعود إلى تخصص سعيد الأدبي الذي يستدعي الرجوع إلى إريك أورباخ أكثر من فلاديمير لينين، بل إن التجربة الذاتية الثقافية لسعيد هي التي افترضت ذلك.

وفي المبحث الثاني تناولت من الفصل ذاته، كلا من أحمد إقبال وفرانتر فانون، اللذان وجدتهما حاضرين بقوة في كتابات سعيد، خاصة منها المتأخرة، مثل كتابه الثقافة والامبريالية، رغم الإشارات العابرة لفانون في كتب سعيد الأولى ككتابه البدايات: القصد والمنهج، إن علاقتهما لا يمكن فهمها إلا إذا عدنا إلى أحمد إقبال الذي كان همزة وصل بين الرجلين (فانون وسعيد)، بالإضافة إلى أن أحمد إقبال، هو الآخر مرجعا أساسيا من مراجع سعيد في تفكيره السياسي، المتصل بالعالم الثالث وحركاته التحررية، ما أتاح استمرارية نموذج المثقف الناقد المقيم بقضايا التحرر عموما والتحرر الوطني خصوصا. في بداية ثمانينيات القرن الماضي تمتنت علاقة سعيد بفانون وأحمد إقبال، فأصبحوا سلسلة متكاملة لمشروع فكري واحد.

وتعاملت في الفصل الثاني مع وعي سعيد كمثقف ناقد انشطر أنه في مكانين، هنا الغرب، وهناك الشرق، ما يستلزم قراءة ثنائية للحيزين الجغرافيين المتناقضين، إن هذه الإشكالية هي ما أسماه دارسوه مفارقة الهوية، وترتب عن ذلك وجود اسمين في حالة لقاء وفراق ويكتمل بلغتين تحتلطان في لغة أصلية وطنية ولغة أجنبية هي لغة منفاه التي اكتسبها واتقتها أكثر من أهلها، إن معيشة سعيد في المنفى بعد نكبة فلسطين، جعلته منظرا شهما

لمرحلة ما بعد الكولونيالية، وقدرته في التأثير على الدراسات الاستشرافية جعلته يفضح الخطاب الكامن وراء طرقها التمثيلية للشرق، حيث كشف حقيقة المعرفة الاستشرافية المجردة للانتماء الديني والقومي المغاير للغرب (شرق عربي، مسلم)، هذا ما نجده مجسدا في كتابه الاستشراق. وتتجلى مظاهر صراع سعيد مع شتاته وإدراكه للمنفي والربط بين النص والعالم، في متناقضات شخصيته المغربية وعلاقته بوطنه، وصوته المستقل وواقعه الأكاديمي، وعروبته ومسيحيته، وفلسطينيته كجذور، وأمركيته كوضعية رهنية، وهذا هو بالذات العيش في الحياتين كأثر من آثار أسئلته الملحة عن الهوية.

وقمت في الفصل الثالث بعرض بعض الأنموذجات من النقد الثقافي مما كتبه سعيد، إن المقاومة الثقافية عنده هي معارضة إذا لم يتم الفصل بينها وبين السياسة، ويعتبر النشاط السياسي خطابا سياسيا من ناحية أولى، والمقاومة الثقافية من ناحية ثانية، وهي تسعى لإعادة كتابة ذلك الخطاب أو تغييره، - وهو الأمر الذي دفعني للربط بين الفصلين الثالث والرابع في النقيدين الثقافي والسياسي - ومنه فالخطاب الثقافي عند سعيد وسيلة لمقاومة السائد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. والثقافة عنده هي معرفة تمكن السائد سياسيا ممارسة سيادته وسلطته، إن الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى استخدمت معرفتها بثقافات الأمم المستعمرة لاحتكارها والسيطرة عليها، وعليه فالمقاومة الثقافية هي بمثابة خطاب مضاد لهذه الممارسات، من خلال تهديم الواقع الذي اصطنعه المستعمر وتحوله إلى وسيلة فعالة للتغيير الثقافي السياسي، ولذلك فإن وضع السلطة موضع المسألة، هو من دور المثقف، إنه ذا نزعة نقدية، مزعزة للوضع الراهن، يغير مزاعم المستعمر الثقافية ومسلماته، ومن ثمة فدوره مرتبط بالمقاومة الثقافية، وينبغي ألا يبقى حبيسا للإيديولوجيات الحزبية، ليتمكن من إعادة النقد إلى العالم، أي ليصبح النقد دنيويا، ويجب على المثقف أن يرد

بالكتابة على الامبريالية الاستعمارية ويطعن في طبيعتها المهيمنة على الثقافة السائدة انطلاقاً من حرية من حرية الرأي والتفكير، لقد وضع سعيد نظريته في المقاومة الثقافية بغرض الإطاحة بالظروف القهر السياسي والثقافي، والخطاب الاستعماري، لكنه مثقفاً يمثل التحرير والتنوير.

وأما الفصل الرابع المتضمن للنقد السياسي في أعمال إدوارد سعيد، فقد تناولت فيه علاقة المعرفة بالسلطة السياسية في الغرب، وأشارت لوجود معرفتين متقابلتين الأولى حقيقية والثانية سافرة، إذ يبين لنا من خلال كتاب الاستشراق بأن المعرفة السافرة ليست مجرد موضوع سياسي فحسب، بل هي أيضاً وسيلة للسيطرة على الآخر بوسائل شتى، منها المناهج والنتائج البحثية المستخدمة في الغرب، وخطابات المؤسسات الاستعمارية والامبريالية المرتبطة بالسلطات الفكرية الثقافية والعلمية والسياسية، وبهذا يمكن الوصول إلى الظاهرة التاريخية التي تحول فيها الاستشراق إلى عمل تحالف بين العمل السياسي والعمل الثقافي، وهو الغرض الذي دفع بسعيد إلى تفكيك ظاهرة الاستشراق، لدراستها دراسة نقدية، علمية، سياسية، ثقافية. حيث أخذت عينة من دراسته، وهي أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى، وهي تقوم على أطروحة مفادها أن الصورة القائمة التي أفرزتها الانتخابات الرئاسية في سنة 2004، عندما أعيد انتخاب جورج بوش الابن لعهداً ثانية على حساب جون كيري (وزير الخارجية الحالي)، دار الحديث عن الناخب الأمريكي وحكومته وأصبح الشغل الشاغل، بسبب ارتفاع نسبة العداء لسياسة أمريكا الخارجية، وتراجع نسبة شعبية الرئيس بوش داخلياً ودولياً، إضافة لانحياز أمريكا الدائم والمكشوف لصالح الدولة الإسرائيلية، ضد العرب وقضيتهم الجوهرية (المسألة الفلسطينية)، ولهذه الأسباب اقترح سعيد بدائل واقعية تؤدي لحلول مرضية، منها دراسة نقدية واقعية للجوانب المعقدة والمتنوعة، لاكتشاف ومعرفة

حقيقة كيان أمريكا العملاق الذي كان لقمة صائغة بين أيادي اللوبي الصهيوني الموالي لإسرائيل. ويرجع سعيد غموض صورة أمريكا لمساهمة العرب أنفسهم بتقصيرهم كبير في متابعة الشأن الأمريكي الداخلي بالدقة المطلوبة التي تسمح لهم بالتعامل الحضاري معها دون رضوخ سياسي واقتصادي وبدون تنازل عن المصالح الاستراتيجية وتجنباً للمواجهة العسكرية لعدم تكافئ الأطراف.

لا يعتبر سعيد من النقاد بالمعنى المتعارف عليه، لأن عنايته لم تتجه لنص أو كتاب بالتخصيص، فقد عني بالنقد بما يمكن تسميته بنقد النقد أو قراءة القراءات، الذي يدخل في باب الفكر والثقافة، وليس النقد أو الأدب. وارتكز اهتمامه على مسميات غربية وعالمية، لهذا حمل سعيد لقب المفكر الكوني، وهو صفة تقديرية شخصية أكثر منه لقب علمي، تصدره مؤسسة علمية، كلقب الدكتوراه أو الفيلسوف، ويبقى تعريف الفكر مقترنا بأشياء اصطلاحية مزمنة. وعليه فقد كان إدوارد سعيد مؤرخاً عني بتاريخ الفكر، والتأريخ له، بلغة أدبية مميزة، وهذا ما نكتشفه عنه في كتابه الاستشراق، كمعالجة نقدية للأفكار والطروحات الممثلة للفكر الكولونيالي أو المرجعيات الغربية وقراءاتها الميدانية.

هذا ما يقتضي في نظر سعيد التأسيس لنظرية ثقافية لها أساساً منهجياً، ومراجعة ذاتية لثقافتنا الراهنة، وهذا ما يفرض علينا سؤالاً متشككاً في نظريات النقد والحداثة، ويضعنا في (الما بين) حيث ينكسر الحد الفاصل، ولا يعود هناك حداً، كما يشير مارتن هايدغر محيلاً للدلالة الإغريقية لكلمة حد، وهو الذي لا يعني نهاية شيء ما، بل يشير إلى بداية شيء آخر جديد ومختلف، وهذا المعنى هو الذي يصف الحالة الراهنة للوضع الثقافي، حيث أن الحد فيما بين الحداثة وما بعد الحداثة، أو فيما بين البنيوية وما بعد البنيوية، ليس

هناك حدا فاصلا، بل هناك حد جديد نبني عليه بداية أخرى جديدة، لها امتداداتها وأبعادها الجديدين.

وهذه، هي فعلا صورة الحال الجديدة، فيما بين النقد النصوسي الألسني عند البنيويين، وبداية عهد جديد هو ظهور النقد الثقافي، لكن لا ينبغي نسيان حدود التقاطع حينا، والتداخل حينا آخر، بين هذه المشاريع الفكرية وغيرها. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى إنجازات تؤسس للنظرة النقدية الثقافية، أو ما اصطلح على تسميته آليات النقد الثقافي، منها خاصة الدراسات الثقافية وما يحدث فيها من تكسير لمركزية النص، ولم يعد يهتم بالأثر الاجتماعي الذي أنتج ذلك النص. بل أصبح الاهتمام به من حيث ما يتحقق في النص، وما يتكشف عنه من أنظمة ثقافية، فالنص حسب هذه الدراسات أداة، ومادة، لنكتشف بها أنظمة سردية معينة، وإشكاليات إيديولوجية، وكل ما يمكن تجريده من النص. ولكن ليست غاية الدراسات الثقافية هي النص، بل غايتها المبدئية هي الأنظمة الذاتية في فعلها الاجتماعي وفي تموضع النصوص فيها.

وتركز الدراسات الثقافية على أن أهمية الثقافة، تأتي من كونه تُعين على تشكيل وتنميط التاريخ. وتقف على حدوث عمليات إنتاج الثقافة الفعلي وتوزيعها واستهلاكها، إنها تقرر مصير أسئلة الدلالة والامتناع والتأثيرات الإيديولوجية، الأمر الذي يستحضر نظرية الهيمنة التي طرحها غرامشي (حينما تصير الثقافة وسيلة للهيمنة)، وتؤكد فيها، على أن السيطرة لا تتم بسبب المسيطر فحسب، ولكنها أيضا تتمكن منا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل ونسلم بمواجهتها.

إن المشكلة المعالجة في هذا العمل تتمثل في: ما مدى مساهمة إدوارد سعيد في وضع أسس النقد الثقافي، لنقد امبريالية الاستعمار؟، وكيف مهّد ذلك للتحضير لمرحلة جديدة ونقد جديد؟ (وهو ما يعرف عنده بـ: نقد ما بعد الاستعمار أو نقد ما بعد الكولونيالية)

ومن هذا المنطلق فإنني بهذا العمل المتواضع أحاول تبيان مساهمة سعيد في إرساء أسس النقد الثقافي، وكيفية تحوله إلى نظرية نقد جديدة، تعرف عنده الدراسات النقدية لما بعد الكولونيالية، ولتحقيق هذا المبتغى، كان لزاماً علي الوقوف على تصورات طرحها على ضفاف الثقافتين الغربية والعربية، ثمّة وضع هذا المفكر في المكانة اللائقة به كناقد ومفكر من بين اللذين كان لهم فضل السبق في تأسيس النقد الثقافي، لأن هناك تيار فكري معاصر يميل إلى غير ذلك، وهذا هضم لحق هذا الرجل، خاصة ما قام به في كتابه الثقافة والامبريالية، وهذا من بين الأسباب الجوهرية التي دفعتني لاختيار هذا المشروع، الذي سيمكننا من تصنيف فكر إدوارد سعيد، في إطار النظرية النقدية المعاصرة بشكل عام، وما تحمله من دلالات ومعان فكرية، ومن أغراض هذا العمل إحداث خلخلة وتفكيك الأنساق الثقافية التي تأسست على بني فكرية، كانت مرجعيتها مستمدة من النظرية المركزية الأوروبية، والنظرة الدونية للآخر المختلف في مشاريعه الثقافية، وفي انتماءاته الحضارية.

وقد حاولت الالتزام في هذا العمل المتواضع من الناحية المنهجية بأداتين، الأولى تحليلية والثانية نقدية، تمثلت الأداة التحليلية في تتبع تطور فكر سعيد في محطاته المختلفة، مع ضرورة تحديد لمنهجية أهم المرجعيات الفلسفية، التي أثرت بشكل أو بآخر في بلورة فكره سعيد النقدي، ورؤيته الفلسفية المنسجمة والمتماشية مع تكوينه، ومبادئه الإنسانية

والثقافية. في حين كانت الأداة النقدية، منصبة على نقد بعض الأطاريح التي عرفتھا الثقافة الغربية المعاصرة، وكانت نابعة من الخصوصيات والقيم التي أسست لها، وينبغي التنبيه في هذه العجالة إلى أن الفصل بين ما هو تحليلي ونقدي في هذه الدراسة، هو فصل منهجي ليس إلا، بحيث أن حضور التحليل والنقد، يكون في واقع الحال معبرا عن حالة فكرية واحدة، هي مجال البحث والدراسة، إذ يبرز لنا تداخل في المناحي المنهجية.

ولا يفوتني في النهاية الإشارة إلى بعض الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث، منها ما يتعلق بجمع المادة المتخصصة، الداخلة في صميم الموضوع، وهي صعوبة أردّها إلى طبيعة الموضوع ذاته، لأن التساؤل حول مادة المعالجة وطبيعتها ولغتها... هنا قد يطول، الأمر الذي يدل على أهمية الموضوع، وتشعبه، وتعقيد قضاياها، التي تمس فضاءات متنوعة من حياتنا الراهنة. ضف إلى ذلك، اللغة التي كتبت بها تلك المادة، فهي اللغات الانجليزية والفرنسية، وأنا أقر كل الإقرار هنا بمحدودية قدراتي على فعل الترجمة التي تتطلب من فاعلها قليات خاصة، ومهارات محددة، مما حفزني على الرجوع إلى حلول مختلفة، منها الاستئناس بأهل الاختصاص، لعلني أصل إلى المقاصد الفكرية والثقافية لإدوارد سعيد، الذي ألف جل كتبه باللغة الانجليزية، وقد اعترف له العارفين بخبايا هذه اللغة ومكوناتها، بأنه فعلا من بين الكبار الذين يتحكمون في قواعدها، ويتقنها أكثر من أهلها، مع العلم بأنه اشتهر باتقانه للغات أخرى عدة، كما تُرجمت كتاباته لأكثر من سبعة لغات عالمية، لكن البعض منها (الترجمات)، تسببت في عدم فهم أفكاره، مثلما حدث مع الدكتور كمال أبو ديب، عندما قام بترجمة كتابه الاستشراق سنة 1981، لدار النشر والدراسات العربية في بيروت، مما أرغم سعيد على كتابة تذييل في عام 1995، أضافه لكتابه في طبعة جديدة، وكان ذلك بغرض تصحيح سوء فهم كتابه، نتيجة لسوء الترجمة.

إن هذه الصعاب التي وقفت كحجر عثرة أمامي لإتمام عملي، وغيرها من العراقيل التي لم تذكر في هذه العجالة، لم تُحد من عزيمتي وإصراري على مواصلة المشوار لإيجاد الحلول الملائمة، ولم تقلل من انشغالاتي الفكرية بالموضوع، حتى ولو كانت على حساب مسؤولياتي المهنية والعائلية.

وأما الدكتور المشرف، عمر بوساحة فأنا مدين له لتوجيهاته وإرشاداته، التي كان يسديها لي عند الضرورة في الظروف والأوقات المناسبة، وهي بدورها كانت بالنسبة لي سندا قويا وعاملا مشجعا على إتمام عملي، فله مني آيات شكري النابعة من احتراماتي وتقديراتي.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

في الفيلم التسجيلي الذي أخرجه مايك ديب ¹ Mike Dibb قبل رحيل إدوارد سعيد بفترة قصيرة بعنوان "المقابلة الأخيرة" يذكر إدوارد سعيد كاتبين أثرا عليه : فيكو وكونراد، وهو يذكر تحديدا فيكو قبل كونراد. وتكاد أعمال إدوارد سعيد كلها - من مقالات وكتب ومقابلات - تشير ضمنا أو مباشرة إلى فيكو، ليصبح هذا المفكر الإيطالي لازمة تتواتر، يستشهد به إدوارد سعيد أحيانا، ويكتب عنه أحيانا أخرى، ويهتدي بمقولاته منذ أول كتاباته حتى آخرها. وعلى الرغم من أن هناك العديد من المفكرين الذين دخلوا في نسيج إدوارد سعيد الفكري وتركوا بصماتهم عليه، مثل غرامشي وفانون و ويليامز ولوكاش وفوكو وآدورنو وغيرهم، فإن حضور كل واحد منهم في مسيرة إدوارد سعيد، اختلف حسب مراحل إنتاجه الفكري. فنجد فرانتز فانون، على سبيل المثال، حاضرا بقوة في أعمال إدوارد سعيد المتأخرة، مثل الثقافة والإمبريالية 1993، بينما نجد فوكو متراجع الأثر في أعمال إدوارد سعيد المتأخرة، وحاضرا بقوة قبل ذلك في الإستشراق 1978.

ولم يرافق أي مفكر إسهامات إدوارد سعيد النقدية والسياسية والفلسفية مثلما رافقها فيكو، الذي اعتبره إدوارد سعيد بطلا من أبطاله لمواقفه الفكرية الجريئة. وفي هذا يقول فخته: "نوع الفلسفة التي يختارها شخص ما، تتوقف على نوع الشخص الذي يقوم بالاختيار".

وفي نفس السياق يرى سعيد بأن "النموذج الأصلي العظيم لهذا النوع من الموقف الفكري هو الفيلسوف الإيطالي في القرن الثامن عشر جيامباتيستا فيكو، الذي اعتبره منذ عهد بعيد أحد أبطاله. واكتشافه العظيم المستمد جزئيا من وحشته كأستاذ جامعي مغمور في نابولي، لا يكاد يتمكن من تأمين لقمة عيشه، وعلى خصام مع الكنيسة ومحيطه

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

المباشر - يكمن في أن الطريقة الصحيحة لفهم الواقع الاجتماعي تتمثل في فهمه كعملية تولدت من موقعها الأصلي... ورؤية الأمور على أنها تتطور من بدايات محددة، كما ينشأ الإنسان البالغ من طفل هاذ " ² .

إن هذا المقال لا يسعى إلى رصد حضور فيكو في كتابات إدوارد سعيد سواء كان ذلك حضورا نصيا، عبر استشهادات وإشارات، أم كان حضورا مضمرا، حيث يهتدي إدوارد سعيد بأفكار فيكو في مجملها وفيما ترتب عليها. ففي كلمات إدوارد سعيد آنفة الذكر نستبطن انجذابه لغربة فيكو ودورها في اكتشاف الجديد غير المطروق، حيث نلمس بعدا من أبعاد التجاوب بين تجربة الإيطالي الغريب في وطنه، وإدوارد سعيد الفلسطيني ووحشته في ثقافة مغايرة، وكيف أن هذه الغربة تحديدا دفعت إدوارد سعيد إلى كشوفات في ميدان الثقافة، عامة، وفي حقل النقد الأدبي، على التخصيص، كما دفعت هذه الغربة - من قبل - بطله فيكو إلى البحث عن علم جديد. وكما كان فيكو على خصام مع السائد (الكنيسة ومحيطه المباشر)، كذلك عانى إدوارد سعيد في غربته الغربية من عداء اليمين الأمريكي والصهيونية مما وصل إلى حد التشهير به وتهديده ³ .

وقد أكد فيكو على أن الطريق الأمثل لفهم الواقع الاجتماعي يكمن في البحث عن بدايات تشكيل الحاضر. وفي هذه المقاربة كشف عن الخفي، أو عن الواقع المغيب، بالرجوع تاريخيا إلى نقطة الانطلاق، بما تنطوي عليه من حقائق مطمورة، أي نقب فيما يمكن أن نطلق عليه "حفريات المعرفة"، وكان ذلك في القرن الثامن عشر، قبل أن يكتب فوكو كتابه بهذا العنوان. كما يتراسل إدوار سعيد مع فيكو في توظيفه للتاريخ ورجوعه إلى

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

مرحلة التكوين في فهم النصوص الأدبية والثقافية. من خلال هذا، يمكننا القول بأن "تأثير مفكر فيكو على آخر كإدوارد سعيد هو نوع الاختيار يصب في التعاطف والانتساب الإرادي المبني على المواءمة، أكثر مما هو انبهار وكف الأيدي أمام منظر يتم تقليده ومحاكاته والاستكانة إلى مقولاته والبحث تحت رايته" ⁴.

ويذكر إدوارد سعيد في هذه المقابلة الأخيرة، أنه قرأ فيكو وهو في سن العشرين 1955 أو 1956، وهو ما يعني بأنه تعرف على أفكار فيكو وهو في جامعة برنستون التي تخرج منها عام 1957. وفي كتابه خارج المكان أي مذكراته يقول إنه "قرأ العلم الجديد وهو في هارفارد عند ما كان يقوم بتحضير أطروحة الدكتوراه، وصارت الأحداث الهامة بالنسبة إليه هي قراءة كتاب فيكو العلم الجديد وكتاب التاريخ والوعي الطبقي للوكاش، ومؤلفات سارتر وهايدغر وميرلوبونتي وجميعهم أثروا في أطروحتي عن كونراد" ⁵.

واهتم إدوارد سعيد بالبعد التاريخي الواضح في الكتابين اللذين عكف عليهما في شبابه وذكرهما تحديدا في سيرته الذاتية: "العلم الجديد الذي يقدم فلسفة التاريخ وتحولاته، والتاريخ والوعي الطبقي، الذي يقدم رؤية ماركسية للتاريخ"، وتجب الإشارة هنا أن إدوارد سعيد قد "تخصص في جامعة برنستون في العلوم الإنسانية، وليس بالأدب فقط، حيث كان ذلك ضمن برنامج للمتفوقين، مما أتاح له الإطلاع على مختلف العلوم الإنسانية، بما في ذلك الفلسفة والتاريخ والموسيقى وغيرها، ومما هياها لقراءة المفكر الموسوعي فيكو الذي

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

تناول العلوم الإنسانية كافة محاولا أن يرى ترابطها في علم جديد، وإن كان تخصصه الأكاديمي في الأدب والبلاغة" ⁶.

إن تعلق إدوارد سعيد بفيكو ولوكاتش يعكس اهتمامه بالتاريخ وتحولاته، وبالوعي ودوره في التغيير. وقد لعب لوكاش دورا هاما في تنظير إدوارد سعيد لما أطلق عليه (النظرية المرتحلة)، إن حضور لوكاش في الأبعاد الفكرية لإدوارد سعيد لا يضاهي حضور فيكو، ويعود ذلك نسبيا ربما إلى كون لوكاش موسوما بعقيدة سياسية، وبالتالي فهو يصنف كماركسي، "بينما فيكو يستعصى على التصنيف، ما جعل البعض يرى في أعماله بأنه مؤمنا كاثوليكيا" ⁷.

ويرى إدوارد سعيد بأن في كتابات فيكو "نوع من التحدي للكنيسة وخروجا على تعاليمها" ⁸. في حين يستشف البعض من فيكو النزعة المثالية، ويستشف آخرون مادية جريئة، وبين استباقه لهيجل أو لماركس اختلف القراء. أعجب الرومانسيون والماركسيون، الأدباء المبدعون والباحثون الأكاديميون ⁹، فهو رجل كل المواسم، كما يقال، على الرغم من أنه ظل نسيا منسيا في حياته، وحتى بعد مماته بما يقرب من قرن من الزمن.

وبهذا يمكننا أن نعتبر فيكو بمثابة ضالة سعيد، فهو يتراسل معه فكريا، كما أنه يستحيل إدراج فيكو في خانة محددة، مما أضاف إلى فيكو، في نظر إدوارد سعيد، هالة الاستقلال الفكري الذي لا ينتمي إلى مؤسسة أو عقيدة. كان سعيد لا يطبق القولية ولا التصنيفات، ولا يطبق التحزب والانضواء تحت مدرسة مهما كانت. ففي الفصل الأول من

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

كتابه العالم والنص والناقد The world, the text, and the critic هاجم العلاقات "المبنية على الإلتباع والشللية الأكاديمية والمدارس النظرية، حيث يصبح المنخراطون فيها مريدن لصاحب المدرسة الفكرية - ماركسية أو فرويدية- بحيث يتراجع التساؤل والتشكيك، وبالتالي الابتكار والتجديد، لتحل محلها التبعية الفكرية والتراتبية الهرمية".¹⁰ وبالرغم من أن إدوارد سعيد يعتبر من بين المؤسسين لتيار الدراسات ما بعد الكولونيالية في النقد الأدبي، فإنه كان يرفض أن يسمى ناقدا من نقاد ما بعد الكولونيالية، كما جاء على لسانه في مناقشة رسالة جامعية في طنطا 1998/11/18، وهو الذي كان حريصا على وضع "مسافة بينه وبين المدارس النظرية الرائجة خوفا من التمنيظ - رغم أنه كان يستلهم البعض من أفكاره منها، ورغم انجذابه لبعض المفكرين الماركسيين أمثال فانون وغرامشي ولوكاتش وغيرهم - فإنه كان يفضل عدم الإنتماء لأي مدرسة ماركسية مهما كانت، لا لسبب أنها ماركسية، بل لأنها مدرسة، كان سعيد مؤمنا بالتضامن، لا التحزب، ويرى أن التضامن لا يعفي من النقد"¹¹.

ارتبطت مؤلفات إدوارد سعيد بمفكرين ذائعي الصيت، واستخدم فيها مناهجهم مع التعديل أحيانا، والتطوير أحيانا أخرى، دون أن ينساق إلى ارتباط المريد بشيخه. ما يعرف، على سبيل الذكر، أن كتاب سعيد الأول المستمد من أطروحة الدكتوراه حول "جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية" الذي نشر عام 1966، بأنه دراسة ظاهرية موظفة لمنهج ميرلوبونتي وغيره من الفينومولوجيين الذي يركز على أهمية وعي الأديب والدخول إلى عالمه الخاص لفهم أعماله، كما عرف كتابه الثاني، بدايات: القصد والمنهج 1975 بأنه دراسة فيكوية وكتابه الاستشراق 1978، بأنه دراسة فوكوية، وهكذا، إلا أننا نجد فيكو

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

يكاد يكون مستحضرا في كل أعماله بشكل من الأشكال. في بعض أعمال سعيد لا نجد أثرا لفيكو فيها إلا لماما، لكن هذا لا يعني أنه منعدم الحضور، بل يعني أن قيمه متضمنة في العمل، والتي يمكن إيجازها بأن التاريخ مفتوح على البدائل (أو هكذا قرأه إدوارد سعيد). فكتاباتة عن القضية الفلسطينية وعن حقوق المقهورين تنطلق كلها من إمكانية التغيير بإرادة إنسانية (التي استقرأها إدوارد سعيد في العلم الجديد لفيكو وفي سيرة فيكو الذاتية). وعلى سبيل الذكر، لا الحصر نجد فيكو في خاتمة كتاب الثقافة والإمبريالية ضمنا، عندما يذكر سعيد "أن البشر يصنعون تاريخهم ويصنعون ثقافتهم وهوياتهم"¹². وهذا ما قال به فيكو.

ويذكرها فيكو استثناءات عند تناوله للتاريخ، تتمثل في تاريخ ذي طابع إلهي العهدين القديم والجديد، فيرى سعيد أن ذلك ليس إلا من باب والمواربة، فقد عاش فيكو في سياق ديني مترمّز لا يسمح بالمجاهرة، وحتى في كتاب إدوارد سعيد الأول، نجد فيكو كما نجده في مقدمة كتابه تأملات حول المنفى، حيث يذكر هذين المفكرين جنبا إلى جنب: "وفي حالي الخاصة وجدت نفسي منجذبا - ومنذ وقت مبكر - إلى كتاب مثل كونراد وميرلوبونتي وسيوران وفيكو، وهم أفضل من يستخدم التقنيات اللغوية وإن كان استخدامهم يبدو غريبا لكونه تميز باختلافه عن التيارات السائدة في زمنهم"¹³.

وفي عرض سعيد للكتاب يجمع مقالات ميرلوبونتي، ويرى أنه "يحقق ويوضح ما جاء عند فيكو في العلم الجديد مبينا أن العلم والثقافة من صنع الإنسان"¹⁴، وهو يرى أن انتماء ميرلوبونتي يدخل في سياق "النزعة الإنسانية (الهيومانية أو الانسانية (Humanism) الراديكالية، هذه النزعة التي ألح عليها فيكو؛ بل إن شغف سعيد المعروف

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

بالناقد إريك أورباخ ينطلق في جانب منه من ترأسله مع فيكو: النزعة الإنسانية أو الحركة الإنسانية والتي يطلق عليها في المغرب العربي الإنسانية¹⁵. وتعرف هذه النزعة "في المشرق العربي بالإنسانية، وفي مصر الهيومانية مصطلح فضفاض يغطي مفاهيم متعددة واسعة، ويشمل الحركة الفكرية التي قامت في غضون عصر النهضة الأوروبية، والتي آمن دعاؤها بإمكانيات البشر الواعدة مبتعدين عن تفاصيل المسائل الفقهية، وتطورات في القرون اللاحقة لتصبح فلسفة إنسانية يعتد بها"¹⁶

ما يجدر ذكره هنا، هو أن كتابة سعيد تبدو في معظم الأحيان كنسيج محبوك، تتمثل في خيوطه عددا لا يحصى من المفكرين والأدباء الذين يتقاطعون ويتجاورون، يستشهد بهم أو يشير إليهم، لكن عندما نتمعن فيهم نجد قرابة ذهنية بينهم وبين فيكو، فهذا هو سعيد يؤكد على أن ميرلوبونتي، الذي مشى سعيد على خطاه في عمله الأول عن كونراد، استمرار لنهج فيكو، كما أن شغف سعيد بأورباخ امتداد لولعه بفيكو . بل إن فيكو احتل مكانة خاصة في إنتاج سعيد الأكاديمي منذ بداياته، عندما كتب في 1967 مقالة بعنوان: "فيكو معلم ذاته وصاحب نزعة إنسانية"، كما كان كتابه الذي صدر بعد رحيله: الإنسانية والنقد الديمقراطي Humanism and Democratic criticism 2004 مليئا بمفاهيم ومواقف فيكوية، لقد كتب سعيد أعمالا تستحضر فيكو كما في بدايات: القصد والمنهج 1975، وكتاب العالم والنص والنقد 1983.

ويشرح سعيد جاذبيته لفيكو في مقابلة قائلا: "ألتقط كتابا، لكاتب مقالات. ما... يحركني ويشيرني - إذا كنت في مزاج مؤات للتلقي - ليست مسألة المعلومات فحسب،

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

بل نوع من الروح تحس بها من خلال الكلمات: شعور بالاكشاف، شعور بالتجوال عبر مواد تبهرك فجأة فتبدو لك إبداعية أو هامة وذات مغزى. أذكر عندما كنت في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين تقريبا، قرأت العلم الجديد لجامباتيستا فيكو للمرة الأولى، كان عملا غريبا للغاية، فإذا بأسلوب الرجل القديم المناضل اليائس يؤثر... في فكري. رغم أن الكتاب غريب الأطوار ومكتوب من قبل فيلسوف وخطيب نابوليتاني غامض من القرن الثامن عشر، فإن هناك شيئا فريدا من نوعه فعلا في نظرتة للتاريخ والعالم أبقاها معي حتى اليوم. ما يتحدث عنه بشكل دائم هو كيف يصنع تاريخه بنفسه، ويستطيع أن يفهمه فقط لأنه هو الذي صنعه. تلك هي فكرتي حول العلمانية: أنك لا تعتمد على أعجوبة من الخارج، بل على قوة خارجية مثل القوة الإلهية، بل يصنع الإنسان تاريخه، يقول فيكو مرة تلو الأخرى" ¹⁷.

كما أنه في مقابلة أخرى 1987 يرد على إمري سالوسيتزكي الذي سأل سعيد عن سبب انبهاره بفيكو قائلا: "يرجع أثر العلم الجديد العميق علي، عندما قرأته وأنا طالب دراسات عليا في الدرجة الأولى، وعلى الأغلب لمشهد اللوحة الذي يصوره فيكو: بشر متوحشون وعمالقة في مرحلة ما بعد الطوفان مباشرة، وناس يهيمنون على وجه الأرض، وشيئا فشيئا يدربون أنفسهم على الانضباط... وهذا النوع من تشكيل الذات استوقفني بوصفه يدخل في صميم كل رؤية تاريخية ذات أثر وأهمية (نجدها بلا شك عند ماركس، وابن خلدون): إنها الطريقة التي يشكل فيها الجسد ذاته بوصفه عقلا وجسما، ومن ثمة يشكل المجتمع. إنها رؤية مؤثرة وجذابة. ويوظف فيكو نصوصا ذات طابع إنشائي وفلسفي

المبحث 1: تأثير فيكو و نيرامشي في فكر إدوارد سعيد

ويستخدمها استخداما أدبيا كي يبين هذه الرؤية الاستثنائية للتطور والتعلم. وقد استوقفني هذا لما فيه من شعرية وقوة

أخاذة... وثانيا، يرجع أثر العلم الجديد عليّ لكون فيكو يبتعد دائما عن المفاهيم الدينية كالخلق وغيرها. كان البعد المعارض في عمله - فهو مناهض للديكارتية والعقلانية والكتلة - فعالا بشكل يصعب تصديقه. لقد قرأته مرات منذ ذلك الحين ووجدته دائما مفيدا وممتعا" ¹⁸.

فمن هو هذا الإيطالي الذي استحوذ على اهتمام إدوارد سعيد وعشرات غيره من المفكرين بكتابه العلم الجديد؟***

يعتبر كتاب العلم الجديد لفيكو "حدثا تاريخيا، نشر لأول مرة عام 1725، ثم نقحه مؤلفه مرات عديدة، وصدر مكتملا عام 1744، أي قبيل موت فيكو، ويحتوي على مقولات لم يتوصل إليها المفكرون إلا بعده بأجيال، الذي قضى فيكو حياته في نابولي، منعزلا عن التيارات الأوروبية الفكرية، وريادته في تاريخ الفكر الأوروبي نابعة من تأمله الفردي وبحته الشخص، ولا مثيل لهما، ومنهجه الذي يجمع بين الرصد الإمبريقي والتاريخ والفلسفة ومحاولته استقراء قواعد العمران البشري، وقراءة ذهنية مع مقدمة ابن خلدون، وإن كان من المستبعد معرفته بالمفكر العربي" ¹⁹، وألف فيكو إلى جانب العلم الجديد ، "دراسات أكاديمية ومرافعات قانونية، إضافة إلى سيرته الذاتية، فقد كان أستاذا للبلاغة في جامعة نابولي، لكن الجامعة خذلتة وكذلك أصحابه، مما جعله يسقط من حسابه الترقية

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

الأكاديمية وعكف على مشروعه الطموح، وهو الكشف عن قواعد العلم الجديد علم الإنسان أو الإنسانية²⁰.

وفصل فيكو بين المعرفتين الممكنة وغير الممكنة، الأولى ممكنة لصانعها، وبالتالي ففي استطاعة الإنسان معرفة ذاته، أما الطبيعة التي هي من صنع الله، فلا يمكن للإنسان إدراكها. والمعرفة الإنسانية عند فيكو "ترتبط بالتنقيب في بداياتها، ففي سعينا لفهم الإنسان أو الأدب أو الطقوس، علينا أن نسترجع بداياتها لتتوصل إلى ماهيتها، ولهذا لعب التاريخ الإنساني دورا هاما في علمه. وبما أن فيكو كان يعيش في محيط مخنوق دينيا وفكريا، فقد عكف على تحليل التاريخ الإنساني، لا التاريخ الذي تحكمه العناية الإلهية، الذي استثناه باعتبار أن ما لا يصنعه الإنسان لا يدركه"²¹.

وكان سعيد مصرا على أن فيكو ليس إلا "من قبيل التنازل الذي لا بد منه أمام السلطة الدينية والفكرية التي رأت الإرادة الإلهية محركا لتاريخ البشر"²²، إن رؤية فيكو إنسانية وعلمانية، والطريف في منهجه هو استعائته "بفقه اللغة والرجوع إلى أصل الكلمات، كي يتعرف على تاريخ الأوائل"²³. فالمفتاح عنده لما كان قبل الكتابة، بل قبل اللغة المنطوقة، متاح في تضاريس اللغة، وإن كان مستترا. استخدم فيكو خياله في استخلاص أصول الكلمات والربط بين المتشابه منها ليصل إلى البدايات، فتوصل إلى أن الإنسان البدائي، ساكن الكهوف، عندما أربه الرعد تصور أن ذلك إشارة من قوة خارقة، لأنه هو نفسه كان يستخدم الإشارات للتوصيل قبل نشوء اللغة المحكية. ومن خوفه تتم

المبحث 1: تأثير فيكو و نرامشي في فكر إدوارد سعيد

تقليدا لصوت الرعد، فارتبطت هذه المقاطع بمراجعها العينية ثم توسعت دلالتها. فعلى سبيل المثال، ربط فيكو بين كلمة الأسطورة Mythos وكلمة الصمت Mutos لتشابههما صوتيا، و توصل إلى أن اللغة الإشارية الصامتة سبقت الأساطير ومع أن هناك تعسفا تأويليا في تفسير فيكو، فإنه رجع أيضا إلى التاريخ القديم والملاحم الشفوية والهيروغليفية مستعينا بها للإقناع، فهو يستشهد بالمؤلف الإغريقي سترابو (حوالي 23 ق.م - 19 ق.م) الذي ذكر أن لغة الإشارات الصامتة سبقت اللغة المنطوقة. كما استعان فيكو في تنقيبه عن مرحلة الطفولة البشرية بملاحظة تصرف الأطفال وطريقتهم في التعبير والتواصل مع العالم الخارجي

24

ومن أهم ما توصل إليه فيكو هو علاقة الحقب التاريخية والأشكال الأدبية والقيم الجمالية، بعد أن كانت "النظرة إلى الجمال تفترض ثباته وعدم تغييره بتغير الزمن" ²⁵. يمكن تلخيص كيفية قراءة سعيد لفيكو وتأثره به ²⁶ فيما يلي:

- 1- " هو إمكانية إدراك الإنسان لذاته بوصفه إنسانا، أي من خلال البحث المعرفي أو العلمي. فالإنسان يمكنه أن يفهم عالمه من خلال دراسة تاريخية (بداياته وتطوره) الذي جعله يصل إلى ما هو عليه، وبتعبير آخر، يمكن معرفة الذات البشرية. فقد وضع فيكو أسس استقلالية العلوم الإنسانية و عدم اعتمادها على ما هو فوق إنساني (ما هو إلهي).
- 2- إن الذي شد إدوارد سعيد إلى فيكو هو إمكانية التغيير. فكما أن البشر صنعوا تاريخهم فبإمكانهم إبداع مجتمع بديل لمجتمعهم الحالي، أي أن احتمالات التغيير إلى الأحسن موجودة، فليست هناك طبيعة إنسانية مصمتة لا تستجيب إلى التغيير.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

3- الذي لا بد و أنه ذا أثر عميق على إدوارد سعيد برهافته الأدبية فهو استخدام فيكو للأدب والبلاغة والخيال الإبداعي والتأويل، أسلحة في التحليل والوصول إلى ما خفي وتواري.

4- فمرجعية فيكو (على الرغم من كثرة استشاداته بالتاريخ الروماني) تبقى مرجعية أممية، فهو يتجاوز أوروبا والغرب ليستفيد من تجارب أمم وشعوب كالمصريين والعراقيين القدماء، وعندما يتحدث عن الإنسان فبوصفه كائناً يتجاوز القوميات الضيقة. يكشف فيكو عن البدائية، أو البربرية الكامنة في الإنسان، بوصفها مرحلة إنسانية لا سمة الآخر المتخلف، بل طفولة بشرية لها ما لها وعليها ما عليه²⁷. إن ما يتقاطع مع ما ذكره كونراد في: روايته قلب الظلام (على لسان مارلو، البطل في الرواية)، حيث يذكر عند استرجاعه لرحلته في قلب أفريقيا السوداء أن بريطانيا نفسها في زمن آخر كانت تعيش في قلب الظلام²⁸. إن التأمل في عنوان مقالة سعيد الأولى عن فيكو بعنوان: فيكو العصامي والإنساني²⁹ Vico: Autodidact and humanist تقع على ظاهرتين عزيزتين على سعيد: "التعلم ذاتياً والنزعة الإنسانية، أي أن فيكو بسعيه إلى التعلم الذاتي، فكر بنفسه، لا تحت إشراف مدرس، وعانى من أجل الوصول إلى قناعاته، فلم يكن واحداً من القطيع الأكاديمي"³⁰. ونجد في المقالة أيضاً، شيئاً أكثر مما يتجاوز العصامية: "لقد تعلم فيكو من حياته هو، ومن سيروء الحياة كما عاينها في عائلته ومحيطه وثقافته"³¹.

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

وأشار كروتشه الذي كتب الكثير عن فيكو، إلى أن سيرته الذاتية هو تطبيق لمبادئ كتابه العلم الجديد، وأما سعيد فـ "يقلب هذه المعادلة، طارحا فكرة أن العلم الجديد تطبيق لخلاصة سيرة حياة فيكو"، وإن كان هذا يدل على العلاقة الحميمة التي يراها سعيد بين حياة الكاتب وإنتاجه، مؤكدا ما ذكره البعض، ومنهم الناقد الصومالي عبد الرحمن حسين الذي تخصص في أعمال إدوارد سعيد ونشر كتابا عنه - من أن المحرك الرئيسي في تكوين إدوارد سعيد وتشكيل نهجه هو فلسطينيته وعامل النفي في حياته³²، وكذلك إننا نستشف، حتى عند القراءة السريعة لكتاب إدوارد سعيد الأول عن كونراد العلاقة الحميمة بين حياة هذا الأديب البحار وأعماله.

ويبدأ مقالته معرفا فيها بفيكو واسترجاعا لما ذكره ماركيز فيلاروزا عن جنازة فيكو، حيث تعارك الأكاديميون حول من سيحمل نعشه إلى المقبرة، وهكذا بقيت جثته في انتظار نقلها إلى مثواها الأخير. وقد وظّف سعيد هذا الموقف باعتباره حدثا دالا على مصير فيكو الفكري، فقد انشغل الفلاسفة والمفكرون والمؤرخون باقتباس ما يلائمهم من أفكاره وبقيت تركته كجثة مهمة. وينتهي سعيد إلى القول : بـ "إن الدروس الرئيسية في أعماله...مازالت مهمة³³ ، ويرى سعيد أن "عبقريّة فيكو لا يضاهيها إلا عبقرية نيتشه"³⁴.

ويناقش سعيد أفكار فيكو وأتباعه، ليظهر أثره على كوكبة من المفكرين وصداه عند الأدباء - ومنهم بورخيس وكافكا وجيرالد مانلي هوبكنز - وليشد انتباهنا إلى حداثة فيكو، فهو الذي انتقد عقلانية ديكرت المطلقة، وقدم المنظور التاريخي الذي استمر حتى

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

الآن" ³⁵ . ومع أن سعيد ينتقد فيكو "لتشوش تناوله لموضوعه وتعسفه التأويلي، فإنه يبرر صعوبة فيكو وأسلوبه الغامض، الذي ينحو إلى التكرار، بأنه محاولة للتفسير بصياغات مختلفة لحقيقة اكتشافه الفذ" ³⁶ .

وانطلاقاً من بدايات سيرة فيكو - وهو الذي يصر على أهمية البدايات في إدراك أية مسألة - يرى سعيد أن تعليم الذات - الصفة التي التصقت بفيلكو - تدل على الإرادة، فالتعلم فعل إرادي بامتياز. وعبر هذا الفعل الإرادي يكتسب المرء الوعي، ومن ثمة المبدأ الذي يحتويه هذا الوعي، والذي يتم عبر الاستقراء والتجريد: "إن ما يحاول فيكو أن يصفه في العقل هو الإرادة والفكر، العقل راصدا ومرصودا من ذاته" ³⁷ . ويضيف سعيد أنها "رؤية إنسانية غير مرتبطة بالإلهي، وبهذا يقف فيكو في مقابل ديكارت، الذي منح العقل القدرة على الإستكناه، دون الحاجة إلى السياق والتاريخ. الإدراك، إذن، عند فيكو لا يقتضي التأمل العقلي المجرد كما عند ديكارت بقدر ما يتطلب الإبداع والخلق. ويتوصل فيكو - كما يقول إدوارد سعيد - إلى أن البشر مخلوقات خالقة لعقائدها" ³⁸ . ويذكر عبد الرحمن حسين، بأن هذا "النمط من التفكير يزيج الإلهي ويضعه جانبا، مؤكداً على الإنسان" ³⁹ .

إن ما وجده سعيد في فيكو هو هذه الثنائية المركبة، التي يتقاطع فيها الحدث (التاريخ) بالمبدأ (الفلسفة)، بحيث إن "الفكر لا ينبع من التأمل النظري بحد ذاته، وإنما من التجربة الحياتية الفردية أو الجماعية، التي من تأملها والنظر فيها يصل المرء على مبادئ

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

العلم الجديد، وبذلك تؤدي دراسة التاريخ الإنساني (ودراسة الفيلولوجيا - علم أصول الكلمات - كما يصورها فيكو، بوصفها دالة في تطورها على تاريخ الشعوب) إلى المستوى النظري أو الفلسفي " ⁴⁰.

وبهذا التماس بين المعيشي والحسي والنسي، من جهة، والتجريدي والفلسفي والأبدي، من جهة ثانية، يجد سعيد ما يبتغيه ويطمح له حيث " ننطلق من العيني والملموس لنصل إلى المجرد والنظري، من الوعي لنصل إلى العلم، ومن التجربة لنصل إلى المبدأ الكلي، فالمعيش عند إدوارد سعيد والسياق التاريخي هاتمان في التفسير، ومقولات فيكو تؤيد هذه النظرة. وباستحضار سعيد لفيكو، وإلقاء الضوء على مفاهيمه، يقوم سعيد باتخاذ سلفا فكريا " ⁴¹.

في مقالة لبورخيس Borges Jorge Luis: "أسلاف كافكا" - الأثرية عند إدوارد سعيد - حيث يخلق الكاتب أسلافه، وما يرمي إليه بورخيس هو "أن الخلق يخلق السلف المناسب، وليس كما نتخيل أن يولد الخلق " ⁴².

وينشر إدوارد سعيد مقالته الثانية عن فيكو: "فيكو وانضباط الجسد والنص عام 1976 " Vico and The Discipline Of bodies And Texts، ويبين فيها العلاقة المتينة بين الجسد والذهن. ويبدأ سعيد بسيرة فيكو الذاتية التي يستهلها بحادثة في طفولته، حيث سقط من سلم واصطدم رأسه بالأرض. وقد تنبأ الطبيب أنه سيموت، أو سيحيا بتخلف عقلي، مما جعله منظويا على ذاته، ومع أن سعيد لا يفصح عما يشده في هذا

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

الحدث، فإننا ندرك تدريجياً أنه "يؤكد على مرجعية الجسد بكل ما فيه من ارتباك وغيوب بوصفه المستقبل الأول للعالم ووسيلته للإدراك. وأن السيرة التي يستخلص صاحبها فيكو مسيرته الفكرية عبرها، إنما تعني ذلك الإقرار بالجسد والاعتراف بحضوره اللفظ" ⁴³.

في ذات الوقت يرى سعيد في العلم الجديد "طرحاً جماعياً لسيرة البشر وارتباط عقائدهم وأحاسيسهم بما هو جسدي، ففيكو يرجع إلى بدايات البشر عندما كانت انطباعاتهم الأولى عبر أجسادهم" ⁴⁴. ففي هذين العملين لفيكو العالم الجديد والسيرة الذاتية يرى سعيد "نية الكشف عن البعد الجسدي البهيمي من الإنسان، دون إغفال عقله" ⁴⁵، ومن هذا نستقرئ أن سعيد يسعى عبر فيكو إلى "استحضار المكبوت، وهو البعد الجسدي للإنسان، بدلاً من تقديمه سامياً أو متسامياً، فهذا الجانب الواقعي لا بد أن يؤخذ بنظر الاعتبار بالنسبة لفيكو وسعيد، لا أن يسقط ويغفل، عمداً أو سهواً" ⁴⁶.

ويذكرنا سعيد بأن "ما يلزم هذه البهيمية في الإنسان هي محاولة ضبطها، فعلى الإنسان ألا يتنكر لطبيعته، بل يروضها، وبذلك يكون ذاته، وهكذا في تاريخ البشرية - كما يرى فيكو - انتقلت اللغة من الحيز الفيزيقي إلى مجال الدلالة والتواصل. ففيكو يصر على الأساس المادي للعقل. فعوضاً عن إهماله للجسد، يسعى إلى انضباطه" ⁴⁷، ويضيف سعيد بأن "أسلوب فيكو في البحث عن المعنى الذي يكمن في الكلمة بالرجوع إلى أصولها (الذي يراه فيكو تعبيراً عن انفعال جسدي، رعشة خوف أو نشوة) يربط اللغة دائماً بالجسد وتمثله.

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

ويرى سعيد أن موضوع فيكو بامتياز "هو كيفية تأقلم الجسد، برعونته وسماحته، مع النسق الاجتماعي الذي يسعى لاحتوائه، فمع أن البشرية قد انتقلت إلى عصر المؤسسات اللاشخصية، فإن المنطلق هو دائما وأبدا جسد نافر وغير منضبط"⁴⁸، ويرى سعيد أن فيكو "يقوم بشيء مشابه مع النصوص، فكما رجع إلى فجر الإنسانية، يرجع إلى نقطة انطلاق النص، فهو يبحث عن نقطة تشكلها ونشأتها، يبحث في اللغة وفي العادات وفي الطقوس، محاولا أن يستوعبها عبر ذلك الحدث أو مجموعة الأحداث التي ولدتها. فمرور الزمن تنأى البدايات شيئا فشيئا، وما كان له دلالة النابضة بالحياة يصبح مقبولا، ويفقد حيويته، وحتى دلالة الأصلية"⁴⁹.

ويستنتج سعيد من قراءته لفيكو تأكيده - أي فيكو - على أن السياق الاجتماعي تشكيل إنساني يضبط البشر ويطمئنهم. وهنا يقف سعيد ليذكرنا بأنه يقدم لنا وجهين لفيكو، لا يتصالحان ولا يتلاحمان: الأول من هذين الوجهين "نبع من هاجس فيكو بالرجوع إلى الأصول ولحظات التكوين، أي إلى السياق المادي الفيزيقي، ومن ناحية أخرى، فهو يدعو إلى استخدام الإبداع النقدي والرؤية الفردية لانتزاع معنى جديد، ففيكو يقرأ النصوص بشغف الباحث المبدع، لا المدقق المبرمج"⁵⁰.

ولا يوفق سعيد بين هاتين الوجهين عند فيكو، بل يراهما كوجهين متلازمين. بعد ذلك ينتقل سعيد ليتحدث عن نوعين من المعرفة عند فيكو، "أحدهما إدراكي والآخر حدسي، الأول يرتبط عنده بالفلسفة والثاني بالشعر، الأول بالمعاصرة والثاني بالقدم. فالإدراك عملية عقلية، وأما الحدس فيرتبط بالإرادة والرغبة ويلتقيان ليشكلا الحكمة. فعند

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

فيكو يصبح الانطباع الحسي علامة، وهذه العلامة تفقد ارتباطها المباشر بالحدث (وهذا هو بعدها السلبي)، لكنها تبقى وتنشئ استمراريتها المنضبطة (وهذا بعدها الإيجابي) " ⁵¹.

ومن هذا ينطلق سعيد ليقول: "إن ما يستنتج من هذا المنظور هو كيفية تواجد النص في مكان وزمان، ولماذا هو في ذلك الزمان والمكان. إن النص، متواجد في الثقافة، كما أن قارئه متواجد فيها أيضا. وليس النص حرًا ولا القارئ حرًا لإنتاج المعنى، لأن كليهما جزء من شبكة نسقية تتواجد كلما تواجد نص أو قارئ. أن انضباط النص يعني كيفية نقله من مستوى الفورية إلى مستوى الاستمرارية، وبالنسبة لفيكو، فعالم البشر مثل عالم النصوص. فبالنحصر الفورية الحسية يكتسب النص زخما جماليا باقيا. أن ما قاله فيكو في الفقرة 1062 من العلم الجديد، بخصوص النسق العيني والمركب للمؤسسات البشرية المدنية يقصد به هذا النوع من الحقل المعرفي الدقيق" ⁵².

يلتقط سعيد من فيكو جوانب تضيء مسيرة الباحث الناقد الذي "يطمح إلى إزالة الغشاوة عن البصر بالرجوع إلى البدايات والأصول، وهنا البدايات لا تعني السلف الصالح، أو نموذجاً ما ضاوياً نحس إزاءه بالحنين ولوعة الفقدان، وإنما البداية التي تطرح إنسانية الفكرة قبل تبلورها وتجريدها وجعلها صنما ننحني أمامه. فالإنسانية، في عرف فيكو، تنطوي على المادي والجسدي والمشتت" ⁵³. هذه الأبعاد الإنسانية لا يمكن شطبها، وهذا التعالي على جذور الإنسان إنما يسقط الجانب الحيواني منه.

هكذا يرى سعيد في الأدب أنه: "عندما يتم الابتعاد عن أسباب الإبداع، يصبح النص منفصلاً عن جذوره في الحياة وعن صاحبه في التأليف، وبهذا الانفصال يصبح

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

منعزلاً، وكأنه مستقل عما كونه وشكله. وبذلك يتخذ هالة من التمجيد والإجلال، ليصبح بدوره مكوناً لطقوس ثقافية وكهنوت نقدي تتداوله جماعة أو نخبة، فلا يبقى للنص دور يلعبه في تغيير الواقع، أو حتى الوعي بهذا الواقع المركب، ويكتسب النص قيمة رمزية في طقوسية نخبة معينة وتوطيد شبكة علاقاتها، أي أن النص يصبح شارة لا إشارة، منغلقة على ذاته، لا منفتحة على العالم وهذا ما يفصله إدوارد سعيد في النقد الديوي "54.

ويرتبط سعيد بفيكو بكتابين ارتباطاً وثيقاً: أولهما بدايات: القصد والمنهج وثانيهما العالم والنص والناقد، ففي الأول يتبنى سعيد مقولات فيكو كما يؤولها هو، ويرى الكثير من النقاد أنه يوظف العلم الجديد ليقدم رؤيته هو - فيذكر ج. هيليس ميلر J.H.Miller -: "النص الجديد - أي نص إدوارد سعيد - عندما يشكل ذاته يقوم بإعادة تشكيل النصوص القديمة، وككل التأويلات الجريئة نجد عنفاً تأويلياً فيها تجاه النصوص المؤولة" 55. ويستغرب الناقد هايدون وايت H.White ، "كيف يبدأ إدوارد سعيد كتابه بدايات برفضه السلطة والتبعية، لينتهي في الفصل الأخير من كتابه، المعنون "فيكو في عمله"، وفي هذا الكتاب وكأنه يستعير سلطة فيكو ونموذجه" 56.

يقدم سعيد قراءة خاصة لفيكو، هدفها البحث، بين نصوصه وثنايا سطورهِ، عن المعنى الأعظم، والدلالة المستعصية على التبسيط. فهو يقرأ فيكو برهافة، محاولاً أن يستبطن ما يرمي له من هذا الحشد المكثف من التفاصيل، ومن التكرار والتناظر في سرده لآليات تطور المفاهيم والمراحل التاريخية. أما لماذا يعترف في الجزء الثاني من الفصل السادس

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

من كتابه بدايات بأثر فيكو عليه، فهو ليس اعتراف التابع لمتبوعه، وإنما إدراكا للعلاقة التراسلية بينهما. فعلى الرغم من ذكر سعيد لحضور فيكو القوي في كتابه بدايات: القصد والمنهج، فإنه لا يرى في هذا هيمنة فكرية وتراتباً ذهنياً، وإنما حوارية وتراسلاً. ويذكر سعيد بالتحديد: "التوازي بين فيكو وحجتي الرئيسية"⁵⁷.

إن أهمية البداية، التي أكد عليها فيكو، تأتي من أهمية الإرادة، فهي فعل إرادي يرتبط ذهنياً، عند سعيد، بالتعليم الذاتي الذي ينبع من رغبة في التعلم. وهو "يتخذ من مفهوم البداية الإرادية منطلقاً للتغيير والتمكين الديني، وبالتالي تصبح منطلقاً لفعل سياسي بالمعنى العام (الذي له علاقة بالجماعة)، وليس بمعنى التسييس (الذي له علاقة بإيديولوجية ما أو بحزب ما)"⁵⁸.

ويؤكد إدوارد سعيد في الفصل الأخير من كتابه بدايات: القصد والمنهج على "ربط فيكو المؤسسات بالمجردات واللغة بالجسد الإنساني، حيث ابتداء الإنسان التعبير عن نفسه بشكل مبهم وغامض، وتدرجياً توصل إلى ما هو محدد وأكثر دقة، وأكثر عملية"⁵⁹. ولكن هذا التطور أدى، إلى جعل الإنسان أكثر تجريداً، واستبعد الجسد، وبالتالي جعل من الإنسان المتحضر أقل معرفة بذاته، وأقل قدرة على امتلاك زمام المبادرة والبداية. ويظل إدوارد سعيد يؤكد على أهمية البدايات الإنسانية بعيداً عن عالم المثل: "إن عالم الإنسان يبدأ بين الأحجار والصخور، بين الضفادع والحشرات. وهذا عالم يختلف تماماً عن

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

عالم المثل عند أفلاطون أو فضاء الأفكار الواضحة والمميزة عند ديكرت. إن كتاب فيكو الكبير ليس إلا محاولة لإبراز البدايات المنفية عن الواقع الإنساني وإعطائها حقها⁶⁰.

ويرى سعيد في فيكو، إذن، الكاتب الحدائي المستبق لزمانه، فهو يصر على أمرين عند الكاتب: واجب التركيز على الواقع العملي، من جهة، وامتلاك الخيال المتعاطف، من جهة أخرى. ويشرح سعيد ما يعنيه بالواجب وهو "الدقة التي تفرضها الظروف العينية على الفكر لأخذها بنظر الاعتبار، والتي تعني الرصد والتعلم، وأما الخيال المتعاطف فيعني أن الإدراك الذهني في حد ذاته لا يكفي للإلمام والمعرفة، وبالتالي فمن الضروري التزود بالانفتاح الخيالي. ففي البدايات، أو ما يمكن أن نطلق عليه المبادرة، يجب أن تلتي المسؤولية الفكرية (بمعنى الدقة والصرامة البحثية بالخيال المتعاطف) بمعنى التأويل الإبداعي)"⁶¹.

ويصنف سعيد التيارات الثلاثة الأهم عند فيكو:

وهي "النظرية والتطبيق متداخلان إلى حد التطابق، فماهية الإنسان ليست إلا تجاربه"⁶². ونرى كيف يتوافق هذا مع سعيد، الذي يسعى دائما إلى إقامة تلاحم بين العيني والنظري، وبين المنطقي والإبداعي.

وعلى الإنسان ثانيا "أن يفهم ذاته من خلال المصير الجماعي. ويرى إدوارد سعيد في هذا إرهاسا بماركس وفرويد ونيته"⁶³. ونلاحظ كيف يتراسل هذا مع رؤية سعيد عن

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

ضرورة انخراط المثقف بالمجتمع وقضاياه، كما كانت مسيرة سعيد نفسها التي جمعت بين التأمل والبحث الأكاديمي والنشاط السياسي الجمعي.

هذا ومن جهة أخرى فإن "إمكانيات العقل البشري واسعة لكنها تتحدد من خلال النسق الاجتماعي" ⁶⁴.

ونرى في هذا تراسلا مع نص مفتوح يسمح بقراءات متعددة لكنها مرتبطة بالمجتمع، مما تبناه سعيد في نقده الأدبي. وينتهي سعيد بتلخيص ما تبناه من فكر فيكو ذاكرة ما يلي:

إن "إن التميز الأولي بين الإنساني والتاريخي، من جهة، والمقدس والنموذج الأصلي (في عالم المثل)، من جهة أخرى، يوازي تمييزي - أي إدوارد سعيد - بين البداية والأصل" ⁶⁵. ثم إن "الجمع بين العمل الذهني حول إشكالية خاصة، وبين اهتمام قوي جدًا بالمجتمع يتم هذا الجمع في نص سعيد منذ بداياته" ⁶⁶. ونجد من جهة "الوعي الحاد الذي لا يقتصر على التابع المتوارث فقط... إنما يحتوي على التوازي والتكامل بين العلاقات التي تركز على الجاني والمبعثر" ⁶⁷. كما يمكننا ملاحظة "التفاعل المركزي بين البداية والتكرار (البداية وإعادة البداية)" ⁶⁸.

ثم إن "اللغة باعتبارها إعادة كتابة، أي باعتبارها تاريخا يكيّفه التكرار، وباعتبارها تشتتا، والنص باعتباره ممارسة وفكرة، فإن مواضيع التحليل النقدي لا تندرج اندراجا تاما

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

في حقول التفسير أو التأريخ أو رسم التيمات" ⁶⁹. هذا وتعتبر "البداية في الكتابة باعتبارها استهلالاً، وبالتالي وتوكيدا على نسق آخر من الدلالة يختلف عما سبقه أو ما هو متواجد في الكتابة. وهنا، مرة أخرى، التمييز بين الإنساني والمقدس يصبح وثيق الصلة بالموضوع" ⁷⁰.

ولا يكتفي إدوارد سعيد بحصر فيكو في فصله الختامي، وإنما يستهل كتابه بدايات: القصد والمنهج باستشهاد من فيكو: على العقائد أن "تتخذ بداياتها من المسائل التي تعالجها" ⁷¹، أي أن سعيد يبدأ وينتهي بفيكو، مشكلاً بذلك دائرة تشير ضمناً إلى مفهوم فيكو عن دائرة التاريخ، والتي أكد عليها سعيد في كتابه الإنسانية والنقد الديمقراطي ⁷² Humanism and Democratic Criticism. والكتاب ليس "إلاّ تأملاً في مفهوم البداية" ⁷³، الذي يميزه سعيد عن مفهوم الأصل. إن البداية مرتبطة بما هو دنيوي وإنساني، والأصل يرتبط بما هو لا دنيوي وإلهي، وفي تأمل سعيد هذا مثلما ورد في مقدمته، نجده يعرف البداية بأنها "فعل يتضمن في التحليل الأخير الرجوع والتكرار، أي أنها ليست مجرد إنجاز في خط مستقيم، فالبداية والبداية المكررة تاريخية، بينما الأصل إلهي، فالبداية لا تبدع فحسب، وإنما توجد نهجها الخاص، لأن لها نية ومقصداً" ⁷⁴.

إذن، يرى سعيد، في البداية إعادة تركيب لما هو مألوف، أي أنها انطلاق جديد لما هو قائم، فهي "لا تبدع من لا شيء، وإنما تعيد ما بدأه الغير، ومن هنا جاء

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

تركيزه على البداية المكررة، مما يتراسل مع مقولة فيكو عن الحدث وتكرار الحدث (corsi and ricorsi) في تصوره لتاريخ البشرية الدائري، الذي يحمل التطور على الرغم من دائريته" 75 .

وبهذا فإن سعيد يتأمل فكرة الإبداع الإنساني الذي لا ينطلق من الصفر، وإنما يتعامل بما هو موجود في محيطه، ليقوم بتغييره، ويمكن أن نميز، إذن، بين "مفهوم الإبداع الأدبي أو الفكري أو النقدي، ومفهوم الخلق ذي الطابع المتجاوز للإنساني، أي إيجاد ما لم يكن موجوداً" 76 .

وعليه، يصبح مفهوم البداية انطلاقا من مسيرة ما، أو وضعية ما، وليس الانطلاق من فراغ. وهذا بدوره ما يفعله سعيد في كتابه العالم والنص والناقد، "فالبداية بوصفها حدثا في عالم إنساني، لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار هذا العالم، وألا تسعى إلى التعالي عليه ورفض التحديق فيه" 77 . إن البدايات مرتبطة ارتباطا وثيقا بنقطة انطلاقها، أي السياق الذي يحيط بها. وهذا السياق ينطلق من القضايا الإنسانية بكل ماديتها وتشعباتها " 78 ،

كما يؤكد استشهادات فيكو في كتاب إدوارد سعيد البدايات: القصد والمنهج.

وفي كتاب سعيد العالم والنص والناقد، نجد أنه يؤكد على هذه العلاقة بين النص وعالمه الدنيوي التي أشار إليها في كتابه البدايات: القصد والمنهج، ليس هناك نص لا يرتبط بظروف إبداعه، كما أن النقد بمعنى سعيد القول على القول، يرتبط بظروف إنتاجه.

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

ويهاجم سعيد في هذا الكتاب "الخطاب الذي يتفوق في النصية، متناسيا ظروفه الإنسانية والمادية، ويهاجم النقد الذي لا يرتبط بما يجري في العالم، مشكلا كهنوتا، وهو بهذا يسعى إلى نقد مباين للنص الإبداعي، مستخدما أدوات تحليل ليشكل فعلا متعديا يؤثر على العالم وعلى البشر"⁷⁹. وقد يكون في تأكيد سعيد على "دور المثقف الهاوي، قد تجاوز ما دعا إليه فيكو، إلا أن مفهومه لهذا المثقف، الذي لا يمثل لمدرسة أو عقيدة، ويكون مناهضا لما حوله، ينبثق من نموذج فيكو ومسيرته، كما أنه يكمل ما بدأه فيكو أو أنه يقدم بداية مكررة لفيكو"⁸⁰.

وقد حلل سعيد في الفصل الخامس من هذا الكتاب الموسوم بعنوان التكرار، والذي يتمحور حول فيكو، بأن "المفهوم الأخير للتكرار في التاريخ ودائريته لا بوصفه تفعيلا للحظة إلهية، وإنما بوصفه فعلا إنسانيا يمكن عبره إعادة اكتشاف (Ritrovare) مبادئ التاريخ"⁸¹. ويربط إدوارد سعيد بين مفهوم القوم (Gentile) عند فيكو ومفاهيمه هو: عن البنوة filiation والنسب affiliation، لكي يثبت أن مفاهيم فيكو إنسانية وحتى يوضح بأن هذا "التكرار ليس أوتوماتيكيا، بل فيه جانب تصاعدي وتقدمي، فالتاريخ، مرتبط بالذاكرة، سواء كانت ذاكرة الإنسان البدائي أو الباحث الفيلسوف"⁸²، ففي الحالتين ترتبط الذاكرة بما هو إنساني .

وينتهي سعيد إلى "أن هناك بعدا كونيا في فكر فيكو يتناول التكرار النمطي في تاريخ الأمم، وبعدا ظرفيا يكشف عن إمكانيات الثورة والتغيير، مما يستشف منه مفهوم

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

توليد بدائل. إدوارد سعيد يرى في تحليل فيكو مبادئ عامة تسمح بإدراك التاريخ الإنساني، كما تسمح أيضا بتعديله، لا بالافتناع بأن الأمر خارج الإرادة الإنسانية⁸³.

وفي مقدمة الكتاب الذي كتبه سعيد في المرحلة الأخيرة من حياته، ونشر بعد سنة واحدة من رحيله أي 2004، يتناول فيه النزعة الإنسانية، ويمكن اعتباره كوصية أخيرة، يشير فيه إلى "الرؤية التراجيدية لفيكو النابعة من العجز الإنساني عن الوصول إلى معرفة يقينية"⁸⁴. ففيكو يؤكد على مقولتين أساسيتين: "أن مبادئ التاريخ بالنسبة للتاريخ أشبه ما تكون بعلاقة الدم بالجسد الإنساني، لكن سرعان ما يستطرد فيكو ليؤكد على المبدأ الأهم وهو عدم الاعتداد بالعقل البشري، حيث إن الإنسان عندما يجهل شيئا ما "يتخذ من نفسه معيارا"⁸⁵. إن المأساة كما يرى سعيد انطلاقا من قراءته لفيكو هي "عجز العقل عن الإلمام الصحيح دائما"⁸⁶، لكن هذا لا يعني في عرف سعيد إسقاط البحث العلمي أو النزعة الإنسانية من الحساب، وإنما معالجة الأمر باعتبار كل إنجاز في العلوم حلقة غير مكتملة تسمح بإعادة النظر والمراجعة والنقد"⁸⁷. ومن هنا نلاحظ التوازي بين مقولة سعيد التضامن مع النقد وتأويله لمواقف فيكو المتعارضة فيما بينها.

لقد استمد سعيد من فيكو "أفكاره وقدرته على المقاومة في ظروف صعبة"⁸⁸، إلا أنه استكمل مسيرة هذا الفيلسوف وطبقها على ظروفه هو، هذا يعني أن سعيد استقرأ مبادئ فيكو، لكنه لم يتوقف عند تحليلاته، بل تعداه إلى تطبيقه على عالمه هو، ليشد الانتباه إلى أهمية البعد الإنساني في النقد.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

إن ما يشد سعيد إلى فيكو هو صعوبة نصوصه التي لا تدرك تماما، فهو "يشكل لقارئه تحديا مستمرا"⁸⁹. مما جعل سعيد يربط، بشكل صريح أو ضمني، بين نصوصه وعالمه، ويؤكد فيكو على عالم البشرية منذ البدء حتى النهاية، وهذا "الانفتاح على العالم بكل دنيويته، الذي لا يقتصر على ركن منعزل أو مرحلة محددة منه، هو ما شد إدوارد سعيد إلى هذا المفكر"⁹⁰، إلا أن فيكو قدّم لسعيد مبادئ أساسية أولية لمشروعه الفكري.

ومن جهة ثانية، فإن كتابات إدوارد سعيد، تحيل أكثر من مناسبة، على الماركسي الإيطالي انطونيو غرامشي Antonio Gramsci، بما يجعل هذا الأخير هو الآخر، مرجعا من مراجع سعيد الفكرية. غير أن سعيد، كمفكر حر وطيّق، تعامل مع الثوري الإيطالي بطريقة خاصة به "فهو يضيفه إلى مراجع أخرى، قريبة وبعيدة عنه في آن واحد، منتهيا إلى إشكال فكري سعيدي إن صح هذا التعبير، فهو "يمنع عن غرامشي استقلاله الذاتي، ويحوّله إلى عنصر من بين عناصر فكرية أخرى"⁹¹. ولهذا لم يكون إدوارد سعيد معنيا بمفاهيم غرامشي الأساسية مثل المثقف الجمعي وفلسفة البراكسيس وحرب المواقع، ذلك أن هذه المفاهيم، مثل غيرها، مرتبطة بإشكال سياسي، قوامه الثورة الاشتراكية، بعيدا عن هواجس إدوارد سعيد وإستراتيجيته الثقافية"⁹².

لقد أخذ إدوارد سعيد من كتاب دفاتر السجن لأنطونيو غرامشي، ما احتاج

إليه، "في مفارقة تجعل سعيد يحتفي بغرامشي ولا يلتفت إلى كارل ماركس Karl

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

Marx إلا إذا دعت الضرورة، كأن يضيفه لأدباء ومستشرقين (اخترعوا الشرق كما فعل في كتابه الإستشراق)، ولم يكن سعيد، الذي انشغل بقضايا نظرية خاصة به، يخفي مفارقاته أو يحجبها، حين كان يعلن عن تأثيره الفكري بماركسيين مثل رايغوند وليامز وفالتر بنيامين وجورج لوكاش، دون الرجوع إلى ماركس، المرجع الأساسي لكل هؤلاء⁹³. وقد يعود هذا، ربّما، إلى اختصاص إدوارد سعيد الأدبي، وتجربته الثقافية الذاتية.

ويمثل غرامشي للماركسيين عامة، وللأوروبيين منهم خاصة، "مرجعا نظريا وسياسيا، يحيل على إستراتيجية ثورية، تغاير نمط الوجود الستاليني، في لحظة، وتتفق مع الطريق الأوروبي إلى الاشتراكية، في لحظة أخرى. وهذا ما جعل غرامشي، في الثلث الأخير من القرن الماضي، عنوانا للماركسية الغربية، التي أرادت أن تنقطع عن ديكتاتورية البروليتاريا. حلمت هذه الماركسية، بغرب غير رأسمالي، اتكاءا على تصور غرامشي للاشتراكية، قوامه: حرب المواقع، الهيمنة الثقافية والسياسية، فلسفة البراكسيس التي هي أثر لحوار الماركسية مع الحس الشعبي، إذ الثاني ينقد في الأولى تجريدها، وإذ الأولى تنقد في الثاني وجوهه الميتافيزيقية"⁹⁴.

هذا الموقف السياسي المشغول بالاشتراكية والديمقراطية والمناهض للستالينية، كان بعيدا كل البعد عن لقاء إدوارد سعيد بأنطونيو غرامشي. فإذا كانت الثورة، "من حيث كونها فعلا جماعيا، عناصره الماركسية والطبقة العاملة والحزب الثوري، هي ما ربط بين الماركسي الإيطالي والمنتهم إليه"⁹⁵، فإن ثورة مغايرة أخرى استدعته إلى دراسات إدوارد

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

سعيد، قوامها عنصران أساسيان هما: "تجربة فلسطيني عربي في أوساط أكاديمية أمريكية ترمي على الغريب النموذجي بالكراهية، وتدرجه في عملية جاهزة حدودها الإلغاء والاختراع"⁹⁶، فالاختراع لا يتحقق إلا بعد إلغاء الموضوع الذي ثم اختراعه، حيث الشرقي والعربي والمسلم والمستبد والمتعصب والمتخلف مرايا لكائن جاهز وحيد، وحيث الفلسطيني، الذي قاتل رواد الحضارة ولا يزال يقاتلهم في فلسطين، صورة عن الشرقي القديم بامتياز.

أما العنصر الثاني، فهو "يجسر المسافة بين التجربة الوجودية والتجربة الأكاديمية، فيتمثل في أكاديمي غريب يرفض دوائر أكاديمية ثقافية، تسلع التزوير وتحتزل المعرفة في مهنة تناوى الأخلاق والحقيقة"⁹⁷. اتكأ إدوارد سعيد على ثورة ذاتية، وتمسك بذاته الثائرة وهو يقرأ غرامشي، كما لو كان في كتابات هذا الأخير ما يفصح عن هواجس إدوارد سعيد، أو كأن في هواجسه ما يستنطق غرامشي ويضع على لسانه ما يقبل به الفلسطيني المغترب ويرضيه"⁹⁸.

يشير إدوارد سعيد في مقدمة كتابه الإستشراق إلى غرامشي في السطور التالية، حيث يقول غرامشي في كتابه دفاتر السجن: "إن نقطة انطلاق الإعداد النقدي هي وعي المرء لما هو عليه حقا، مدركا ذاته بوصفها نتاجا للسيروية التاريخية حتى اللحظة الراهنة، التي تخلف فيك آثارا لا حصر لها، دون أن تترك قائمة جرد (بياننا مفصلا) بها...".⁹⁹، ويضيف أيضا "ومن نواح عديدة، فقد كانت دراستي عن الإستشراق لجرد الآثار التي تركتها

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

عليّ أنا الذات الشرقية، تلك الثقافة التي كانت سيطرتها عاملا بالغ القوة في حياة جميع الشرقيين" ¹⁰⁰.

ويعطف إدوارد سعيد "قائمة الجرد مند البداية على ذات شرقية عانت طويلا من آثار ثقافة إستشرافية، إنه تأمل ذاتي، قائم على تجربة معيشة، يضع الأنا في مواجهة الآخر، أو يرى ذاته آخر، في مواجهة أنا مغايرة، وذلك في حقل أكاديمي، يخترع الذات الشرقية ويلغيها في آن واحد" ¹⁰¹. وما قائمة الجرد المقصودة هنا، إلا إعادة الاعتبار إلى الذات المملغة التي تقضي، لزوما، بإعادة النظر في ثقافة متحيزة، هي مزيج من الكراهية والعنصرية والتنميط الإيديولوجي المتوارث، تضيء سطور غرامشي، في هذا التصور أزمة ذاتية وسبل تجاوز الأزمة وتحرير عقدها، مستدعية، بالضرورة، سيرورتين: أولاهما السيرورة الثقافية التي شكلت مثقفا يدعى إدوارد سعيد، وثانيتها، أوسع من الأولى وأبعد تاريخا، هي السيرورة الثقافية الإمبريالية التي وعها المثقف الشرقي وتمرد عليها في آن واحد" ¹⁰².

يؤسس غرامشي "بعدا منهجيا، أساسه قائمة الجرد منذ البداية" ¹⁰³، أي الاستهلال بالوعي وبالسيرورة التاريخية - التي تسعف المثقف الفلسطيني المغترب على اكتشاف ذاته، مثلما يستدعي مفهوما يضيء الذات ويشرح تكوينها وتمردا بـ "مفهوم الهيمنة الثقافية التي لعبت دورا بالغ القوة في حياة جميع الشرقيين. فالفكرة القائلة بأن الشرق لا يوجد في ذاته، التي هي جوهر المعرفة الاستشرافية، لم تكن قادرة على الفعل والاستمرارية من دون الهيمنة التي تقنع الشرقي الموجود بعدم وجوده" ¹⁰⁴. ومع أن الهيمنة هي، في

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

الأخير، جملة مؤسسات التي تتجاوز الأفراد، فقد توقف إدوارد سعيد، محمدا بتجربته الجامعية، أمام المثقفين الذين تنتجهم وتعيد إنتاجهم مجددا مؤسسات الهيمنة. هكذا أفضى الجرد، بالمعنى الغرامشي الذي يبدأ بالدولة وينتهي بها، إلى مفهوم الهيمنة الذي ينطوي على مفهوم المثقف الذي يتحدد بموقفه من أجهزة الهيمنة، أي بموقفه من الدولة.

فلا غرابة، إذن، في أن يظهر اسم غرامشي، أكثر من مرة، في الفصل الأول من كتاب صور المثقف Representation of the intellectual حيث يأخذ إدوارد سعيد، بلا تحفظ، "بالتعريف الغرامشي للمثقف ويؤكد صلاحيته في الحاضر والمستقبل معا" ¹⁰⁵.

إن ما يقبل به إدوارد سعيد قائم في أطروحتين، تتلخص أولهما، في مقولة غرامشي التي يستشهد بها سعيد في بداية كتابه: "إن جميع الناس مثقفون، ولكن وظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع لا يقوم بتا كل الناس" ¹⁰⁶. إن الأساس، هنا، هو وظيفة المثقف الاجتماعية التي تنطوي، نظريا وعمليا، على "توليد حركة مجتمعية وإقامة بنية ثقافية تنشئ الحركة وتمدها بإشارات مستقبلية" ¹⁰⁷، وتعترف هذه الأطروحة بتساوي البشر، فكل الناس مثقفون وإن كان بعضهم أكثر ثقافة من البعض الآخر، الأمر الذي يضع في الأطروحة المثقفين الكبار الذين يستطيعون، بفضل ثقافتهم، أن يصوغوا أفكارا لا يستطيع غيرهم أن يأتي بها. لا يشرح إدوارد سعيد فكر غرامشي الداعي إلى مثقف مختلف، بقدر ما يشرح الأسباب التي دعت به إلى تبني صورة المثقف لديه.

وتنص الأطروحة الثانية على أن "منظم الأعمال الرأسمالي يخلق إلى جانبه التقني الصناعي، والاختصاصي في الاقتصاد السياسي، ومسولين لإنشاء ثقافة جديدة أو نظام

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

قانوني جديد" ¹⁰⁸، ويتحدد المثقف، "في شكله الرأسمالي، بالوظيفة التي توكلها إليه المؤسسات الرأسمالية، وهو ما يقصي كليا المثقف عن صورته الرومانسية المشدودة إلى الوحي والإلهام والتفرد الكلي ويشتهقه من شروط اجتماعية متجددة تظل السلطة، قديمة كانت أم حديثة، مرجعها الأساسي" ¹⁰⁹.

تقول أفكار غرامشي بمقولة المثقف التي "تمايز العمل الذهني نسبيا عن العمل العضلي" ¹¹⁰، وتنص أيضا على "شكل المثقف، التي تنزع عن المثقف جوهرها ثابتا مزعوما وتربطه بتاريخ اجتماعي لا يفصل بين موقع المثقف والسيرورة الإنتاجية" ¹¹¹.

بيد أن الأطروحة الثانية لا تكتمل إلا بأخرى، "صادرة عن المثقف البديل الذي يرفض الرأسمالي والمثقف الذي يلبي حاجاته، مناديا بثقافة جديدة تتبادل المواقع مع سياسة جديدة. وما الإصلاح الثقافي والأخلاقي، الذي لا تكون الهيمنة البديلة إلا به، إلا أداة الثقافة الجديدة وقوامها، بالمعنى الغرامشي، الذي هو صورة أخرى عن السياسة الجديدة" ¹¹².

لقد أخذ سعيد بتعريف غرامشي، الذي يقسم المثقفين إلى: المثقف التقليدي والمثقف العضوي. الأول، "وهو أقرب إلى الثبات، يزاوّل مهنا متوارثة، مثل القاضي والمعلم والإداري ورجل الدين" ¹¹³، على خلاف الثاني، "الذي يرتبط مباشرة بطبقات أو مؤسسات تجارية تستخدم المثقفين لتنظيم مصالحها وتوطيد مواقعها وسيطرتها" ¹¹⁴.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

وبما أن الطبقات لا توجد فرادى، بل في صراعها الطبقي، فإن هذا الصراع يترك آثاره على المثقفين، وفقا لشروط متعددة، تنتج مثقفين يساؤون بين السلطة والمعرفة، وآخرين يندرجون في مشاريع ثقافية - سياسية تنقض المسيطر، سياسة وثقافة وقيما" ¹¹⁵. ولعل هذا الصراع الذي يعرف الشدة والاعتدال هو الذي "يعطي المثقفين العضويين سماتهم الخاصة، فهم دائمو التنقل، دائمو التشكل، على عكس المعلمين والكهنة"، كما يقول إدوارد سعيد ¹¹⁶. إن مواجهة السلطوي بديل مستقبلي هي في أساس مفاهيم الهيمنة وحرب المواقع والمثقف الجمعي والحزب الشيوعي عند غرامشي، هي في أساس فكرة المثقف الذي يواجه السلطة بالحق، عند إدوارد سعيد.

نقض إدوارد سعيد السياسة الثقافية، متكاء على مبدأ الجرد منذ البداية "التي تنتج المثقف العضوي في المؤسسات الأمريكية، كما في غيرها من المؤسسات" ¹¹⁷، ونقد المثقف الاحترافي، الذي يرى "المعرفة من وجهة نظر أصحاب السلطة، وندد بمعارف الاختصاص السلطوية التي تشل العقل وتحرض على الخضوع والامتثال" ¹¹⁸. والواضح في خطاب سعيد، المتميز بنبرة غاضبة، "هو التنديد بالهيمنة الثقافية الإمبريالية، داخل الولايات المتحدة وخارجها، والعمل على توليد هيمنة بديلة، نسبها غرامشي إلى فلسفة البراكسيس، PRAXIS التي تصالح نقديا بين الثقافة العالمية والثقافة الشعبية، وأرادها إدوارد سعيد تعددية ثقافية متعومة، قوامها الحوار والمساواة والتكامل" ¹¹⁹.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

كما نقد سعيد السياسة الثقافية التي تستبدل بأسئلة الجمهور أسئلة السلطة، في دراسته الملفتة للانتباه: "معارضون، جماهير، دوائر وجماعة"، التي ظهرت في كتاب جماعي عنوانه ثقافة ما بعد الحداثة، شارك فيه آخرون مثل هابرماس وفريدريك جيمسون وآخرون¹²⁰. وبيّنت هذه الدراسة "أثر السلطة الريغانية في الأكاديميات"¹²¹، وأثر هذه الأخيرة في "تثبيت مناهج تفصل بين المعرفة والمجتمع"¹²². إن الدراسة الأكاديمية وفقا لذلك، تفصل بين المعارف المختلفة فصلا تاما، وتفصل كل حقل معرفي عن محيطه الاجتماعي، بعد أن تحتفي بثبات كل حقل وديمومته، "منتهية إلى معارف كهنوتية المضمون توهم بإجابات نهائية على أسئلة لا ضرورة لتجديدها"¹²³.

هذا ويندد سعيد "بتجزئ المعرفة الذي يفصل الخيال عن الفكر والثقافة عن السلطة والتاريخ عن الشكل، والنص عن كل ما هو خارج النص"¹²⁴. ويقارن سعيد بين الاحترافين والكهنة بسبب انغلاق المختصين في أسئلة ضيقة منعزلة عن الحياة، لأن "الطرفين يدوران حول اختصاصيهما وينظران إلى المعيش اليومي من وجهة نظر الاختصاص"¹²⁵.

ويرد على هذا التصوّر، مستلهما غرامشي، قائلا معه "بديوية الظواهر الاجتماعية، حيث الجديد يزبح القديم عن مواقعه، والمعرفي يقض بتعددية الأسئلة والتأويلات، والحياتي يكثر مواضيع المعرفة ويربط بين المعارف المختلفة"¹²⁶. بل إن سعيد

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

وهو يواجه "الأكاديمي الطقوسي المغلق بالديوي، يذكر بالمجتمع المدني عند غرامشي، الذي تأخذ فيه النصوص والأفكار والفلسفات قوة حقيقية عن طريق التوزيع والانتشار، صائرة إلى هيمنة على عالم الحس العام"¹²⁷، فالنصوص لا تؤوّل فقط من وجهة نظر المختصين، بل من وجهة نظر الجمهور الذي تصل إليه النصوص، سواء كان واسعاً في حضوره أم هامشياً، غير أن "استدعاء الجمهور لا يلبي من حاجات الأكاديمية المغلقة شيئاً، ذلك أن ما هو خارج الأكاديمية يرفض أن يرى في شارل ديكنز مبدعاً متطهراً فقط، منقطعاً عن الأسئلة السياسية"¹²⁸.

وكان إدوارد سعيد ينقد السياسات الثقافية الطقوسية وأكاديميتها المختصين، بناءً على تعارض الهيمنة القائمة والهيمنة البديلة، "حيث المفرد لا معنى له، لأن الاختصاص يفرض تماثل المنهج واللغة والغرض"¹²⁹، يشهد على التماثل عالم المثقفين المحترفين الذين يأخذون بلغة منفصلة عن لغة القارئ العام، حيث الانفصال اللغوي تعبير عن مسافة معرفية، من ناحية، وإشارة إلى قضايا لا تتوزع على الطرفين، من ناحية ثانية"¹³⁰. فلا غرابة، إذن، أن يقرأ "المثقف الاحتراقي موضوعه من وجهة نظر الاختصاص، وأن لا يقترب القارئ العام من مواضيع مختصة لا علاقة له بها، ولهذا لا يعترف المختص بمواطن لا اختصاص له، ويقصر الاعتراف على آخر، يقاسمه موضوعه ولغته المغلقة"¹³¹. ومع أن في تصنيف الاختصاص ما يبرئ الأكاديمي من شبهة السياسة، "إذ في السياسة ما يسفل الاختصاص ويعيث بجياده، فإن السياسة تحايث الحياد المزعوم وتتشابك معه"، وذلك يعود لسببين في نظر إدوارد سعيد: "الأول هو أن الأكاديمي، الذي يقول بسلطة

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

المعرفة، يضع معرفته في متناول المراجع السلطوية، مساويا بين السلطة والمنفعة، منتقلا من تقسيم العمل التقني إلى تقسيم العمل الاجتماعي الذي يعطي السلطة المعرفية إلى طرف اجتماعي ويمنعها عن آخر¹³².

أما السبب الثاني فيظهر في "احتكار المعرفة الذي يوطد هيمنة إيديولوجية سلطوية توحد بين المعرفة لاتخاذ القرار وعدم المعرفة وواجب الامتثال والخضوع"¹³³. وعليه يصبح المثقف الاحترافي، الذي يفصل بين المعرفة والجمهور، "مثقفا عضويا يقف إلى جانب سلطة قائمة ضد سلطة عزلاء، أو محتملة، هي الجمهور الذي لا سلطة له"¹³⁴.

ويعبر إدوارد سعيد عن زيف الحياد المعرفي في كتابه العالم والنص والناقد، فيكتب: "إن أطروحة غرامشي هي أن جميع المثقفين هم فعليا مثقفون عضويون إلى حد ما، حتى وإن بدوا لا علاقة لهم بقضية السياسية..."¹³⁵.

كما ينقض سعيد في كتابه تمثيلات المثقف، المثقف الاحترافي بمقولة "المثقف الهاوي"¹³⁶، الذي ينادي بحوارية المعارف ويسائل معارفه من وجهة نظر الجمهور، وبمبدأ أخلاقي يزهد بالمنفعة ويحتفي بالضمير اللامكافأ. وهذا ما ينشر في كتاب سعيد العالم والنص والناقد، مقولة غرامشي عن وظيفة المثقف الاجتماعية، التي تنظر إلى المجتمع المدني وتوسع إمكانياته، وتنقض الاحتكار في وجهيه السلطوي والمعرفي. وبما أن كل الناس مثقفون، لأنهم يتوسلون المعرفة في كل يقومون به، فإن في خبراتهم ما يحاور الاحترافي المغلق الهارب من الحوار.

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

بل إن هذه المقولة حول المثقف الهاوي وما يوحد بين البشر جميعا، مختصين كانوا، (مثل اللغوي نعوم تشومسكي الذي يعالج قضايا سياسية حسب سعيد)، أو غير المختصين - (كالقارئ العام) - الذين يستطيعون محاوره اللغوي والسياسي معا. إن هذه المقولة حول المثقف الهاوي تحضه على توزيع المعرفة ونشرها وتوسيعها بأشكال مختلفة، وهي تعبير دقيق عن العلاقة بين المثقف والمجتمع المدني، من حيث هما علاقتان دنيويتان تنكران الانغلاق" ¹³⁷.

وفي واقع الأمر فإن في العلاقاتين ما يفصح عن التعدد الدنيوي، ذلك أن المثقف الهاوي هو الذي "يقف على تخوم حقول متنوعة، مثلما أن المدني هو ما يعبر عن حاجات إنسانية متعددة الوجوه" ¹³⁸. وعلى هذا فإن مقولات الهاوي والمدني والدنيوي هي مرايا للحدثاة والأزمة الحديثة، على خلاف الاختصاصي المغلق والمجتمع المتجانس، والاحتكار المتعالي، الذي يستأنف إرث الأزمنة القديمة بمظاهر حدثاة، الأمر الذي لا "يمكنه العمل على الارتباط بمشاريع وأفكار أصيلة" ¹³⁹. ويؤسس المثقف الاحترافي، على نقيض المثقف الهاوي، عمله على وحدة السلطة والمعرفة، التي تجعل للسلطة علاقة داخلية في مهنته، وتجعل من مهنته، إجابات معرفية متحيزة على قضايا سلطوية ¹⁴⁰. وعن هذه الوحدة صدر نسق متوالد من الاهتمام الأكاديمي، مثل : محاربة الشيوعية، تزييف الإسلام، اختراع الحقائق الصهيونية. وهاجم إدوارد سعيد هذه الحقائق مثلما هاجم غيرها من الحقائق

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

الإستشراقية من قبل، "لأنها تقوم في المحصلة بوظيفة الرؤية العالمية المسلحة بقوة سياسية هائلة ليس من السهل تصريفها تحت لافتة الإبتومولوجيا..."¹⁴¹.

وإذا كان ما يدافع عنه إدوارد سعيد "في الحق ما يستنكر هذه الصناعة الأكاديمية، فإن في جهاز غرامشي النظري ما يشرح الأسباب التي تعطي الصناعة الكاذبة شكل الحق والحقيقة"¹⁴². ومن ثمة يصبح فكر غرامشي، بهذا المعنى، "دربا إلى التعرف الذاتي، من ناحية، إذ على من تعلّم في أوساط أكاديمية احترافية أن يكتشف آثارها عليه، واقتراحا لمقاومة الزيف الأكاديمي، ومن ناحية ثانية، ولعل مفهوم المقاومة، الذي يحاith مفهوم غرامشي للهيمنة، هو الذي جعل إدوارد سعيد يرفض قدرية فيكو الفيلسوف الذي اكتفى بتشريح آليات السلطة القمعية، دون أن يعني بقضايا مواجهتها"¹⁴³.

احتل موضوع المثقفين مكانة شاسعة في أعمال غرامشي النظرية وفي وقت مبكر، فقد كان يتطلع إلى تعميق مفهوم الدولة وتوضيح بعض وجوه التطور التاريخي للشعب الإيطالي. فكان يهجس، وهو القائد السياسي بتحديد "دلالة أجهزة الدولة الهيمنية التي تحيل لزوما على مشروع الحزب الشيوعي، لا من حيث هو مقولة اجتماعية، بل بوصفه تنظيما نوعيا يريد أن يؤسس دولة جديدة"¹⁴⁴. فلا معنى للمثقف الجمعي داخل الحزب الجديد، إلا وهو يسعى إلى إزاحة الدولة القديمة، ولا معنى للدولة الحديثة إلا إذا كانت تعمل في أجهزتها الجديدة للإطاحة بالهيمنية التي كانت تحدد مواقع المثقفين ووظائفهم في ظل الدولة القديمة.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

تطلّع غرامشي، في الحالتين، إلى "وظائف المثقف المحتملة في المجتمعات المعاصرة سواء كانت رأسمالية أو غير رأسمالية، محاولا تصحيح وإكمال نظرية الدولة التي اختزلت في الماركسية التقليدية إلى صيغة بسيطة قوامها: الدولة القوية، المستندة إلى العنف والإكراه لا أكثر"¹⁴⁵. وفي حقيقة الأمر، فإن "هذه الماركسية الاختزالية، التي واجهت صوريا ديكتاتورية البرجوازية بدكتاتورية الطبقة العاملة، لم تتوقف كثيرا أمام الثورة البرجوازية الديمقراطية التي تشكل، تاريخيا، مرحلة من مراحل إنحاز الثورة الاشتراكية"¹⁴⁶.

وبناء على هذا التصور السياسي، فقد ربط غرامشي بين "الفاشية الإيطالية والثورة الديمقراطية المعوّقة، تاريخيا، في إيطاليا"¹⁴⁷، كما اشتق "مسألة الهيمنة الثقافية، وسؤال المثقفين، من المسألة الجنوبية التي تكشف عن عدم تكافؤ التطور بين الشمال الإيطالي وجنوبه"¹⁴⁸. لقد تركّز جهد غرامشي في الدفتر الأول من دفاتر السجن، على دراسة الوضع الإيطالي، وعدم تكافؤ التطور في التحولات السياسية والثقافية التي جعلت من جنوب إيطاليا معوقا في تطوره، ونوع من المستعمرة الداخلية لشمال إيطاليا الصناعي الأكثر تطورا، ونتج عن مجهوداته إمكانية "قراءة علاقة المدينة بالريف، الشمال بالجنوب، في أشكالها الثقافية"¹⁴⁹، وقد أفضت هذه النتيجة بدورها إلى نتيجة أخرى لاحقة أكثر أهمية من الناحية الإستراتيجية والسياسية، وهي تنص على أن: "يعكس التطور الثقافي اللامتكافئ اختلافا في بنى فئات المثقفين يتجلى في عدم تناظر علاقتهم بالدولة"¹⁵⁰. ولهذا نجد في الجنوب، الذي لم يعرف التطور الرأسمالي، نموذج للمثقف التقليدي، مثل

المبحث 1: تأثير فيكو و نغرامشي في فكر إدوارد سعيد

المحامي، أو مثل هؤلاء الذين يجسّرون المسافة بين الجماهير الفلاحية وكبار الإقطاعيين عن طريق جهاز الدولة. ولعل "انشداد المثقف الجنوبي التقليدي إلى الدولة، هو الذي يجعل معظم المثقفين التقليديين يعملون في جهاز البيروقراطي للدولة، سواء كانوا معلمين أو قساوسة أو موظفين، مشكّلين درعا ايدولوجيا، مرنا ومقاوما في آن واحد، يبرّر ويسوّغ ممارسات الدولة المختلفة" ¹⁵¹.

على خلاف ذلك، وبسبب تقدم الشمال الصناعي، فإننا نجد نموذج المثقف الحديث، أي المثقف التقني العامل في المصنع، الذي يربط بين الجماهير العمالية والطبقة الرأسمالية. وهذا لا يعني أبدا أن المثقف الحديث يعيد، في شرط مختلف، إنتاج دور المثقف الريفي، بل يعني "أن المثقف الحديث أو المدني، يخضع، بسبب الموقع الذي يعمل فيه، لآثار الصراع الطبقي المتجددة، التي تسهم في صياغة موقفه من الدولة" ¹⁵². فالعلاقة بين الجماهير العمالية والدولة في الشمال لا تتحقق بواسطة فئات من المثقفين، بل عن طريق "التنظيمات النقابية والأحزاب السياسية وجملة علاقات المجتمع المدني، التي تترك آثارها على المثقفين" ¹⁵³.

ولا يمكننا أن نفسر الاختلاف بين المثقف التقليدي والمثقف الحديث باختلاف طبائعهما، كما لو كان في كل منهما جوهر مختلف عن الآخر، بل يمكننا فعل ذلك بدرجة التطور الرأسمالي. "لذا كان المثقف التقليدي العنصر المنظّم في مجتمعات ذات قاعدة فلاحية وحرفية، تنتجه الطبقة المسيطرة كي ينظم الدولة والتجارة والقضاء والتعليم" ¹⁵⁴، هذا بخلاف المجتمع الصناعي الذي ظهرت فيه أنماط جديدة من المثقفين: الكادر (الإطار)

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

التقني والمختص في العلوم التطبيقية، والجهاز الذي يؤمن الهيمنة والإدارة. ونجد غرامشي، وهو يتأمل في دور المثقف في المجتمع الصناعي، يقوم بتوسيع تعريف المثقف توسيعاً غير مسبوق، فجعل من المثقفين جمهوراً متميزاً تخترق وظيفته التنظيمية جميع فضاءات الحياة الاجتماعية، كأن يكتب: "لا يحيل معنى المثقف فقط إلى تلك الفئات الاجتماعية التي تدعى تقليدياً بالمثقفين"¹⁵⁵ بل يحيل بصفة عامة، إلى الجمهور الاجتماعي الذي يمارس وظائف التنظيم بالمعنى العام: سواء كان في ميدان الإنتاج، أو الثقافة، أو الإدارة العامة "¹⁵⁶.

وعلى هذا الأساس، فإن تحديد موقع المثقف يتجاوز الأيدولوجيا والبنى الفوقية، ويتحدد من خلال نمط الإنتاج والقوى المنتجة، أي جهاز الإنتاج. "إن هذا الإشكال يقضي كلياً المعيار الداخلي في تعريف المثقف بوصفه حاملاً للوعي والحقيقة والأفكار"¹⁵⁷، وينظر المثقف في وجوده الاجتماعي الذي يظهر في تقسيم العمل وفي عملية الصراع الطبقي، وهي عملية سياسية تخترق ميادين العمل في مختلف تقسيماته.

ولعل هذا الإشكال هو الذي يمنع عن المثقف العضوي للطبقة العاملة، الذي سيصبح المثقف الذي يواجه السلطة بالحقيقة عند إدوارد سعيد، صفة المفكر بذاته. ويجعل منه "المثقف السياسي للطبقة العاملة"¹⁵⁸. وهذا يعني أن المثقف في ذاته لا يحوّل طبقة

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

مخضعة إلى أخرى قائدة ومسيطرة ومهيمنة، فما ينجز هذا العمل هو "الأمير الجديد، أي الحزب السياسي الطليعي الذي يسمح بقراءة جديدة لوظائف المثقفين" ¹⁵⁹.

يدور إشكال غرامشي كلّهُ حول العلاقة بين المثقف والدولة، أو حول المثقف البديل والنضال الطبقي من اجل مشروع سياسي بديل. مع ذلك، فإن غرامشي، وهو يقرأ علاقة المثقف بالطبقة، لا يقيم تناظرا بين البرجوازية والطبقة العاملة. ذلك أن المثقف "في علاقته بالبرجوازية يلعب دورا مباشرا في تكوينها الطبقي، في حين أن دوره في الحالة الثانية محدد بضرورة سياسية أكثر اتساعا تسعى إلى التنظيم السياسي للطبقة العاملة، الذي تتوحد فيه الإدارة الواعية والعفوية الشعبية" ¹⁶⁰.

على الرغم من توسيع غير مسبوق لمقولة المثقف الحديث، مثل حديثه عن مثقفين وشبه مثقفين، فإن الأساسي في اجتهاد غرامشي، الذي لم يكتمل، هو فكرة المثقف كمنظّم، وهو ما يساوي، أو يقرب تقريبا كبيرا، بين موظفي أجهزة الدولة والمثقفين، بالمعنى الضيق، ذلك أن الطرفين ينجزان وظيفة خاضعة، ودورها هو تأمين الهيمنة الاجتماعية والسياسية للبرجوازية، وهذا يعني أن توسيع تعريف المثقف، واضحا كان أو يشوبه الاضطراب، لا يختلس من المثقف وظيفته الاجتماعية، التي تميّزه عن غيره من المنتجين، القائمة على التنظيم والإقناع والإدارة. وذلك لأن "الاختصاص في موقع الإنتاج لا يمنع عن المثقف المختص تصورات سياسية تعيد إنتاج عملية الإنتاج، أو تقترح بدائل لها"

161.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

وبسبب ذلك يكون المثقف الحديث عند غرامشي مزيجاً من مختص وسياسي يذهب من التكنيك، إلى العلم، ثم إلى التصور الإنساني التاريخي، الذي من دونه يبقى المرء مختصاً ولا يصبح قائداً¹⁶². وتتخذ مفاهيم غرامشي كلها من الدولة مرجعاً لها، بما يجعل الحديث المفصل عن المثقف حديثاً عن الدولة، كما لو كانت دفاتر السجن، التي تفتح على سؤال المثقف، ترى في السؤال الأخير مدخلاً إلى حديث أوسع وأكثر أهمية، هو الحديث عن الدولة ف "إذا كان سؤال المثقف علاقة داخلية في سؤال الدولة فإن ما يربط بينهما، بشكل لا متكافئ، هو وظيفة المثقف الاجتماعية التي تنطوي، في وجوهها المختلفة، على وحدة الاختصاص والسياسة، من حيث هي وظيفة هيمنية"¹⁶³.

إن وظيفة الهيمنة الطبقية، التي تستدعي الايدولوجيا في شكلها النظري والعملي، هي التي تقود غرامشي إلى الانقطاع عن التصور المثالي، الذي يساوي بين الوهم والايديولوجيا، الذي طوّره لويس ألتوسير Louis Althusser لاحقاً في دراسته عن "الدولة وأجهزة الدولة الإيديولوجية".

لقد ربط غرامشي الوجوه الواعية في الايدولوجيا بوجوهها اللاواعية التي تتكشف، مادياً، "في الممارسات والمعايير الثقافية محققة، تحت أشكال مختلفة، التوحيد الاجتماعي، كما لو كانت ملاطاً طبقياً، لا وجود للترابط الاجتماعي من دونه، وبهذا تنزع الايدولوجيا، إلى تعميم تصور طبقي للعالم على الممارسات الاجتماعية المختلفة"¹⁶⁴، ويتجلى، بشكل واضح، في مجالات الفن والحقوق والحياة الاقتصادية وفي جميع تحليلات الحياة الفردية والجماعية. في هذه الحدود، "التي تنزع إلى توحيد المجتمع المدني ومجانيسته،

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

تتخذ الهيمنة شكل تنظيم الجماهير، الذي يواجه أشكال تنظيم أخرى، تدعو إلى الثبات والاستقرار" ¹⁶⁵.

إن سؤال الهيمنة يتضمن سؤال المجتمع المدني الذي يعارض ويوافق المجتمع السياسي، أي الدولة، الأمر الذي يجعل المجتمع المدني حيزًا للصراع بين الهيمنة القائمة والهيمنة البديلة. ولهذا يقدم غرامشي أطروحتين أساسيتين. تقوم الأولى منهما على أن "تأمين الهيمنة السياسية، وهي وجه آخر للهيمنة الإيديولوجية، شرط للوصول إلى السلطة" ¹⁶⁶. وتقوم الأطروحة الثانية على أن "شكل السلطة، ومضمونها، صورة عن شكل الوصول إليها" ¹⁶⁷. وهو في هذا يرمي إلى دولة ديمقراطية جديدة قوامها الإقناع لا السيطرة والقهر. فالدولة، في منظوره، لا يمكن إرجاعها إلى أجهزتها القمعية، بل تتضمن جملة من مؤسسات المجتمع المدني مثل: الكنائس، المدارس، النقابات الخ. وهو ما يضع في اجتهاده النظري، لزوماً، نظرية عن أجهزة الدولة الهيمنية، منتهيا إلى طرح سؤال المدرسة واللغة والفن والثقافة بشكل عام، من وجهة نظر جميع الفئات الاجتماعية، التي تتوجه إليها الإستراتيجية الهيمنة الجديدة" ¹⁶⁸. ولهذا فإن غرامشي يتحدث عن الهيمنة الأخلاقية والسياسية، التي لا يمكن اختصارها في الهيمنة الاقتصادية، ولا في مصالح الطبقة المسيطرة. ولقد أتاح تأمل الفوردية ¹⁶⁹، من حيث هي تنظيم عقلي للنظام الإنتاجي والمجتمع، لأنطونيو غرامشي أن يرى "العلاقة بين الهيمنة والبنية التحتية (المصانع)، بديلاً عن تصور يقرن الهيمنة بالبنية الفوقية. إن هذه المصانع، التي تحجب الاستغلال المتزايد بشعار عقلنة وإعادة التنظيم، تولد

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

جهازا هيمنيا خاصا يكرّس القيم الداعية إلى الفاعلية والانضباط، منتهيا إلى وحدة منهج العمل ونمط الحياة، كما لو كان على العامل أن يمتثل إلى إيديولوجيا عملية تساوي بين خارج المصنع وداخله. وبهذا يصبح العمل الإنتاجي متحكما في طرق التفكير والتعامل مع قضايا الحياة، وتصير الفورية منهجا في العمل والثقافة، إن لم تصبح للثقافة علاقة اقتصادية، تطرد سؤال السياسة ولا تحتاج إليه" ¹⁷⁰.

بناء على وحدة منهج العمل ونمط الحياة، "تتحول الهيمنة جدليا، إلى أداة قمع منظّم، داخل المصنع وخارجه، ملغية دلالة الحضارة التقنية، التي تبشر شكليا بالتقدم، ومستعيدة عبودية قديمة في شكل جديد" ¹⁷¹، والقارئ لغرامشي يتمكن أن يلمس علاقة واضحة بين "وظيفة الخبير التقني الذي ينظم عقلانيا إنتاج المصنع الحديث، والجهاز الكهنوتي في الدولة الإقطاعية" ¹⁷².

هذا وقد حلل غرامشي، في بحثه عن معنى المثقف في الدولة الإقطاعية، الدور القمعي للجهاز الثقافي الكنسي المهيمن، الذي كان يقوم بوظيفتين: الأولى قمعية، تصدر عن احتكار الكهنة للعلوم والمعارف والتشريعات بما يخدم مصالح الدولة الإقطاعية، والثانية اجتماعية، تتوجه إلى الطبقات التي ترى في الدين ورجاله مرجعا طوعيا لها، تنصاع له وتقبل بإرشاداته. كانت الوظيفة الأولى، التي يتبادل فيها القمع والهيمنة المواقع، أثرا للعلاقة بين الكنيسة، التي تنتج طوائف المثقفين، وجهاز الدولة الإقطاعية، لكنها كانت، أولا، نتيجة لهيمنة الكنيسة الإيديولوجية" ¹⁷³.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

إن هذه الملاحظات تفسر تداخل آليات القمع والهيمنة في نمط الحياة الأمريكي، حيث "المؤسسات الاقتصادية والسياسية تحتكر الأجهزة الإعلامية التي تخترق المجتمع المدني وتسيطر عليه" ¹⁷⁴. وبالنسبة لسعيد الذي أراد أن يكون صوتا للمهمشين، واللامثليين، والمحرومين، فإن الأجهزة الإعلامية التي يقع عليها سيل من المعلومات الصادرة عن الدوائر الاحترافية، لا تولي أي اهتمام لهذه الفئة من البشر. كما أراد سعيد أيضا في السياق الثقافي إعادة الدور الاجتماعي للمثقفين، معتمدا على فكر غرامشي المنصرف إلى موضوع المثقفين باحثا عما كان يدعو المثقف السياسي للطبقة العاملة، حيث يصبح هذا المثقف مساويا لإنجازاته الطبقي.

ويعتبر كتاب خيانة المثقفين The treason of the intellectuals، الذي يزخر بانتقادات لاذعة وهجمات على المثقفين الذين تعاونوا مع النازية، للمثقف الفرنسي جوليان بندا المعادي للشيوعية، والمتأثر نفسيا وفكريا بقضية الضابط اليهودي ألفريد ديفروس، الذي اتُهم ظلما وأدين بتهمة ظلمة، ويمثل ذلك اختبارا عسيراً للمثقفين، حيث كان ينبغي عليهم الاختيار، إما إدانة علانية للحكم العسكري الظالم، وإما الانسحاق كالتطيع ورفض الدفاع عن الضابط المتهم ظلما وبهتاناً ¹⁷⁵. إن جوليان بيندا هو الذي يرى بأن الأهواء السياسية التي تفرض على المثقفين هي بمثابة انحياز وهو جوهر خيانتهم، وهذا الأمر هو الذي يشوه الدور المحايد الذي يجب على المثقفين التمسك به. ففي هذا الصدد يعتقد بيندا بأن المثقفين تأثروا بأهوائهم، وأتاحوا لها الاختلاط بأعمالهم وكانت المكوّن الجوهرية لأعمالهم ¹⁷⁶.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

وفي الحقيقة، فإنه لم يكن هنالك مثل هذه الكثرة من الأعمال السياسية بين تلك التي يفترض بها أن تكون مرآة للفكر غير المتميز. بل إن جوليان بندا لم "يخف قط مقتته الشديد للاشتراكية والطبقة العاملة، وما يرتبط بهما، مساويا بين الطبقات العاملة ونشر الكراهية في المجتمع" ¹⁷⁷.

أراد إدوارد سعيد في هذا التصور، الذي يثير الكثير من الفضول، أن "يعلن عن مقاربات شديدة الذاتية تتيح له أن ينتقل، من مفكر إلى آخر، بعيدا عن المؤلف" ¹⁷⁸. ولعل هذه الذاتية الجاحمة، التي تضع الذات الشرقية ومقولات المعرفة في حقل واحد، هي التي تضيء، ربما إعجاب إدوارد سعيد الشديد بفيكو الذي قال بالديوي والتاريخي وبإمكان البشر معرفة ما يصنعونه والسيطرة عليه.

وما يثير التساؤل في هذا الشأن قائم في اتجاهين: الأول هو أن خطاب فيكو، المحدد بزمانه، لم يكن متحررا من الأساطير والميتافيزيقا، فقد رأى أن معرفة الطبيعة والسيطرة عليها شأنان من شؤون الله، طالما أنها خلق إلهي لا علاقة للبشر به، والثاني هو أن ما جاء به فيكو تم تجاوزه وتطويره في فلسفات كانط وهيغل وماركس، مما يجعل من الموسوعي الإيطالي لحظة من لحظات عصر التنوير الأوروبي ¹⁷⁹.

ولن يختلف الأمر في موقف إدوارد سعيد من كارل ماركس، الذي حرر النظر إلى العالم المادي من وجهه الميتافيزيقي متجاوزا كليا فيكو الذي احتفظ تصوره الديوي بكثير من الفولكلور، مثلما أشار الفيلسوف إرنست بلوخ. وواقع الأمر أن الانتساب، حتى لو كان جزئيا، إلى فكر غرامشي، يقضي بوضع هذا الأخير في سلسلته النظرية السياسية

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

التي تحتفي ماركس وانجلز ولينين وغيرهم، وهو ما لا يكتسب له إدوارد سعيد، مقصيا ما شاء وقابلا بما يريد. مصيرا غرامشي إلى مثقف نقدي بين مثقفين آخرين.

ولهذا فإن سعيد، وهو قارئ غرامشي بشغف كبير، لن يلتفت للنقد الذي وجهه هذا الأخير إلى جوليان بندا : "إن بندا، مثل كروتشي، يعاين وظيفة المثقفين دون أن ينظر إلى وضعهم الطبقي..."¹⁸⁰ . والمقصود ههنا هو أن جوليان بندا Julien Benda، "يستبدل الطبقي الإنساني وبالتحديد السياسي برومانسية تبصر أرواح المثقفين لا وظائفهم في مجتمع رأسمالي متقدم"¹⁸¹.

وبهذا فإن إدوارد سعيد، الذي لا تنقصه الرومانسية، يتعالى على الطبقات ويظل بذاته الشرقية، منغمسا في جرده الذاتي وفي سياسة مطابقة لها. وهذا الحوار الثنائي والصعب بين الرومانسية والسياسة، هو الذي قاده في كتابه صور المثقف إلى حديث مطول عن الجمهور الذي يحتاج إلى المثقف ويحتاج إليه هذا الأخير، ذلك أن كل رسالة تحتاج إلى من يستقبلها"¹⁸² .

إلى أن مقولة الجمهور، التي تطرد مقولة الطبقة جزئيا لا كليا، تفصح عن ذاتها في حقل عصي يصعب تحديد عناصره مثل المعوزين والمحرومين واللامسموعين واللاممثلين والعاجزين، وهذا الحقل "يلائم في عموميته مثقفا أخلاقيا لا يرتاح إلى مقولات الطبقة والصراع الطبقي وحرب المواقع، ويرتاح إلى مقولات الحق والحقيقة"¹⁸³.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

وقد أقام إدوارد سعيد في مقابل خطاب غرامشي الدقيق والمحدد، خطابا آخر يستلهم غرامشي ويتحرر منه، و"يستبدل المثقف العضوي بالمثقف الهاوي والطبقة العاملة بالجمهور وبالثورة الاشتراكية للدفاع عن الحق" ¹⁸⁴.

إن مقولة المثقف الهاوي، تجعل منها صوتا أخلاقيا كونيا، أو إنسانيا يدافع عن المضطهدين في جميع أنحاء العالم. بناء على هذه العمومية الأخلاقية، فإن المثقف يتحول "إلى ذات مفردة شديدة الفردية، وتصبح فرديته المطلقة، شرط وظيفته الإنسانية" ¹⁸⁵.

يكون إدوارد سعيد، في هذه الحال، نقيضا للمثقف الجمعي الذي أراده غرامشي، وبديلا عنه في آن واحد، "نقيضه بسبب فردية جامحة تضع المثقف الهاوي فوق غيره، وبديلا عنه لأن في قوله ما يعبر عن تطلعات جميع الناس المحتاجين إلى الحق والحقيقة" ¹⁸⁶. وفي هذا الإقتران بين الفردية والقدرة على الإعلان عن الحق، فإن المثقف الهاوي قوام على المثقف الجمعي وبديل عنه، طالما أن (قول الحق أكثر قوة وصلابة من قول السلطة حسب تعبير إدوارد سعيد). ولعل أقواله المتواترة عن الحق والحقيقة والعدل، والتي تملأ كتابه صور المثقف، وبصفة خاصة ما يكشف عن "خطاب أخلاقي لا يأتلف مع الخطاب السياسي، الذي هو مبتدأ خطاب غرامشي ونهايته، ولا يتفق مع تصور مادي تاريخي، يشتق المثقف من تاريخ اجتماعي محدد يربط بين وظائف المثقفين والطبقات الاجتماعية" ¹⁸⁷.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

إن مفهوم إدوارد سعيد عن الهيمنة يذوب، في أثر اليوتوبيا Utopique ، بسبب الأداة المفردة التي توكل إلى ذاتها الدفاع عن الحقيقة. فإذا كان حديث غرامشي "المشغول بغزو المجتمع المدني يعطف، نظريا وعمليا، على أجهزة تنظيمية تكافح مجتمعة من أجل هيمنة بديلة"¹⁸⁸ ، فإن إدوارد سعيد "يختزل الأجهزة الهيمنية المغايرة في ذات مفردة، تمثل اللامثليين الذين لا يمتلكون ثقافة المثقف وبلاغته"¹⁸⁹.

وبهذا المعنى، "يكون التحول السياسي المجتمعي شرطا لإنجاز الهيمنة البديلة الأولى (المشروع الحزبي)، بينما تظل الهيمنة الثانية مرتبطة بمقاصد المثقف وأخلاقياته". والسؤال هنا: "إذا كانت حرب المواقع تشكل علاقة داخلية في مفهوم الهيمنة، مثلما بين أندريه توزل، فما هي أدوات إدوارد سعيد التي توحد بين المفهومين ؟ "¹⁹⁰. يظل الجواب مستحيلا، طالما أن حرب المواقع إستراتيجية كفاحية جماعية، طويلة الأمد، لا تتعلق بالأفراد.

وهذه الأسئلة برمتها، تتعلق بالفرق بين إشكالي غرامشي وإدوارد سعيد. حيث كان الأول مشغولا بـ "إستراتيجية الثورة الاشتراكية في غرب رأسمالي متقدم له تقاليد ديمقراطية"¹⁹¹، يختلف عن شرق يغايره في الاتجاهين، بينما انطلق الثاني من تجربة أكاديمية ذاتية ساءلت أكاديميين غربيين ينشرون، قديما وحديثا، معرفة تشوه الشرق وتسوغ السيطرة عليه، فلم يرد بالكتابة، على القول بالهويات المغلقة، ولا على التحزب الغربي بتحزب

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

إيديولوجي شرقي، بل رد على ذلك "بثقافة إنسانية لا مركز لها، تعترف بكل جهد ثقافي يرفض التراتب ويقول بمساواة البشر" ¹⁹².

وفي هذا المنظور، الذي يحتفي بإنسانية جديدة محتملة، كان إدوارد سعيد "يستأنف ثقافة عصر التنوير الأوروبية الكلاسيكية، كما لو كان مثقفا من القرن الثامن عشر يعيش في القرن العشرين، مع إضافة نوعية حاسمة: فإذا كان التنويري الأوروبي الكلاسيكي قد ساوى بين الإنساني والأوروبي لا غير، فقد شاء إدوارد سعيد، الذي ندد بالمركزية الأوروبية، أن يساوي بين الشعوب جميعا" ¹⁹³.

كان طبيعيا، في منظور عابر للثقافات واللغات والشعوب، أن يدرج إدوارد سعيد في خطابه المساهمات التي "تنطلق من الجوهر الإنساني وهي مقولة برجوازية تنويرية، وأن يرجع أيضا مساهمة غرامشي، التي تنقض البرجوازية بمشروع بروليتاري، إلى مساهمة تنويرية تقبل بها المقولات البرجوازية التنويرية المتعددة" ¹⁹⁴. تأتي فتنة إدوارد سعيد، ربما، مثلها مثل الارتباك المنبعث عن قراءته، من توزيعه على أزمنة غير متجانسة، فهو تنويري القرن الثامن عشر في نهاية القرن العشرين، وهو المثقف النقدي المتورط مع الهنا (المكان) والآن (الزمان)، وهو المثقف الذي يضع المستقبل في الحاضر" ¹⁹⁵.

لم يكن إدوارد سعيد، في ممارسته الفكرية، بحاجة ماسة إلى غرامشي، بل إن حذف هذا الأخير من أعمال سعيد لا يغير في دلالتها، لأن دور أفكار غرامشي هو البرهنة صحة أفكار سعيد ليس إلا.

المبحث 1: تأثير فيكو و غرامشي في فكر إدوارد سعيد

وما يربط بين هذين الطرفين، وهو رباط محدد يتجلى في "العلاقة الواسعة بين المثقف والمجتمع، التي تضع غرامشي إلى جانب نعوم تشومسكي، وتضع هذا الأخير إلى جانب فرانز فانون. وهذه العلاقة التي تؤكد حق الإنسان في العيش الكريم"¹⁹⁶، وهي الصفة التي تربط كل المثقفين مع بعضهم البعض.

تتسم جملة غرامشي (الجرد منذ البداية)، والتي استهل بها إدوارد سعيد كتابه الإستشراق، بأهمية خاصة في مساره الثقافي، ويمكن تلخيصها في أن كتابات سعيد النظرية المتعددة تحتوي على بعدين غير متكافئين، يتجلى أحدهما في دراسات أدبية لامعة، ويتمثل ثانيهما في سيرة ذاتية فكرية تتدخل في صياغة الأسئلة الأدبية وإجاباتها. ويتجلى الثاني الذي أتاح لغرامشي أن يتسلل إلى كتابات إدوارد سعيد، كي "يكون حاضرا وغائبا معا، طالما أن قوله كله محكوم بمقاصد وغايات صاحب السيرة، الذي تقرر فرديته الجامعة مكان الآخرين والحيز المسموح لهم باحتلاله"¹⁹⁷.

ولهذا السبب لا يحضر غرامشي حضورا حقيقيا في النصوص الأساسية التي كتبها إدوارد سعيد مثل الإستشراق، العالم والنص والناقد، الثقافة والإمبريالية، حيث نجد "ظله حاضرا ويهمس لإدوارد سعيد، بصوت خافت، وبجملة لاقت هوى في نفسه، جسدها في سيرة ذاتية فكرية، تعلن أن على المضطهدين أن يكتبوا أحرارا التاريخ الخاص بهم"¹⁹⁸.

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغولونيا: _____

لقد ظل حضور فرانتز فانون في كتابات إدوارد سعيد هامشيا إذا اقتصر اهتمامنا على اتباع ما ورد عنه في تلك الكتابات، واغفلنا الدلالة الأهم للاقتراب التدريجي والمتزايد من مشروع فرانتز فانون.¹ إن قراءتنا لمشروع فرانتز فانون، وتطلعه لمواصلته، وهو اقتراب متزامن مع اضطلاع إدوارد سعيد بشكل متصاعد بدور سياسي على وجه الخصوص والدقة.

ونلاحظ في الواقع أن كتابات إدوارد سعيد المبكرة كانت خالية من أفكار فرانتز فانون، وذلك بالرغم من بعض الإشارات العابرة له هنا وهناك في كتاب سعيد الأول، البدايات: القصد والمنهج 1975، وأخرى في المقابلة التي أجريت معه في عام 1976 في أعقاب نشر كتابه بدايات: القصد والمنهج². لقد بقي فرانتز فانون غائبا في الكتب الأخرى لسعيد كالإستشراق 1978، والمسألة الفلسطينية 1969، وتغطية الإسلام 1981، إلا أنه في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، تعددت الإشارات لفرانتز فانون في كتابات إدوارد سعيد، وخاصة منها كتاب فانون الضليع، المعذبون في الأرض Les damnés de la terre، إلى أن "أصبح فرانتز فانون المارتنيكي والمجاهد واحدا من أهم المرجعيات الأساسية في فكر إدوارد سعيد، حاضرا دائما في الخلفية، كنموذج من النماذج البارزة لمثقف العالم الثالث المرتبط بدور كفاحي"³.

في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم 1961/12/12 "رفع خمسة عشر من الجنود الجثمان على نقالة مصنوعة من فروع الأشجار، ساروا بها عبر الأحراش قاصدين أراضي الجزائر. عبروا الحدود الجزائرية التونسية تحرسهم من فوق التلال المشرفة قوات من ثوار جيش

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكونغواليا: _____

التحرير. ولم يكن ذلك العبور ممكنا دون اتصالات رسمية بجهات متعددة، منها الحكومة التونسية، واستحكامات عسكرية، والأهم، احتضان أهالي المنطقة للموكب في منطقتهم المشتعلة بالحرب" ⁴.

توفي فانون بمرض اللوكيميا في 06/12/1961 عن عمر يناهز 36 عاما، ونقل جثمانه من أحد مستشفيات واشنطن إلى قاعدة من قواعد الثوار الجزائريين في تونس. وعلى بعد ست مائة متر داخل الأراضي الجزائرية تمت مراسم الدفن والتحية والوداع.

ولم تشر جريدة المجاهد الجزائرية التي وصفت وقائع الجنازة ومراسم الدفن تفصيلا، إن كان ذلك الشاب الباكستاني - أحمد إقبال - ذو الوجه المدور البشوش والجسد الناحل، والذي قاطع دراسته في جامعة برنستون بالولايات المتحدة ليلتحق بصفوف جبهة التحرير الجزائرية، قد صاحب الجثمان إلى مثواه الأخير، أو بقي في القاعدة، أو اقتضت مهامه في صفوف الثورة الجزائرية التواجد في مكان آخر ⁵.

لم يسجل أحمد إقبال تفاصيل تلك الأحداث، ولا نعرف إن كان قد نقل تلك التفاصيل إلى صديقه سعيد، في لقاءاتهما المنتظمة والمتكررة في نيويورك، ولكننا نعلم أن أحمد إقبال انظم إلى صفوف جبهة التحرير الجزائرية بين عامي 1960 و 1963 وعمل مع فانون، وكان عضوا في وفد مفاوضات استقلال الجزائر في مدينة ايفيان ⁶.

وفي عام 1968 التقى أحمد إقبال للمرة الأولى بإدوارد سعيد في الولايات المتحدة. فكان أحمد إقبال يعطي المحاضرة الأساسية في ندوة نظمها العرب، وكانت له مكانته

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكولونيات: _____

لمشاركته في حرب التحرير الجزائرية ولمواقفه النشيطة في حركة الحقوق المدنية (مسعى الأفارقة الأمريكيين في الستينيات للحصول على حق المساواة في الولايات المتحدة الأمريكية)، وحركة مناهضة الحرب في فيتنام. التقى الرجلان فكان اللقاء بداية لصداقة امتدت العمر كله.

وإذا أردنا معرفة العلاقة بين إدوارد سعيد وفرانتز فانون فلا بد أن نفعل ذلك مروراً بأحمد إقبال، "لأن أحمد إقبال هو الذي نبه إدوارد سعيد لقيمة فرانتز فانون فحسب، ولأن أحمد إقبال كان بالنسبة لإدوارد سعيد مصدراً أساسياً من مصادر خبرته بالعالم الثالث وسجل حركاته الكفاحية، لا يخل عليه بنصح أو مشورة ويكاد يشكل له بوصلة سياسية من نوع ما"⁷، بل لأن هذا الباكستاني النحيل الذي اشترك مع فرانتز فانون في ثورة الجزائر وصادق إدوارد سعيد، كان يشكل حلقة وصل تتيح استمرارية نموذج للمثقف الناقد المرتبط بقضايا التحرر عموماً، والتحرر الوطني تحديداً"⁸.

وينبغي علينا، إذا أردنا معرفة العلاقة بين إدوارد سعيد وفرانتز فانون أن نتوقف عند هذه العلاقة النادرة في دلالتها ومفاهيمها، والمهمة في عبرها، بين حياة الرجال الثلاثة: فرانتز فانون وأحمد إقبال وإدوارد سعيد، ثلاثة مفكرين محملين بآثار التجربة الكولونالية، "فضلوا أن يلتقي وعيهم بتجارب أوطانهم بما تحصلوا عليه من معارف وخبرات في العواصم الغربية، لتنصب في تكوين مشروع فكري كبير ملهم للمثقف مهموم ومسكون بمخلفات الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى. يتعدى لقاء هؤلاء الرجال اللقاءات الشخصية المنفردة والجماعية، وتلك الزمالة التي جمعت فرانتز فانون بأحمد إقبال في صفوف جبهة التحرير

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

الجزائر لعام أو عامين، والصدقة التي ربطت إدوارد سعيد بأحمد إقبال لعدة عقود، إلى تماس أعمق نجده في ذلك الرباط بين سير حياتهم وإنتاجهم والتواصل القائم بين مشروع كل منهم كأنه سلسلة في مشروع كبير واحد" ⁹.

كانت حياة فرانتز فانون (1925-1961) حافلة ومعبرة ومؤثرة في تاريخ الكفاح ضد الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى التي عرفها القرن العشرين. ولد فرانتز فانون في المارتنيك لأسرة يتيح لها عمل عائلها تعليم أولادها تعليما كولونياليا في المدرسة الفرنسية ¹⁰. وقد عبر فانون من البراءة إلى التجربة، ومن وهم كونه فرنسيا إلى التعرف على واقع العلاقات الاستعمارية، في فرنسا يكتشف فرانتز فانون لون بشرته السوداء، والغربة الكامنة في هذا اللون، والعنف العنصري، فيكتب وهو في السابعة والعشرين من عمره كتابه الأول: بشرة سوداء أقنعة بيضاء عام Black Skin White Masks 1952 وفي عام 1953 ينتقل فرانتز فانون للعمل كطبيب نفسي في مستشفى البلدية جوايفيل Joinville، المستشفى الشهير في الجزائر لعلاج الأمراض النفسية والعصبية، ثم يترك عمله فيها بخطاب الاستقالة الشهير:

"لما يقرب من ثلاث سنوات وضعت نفسي وبشكل كامل في خدمة هذا البلد وسكانه، لم أوفر جهدا ولا اهتماما. ولكن ما جدوى الحماس والتفاني إن كان الواقع اليومي مجرد نسيج من الأكاذيب والخسة وازدراء الإنسان...؟ وإن كان الطب النفسي هو الأداة الطبية التي تهدف إلى تمكين الإنسان من تجاوز غربته في البيئة المحيطة به، فعلي أن أؤكد أن العربي غريب بشكل دائم في بلاده، يعيش في حالة من الاغتراب المطلق... لشهور عدة كان

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكلونياليا: _____

ضميري موقعا لسجال لا يغتفر، انتهى بالعزم على ألا أئأس من الإنسان، أي ألا أفقد الأمل في نفسي" ¹¹.

وكان رد فعل السلطات الاستعمارية الفرنسية المباشر على هذه رسالة فانون المتعلقة بالاستقالة هو طرده من العمل في الحكومة الفرنسية، ثم إنذاره بمغادرة الجزائر خلال 48 ساعة، ولكن فرانتز فانون كان قد انتقل فعلا قبل هذا ذلك - أكثر من عام من تقديم استقالته - إلى موقع آخر، حيث انظم إلى جبهة التحرير الجزائرية، ولكي لا يفقد الأمل في نفسه (كما قال في رسالة الاستقالة) كان يعمل مع الثوار الجزائريين في قواعدهم المختلفة، إذ نجد فانون رئيسا لتحرير الطبعة الفرنسية من جريدة المجاهد، الناطقة باسم الثورة الجزائرية حيناً، وممثلاً لجبهة التحرير الوطني في أكثر من محفل دولي حيناً آخر، ومكوناً لحلقات الاتصال المتعددة بين جبهة التحرير الوطني والقوى التحررية وحركاتها في غرب أفريقيا حيناً ثالثاً. ومن مقر فرانتز فانون المؤقت في تونس أخذ ينتقل بجواز سفر تونسي باسم عمر إبراهيم فانون كان قد صدر في تونس يوم 10/08/1958 تنتهي صلاحيته في أوت 1963. وقبل عام ونصف من انتهاء صلاحية جواز سفره استقر فرانتز فانون نهائياً، في قبر حميم في الجزائر تنفيذاً لوصيته التي كان قد أوصى بها من قبل ¹².

وخلف لنا فانون حكايته الفردية والاجتماعية والفكرية في آثار دونه مفكرون آخرون من بعد مماته، منها ثلاثة كتب : بشرة سوداء أقنعة بيضاء ¹³ 1952 العام الخامس للثورة الجزائرية ¹⁴ 1959 والمعدبون في الأرض ¹⁵ 1961 ومقالات متفرقة في جريدة المجاهد

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

الجزائرية، بعضها يحمل اسمه، والبعض الآخر منها بدون توقيع، ومقالات ومدخلات ثقافية وعلمية لم يجمع منه إلا القليل في كتاب رابع هو من أجل الثورة الإفريقية 1964¹⁶.

وما يركز عليه فانون في كتاباته، يمكن ملاحظته في أربعة مواضيع أساسية: أولا الآثار النفسية الجسيمة للوجود الاستعماري بما في ذلك عنصريته، وثانيهما موضوع المقاومة، ففي هذا الشأن يسجل فانون بعض الوقائع والملاحم، والجدل الخلاق بين الثقافة التقليدية وما تشكله في حومة المقاومة الشعبية من عناصر ثقافية مستجدة، ويعتمد فانون أساسا على خبرته في الحرب التحريرية الجزائرية، وأما الموضوع الثالث فهو قضية الثقافة الوطنية وتكوين المثقف في البلاد المستعمرة التي تسعى لنيل استقلالها، وفي المقام الأخير، نجد موضوعات تتضمن سلبات الحركات التحررية الوطنية، وما يترتب عنها على صعيد الدول المستقلة حديثا، وهذا من هدف التدخل لوقف تدهور هذه الحركات باتجاه استقلال لا يحقق الاستقلال، وقيادات تستبدل بالمستعمر بسلطانها المستبد¹⁷.

ويبرز الموضوعان الأخيران في كتابه الثالث والأخير وهو كتاب المعذبون في الأرض الذي ولد ميتا بحيث حجزته السلطات الاستعمارية الفرنسية وهو ينسخ في المطبعة كما منعت توزيعه، ويجب الإشارة هنا أن المفكر الفرنسي جون بول سارتر هو الذي قدّم للكتاب. وكانت كتابات فانون جزءا لا يتجزأ من مساعي الشعوب المستعمرة للتحرر في الخمسينيات وفي مطلع الستينيات من القرن الماضي¹⁸.

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغواليا: _____

وإذا حاولنا إعادة النظر في الصورة الاستعمارية الشهيرة والمعروفة وهي التي صورت (السير سيسيل رودس) وهو يقف فوق القارة الإفريقية مفتوح الرجلين: الأولى فوق مدينة الكاب أو الرأس الأخضر CAP-VERT في أقصى جنوب القارة الإفريقية، والثانية فوق مدينة القاهرة، في أقصى شمال القارة، الأمر الذي يشير إلى أن القارة الإفريقية موحدة في ظل السيطرة الاستعمارية، فإننا نلاحظ بأن فانون ابن جزر الهند الغربية، وسليل العبيد المقتلعين من القارة الإفريقية، يعود إلى مسقط رأس أسلافه، لا بمنطق الحركة الصهيونية السودان ليقوم بقلب تلك الصورة الاستعمارية¹⁹، حتى يتمكن من تمجيد جوهر الذات السوداء، بل يعود فانون إلى شمال إفريقيا (الجزائر) للمشاركة في ثورتها الجيدة والعظيمة بتنظيمها وفعاليتها على المستويات المختلفة، مع العلم بأنها الثورة التي واجهت إحدى أكبر القوتين الاستعمارييتين والأكثر رسوخا وشراسة. ومن ثمة فقد قام فانون بتقديم رواية بديلة ومناقضة أي أنه قام بقلب الصورة للسير سيسيل رودس حيث وضع قدما في المارتنيك في تجربة الأفارقة الأمريكيين عموما، والأخرى في الجزائر العربية المسلمة²⁰.

إن تاريخ فانون، وهو الشاب المارتينيكي ومن المفكرين الكبار في العالم الثالث، واحد من منظري الثورات. أخذت بيده الحركة السوداء في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات ومطلع السبعينات القرن الماضي، وتلقفت تجاربه، وهكذا لم يعرف أحمد إقبال فرانتز فانون من خلال زمالته في حرب الجزائر فقط، بل على الأرجح أنه، تعرف عليه وتقرّب منه في أوساط الأفارقة الأمريكيين وحركة الحقوق المدنية، وكان مثل باقي المشاركين والمساهمين في تلك الحركة، يرى أحمد إقبال في كتابات فرانتز فانون نبراسا يهتدى به²¹.

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكونغولونيا: _____

وأما أحمد إقبال (1933 – 1999) فقد كان أكثر تركيبا وامتدادا، بالمقارنة مع فرانتز فانون، وهو ابن شبه القارة الهندية وعاش في طفولته المسعى الشعبي للتحرر من الاستعمار البريطاني، وكذلك واقع العنف الطائفي الذي انتهى بإنشاء دولة باكستان. وكان أبوه من المقربين جدا من المهاتما غاندي وحزب الكونغرس وكذلك أمه. ولكن الصغير - أحمد إقبال - كان أيضا متأثرا بإخوته المساندين للرابطة الإسلامية. واتبع اتباع المهاتما غاندي عام 1946 عندما زار مقاطعة بيهار، في محاولة لوقف الفتنة الطائفية، كان غاندي يزور القرى المدمرة، ويصطحب معه الأطفال المسلمين والهندوس وينتقل بهم من قرية إلى أخرى، محاولة منه لتأكيد الوحدة الوطنية²². يقول أحمد إقبال: "رافقت غاندي لما يقرب من ستة أسابيع... كنت على اتصال يومي به. أتمنى الآن لو كانت الأمور أكثر وضوحا في عقلي. آنذاك وأنا في الثالثة عشر من عمري، كنت متحمسا لأنصار القومية الباكستانية. لم أكن أرى في غاندي سياسيا صديقا لنا، لأنه كان زعيم حزب الكونغرس. كنت متأثرا في موقفه هذا بأشقائي الذين اتجهوا إلى مساندة الرابطة الإسلامية، ذهبت مع غاندي لأن أمي وأبي كانا مرتبطين بحزب الكونغرس. كان يجب أن أتعلم ولكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بذلك"²³.

لقد تعلق الطفل أحمد إقبال بغاندي دون أن انتماءه له كل الانتماء، وبدون أن يستوعب كل دروس المهاتما غاندي، "فهو لا يدري في براءته إن كان عليه أن يفتح قلبه لدرس المهاتما غاندي أو يغلقه في وجهه، وإن انتبه لشخصيته الأسرة ولحبة جاذبة لكل من يقترب منه، لا يخشونه بل يحبونه ويتبعونه"²⁴، وتباعد الاضطرابات الطائفية وبداية الهجرة الجماعية

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغرياليا: _____

للمسلمين إلى دول أخرى وخاصة منها أمريكا، ومع إنشاء دولة باكستان، تبع أحمد إقبال أخاه الأكبر منه سنا إلى الدولة الجديدة، أما الأم فقد رفضت مغادرة البلد الأصلي الهند²⁵.

تبدو لنا عدم أهمية هذه التفاصيل في البداية، وخارجها عن موضوعنا، ولكن يمكنها أن تفسر لنا انتماءات أحمد إقبال العميقة لثقافته وللعالم الثالث، وفي ذات الوقت، فهو من بين المقيمين في مكان آخر (الولايات المتحدة الأمريكية). وهو يعي كل الوعي بأن مكانه هناك أيضا على الجانب الآخر من الحدود الباكستانية: وهو الهندي الباكستاني، المسلم ولغته الأردية، له تراث ممتد في الثقافة الفارسية، وهو عربي الهوى والدراسة والتجربة، ومن المدرسين في الولايات المتحدة، وهو الذي قاطع دراسته للالتحاق والمشاركة في الثورة الجزائرية، وتسببت مواقفه أثناء حرب 1967 بتجنب الأساتذة الأمريكيين له وعزلته داخل الجامعة التي كان مدرسا فيها، وجلب له نشاطه في معارضة الحرب في تهمة ملفقة، مفاذها بأنه حاول مع اثنين من القساوسة بخطف هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي السابق، ثم برأته المحكمة فيما بعد من التهمة. يساهم أحمد إقبال باستمرار بقلمه ومواقفه في شرح الموقف العربي والحق الفلسطيني²⁶.

وهو من أنصار حركة مناهضة الحرب الأمريكية على الفيتنام، ومن بعد هذا هو من المساندين للقضية البوسنية وأهلها، ويكثر من الترحال، فهو حيناً في الفيتنام، وحيناً آخر إلى في إيران، وحيناً ثالث في لبنان، لكي يلتقي بقيادة المقاومة الفلسطينية، ويكتب أحمد إقبال بانتظام مقاله الأسبوعي في جريدة دونDOWN أي الفجر الباكستانية، كما يكتب في جريدة الحياة العربية التي تصدر في لندن ، وفي الأهرام ويكلي المصرية، وفي الجرائد والمجلات الأمريكية، ويرأس مجلة رايس أند كلاسRACE AND CLASS أي

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

الطبقة والعرق، ويدرس أحمد إقبال في كلية هاميشير في غرب ماساشوستس، وينام ويصحى دائما وأبدا على حلم إنشاء جامعة نموذجية في إسلام آباد، اختار لها اسم الجامعة الخلدونية، نسبة لابن خلدون، يناقش ما لا يحصى من المثقفين في التدابير الخاصة بإنشائها، ويفاوض السلطات الباكستانية على الأرض اللازمة لبنائها، يفتح الكبار من الأكاديميين في إمكانية الإسهام في إدارتها والتدريس فيها، إلى أن يداهم الموت في باكستان دون تحقيق هذا الحلم²⁷.

وكان أحمد إقبال دائما في قلب الأحداث، وهو الناشط والفاعل، وظل ممنوعا عليه الدخول إلى باكستان طيلة ثلاثين عاما، ويحتوي سجله الشخصي من بين ما شمل، حكما بالإعدام من المحاكم الموالية للحكم العسكري في باكستان²⁸.

ومن المفارقات المدهشة، كان أحمد إقبال في الهامش على طريقة كالجندي المجهول، أو كالحكيم شرقي قديم، تتوارى حكمته، ومعارفه الموسوعية وعطاؤه الكريم، في جسد نحيل القامة وصوت خافت، يخلع نعليه، ويربع رجله على الأرض، ويقدم حكمته للغير، ويحتفظ بالظل لنفسه، وكانت حياته كما كتب عنها إدوارد سعيد قائلا: "شعرا وملحمة، حياة مليئة بالطواف واجتياز الحدود، والعبور إلى حركات التحرر، حركات المقهورين والمضطهدين والمعاقبين بلا ذنب اقترفوه، سواء كان أولئك يعيشون في المدن المركزية الكبيرة أو في مخيمات اللاجئين، أو في المدن المحاصرة، أو تلك التي تقصف بالقنابل، أو القرى البائسة في الفيتنام والعراق وإيران، وأيضا بطبيعة الحال في شبه القارة

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكولونيالي: _____

الهندية. كان يملك معرفة واسعة وتفصيلية بالتاريخ، سواء كان تاريخ الولايات المتحدة أو تاريخ العالم الإسلامي...²⁹.

ولقد كان أحمد إقبال، كما يقول سعيد من "أكثر المحللين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، عمقا وفطنة في تحليله للإمبريالية والآليات المتحكمة في الدول ذات الإرث الكولونيالي في آسيا وأفريقيا"³⁰.

وما يمتاز به أحمد إقبال هو أنه كان رجلا شفهيا، يحاضر، ويكتب المقالات في الصحف، ويمنح المقابلات، ويتكرم بالمشورة بلا حدود، فلا يبقى له الوقت لقراءة الكتب. ما الذي أفعله ؟ يقول أحمد إقبال ردا على إلحاح إدوارد سعيد المستمر عليه لكي يجمع كتاباته المتناثرة هنا وهناك وفي كل مكان: "أرجوك، من أجلنا ومن أجل الشباب، حاول أن تضع في اعتبارك أنك فضلا عن كونك مخلوقا شفهيا، حكيما من حكماء المسلمين، وطائرا دائم الترحال... عليك أن تتذكر أنه لا يجوز أن تترك كلماتك في مهب الريح أو مسجلة على أشرطة المحاضرات والمقابلات، لابد من جمعها ونشرها في مجلدات يتسنى لكل قراءتها. أقول، عليك أن تفعل ذلك من أجلنا، تعد وتجمع وتنشر بما يسمح لأولئك الذين لم يتح لهم امتياز معرفتك أن يتعرفوا على موهبتك اللافتة فيعرفون أي إنسان أنت"³¹.

ويضيف سعيد قائلا أيضا: "وإن كان لي أن أحول اسمك يا إقبال إلى فعل أقول: أقبل علينا أكثر، لأن العالم بحاجة لك، نحن بحاجة لأعمالك الكبيرة عن الجزائر وشمال أفريقيا، عن فيتنام وعن باكستان والهند، وعن مقاومة الحرب في الولايات المتحدة

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

ومعارضتها، عن حركة الحقوق المدنية، وعن الشرق الأوسط، على الأقل، نظرية متكاملة عن الكفاح الثوري للقرن الحادي والعشرين. يصعب علينا أن نصبر ولكننا سنفعل إن وعدتنا بذلك. هل تعدنا ؟ !"³².

وللتنبية فقط، فإن إدوارد سعيد قد أهدى كتابه الثقافة والإمبريالية الذي نشر عام 1993 في صفحة منفردة بكاملها وبعبارة معبرة ومزخرفة: إلى إقبال أحمد، وقد فسر ذلك الإهداء بقوله: "إن ما يفهمه إقبال ليس تجربة الهيمنة الإمبريالية في كل أشكالها فحسب، بل أيضا الرؤية المبتكرة التي تطرحها المقاومة"³³، وكان هذا الإهداء، اعترافا من إدوارد سعيد بدور أحمد إقبال في تعرفه على ذلك الجانب الآخر: "جانب المقاومة، بما يجعله يضمه على غير ما حدث في الإستشراق كجزء أساس من حديثه عن الثقافة والإمبريالية، واعتراف ضمني أيضا بالنموذج النادر الذي يقدمه أحمد إقبال من موقع المقاومة"³⁴.

ومن جهة ثالثة، - بعدما تعرضنا لكل من فانون وأحمد إقبال -، فإن الحياة الفكرية لإدوارد سعيد (1935-2003) تدفعنا للتوقف بعناية متأنية على مجموعة من المفارقات المختلفة، إن حياة سعيد هو الآخر، مليئة بالحواجز والإجتيازات للحدود الجغرافية، وعבורا للمسافات وتجسيقاتها، من نواحي مختلفة، فولادة سعيد في القدس عام 1935 لأسرة بروتستانتية ميسورة الحال ماديا، كانت إقامتها في القاهرة، حيث نشأ الولد إدوارد في مصر في سياق كولونيالي، تلقى تعليمه في مدرسة الجزيرة بريب مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين في كلية فيكتوريا كوليدج، وكانت أسرته تنتمي لتلك الشريحة المعروفة في تاريخ

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكلونياليا: _____

مصر المعاصر باسم شوام مصر، الأقرب في وضعهم الاجتماعي إلى طبقة وسطى كبيرة متفرنجة، زاد من تفرنجها في هذه الحالة كون الأب يحمل جواز سفر أمريكيا. ثم انتقل الولد إدوارد في الخامسة عشرة من عمره إلى الولايات المتحدة ليدرس في مدارسها ثم جامعته الأكثر رسوخا (برنستون ثم هارفارد)، ويتخصص في الأدب الإنجليزي والمقارن. ويبدأ سعيد كتابه الأثير عن سيرته الذاتية بقوله: "تخترع جميع العائلات أبناءها كل واحد منهم قصة ومصيرا"³⁵.

يقول سعيد بأنه حتى عام 1967 لم يكن ميسسا، وإن هزيمة العرب في تلك السنة واحتلال الجزء المتبقي من فلسطين بعد تكتبها في عام 1948 كانت نقطة تغير في حياته، ويضيف بأنه للمرة الأولى منذ وصوله إلى الولايات المتحدة الأمريكية والإقامة فيها كطالب ثم كأستاذ جامعي، وجد عواطفه تحمله عائدا إلى العالم العربي عموما وفلسطين خاصة³⁶.

وكان لإبراهيم أبو لغد الأكاديمي الفلسطيني المعروف بأنشطته الفكرية والسياسية - أهدى سعيد له ولزوجته جانيت أبو لغد كتاب الإستشراق - الفضل نسبيا في عودة سعيد للممارسة السياسية التي جعلت منه فيما بعد ناشطا سياسيا بامتياز بسبب التعريف بالقضية الفلسطينية في الغرب ولغته، وقد طلب إبراهيم أبو لغد من سعيد أن يكتب مقالا عن القضية يضمه كتابا يقوم بإعداده، فكتب سعيد عن صورة العربي في الإعلام، وكانت هذه المقالة هي بذرة أولى لثلاثيته التي ستصدر أجزائها تباعا بعد ذلك، وهي الإستشراق 1978، ومسالة فلسطين 1979، وتغطية الإسلام 1981، وستدخل جميعها في

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغرياليا: _____

سياق اهتمامه الذي لم ولن ينقطع عن تمثيله للقضية الفلسطينية في إنتاجه المكتوب والمصور، سواء كان ذلك فنيا أو إعلاميا³⁷.

إن حياة إدوارد سعيد كانت مختلفة تماما عن حالات فانون وأحمد إقبال في الكثير من العوامل، فقد جاء وعي سعيد في سياق هزيمة العرب 1967، وفشل ثورة الطلبة والعمال في أوروبا 1968، ثم تراجع القوى الثورية المستمر على المستوى العالمي ابتداء من النصف الثاني من السبعينيات القرن الماضي.

وعندما نشر كتاب الإستشراق كان "عقدان ثوريان من انطلاقة الثورة الجزائرية عام 1954 إلى سقوط سايجون 1975 قد انتهى، وشهدت الثمانينات من القرن الماضي هيمنة قوى اليمين ممثلة في التاتشيرية³⁸، والريغانية³⁹، وضربت الحركات المعادية للعنصرية المطالبة بالعدل والمساواة العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية، كما انتهى إضراب عمال المناجم في إنجلترا بالهزيمة، وقبلها ثورة العمال والطلبة على الدولة الرأسمالية، وتواطؤ المؤسسات التعليمية التي اجتاحت عددا من المدن الأوروبية قد هزمت، باختصار شهد العالم هجوما شاملا من مواقع اليمين وتقهرقا شاملا في مواقع اليسار"⁴⁰.

في هذا السياق من الهزائم المتكررة، ولدت "ما بعد البنيوية بما تضمنته من إعادة النظر في كثير من مسلمات الفكر السياسي الثوري ومنه الماركسية، وكان إدوارد سعيد من مواقع ما بعد البنيوية يعيد النظر كما فعل ميشال فوكو وجاك دريدا، وإن بشكل مختلف، في العلاقة بين ابستمولوجيا الغرب والهيمنة الثقافية، ومن هنا، كان لا بد من قراءة الإستشراق

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

كمحاولة لتوسيع المدى الجغرافي والتاريخي لسخط ما بعد البنيويين على هذه الاستمولوجيا الغربية⁴¹.

وبدوافع عاطفية وإنسانية، رجع سعيد إلى العالم العربي، ليستخدم خبراته النقدية وروافده المعرفية المكتسبة من التراث الفكري الغربي، وهي متعددة ومتنوعة، لتشتمل على مفكرين أمثال فيكو وماركس وغرامشي وفوكو وآورباخ، ويطور البعض من أفكارهم، حتى ولو كانت مختلفة حيناً، ومتناقضة في حين آخر، لبيدع منها مزيجاً فكرياً خاصاً به، ويوظفه لخدمة معركة اختار سعيد أن تكون مساهمته فيها مركزاً حول قضية التمثيل، ودور الأرشيف الثقافي المتعمد على هذا التمثيل، في تعزيز الهيمنة الاستعمارية وضمان استمرارها⁴².

وهذه السياقات السياسية والفكرية التي ظهر في كنفها كتاب الإستشراق، - والذي انطلق منه إعجاز أحمد في اتجاه تسجيل مآخذ على عليه⁴³ - له دلالة أخرى، ربما تفسر نجاحه الهائل والحماس في استقباله والإسفادة منه، ففي الوقت الذي شهد فيه العالم تراجعاً وتأكلاً في مواقع اليسار، وتقدم مواقع اليمين، تمهيداً لما سوف نعيشه بعد ذلك بعقدين من هيمنة أشد القوى محافظة ورجعية على العالم كله، بل وفي الوقت الذي أرادت فيه ما بعد البنيوية تفكيكا تتواري فيه قيمة التاريخ والمسعى الإنساني باتجاه الحقيقة والعدل، جاء كتاب الإستشراق وكأنه شعلة ترتفع في لحظة ينتشر فيها الظلام⁴⁴.

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

ويقول أحمد إقبال في نفس المضمرة: "ربما كان إنجاز إدوارد سعيد الفريد كناقذ أدبي بدءاً من كتابه الإستشراق أنه وضع الإمبريالية في مركز الحضارة الغربية... وبالتالي وضع قضية التوسع الغربي والهيمنة الإمبريالية كقوى مركزية في تعريف طبيعة تلك الحضارة نفسها"⁴⁵.

لقد قاد إدوارد سعيد معاركه السياسية والثقافية، من موقعه كناقذ أدبي مدرب وكخبير في قراءة النصوص، وقد سمحت له قدراته المميزة وأدواته في هذا التخصص، بأن يؤكد في الكثير من المناسبات في كتاباته، وخاصة منها كتابه العالم والنص والناقد 1983، على دنيوية النصوص، حتى عندما لا يتصدر ذلك أو يبدو واضحاً، ويضيء حقيقة أنها مشتبكة مع الواقع الاجتماعي التاريخي، تتشكل فيه وتؤول في إطاره، وتشبك في معاركه لتدخل بالتأثير فيه، والأهم من كل ذلك، أن إدوارد سعيد "نقل ساحة المعركة من النص الأدبي إلى النص الثقافي الذي يفتح باب الكلام عن علاقات القوى في العالم، وفي المركز منه الحضارة الغربية وتجربتها في السيطرة الاستعمارية"⁴⁶. بمعنى آخر، إن إدوارد سعيد كان ينقل النقد الأدبي من حيز الانشغال بالنص الفني في ذاته ولذاته، إلى حيز التاريخ البشري في قرنين من الزمان، دون إغفال خصوصية النص الفنية"⁴⁷.

ولعل إنجاز إدوارد سعيد لا يكمن أساساً في بناء نسق فكري متكامل ومتماسك على طريقة الفلاسفة والمفكرين الكبار، بل في قدرته على تركيب عناصر متباينة، بما يتيح له صنع أدوات ذات نفع تعزز موقفاً سياسياً في جوهره، يعادي الإمبريالية.

ويعتبر كتاب سعيد، صور المثقف The representations of the intellectual الذي تناول فيه عدداً من المفكرين الغربيين الذين صاغوا مفهومهم عن

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكولونيالية: _____

المثقف، مثل أنطونيو غرامشي وجوليان بيندا وريتشارد كروسمان وغيرهم، هو كتاب يغذيه هذا التماس النادر بين معارف إدوارد سعيد الثقافية الأدبية ومشروعه السياسي الذي كان يزداد عمقا واتساعا مع مرور الوقت. وهذا الكتاب هو في الأصل عبارة عن ستة محاضرات ألقاها في سلسلة ريث بالإذاعة البريطانية⁴⁸، ينظر فيها لثقافة المعارضة، والمثقف الذي يواجه السلطة بالحقيقة ومساندة الضعفاء والمقهورين والمحرومين.

يرفض إدوارد سعيد المثقف المشرف على واقعه من برجه العالي لحساب المثقف والمنشغل دائما بتوصيل رسالته لجمهور واسع، يشغله وينشغل بعمومه وقضاياها في نفس الوقت الذي يثير فيه فضوله، ويربك مسلماته بطرح الأسئلة وكسر القوالب الجامدة والأصنام المعوقة. فللمثقف رواية بديلة عن تاريخ آخر مهمش أو مسقط أو مطمور، عليه إبرازه وإلقاء الضوء عليه، وبذلك يصبح عمله في الإنتاج المعرفي مشاركة فعلية في المعارك الدائرة في الواقع الاجتماعي والثقافي⁴⁹.

والمثقف بالتعريف، تبعا لإدوارد سعيد "معارض بامتياز، منفي بالضرورة، مسافر وحيد مغترب في واقع يدفع به إلى هامش موحد"⁵⁰. وقد أشار أكثر من ناقد إلى أن صورة المثقف التي ينتهي إليها إدوارد سعيد في كتابه تمثيلات المثقف، ليست إلا إسقاطا لا يخلو من رومانسية لصورته هو نفسه. ولكن أحمد إقبال الذي لا يرد ذكره في الكتاب إطلاقا، ويرد فيه ذكر فرانتز فانون بشكل عابر ثلاثة مرات، - نذكر منها على سبيل المثال ما ورد: "لا يصح أن يكتفي المثقف بتأكيد أن شعبا ما قد سلبت أملاكه، أو تعرض للظلم أو

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكلونياليا: _____

للمذابح، أو لإنكار حقوقه ووجوده السياسي، بل عليه أن يفعل في الوقت نفسه ما فعله فرانتز فانون أثناء الحرب الجزائرية" ⁵¹، فهو الطيف الحاضر الغائب في كتاب سعيد ذاك، وهو بمثابة النموذج الملهم، الذي عايشه إدوارد سعيد لأكثر من عشرين عاما، هو أصل الصورة، والأهم لأنه مصدر أساسي من مصادر سعيد المعرفية، في تطلعه لهذا الدور، والتنظير له، والسعي للإيفاء بمتطلباته ⁵².

كما أدار سعيد معاركه السياسية والثقافية، من موقعه كناقذ أدبي وكخبير في قراءة النصوص الغربية، عاش أيضا تلك المعارك بالمشاركة الفعلية والكتابة المنتظمة في الصحف والمجلات، وبعمله في مجال التدريس، ولكن عمله الجامع لكافة طاقاته والناظم لمشروعه هو تلك الكتابات التي وظفت أدواته كناقذ أدبي ميسر بما يسمح بانتقال المعركة من حيز المواقع السياسية إلى موقع أساس يشتبك فيه مع التكوين المعرفي للغرب الاستعماري بما يفرزه من تمثيل مشوه للآخر ⁵³. كما واجه هذا التمثيل بـ "رواية بديلة أكثر صدقا في التعبير عن أصحابها" ⁵⁴.

وفي مقابلة أخرى أجريت مع إدوارد سعيد في عام 1985، يعقد مقارنة بين كتابي فوكو الجنون والحضارة، وفرانز فانون المعذبون في الأرض، يرى فيهما: "نصين من موقع المعارضة، يشتركان في كشف أساليب (الإقصاء) و(التقييد) في الحضارة الغربية، نص فوكو ينتمي لتقاليد الكتابة الفردية: الباحث الفرد المنجز في مجاله الفكري، أما نص فانون فقد أفرزه الكفاح الجماعي" ⁵⁵، ويقول سعيد في هذا الشأن: "ما زلت أعتقد أن كتاب فانون هو

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغواليا: _____

الأقوى لأنه يركز على جدلية الصراع، وهناك التزام إيجابي في كتاب فانون غائب من كتاب فوكو⁵⁶.

ويضيف إدوارد سعيد مشيرا إلى: "أن فوكو اعترف في حوار له على شاشة التلفزيون مع نعيم تشومسكي، بأنه لا يؤمن بحقائق إيجابية أو أفكار أو مثل، وهو ما لا ينطبق على فانون الذي يشكل إلتزامه بالتغيير الثوري والتضامن والتحرر موقفا قويا وآسرا لشخص مثلي⁵⁷."

وفي مقابلة أخرى أجراها سعيد بعد عام واحد من المقابلة السابقة الذكر أي في 1986، يعود سعيد من جديد لعقد مقارنة أخرى بين فوكو وفانون، ويأخذ على فوكو أن نقده للمؤسسات الغربية (المصحة والمستشفى والجامعة والجيش إلخ...)، إلى ما فيه من تمرد ينتهي بنوع من الانهزامية والمسالمية، حيث لا مجال إلا لقدر ضئيل للغاية من المقاومة، فكل شيء عند فوكو محترم تاريخيا، في حين أن إنتاج فانون قائم على إمكانية إحداث التغيير التاريخي، والإيمان بقدرة المضطهدين على التحرر من مضطهديهم. وهذا الفارق تحديدا هو ما يرى فيه إدوارد سعيد مصدر القيمة في فانون، حيث يقول: "م يتحدث فانون عن التغيير التاريخي فحسب، بل كان قادرا على تحليل طبيعة الاضطهاد وأعراضه التاريخية والنفسية والثقافية وسبل مواجهته والقضاء عليه⁵⁸."

وفي مقابلة لاحقة أجراها سعيد عام 1992 يعود إدوارد سعيد لفانون في سياق حديثه عن مرحلتين من مراحل الكفاح ضد الاستعمار: "المرحلة الأولى التي انتهت

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكلونياليا: _____

باستقلال الدول القومية، والمرحلة التالية هي التي نعيش الآن في غمارها، مرحلة تسعى إلى التحرر بمعنى أشمل من الاستقلال⁵⁹. ويضيف إدوارد سعيد بـ "أن قانون ألمح لهذا فيما أسماه التغيير والتحول من الوطني إلى الوعي السياسي والاجتماعي. لم يكتمل هذا المشروع، وهنا على ما أظن يكون الحيز الذي يبدأ فيه عملي⁶⁰ .

كان سعيد واعيا بأنه يتطلع إلى استكمال مشروع فرانز فانون، انطلاقا من الوعي بمستجدات الواقع التاريخي وخبراته وضروراته. وأما الأمر الآخر، والذي دفع للإشارة لهذه المقارنات المتكررة بين فوكو وفانون، فهو أن إدوارد سعيد الذي كان ينتمي، بحكم تكوينه ومهنته وسياق حياته، إلى ما أسماه تقاليد الكتابة الفردية: أي الباحث الفرد المنجز في مجاله الفكري بقدر ما ينتمي إلى ما يمثل فرانز فانون من تقاليد الالتزام بقضية سياسية، بحكم اختياره العودة إلى قضيته، كان راغبا في الجمع بين التقليدين وهو مؤهلا لذلك، تماما كما كان يجمع بين عمله كأكاديمي وكنافد أدبي كبير، وعمله اليومي كناطق باسم الفلسطينيين والعرب إجمالا. أراد إدوارد سعيد أن يجمع بين الباحث والمثقف الساعي إلى إنجاز صرح فكري، والمثقف الثوري المرتبط بقاعدة اجتماعية - سياسية يساعدها على تحقيق أهدافها⁶¹.

في الفصل الثاني من كتاب فرانز فانون: العام الخامس للثورة 1959 يحكي فرانز فانون بشكل مؤثر للغاية عن علاقة أهل الجزائر قبل الثورة وأثناءها بجهاز الراديو: "كانوا ينفرون من الجهاز حتى وإن سمحت لهم إمكانيتهم المادية بشرائه، فقد كانت إذاعة الجزائر

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكلونياليا: _____

هي صوت سلطة الاحتلال: فرنسيون يتحدثون إلى فرنسيين، وبعد شهر من انطلاق الثورة الجزائرية أصبح امتلاك المذياع هو الوسيلة الوحيدة لمتابعة أخبار الثورة⁶².

وكانت أخبار الثوار الجزائريين التي تذاق تفاصيلها في القاهرة ودمشق وفي عواصم عربية أخرى، تتدفق عبر الإذاعات، تغير الموقف من الجهاز، وإن جاء هذا التغير تدريجيا إلى نهاية عام 1956 حين وزعت منشورات تعلن بدء إرسال "صوت الجزائر الحرة"⁶³. وحددت المنشورات مواعيد الإرسال وموجات البث. يقول فرانز فانون: إن كافة أجهزة الراديو نفذت من الأسواق في أقل من عشرين يوما، وراجت تجارة الأجهزة المستعملة. وزاد الطلب على أجهزة الترانزيستور لعدم توفر الكهرباء في المناطق النائية. وبين ليلة وضحاها "فقد المذياع هويته كشيء معتاد، لم يعد جزءا من ترسانة الاحتلال التي يوظفها في القهر الثقافي"⁶⁴، وسرعان ما انتبعت سلطات الاحتلال لذلك الأمر، فمنعت بيع أجهزة الراديو إلا لمن يحمل ترخيصا من الأمن العسكري أو الشرطة، وقامت بالتشويش على محطة الثورة مما يضطر المحطة إلى نقل موجة الإرسال عدة مرات في فترة البث الواحدة، ويصف فرانز فانون معركة موجات البث هذه على النحو التالي:

"غالبا ما كان المستمع الواحد يلصق أذنه بالجهاز ليتمكن من الاستماع للصوت. ويستقبل بقية الجزائريين الحاضرين معه في الحجرة صدى ذلك الصوت عبر الناقل، والذي عادة ما يكون محاصرا فعلا في نهاية الإرسال، إذ يسألونه أسئلة محددة فهم يريدون أن يعرفوا ما قالته الإذاعة بشأن معركة بعينها ذكرتها الصحافة الفرنسية في الساعات الأربع

المبحث 2: الأصوات الحرة و المستقلة الناقدة للكولونياليا: _____

والعشرين الأخيرة. ويملاً ناقل الأخبار الحرج والشعور بالذنب عندما يتعين عليه الاعتراف أحيانا أن الصوت لم يذكر شيئاً عن ذلك" ⁶⁵.

ويضيف فانون "ولكنهم بعد نقاش وأخذ ورد يتفقون جميعاً على أن الصوت تحدث عن تلك الأحداث فعلاً، ولكن الناقل لم يستطع التقاط كل ما قيل، وهنا تبدأ مهمة إعادة بناء يشترك الجميع فيها إذ يعيدون خوض معارك اليوم واليوم السابق تبعاً لتطلعا تهم العميقة وإيمانهم الراسخ" ⁶⁶. فكان الصوت كما يضيف فانون "غالباً ما يصل إلى الأهالي مشوشاً، مكسراً، متقطعاً، مجرد شذرات من جمل ناقصة يكملونها ويضيفون إليها ويعدلون فيها، ويحملون الغائب من كلماتها ما يفي بحاجاتهم ومراميتهم وأحلامهم. وكلما زاد التشويش اكتسب الصوت مكانة أكبر، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة أخرى يرسلون هم فيها ما سمعوه وألفوه، لغة جديدة، يذيعونها بين الناس" ⁶⁷.

يعبر هذ الفصل من كتاب المعذبون في الأرض على نقل البعض من هذه التفاصيل، والغرض منها هو الدلالات التي نرى في ضوءها حياة كل من فرانز فانون و أحمد إقبال وإدوارد سعيد، وعلاقتنا نحن بروايات حياتهم، ما نعتبر به منها وما نضيفه إليها - إن كانت لنا القدرة على فعل ذلك طبعاً - وما نعوصه فيها تبعاً لحاجتنا، أو ما يمكننا تعديله ⁶⁸.

ففي الوقت الذي يحل فيه الظلام على الكرة الأرضية، وتتزايد الحملات الشرسة على هؤلاء الرجال الثلاثة وأمثالهم، ومن يستلهم مسيرتهم الفكرية والسلوكية، ويتم فيه

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغولونيا: _____

الانقضاء على تراث إدوارد سعيد، ويوصف فيه فرانز فانون بداعية سطحي لم يكن له أن يحقق شهرته إلا في عقد من الزمن تميز فيه الغرب "بكراهية الذات القائمة أساساً على الجهل" ⁶⁹، ويقال عنه في قاعات جامعة هارفارد بأنه "كاتب عابر الأهمية روج له جون بول سارتر بسبب كراهيته الإجرامية للأوروبيين وتبنيه للإرهاب" ⁷⁰.

وفي ظل الأجواء الإعلامية الدولية وامتلاك تكنولوجيات الاتصال المعاصرة وبعض الدوريات المتخصصة ذات الطابع العنصري والمتطرف، نجد الإعلان "أن بعض الثقافات أغنى وأكثرها تقدماً من ثقافات أخرى، وأن الإفريقي لا يحتاج إلى إقناعه بركوب سيارة فخمة، أكثر من السير على أقدام حافية خلف قطع من الغنم في الغابة، ولا الإقناع بأن ثقافته لم تلعب أي دور في إنتاج تلك السيارة، فهو يعلم بأن ثقافته أدنى، على الأقل في اتجاهات عديدة" ⁷¹.

ففي هذا الزمان يجب علينا أن نلصق آذاننا بالإرسال الذي يخلصنا، وينبغي علينا أن ندخل معركة الموجات والاتصالات، لعلنا نلتقط شيئاً ونضيف أشياء. إذا استطعنا فعل ذلك.. لقد كثرت إشارات إدوارد سعيد لفرانز فانون في كتاباته وأعماله المختلفة، ابتداءً من ثمانينات القرن الماضي، وهي التي كانت تحيلنا دائماً لكتاب فانون المعذبون في الأرض.

في كتاب إدوارد سعيد العالم والنص والناقد 1983، الذي يقتبس فيه من كتاب فرانز فانون، الفقرة التي يصف فيها التناقض بين الحي العربي والحي الفرنسي في المدينة الكولونيلية، وهناك إشارة لمفهوم فرانز فانون عن العنف المضاد للعنف الكولونيالي في مقالة

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكونغولونيا: _____

موسومة بعنوان: "السياسة والثقافة" ⁷². ضمنت لاحقاً في كتاب سعيد: سياسة الاقتلاع 1994 The politics of dispossession، وكذلك ترد الإشارة إلى كتاب المعذبون في الأرض في مقال لإدوارد سعيد بعنوان "تمثيل المستعمر: الجانب المقابل في خطاب الأنثروبولوجيا" ⁷³.

وفي كتاب صور المثقف يشير إدوارد سعيد لفرانز فانون وإيميه سيزار وسي. إل. جيمس بوصفهم ثلاثة من كبار المثقفين السود المعادين للإمبريالية أما في كتابه الثقافة الإمبريالية 1993، يصف سعيد كتاب فانون المعذبون في الأرض بأنه "كتاب هجين - فهو جزئياً مقالة، وجزئياً قصة متخيلة، وجزئياً تحليل فلسفي، وجزئياً تاريخ حالات نفسي، وجزئياً حكاية ترميز (اليغورية) قومية، وجزئياً تسام للتاريخ" ⁷⁴.

ثم يفرد سعيد في صفحات أخرى، من كتابه (الثقافة والإمبريالية)، وخاصة في فصله الثالث: المقاومة والمعارضة، وبصفة أخص في المباحث: الثاني المتعلق بموضوعات ثقافة المقاومة، والرابع الخاص بالرحلة إلى الداخل وبزوغ المعارضة، المبحث الخامس الذي يتناول مسائل التعاون والاستقلال والتحرر، كما يناقش سعيد في هذا الفصل قضية العنف الثوري لدى فرانز فانون ⁷⁵. ويبدأ سعيد ذات الفصل بمقولة إيمي سيزير: "شديني بدراعيك الرحبتين

المبحث 2: الأصوات الحرة والمستقلة الناقدة للكولونيات: _____

إلى الطين اللألاء"، وهي المقولة المقتبسة من (دفتر عودة إلى مسقط الرأس)، حيث سيلتقي الجميع هناك في ساحة للنصر⁷⁶.

1 - Mike Dibb, Edward w. Said, the last interview, ICA, 2002.

2- إدوارد سعيد ، صور المثقف ترجمة غسان غصن ، بيروت ، دار النهار 1996، ص19.

3 - إدوارد سعيد ، خارج المكان : مذكرات ، ترجمة فواز طرابلسي ، دار الأداب ، بيروت ، 2000، ص 352.

4- فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 210.

5- إدوارد سعيد ، خارج المكان : مذكرات ، ترجمة فواز طرابلسي ، دار الأداب ، بيروت ، 2000، ص ص 352-353 .

6 - المرجع نفسه، ص 337.

7 - E.W.Said, The Tropic of History :The deep Structure of The new science Giambattista Vico's Science of Humanity, ED. Giorgio Tagliacozzo.Baltimore :The Johns Hopking UP, 1976, p 85.

8 - E.W.Said, The world, the Text, and the critic, Cambridge: Harvard UP, 1983, P 25.

9-Fisch Max - راجع، أثر فيكو وسمعه في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وفي التراث الماركسي، الفصل الرابع من مقدمة المترجمين لسيرة فيكو : Harold, and Thomas Goddard bergin, Introduction The Autobiography of Giambattista Vico, Ithaca ; Cornell UP 1978, PP 61 - 107.

10-E.W.Said, The world, the Text, and the critic, Cambridge: Harvard UP, 1983, PP 3 - 29.

11 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 211.

12 - E. W. Said, Culture and Imperialism, London : Chatto and Windus, 1993, P 408.

13 - E.W.Said, Reflections on Exile, and Other Essays , Combridge, MA : Harvard UP, 2000, P 21.

14- مقالة إدوارد سعيد، تأملات في المنفى، التي ظهرت لأول مرة في مجلة جرائنا ، العدد 13 (خريف 1984)، ص 13 .

15- العلوي سعيد بن سعيد ، النزعة الإنسانية في فكر إدوارد سعيد ، المجلة العربية للثقافة ، العدد 45 (مارس 2004)، ص ص 235 - 425.

16 - Speak Jennifer, ed. A. dictionary of philosophy, London, Pan (Macmilan), 1979.

17- إدوارد سعيد ودانيال بارنيتوم ، نظائر ومفارقات : إسكشاف في الموسيقى والمجتمع ، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي ، دار الأداب ، بيروت 2005، ص 92 .

*** اشتهر فيكو في الغرب، أكثر منه في العالم العربي، فقد تأثر به فلاسفة مثل هيردر وماركس، وأدباء مثل جيمس جويس، وتحتشد المكتبات الغربية بأعماله وكتبه، وتصدر عنه دراسات بانتظام.

18 - E. W. Said, Power Politics and Culture , Interviews, ed. Gauri Viswanathan, NY: 2001, PP 78 -79.

19- غزول فريال جبوري ، المنهج الأسطوري مقارنا ، الفصل الأول أبريل 1981، ص106.

20- المرجع نفسه، ص 107.

*** كان إدوارد سعيد يقرر على طلبته ترجمة بيرجن وفيش المختصرة التي صدرت 1970 لكتاب " فيكو" العلم الجديد ، في طبعته الإيطالية 1935 ، وذلك خلافا للترجمة الكاملة لدافيد مارش الصادرة عام 1991 .

21 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 214 .

22 - المرجع نفسه، ص 215.

23 -- المرجع نفسه، ص 215.

24 - E .W.Said, Criticism as Cultural politics, Diacritics 6.3, Fall 1967: 8 - 13.

- 25- غزول فريال جبوري ، المنهج الأسطوري مقارنا ، الفصل الأول والثالث ، مجلة فصول أبريل 1981 ، ص ص 105 - 114 .
- 26 - Brennan Timothy, Edward Said and Comparative Literature, journal of palestine studies 33. 3 Spring 2004, PP 23 - 37.
- 27 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 215.
- 28 - Joseph Conrad, Heart of darkness London : Penguin, 1995, P 18.
- 29 - E. W. Said, Vico : Autodidact and Humanism, The Centennial Riview 11. 3 (1967), P 336.
- 30 - Ghazoul Ferial J. , The Resonance of the arab - Islamic Heritage in Work of Edward Said : A Critical Reader, Ed. Michael Sprinker, Oxford : Blackwell, 1992, P 157.
- 31- E. W. Said, Vico : Autodidact and Humanism, The Centennial Riview 11. 3 (1967), P 332.
- 32 - Hussein Abderahman, Edward Said : Criticism and Society, London, Verso, 2002, P 20.
- 33 - مقالة إدوارد سعيد الأولى عن " فيكو العصامي والإنساني " ، ص 339.
- 34- المرجع نفسه، ص 339.
- 35- مقالة إدوارد سعيد الأولى عن " فيكو العصامي والإنساني " : 11. the Centennial Riview « Vico : Autodidact and Humanist » : P 340 (1967) 3 .
- 36 - المرجع نفسه، ص 240.
- 37-مقالة إدوارد سعيد الأولى عن " فيكو العصامي والإنساني " ، ص 341 .
- 38 - المرجع نفسه، ص ص 141 - 142.
- 39 - Hussein Abderhmane .A .Edward Said : Criticism and Society. London:(Verso 2002), P 141
- 40- فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 216.
- 41 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 216.
- 42 -Borges, Jorge Luis « Kafka And His Precursirs » Labyrinths Ed. Donal A. yates and J ames E. Iby. NY: Directions, 1964, PP 199 - 201.
- 43 - إدوارد سعيد المقالة الثانية عن فيكو : " فيكو وإنضباط الجسد والنص " : MLN "Vico And The Displine Of Bodies And Texts" 91 (1976) , P 25.
- 44 - إدوارد سعيد المقالة الثانية عن فيكو : " فيكو وإنضباط الجسد والنص " : MLN "Vico And The Displine Of Bodies And Texts" 91 (1976) , P 26.
- 45 - إدوارد سعيد المقالة الثانية عن فيكو : " فيكو وإنضباط الجسد والنص " ، ص 26.
- 46 - المرجع نفسه، ص 26.
- 47 - المرجع نفسه، ص 27.
- 48 - إدوارد سعيد المقالة الثانية عن فيكو : " فيكو وإنضباط الجسد والنص " : MLN "Vico And The Displine Of Bodies And Texts" 91 (1976) , P 27.
- 49 - إدوارد سعيد المقالة الثانية عن فيكو : " فيكو وإنضباط الجسد والنص " ، ص 28.
- 50 - إدوارد سعيد المقالة الثانية عن فيكو : فيكو وإنضباط الجسد والنص : MLN " Vico And The Displine Of Bodies And Texts " 91 (1976) , P 28.

- 51 - المرجع نفسه، ص 29 .
- 52 - مقالة إدوارد سعيد الثانية عن فيكو، "فيكو وإنضباط الجسد والنص" : MLN 91 "Vico and the disipline of bodies and texts" : P 30. (1976)
- 53 - المرجع نفسه، ص 31.
- 54 - إدوارد سعيد ، العالم والنص والناقد ، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، ص ص 1- 29 .
- 55 - Miller, « Begening With a text » Diacritics 6. 3 (Fall 1967), P 3.
- 56 -White Hayden, 'Criticism as Cultural Politic' Diacritics 6. 3 (Fall 1967), P 10.
- 57 - E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. NY : Basic Books1975, P 357.
- 58 - Ibid, P .358
- 59 - المرجع نفسه، ص 359.
- 60 - المرجع السابق، ص 348.
- 61 - E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. NY: Basic Books 1975. P 342.
- 62 - Ibid, P 350
- 63 - المرجع السابق، ص 352.
- 64- E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. NY: Basic Books 1975. P 355
- 65 - المرجع نفسه، ص 355.
- 66 - E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. NY: Basic Books 1975. P 356
- 67 - Ibid, P 355
- 68 - E.W.Said, The World, the text, and the Critic, Cambridge: Harvard UP, 1983, P 113.
- 69 - E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. NY: Basic Books 1975, P 356.
- 70 - المرجع نفسه، ص 357.
- 71 - E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. NY: Basic Books 1975, P 7.
- 72 - E.W.Said, Humanism and Democratic Criticism, NY: Columbia UP.2004, P 91.
- 73 -فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 221.
- 74- E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. (NY. Basic Books 1975), P 13.
- 75 - المرجع نفسه، ص 14.
- 76 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 221.
- 77 - المرجع نفسه، ص 221.
- 78- E.W.Said, Beginnings : Intention And Method. (NY. Basic Books 1975), P 15.
- 79 - Ibid, P 15.
- 80- فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 221.
- 81- إدوارد سعيد ، العالم والنص والناقد ، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، ص 113
- 82- E.W.Said, The World, the text, and the Critic, Cambridge: Harvard UP, 1983, P 114.
- 83 - إدوارد سعيد ، العالم والنص والناقد ، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، ص 116.
- 84 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 222.
- 85- E.W.Said, Humanism and Democratic Criticism, NY: Columbia UP.2004, P 11.
- 86 - فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 222.
- 87- E.W.Said, Humanism and Democratic Criticism, NY: Columbia UP.2004, P 12.
- 88- فريال جبوري غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 222.

- 89 - المرجع نفسه، ص 222.
- 90 - المرجع نفسه، ص 222.
- 91 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 121.
- 92 - المرجع نفسه، ص 121.
- 93 - المرجع نفسه، ص 121.
- 94 - Antonio Gramsci, Textes (Paris : Missidor / Editions Sociales, 1983), P 27.
- 95 - Ibid, P 28.
- 96 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 122.
- 97 - المرجع نفسه، ص 122.
- 98 - Antonio Gramsci, Textes (Paris : Missidor / Editions Sociales, 1983), P 28 .
- 99 - إدوارد سعيد، الإستشراق، ترجمة د. محمد عناني، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 76.
- 100 - E.W.Said, Orientalism, London : Penguin Books, 1995, P 25.
- 101 - Ibid, P 25.
- 102 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 122 - 103 المرجع نفسه، ص 123.
- 104 - إدوارد سعيد ، الإستشراق ترجمة محمد عناني، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع ، 2006 ، ص 77.
- 105 - إدوارد سعيد ، صور المثقف ترجمة غسان غصن ، بيروت ، دار النهار 1996، ص 32 - 33.
- 106 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 32.
- 107 - إدوارد سعيد ، صور المثقف ترجمة غسان غصن ، بيروت ، دار النهار 1996، ص 21.
- 108 - المرجع نفسه، ص 21.
- 109 - المرجع نفسه، ص 22.
- 110 - إدوارد سعيد ، صور المثقف ترجمة غسان غصن ، بيروت ، دار النهار 1996، ص 22.
- 111 - المرجع نفسه، نفس ص 23.
- 112 - إدوارد سعيد ، صور المثقف ترجمة غسان غصن ، بيروت ، دار النهار 1996، ص 22.
- 113 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 33.
- 114 - المرجع نفسه، ص 34.
- 115 - إدوارد سعيد ، صور المثقف ترجمة غسان غصن ، بيروت ، دار النهار 1996، ص 22.
- 116 - المرجع نفسه، ص 23.
- 117 - E.W.Said , «Opponents, Audiences, Constituencies, and Community», Postmodern Culture, Ed.Hal Foster, (London and Sydney : Pluto Press, 1983), P 134.
- 118 - المرجع نفسه، ص 135.
- 119 - المرجع نفسه، ص 83 .
- 120 - المرجع نفسه، ص 84.
- 121 - نسبة إلى الرئيس الميكسي الأسبق رونالد ريغن.
- 122 - E.W.Said , «Opponents, Audiences, Constituencies, and Community», Postmodern Culture, Ed.Hal Foster, (London and Sydney : Pluto Press, 1983), P 140.
- 123- Ibid, P 141.
- 124- E. W. Said, The World, The Text , And The Critic, (Cambridge, MA : Harvard UP, 1983), P 169.

- 125 - المرجع نفسه، ص 171
- 126 - المرجع نفسه، ص. 175.
- 127- E. W. Said, The World, The Text , And The Critic, (Cambridge, MA : Harvard UP, 1983), P 7 - 128 - Ibid, P 215.
- 129 - Ibid, P 216.
- 130 - المرجع نفسه، ص 217..
- 131 - المرجع نفسه، ص 218.
- 132- E.W.Said, The World, The Text ,And The Critic, (Cambridge, MA : Harvard UP, 1983), P 221.
- 133 - المرجع نفسه، ص 221.
- 134 - المرجع نفسه، ص 222 .
- 135 - E .W. Said, The World, The Text ,And The Critic, (Cambridge, MA : Harvard UP, 1983), P 82.
- 136- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص ص 142 - 143 - 137 - المرجع نفسه، ص ص 137 . 141.
- 138 - المرجع نفسه، ص 142.
- 139- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 121.
- 140 - المرجع نفسه، ص 122.
- 141- إدوارد سعيد ، تعقيبات على الإستشراق ترجمة صبحي حديدي ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1996 ، ص 71.
- 142 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 126.
- 143 - المرجع نفسه، ص 126.
- 144 - المرجع نفسه، ص 126.
- 145 - المرجع نفسه، ص 127.
- 146 - المرجع نفسه، ص ، 127.
- 147-G. B. Glucksmann, Gramsci et l'etat (Paris : Fayard, 1975), P 38.
- 148- فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 127.
- 149- G. B. Glucksmann, Gramsci et l'etat (Paris : Fayard, 1975), P 39.
- 150- Ibid, P .40
- 151 - المرجع نفسه، ص ص 239 - 240.
- 152- المرجع نفسه، ص 241.
- 153 - G. B. Glucksmann, Gramsci et l'etat (Paris : Fayard, 1975), P 242.
- 154 - Ibid, P 243.
- 155- Ibid, P 242.
- 156 - Ibid , P 244.
- 157 - المرجع نفسه، ص 245.
- 158 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 128.
- 159 - المرجع نفسه ، ص 127.
- 160 - المرجع نفسه، ص 128.
- 161 - المرجع نفسه ، ص 128.
- 162 -G. B. Glucksmann, Gramsci et l'etat (Paris : Fayard, 1975), P 78
- 163 - Ibid, P 80.
- 164 - Ibid, P 82.

- 165- Ibid, P 83.
- 166 - Antonio Gramsci, Gramsci dans le texte (Paris : Editions Sociales, 1975), P 36.
- 167 - المرجع نفسه، ص 37.
- 168 - Antonio Gramsci, Gramsci dans le texte (Paris : Editions Sociales, 1975), P 38.
- 169- الفوردية : نسبة إلى الاقتصادي الأمريكي فورد Ford.
- 170- H. Portelle, Gramsci et la question religieuse, Paris : Editions Anthropos, 1974, PP 70 -75.
- 171 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 129.
- 172 - المرجع نفسه، ص 130.
- 173- H. Portelle, Gramsci et la question religieuse (Paris : Editions Anthropos, 1974), P 82.
- 174- Ibid, P 83 .
- 175 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة د. محمد عناني، ط 1، 2006 القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 39.
- 176 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 130.
- 177 - إعجاز أحمد وإدوارد سعيد، الإستشراق وما بعد: إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي، ترجمة تائر ديب، دمشق: دار ورد ، 2004، ص 36 - 38.
- 178 - المرجع نفسه، ص 39.
- 179- G.B.Glucksmann, Gramsci et L'état, (Paris : Fayard, 1975), P 55.
- 180- P 56.
- 181- فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 131.
- 182- المرجع نفسه، ص 131.
- 183- المرجع نفسه، ص 131.
- 184- المرجع نفسه، ص 132.
- 185- فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 132.
- 186- المرجع نفسه، ص 133.
- 187 - المرجع نفسه، ص 132.
- 188 -Antonio Gramsci, Textes, (Paris : Messidor / éditions Sociales, 1983), P 19.
- 189- فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 133.
- 190 - Antonio Gramsci, Textes, (Paris : Messidor / éditions Sociales, 1983), P 20.
- 191 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 132.
- 192- المرجع نفسه، ص 132.
- 193 - المرجع نفسه، ص 132.
- 194 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 132.
- 195 - المرجع نفسه، ص 133.
- 196 - المرجع نفسه، ص 133.
- 197 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : الإشكالات المختلفان، مجلة البلاغة المقارن العدد 25، 2005، ص 133.
- 198 - المرجع نفسه، ص 133.
- 199 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 75.
- 200-E. W. Said, Beginnings : Intention And Method (Ny: Basic Books, 1975), P 373

- 201-Beginnings 'Interviews' With Diacritics, 1976, Power, Politics, And Culture : Interview With E.W.Said , Editions Ganri Vishwanathan (London : Blooms-Herry, 2004), PP 29 – 30.
- 202-David Macey, Franz Fanon : A Biography (Ny : picador, 2001), PP 5 – 6.
- 203- جريدة المجاهد الجزائرية العدد الصادر في 21 ديسمبر 1961.
- 204- راجع ملخص لسيرة أحمد إقبال في : [bitonline/ net/ eqbal/ biography/ asp](http://bitonline.net/eqbal/biography/asp)
- 205- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 74.
- 206- المرجع نفسه ص 74.
- 207- المرجع نفسه ص 75.
- 208- المرجع نفسه، ص 75.
- 209 – Frantz fanon, The Revolution, Trans Haakon Chevalier (Harmonds Worth, Penguin, 1970), P 62.
- 210 – David Macey, Franz Fanon : A Biography (Ny : Picador, 201), P 358.
- 211- Franz Fanon, Black Skin White Masks, Trans Charles lam Markman (London: Pluto Press, 1986)
- 212- Franz Fanon, A Dying Colonialism Trans. Haakon chevalier (Harmondz Worth: Penguin Books, 1970).
- 213-Franz Fanon, les damnes de la terre, Preface par jean p. Sartre Trans constance ton (Ny : Gove Press, 1968).
- 214-Franz Fanon, Toward the African Revolution, Trans Haakon chevalier (Harmonds Worth, Penguin, 1970), PP 62 – 64.
- 215- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 76.
- 216- المرجع نفسه، ص 76.
- 217- "الصهيونية السوداء" حركة سياسة نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية في العشرينات من القرن العشرين، و حققت بقيادة "ماركوس جاري" شعبية بين الأفارقة الأمريكيين، و تقوم الحركة على تأكيد ة تمجيد الأفارقة الأمريكيين لأصولهم الإفريقية والدعوة التي عودتهم إلى إفريقيا أرض الأسلاف (و من هنا صفة صهيونية تشبها بدعوة اليهود إلى العودة إلى جبل تشبها بدعوة اليهود إلى العودة إلى جبل صهيون).
- 218- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 77.
- 219- المرجع نفسه، ص 77.
- 220- كان أحمد إقبال في الثانية عشر من عمره حين قتل والده، وكان ساعة اغتياله ينام مع أبيه على نفس السرير وكان السبب في جريمة قتله هو قيام الأب بتوزيع أرضه على فقراء الفلاحين، مما أثار غضب بعض أقاربه عليه فقاموا بتدبير عملية قتله.
- 221- إدوارد سعيد، القلم و السيف: حوارات مع ديفيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، الطبعة الثانية دمشق: دار كنعان، 2004. نقلا عن مقابلة أجراها "ديفيد بارساميان" مع "أحمد إقبال" في مارس 1999، ومن الأمور الطريفة التي يحكيها إقبال عن لقائه "بغاندي" في تلك المقابلة أن إخوته قالوا له ما دمت ذاهبا مع "غاندي" فطلب منه أن يعلمك أن تكتب بالإنجليزية، و إنه يكتب لغة إنجليزية بديعة "قلت: يا غاندي قال لي إخواني أنك تكتب إنجليزية بديعة فقال: هذا لطف شديد من هؤلاء الأولاد، فقلت لقد طلبوا مني أن أعلم منك مبادئ الإنجليزية الجيدة قال "يا بني هناك مبدأ واحد، اقرأ الكتاب المقدس المرة بعد المرة، نسخة الملك جيمس" David Barsamian, « Distored Histories : And Interviews With

هوامش الفصل الأول

- 222 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 77.
- 223 - المرجع نفسه، ص 78.
- 224 - مقابلة أجراها "ديفيد برساميان" مع أحمد إقبال عام 1993 -A. interview-ahirdworldtravelhmad/EAer.com/eqbal -Barsamianhtml
- 225 - المقابلة التي أجراها "ديفيد برساميان" مع أحمد إقبال . Bitsoline/net/eqbal/interview. العدد 25، 2005، ص 78.
- 226- E. W.Said, A True Struggle, a good Man, "Al Ahram Weekly (May 9, 1999):P 15 ، ص 15 إدوارد سعيد في مقال تأييني لأحمد إقبال، في الأهرام الأسبوعية 09 مايو 1999 -227- المرجع نفسه، ص 15.
- 228- كلمة " إدوارد سعيد" في حفل تكريم " أحمد إقبال " في كلية هامبشير بأمهرست مساشو ستس، 04 أكتوبر 1997.
- 229- المرجع نفسه.
- 230 - قامت ابنة أحمد إقبال (ذرة إقبال) مع آخرين بجمع كتابات والدها، أنظر Iqbal Ahmad, Between Past And future : Eds. Dohra Ahmad, Iftikhar Ahmad And Zia Mian (karachi : Oxford UP.2004).
- 231 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 79.
- 232 - إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فو"ز طرابلسي، ط 1، 2000، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 25.
- 233- E. Said, The Politics Of Dispossession NY : Vintage Books 1995, P 13. W. 233- E.
- 234 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 80.
- 235 - نسبة لرئيسة الوزراء البريطانية (مارقريث تاتشر).
- 236- نسبة للرئيس الأمريكي السابق رونالد ريغان.
- 237- Aijaz Ahmad In Theory : Classes, Nations Literatures (London : Verso, 1994), PP 191-192.
- 238- Leela Gandhi, Postcolonial Theory (Ny: Columbia UP, 1998), P 73.
- 239 - أحمد إعجاز، الاستشراق وما بعده : إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي، ترجمة ثائر ديب، دمشق ورد للطباعة والتوزيع، 2004، ص 219.
- 240- المرجع نفسه، أنظر أيضا فصل الاستشراق وما بعده، ص 159 - 219.
- 241- Vasira Fazila yacoobali, " E. W. Said And Eqbal Ahmad: Anti Imperialist Struggle In a Post Colonial World " ISIM News letter (13/ 12/ 2003); P 36.
- 242- أحمد إعجاز، الاستشراق و ما بعده : إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي، ترجمة ثائر ديب، دمشق ورد للطباعة و التوزيع، 2004، ص 159.
- 243 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 81.
- 244 - المرجع نفسه، ص 81.
- 245- إدوارد سعيد: المثقف و السلطة، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، 2006، ص 17 .

- 246- المرجع نفسه، ص 44.
- 247- المرجع نفسه، ص 46.
- 248- المرجع نفسه، ص 89.
- 249 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 82.
- 250- إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، 2006، ص 45.
- 251- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 82.
- 252- المرجع نفسه، ص 82.
- 253- المرجع نفسه، ص 83.
- 254- Jonathan Crary And Phil Mariani, " In the Shadow of the West ", Power Politics, and Culture, PP 39 - 40.
- 255-Gary Hentzi And Anne Mc Clintock " Overlapping Territories : The World, The Text And The Critic", Power, Politics, And Culture, PP 53-54.
- 256--Jennifer Wicke And Michael Spirinker, Criticism And The Art Of Politics, 'Power, Politics, And Culture P 133.
- 257- المرجع نفسه، ص 134.
- 258 - رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 83.
- 259- Franz Fanon, A dying Colonialism, Trans Haakon chevalier (Harmond worth : Periguin Books, 1970), P 57
- 260- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 83.
- 261 - Franz Fanon, A dying Colonialism, Trans Haakon chevalier Harmond, Worth ; Penguin books, 1970 , P 67.
- 262- Franz Fanon, A dying Colonialism, Trans Haakon chevalier Harmond, Worth ; Penguin books, 1970, P 69.
- 263- Franz Fanon, A dying Colonialism, Trans Haakon chevalier Harmond, Worth ; Penguin books, 1970, P 69.
- 264- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 84.
- 265- رضوى عاشور، فرانتز فانون، أحمد إقبال، إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، 2005، ص 84.
- 266 - Anthony Daniels, The Platonic Form Of Resentment, " New Criterion 19/9 May 2001, P 15.
- 267 - David Macy, Franz Fanon : A Biography (Ny : Picador, 2001), P 21.
- 268- David Macy, Franz Fanon : A Biography (Ny : Picador, 2001), P 22.
- 269- هذه الرسالة منشورة في العدد سبتمبر / أكتوبر 1988 من مجلة نيولفت ريفيو New Left Review
- 270 - هذه المقالة منشورة في شتاء 1989 في مجلة كريتيكل إنكواري Critical Encary
- 271 - إدوارد سعيد، الثقافة والأمريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط 3، 2004، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 325.
- 272 - المرجع نفسه، ص 268.
- 273 - المرجع نفسه، ص 249.
- 274 - المرجع نفسه، نفس الصفحة.

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

لإدوارد سعيد كتاب عن المثقف، يتناول فيه ثقافة المعارضة، وأدوار المثقف، وعمله الذي يواجه به السلطة بقول الحق، ومساندة الضعفاء والمقهورين والمحرومين، إن هذا الكتاب لم ينتج الأفكار التقليدية والعقائدية الجامدة، لأن مثقف عند سعيد هو ذلك الشخص الذي "تكون علة وجوده هي تمثيل الناس المنسيين والقضايا التي تم إهمالها بصورة متكررة أو أنها كنست وخبئت تحت البساط" 1.

ومما اهتم به إدوارد سعيد في كتابه تمثيلات المثقف، طرحه لمسألة تعريف المثقف الحقيقي، الذي لا يجوز أن يكون أقل شأنًا من الناحية المبدئية عن سقراط، أو غيره من الرجال الكبار والعباقرة الذين عرفتهم البشرية. نجد سعيد يدافع في ذات الكتاب، "عن المعايير الأزلية للحق والعدل وهي التي لا تنتمي إلى هذه الدنيا" 2 في مقابل عامة الناس، الذين يهتمون بالسعي الدائم وراء المنافع المادية والبحث عن بناء علاقات تودد مع الأنظمة السياسية ورجالاتها، "إن أبناء البشر العاديين الذين يوجهون اهتمامهم إلى المزايا المادية، والنهوض بأوضاعهم، إذا أتاحت لهم أية وسيلة على الإطلاق إقامة علاقة وثيقة مع السلطات العلمانية، فالمثقفين الحقيقيين هم الذين لا يمثل جوهر نشاطاتهم في محاولة تحقيق أهداف عملية" 3، إن السعادة الحقيقية للمثقف عند سعيد لا تكمن في تحقيقه للمنافع المادية، بل في عواطفه النبيلة تجاه غيره، والعمل وفق المبادئ التي يدافع عنها هذا المثقف، كالحق والعدل والإنصاف والمساواة، والوقوف بجانب الطبقات المقهورة والمغلوبة على أمرها. فلما نجد مثقفا يقوم بشجب الفساد ويدافع عن الضعيف، ويتحدى السلطات البوليسية والقمعية والمستبدة، إن ما هو مطلوب من المثقفين اليوم أكثر من أي وقت، أن يكونوا صادقين مع أنفسهم على الأقل، ثم عليهم العمل وفقا للمبادئ التي يتحدثون بها في المناسبات اليومية المختلفة، وخاصة منها المناسبات الرسمية.

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

لأن المثقف الذي يلتزم بالمبادئ التي ينادي بها في المحافل الرسمية كالحملات الانتخابية، يمكن وضعها في إطار ما قال عنه جوليان بيندا، إن المثقفين الذين يتحدثون في هذا العصر بالخصوص عن المبادئ السامية بأن مملكتهم، "لا تنتمي لهذه الدنيا أو العالم" 4، بل هم ينتمون لعالم آخر مملوء بقيم بعيدة عن تلك الصور التي رسمها سعيد في كتابه، الأمر الذي جعل سعيد يعمل على تكريس تلك المبادئ في حياته الأكاديمية والاجتماعية التي عاشها في أمريكا.

ويذكرنا بيندا بالنشاط المعارض للفرنسي أرنست رينان، "الذي شجب حروب نابليون العنيفة في أوروبا، والألماني نيتشه الذي شجب عنف ألمانيا ضد فرنسا عندما احتلتها عام 1871" 5. وما يؤاخذ به بيندا على مثقفي هذا العصر أيضا، هو "تنازلهم عن سلطتهم المعنوية أو الأدبية في مقابل ما يسميه تنظيم المشاعر الجماعية الجارفة مثل الطائفية" 6.

ويرى سعيد بـ "أن الحكومات إنما تريد أن تحول المثقفين إلى خدام لها، يحولون الأنظار عن أعداء البلاد الطبيعيين، بابتكار عبارات ملطفة وقاموس لغة خشبية، ونظام كامل من العبارات المقنعة التي يمكن أن تخفي ما يجري باسم النفعية المؤسسية" 7. وربما هذا ما كان يقصد إليه الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو "إن ما يسمى بالمثقف العالمي (قد يكون نموذج جون بول سارتر هو المعني بهذا النعت) قد أدخل مكانه للمثقف المتخصص" 8.

ويطالب سعيد في كتابه تمثيلات المثقف Representations of the intellectual، المثقف كشخص بأن "يقول الحق ويواجه السلطة باستجابات، فهو كفرد

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

شجاع، وناقم على الأوضاع، لا يعرف أية قوة دنيوية تكون مهيبة وتخلو من النقد على تصرفاتها" 9 ومن ثمة فإن المثقف، مهما كانت صفته، فعليه أن ينتقد السلطة مهما كانت، دينية، سياسية، لأنه هو المحرك الأساسي في أعمال المجتمع المعاصر، وبدونه لا تقوم ولن تقم أي ثورة في تاريخ البشرية، وهذا معناه أن "اختيار البديل الصحيح، ثم تقديمه بذكاء في المكان الذي يكون من الأرجح فيه أن يعود بأكبر فائدة وأن يحدث التغيير الصائب" 10.

إن ما يلاحظ في ممارسات الطبقات الحاكمة على أرض الواقع، هو "أن الحكومات مازالت تضطهد الشعوب على نحو واضح، وسوء تطبيق العدالة مازال يحدث، واستمالة السلطة للمثقفين واحتوائهم مازالا قادرين بفعالية على خفض أصواتهم وانحراف المثقفين عن مهمتهم الأساسية في معظم الحيات" 11.

وعندما تساءل سعيد عن: "من هم المثقفون هل هم فئة كبيرة جدا من الناس، أم نخبة رفيعة المستوى، وقليلة العدد ؟" 12، وجدناه يقدم إجابتين متناقضتين، بين وجهتي نظر، الأولى يمثلها الفيلسوف الايطالي الماركسي أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci، التي عرضها في كتابه الكبير دفاتر السجن The prison note books ، مفادها أن كل الناس مثقفون، ولكن من لم يتوفر فيه الوعي النقدي، لا يمكنه القيام بوظيفة المثقف في المجتمع، ففي هذا السياق يرى سعيد بأنه لا يمكن لأي مثقف "أن ينتمي إلى طبقة المثقفين، ومقولته تثبت بأن الوعي النقدي الذاتي، بالمعنى التاريخي والسياسي، خلق نخبة من المثقفين، فالكتل البشرية لا تتميز ولا تصير مستقلة من تلقاء نفسها، من دون أن تنظم نفسها بالمعنى الواسع، ولا تنظيم بدون مثقفين، وبدون منظمين، وبدون قادة" 13.

وليس من الغرابة، أن نجد سعيد يذكر اسم غرامشي في الفصل الأول من كتابه تمثيلات المثقف، حينما يأخذ سعيد وبدون أي تحفظ، بتعريف انطونيو غرامشي للمثقف، ليس هذا فحسب، بل نجده أيضا يؤكد على صحة ذلك التعريف.

وما يقبل به سعيد في ذلك التعريف يستند على أطروحتين، الأولى منهما، يستشهد بها سعيد في مطلع كتابه، وهي تنص على: "أن كل الناس مثقفون، ولكن ليس لهم كلهم أن يؤدوا وظيفة المثقف والمجتمع" 14، وتبدو لنا هنا، الوظيفة الاجتماعية التي يقوم بها المثقف والتي تنطوي على توليد حركة اجتماعية، وإقامة بنية ثقافية تنشئ تلك الحركة وتمدها بإشارات مستقبلية. وفي هذه الأطروحة، إقرار علني بتساوي البشر، فكل الناس مثقفون وإن كان بعضهم أكثر ثقافة من البعض الآخر، وهذا ما يوحي بوجود مثقفين كبار، الذين يستطيعون صياغة الأفكار الكبيرة بثقافتهم، وليس بمقدور غيرهم (المثقفين الصغار إن صح هذا التعبير) الإتيان بمثلها. في ذات الحين، نجد الأطروحة الثانية تنص على: "أن منظم الأعمال الرأسمالي يخلق إلى جانبه التقني والصناعي والاختصاصي في الاقتصاد السياسي، ومسؤولين لإنشاء ثقافة جديدة أو نظام قانوني جديد، وما إلى ذلك" 15.

وعلى أساس هذه الأطروحة، تتحدد وظيفة المثقف، حيث تكلفه بها المؤسسات الرأسمالية، وبذلك تتشكل طبيعتها وصبغتها الرأسمالية. وهذا الأمر سيؤدي إلى إقصاء الصفات الكلية المميزة لكل مثقف، مقارنة بغيره من المثقفين، مثل الإلهام، والتفرد المطلق الذي يكتسبه من الظروف الاجتماعية التي يعيش في كنفها ذلك المثقف، مع الإشارة هنا، إلى أن تلك الظروف الاجتماعية المحيطة بالمثقف تتجدد باستمرار، وتظل السلطة هي مرجعها الأساسي 16 .

إن مقولة غرامشي عن وظيفة المثقف الاجتماعية بوجهيها السلطوي والمعرفي، هي في الأساس فكرة المثقف الذي يواجه السلطة بالحق، وهو ما يشير إليه سعيد في كتابه تمثيلات المثقف، وبالضبط في المحاضرة الخامسة الموسومة بعنوان: "قول الحقيقة للسلطة" 17 ، ويؤسس المثقف الاحترافي عمله عند سعيد على وحدة السلطة والمعرفة، التي تجعل للسلطة علاقة داخلية بمهنته، وتكون هذه الأخيرة عبارة عن إجابات معرفية على قضايا سلطوية، ومنه يواجه السلطوي بديل مستقبلي، هو في الأساس تلك المفاهيم التي تتعلق بالهيمنة وحرب المواقع والمثقف الجمعي والحزب الشيوعي عند غرامشي، وهو (المثقف الاحترافي) في ذلك، على نقيض من المثقف الهاوي، الذي يقوم عمله على أساس فكرة المثقف الذي يواجه السلطة بالحق، عند سعيد.

وأما وجهة النظر الثانية، فيمثلها جوليان بيندا Julien Benda، المفكر الفرنسي صاحب كتاب خيانة المثقفين Trahison des Clercs، الذي هاجم فيه بكل شراسة المثقفين الذين تخلوا عن وظيفتهم الجوهرية في مجتمعاتهم، وابتعدوا عن مبادئ الحق والعدالة، وتجردوا من سلطتهم الأخلاقية لصالح حكوماتهم الطاغية، وتكفي الإشارة إلى ما قاله "هل من داع لأعيد إلى الأذهان كيف شجب الأسقف فينيلون والأسقف ماسنيون بعض حروب لويس الرابع عشر؟ وكيف شجب فولتير تدمير البلاطيين؟ وكيف شجب إرنست رينان حروب نابليون العنيفة على أوروبا؟ وكيف شجب توماس باكل تعصب إنجلترا ضد الثورة الفرنسية؟ وكيف شجب نيتشه الأعمال الوحشية لألمانيا ضد فرنسا؟" 18 .

يرفض سعيد المثقف الذي "ينصب اهتمامه على العالم الآخر، أو يعيشون في أبراج عاجية، المنحصرين في عوالمهم الخاصة تماما والذين يكرسون حياتهم لموضوعات

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

عويصة، غامضة قد يصل بعضها إلى حد السحر والعرافة" 19 ، وهذا ما يرفضه جوليان بيندا بكل وضوح أيضا لصورة المثقف غير الملتزم.

وقد انشغل سعيد دائما بالمثقف الذي يؤدي وظيفته ويستطيع أن يوصل رسالته لجمهور ما، "أريد أن أشدد على أن المثقف فرد له دوره العمومي المحدد في المجتمع الذي لا يمكن اختزاله ببساطة إلى وظيفة لا وجه لها، إلى مجرد فرد مختص منشغل تماما بعمله. إن الحقيقة المركزية بالنسبة لي، كما أظن، هي أن المثقف فرد منح قدرة على تمثيل رسالة، أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة أو رأي، وتجسيدها والنطق بها أمام جمهور معين ومن أجله" 20 .

كما انشغل سعيد أيضا بمحوم المضطهدين والمقهورين وقضاياهم اليومية، أي بمعنى أنه من بين المثقفين المؤيدين "للمجموعات المهمشة، التي تتعرض للظلم والإجحاف، أي تلك المجموعات غير الممثلة التي تحتاج صوتا يمثلها ويعلن وضعها للعالم" 21.

وفي هذا الصدد فإنه ينبغي على المثقف أن يربك السلطات بطرح الأسئلة وكسر القوالب الجامدة، "وما أقول به هو أن المثقفين أو المفكرين هم أفراد لهم رسالة، وهي رسالة فن تمثيل شيء ما، وترجع أهمية هذه الرسالة إلى إمكان الاعتراف بها علنا" 22.

إن المثقف هو رواية بديلة عن تاريخ مهمش، على المثقف أن يقوم بدور بارز في هذه الوضعيات المزرية التي تعبر بحق عن الظلم الذي تعاني منه هذه البقات الاجتماعية، وبذلك يصبح عمل المثقف هو المشاركة الفعلية في الواقع الاجتماعي في كل أبعاده.

إن تعريف إدوارد سعيد للمثقف بالمعارض بامتياز، يعني بأن "المثقفين يمثلون طرفين متباعدين: فإما أنهم يعارضون المعايير والأعراف السائدة، أو أنهم يتخذون موقف

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

الذي يسمح بالتكيف والتوافق" 23، ويرى سعيد أيضا في المثقف بأنه منفي بالضرورة، لأنه يعيش "بعيدا عن تربته الوطنية غريبا في المجتمع الذي أصبح يحمل جنسيته" 24، كما أن المثقف في تصور سعيد هو المسافر، والوحيد في واقع يدفع به إلى وحشة، هو السبب الذي جعل الكثير من النقاد يسقطون كل هذه التمثيلات (الصور)، إسقاطا مباشرا على حالته الشخصية، ولذلك يقول سعيد بصريح العبارة: "ولأطبق الآن ما أقول على حالتي الشخصية" 25.

وقد كتب سعيد عن الروائي الانجليزي من مولد وأصول بولندية، جوزيف كونراد مقارنا بين منفاه القسري في نهاية 1948 (نكبة الشعب الفلسطيني)، وبين منفي كونراد الاختياري وكأنه يتحدث عن نفسه: "حين نقرأ كونراد نشعر بثقل الإحساس بالاقتلاع وعدم الاستقرار والغربة. لا أحد يستطيع أن يصور مصير الضياع والخسران مثله" 26 .

وتقوم مقولة غرامشي عن المثقف على التمييز بين العمل الذهني عن العمل العضلي وهي تقوم أيضا، على شكل المثقف الذي تنزع عنه جوهرها ثابتا مزعوما، وتربطه بتاريخ اجتماعي لا يفصل بين موقع المثقف والضرورة الإنتاجية. بيد أن الأطروحة الثانية لا تكتمل إلا بأطروحة أخرى صادرة عن المثقف البديل الذي يرفض الرأسمالي والمثقف الذي يلبي وحاجاته مناديا بثقافة جديدة تتبادل المواقع مع سياسة جديدة 27 .

إن تبني سعيد لتعريف غرامشي، الذي يقسم المثقفين إلى الشكليين التقليدي والعضوي، فالصنف الأول هو الأقرب إلى الصواب مثل القاضي والمعلم ورجل الدين، ويرتبط الصنف الثاني من المثقفين، "مباشرة بطبقات ومؤسسات تجارية تستخدم المثقفين لتنظيم مصالحها وتوطيد مواقعها وسيطرتها، مما يخلف صراعا طبقيا يترك أثاره على المثقفين،

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

وينتج عن ذلك الصراع أيضا، مثقفين يساؤون بين السلطة والمعرفة، وآخرين يندرجون في مشاريع ثقافية سياسية، ولعل هذا الصراع هو الذي يعطي المثقفين العضويين سماتهم الخاصة فهم دائمو التنقل والتشكل على عكس المعلمين والكهنة" 28 .

إن "مواجهة السلطوي بديل مستقبلي هي في أساس مفاهيم الهيمنة وحرب المواقع والمثقف الجمعي والحزب الشيوعي" 29 عند غرامشي، وهي في أساس فكرة المثقف الذي يواجه السلطة بالحق، عند سعيد. ويتكئ سعيد على مبدأ غرامشي "الجرد من البداية" أي الاستهلال بالوعي، في نقض السياسة الثقافية التي تنتج المثقف العضوي في المؤسسات الأمريكية، كما في غيرها، ونقد المثقف الاحترافي، الذي يرى المعرفة من وجهة نظر أصحاب السلطة، وندد بمعارف الاختصاص السلطوية التي تشل العقل وتحرض على الخضوع والامتثال.

ويتبين لنا من خلال خطاب سعيد الثقافي الغاضب والمندد بالهيمنة الثقافية الامبريالية في داخل الولايات المتحدة الأمريكية خاصة، وفي الغرب عامة، والعمل على إيجاد هيمنة بديلة يرجعها غرامشي إلى فلسفة البراكسيس، التي تصالح نقديا بين الثقافتين العالمية والشعبية، وأرادها سعيد ثقافة تعددية متعومة، قوامها الحوار والمساواة والتكامل 30.

وفي دراسة سعيد الموضوعية الموسومة بعنوان: "معارضون، جماهير، دوائر وجماعة"، والتي ظهرت في كتاب جماعي موسوم بعنوان "ثقافة ما بعد الحداثة"، شارك فيه هابرماس وفريدرك جيمسون وآخرون، نقد سعيد السياسة الثقافية التي تبدل أسئلة الجمهور بأسئلة السلطة 31. ومن ناحية أخرى، فإن ذات الدراسة بينت أثر السلطة في الدراسات الأكاديمية، وأثر هذه الأخيرة في تثبيت مناهج تفصل بين المعرفة والمجتمع، فالدراسة

الأكاديمية تفصل بين المعارف المختلفة، وتفصل كل حقل معرفي عن محيطه الاجتماعي، بعد ذلك فهي تنتهي إلى معارف كهنوتية توهم بإجابات نهائية على أسئلة لا ضرورة لتجديدها، هذا من جهة، وندد سعيد بتجزئة المعرفة التي تفصل الخيال عن الفكر والثقافة عن السلطة والتاريخ عن الشكل، والنص عن كل ما هو خارج النص،... 32 ، من جهة ثانية.

إن اهتمام المختص بالأسئلة الضيقة والمنعزلة عن الحياة الاجتماعية هو الذي دفع سعيد لمقارنة الاحترافين بالكهنة، لكونهما جهتين تدوران على مجال اختصاصهما وتنظران لليومي المعاش من جهة ذلك الاختصاص ليس إلا. ويرد سعيد على هذا الزعم مستلهما غرامشي قائلا معه "بديوية الظواهر الاجتماعية، حيث يزبح الجديد القديم، والمعرفي يقضي بتعددية الأسئلة والتأويلات، والحياتي ينوع ويعدد مواضيع المعرفة ويربطها بمعارف أخرى مختلفة" 33، بل أكثر من ذلك، فقد واجه سعيد الأكاديمي الطقوسي المغلق بالديوي، وذكرنا بالمجتمع المدني عند غرامشي، حيث تأخذ فيه النصوص و الأفكار والفلسفات قوة عن طريق الانتشار والتوزيع، وتصبح بمثابة هيمنة على عالم الحس العام، فالنصوص لا ينبغي أن تقول فقط من وجهة نظر الاختصاص والمختصين، بل يجب أن ينظر لها أيضا من نظرة الجمهور - سواء كان واسعا أو هامشي الحضور - لها فهو الذي تصل له تلك النصوص 34.

وبهذا يصبح المثقف الاحترافي - وهو الذي يفصل بين المعرفة والجمهور - ، مثقفا عضويا يقف إلى جانب سلطة قائمة ضد سلطة عزلاء، هي الجمهور الذي لا سلطة له. ويعبر سعيد عن زيف الحياد المعرفي في كتابه العالم، النص والناقد، فيكتب "إن أطروحة غرامشي هي أن جميع المثقفين هم فعليا مثقفون عضويون إلى حد ما، حتى وإن بدوا لا

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

علاقة لهم بقضية سياسية" 35 . ونجد سعيد في كتابه تمثيلات المثقف، ينقض المثقف الاحترافي بالمثقف الهاوي، "الذي ينادي بجوارية المعارف ويساءل معارفه من وجهة نظر الجمهور، ومبدأ أخلاقي ويحتفي بالضمير" 36.

إن ما نشر في كتاب سعيد العالم النص والناقد، حول مقولة غرامشي عن وظيفة المثقف الاجتماعية التي تنظر إلى المجتمع المدني، وتوسيع إمكانياته وتنقض الاحتكار في وجهيه السلطوي والمعرفي. وبما أن "كل الناس مثقفون، لأنهم يتوسلون المعرفة في كل ما يقومون به، فإن في خبراتهم ما يحاور الاحترافي المغلق الهارب من الحوار" 37 .

إن في مقولة المثقف الهاوي ما يوحد بين البشر جميعا، مختصين كانوا (مثل اللغوي تشومسكي) الذي يعالج قضايا سياسية، أو غير مختصين، (مثل القارئ العام) الذي يستطيع أن يحاور اللغوي والسياسي معا 38 . إن هذه المقولة التي تتعلق بالمثقف الهاوي، "تحض على توزيع المعرفة ونشرها وتوسيعها بأشكال مختلفة، وهي التعبير الدقيق عن العلاقة بين المثقف والمجتمع المدني، من حيث هما علاقتان دنيويتان تنكران الانغلاق" 39 . وفي الواقع فإن في العلاقتين ما يفصح عن التعدد الدنيوي، ذلك أن المثقف الهاوي "هو الذي يقف على تخوم حقول متنوعة، وعليه فإن المثقف الهاوي، والمجتمع المدني، ودنيوية النصوص، ما هي إلا مرايا للحدثة والأزمة الحديثة، على خلاف الاختصاصي المغلق والمجتمع المتجانس، والاحتكار المتعالي، الذي يستأنف - بمظاهر حدائية - إرث الأزمة القديمة" 40 .

ومن ثم صدر نسق من الاهتمام الأكاديمي، مثل محاربة الشيوعية، وتزييف الإسلام واختراع الحقائق الصهيونية، حيث هاجم سعيد هذه الحقائق كهجومه حقائق

الاستشراق، "لأنها تقوم في المحصلة بوظيفة الرؤية العالمية المسلحة بقوة سياسية هائلة ليس من السهل تصريفها تحت لافتة الإيستومولوجيا" 41 . وفي الحقيقة فإن في جهاز غرامشي النظري يشرح الأسباب التي تعطي الصناعة الكاذبة، وبهذا المعنى يصبح فكره منهجا للتعرف الذاتي، من ناحية، واقتراحا لمقاومة الزيف الأكاديمي، من ناحية ثانية. ولعل مفهوم سعيد للمقاومة الذي يحاith مفهوم الهيمنة عند غرامشي، هو الذي جعل سعيد يرفض قدرية فوكو الذي اكتفى بتشريح الآليات القمعية للسلطة، دون أن يهتم بالقضايا التي تواجهها 42.

واستحضر سعيد في كتبه تمثيلات المثقف والعالم النص والناقد، كل من أنطونيو غرامشي في كتابه دفاتر السجن، وجوليان بيندا صاحب كتاب خيانة المثقفين، بشكل متميز للحديث عن أدوار المثقفين ووظائفهم الاجتماعية بغض النظر عن المسافة الموجودة بينهما، إذ ينصرف غرامشي إلى موضوع المثقف، للبحث عن ما يسميه بـ "المثقف السياسي للطبقة العاملة"، حيث يساوي المثقف انخيازه الطبقي، في حين وقف جوليان بيندا، منتقدا للمثقفين، بسبب الأهواء السياسية، التي تفترض انخيازا هو جوهر خيانتهم، وهو الذي يشوه الدور المحايد الذي عليهم التمسك به. كأن يقول بيندا : "لم يكتفوا باتخاذ جانب الأهواء وحسب، بل إنهم أتاحوا لها، عن رغبة، أن تخالط أعمالهم كفنانين، ورجال تعليم، وفلاسفة. والحق أنه لم يكن هنالك أبدا مثل هذه الكثرة من الأعمال السياسية بين تلك التي يفترض بها أن تكون مرآة للفكر غير المتميز" 43. بل إن جوليان بيندا لم يخف قط مقتته الشديد للاشتراكية والطبقة العاملة وما يرتبط بهما، مساويا بين الطبقات العاملة ونشر الكراهية في المجتمع.

وحاول سعيد أن يعيد للمثقفين دورهم الاجتماعي معتمدا على أفكار غرامشي، وأن يذكر بتاريخ خيانة المثقفين، حيث ذهب إلى بيندا بدون أن يجد فرقا بين منظر شيوعي، ومثقف فرنسي معاد للشيوعية، إن سعيد وهو قارئ ممتاز لغرامشي، لن يلتفت إلى النقد الذي وجهه هذا الأخير إلى جوليان بيندا: "إن بيندا يعاين وظيفة المثقفين دون أن ينظر إلى وضعهم الطبقي" 44. المقصود بذلك هو أن بيندا يستبدل الطبقي عند المثقفين بالسياسي عندهم، ولا يعير أي اهتمام لوظائفهم في المجتمع الرأسمالي. إلا أن سعيد يولي اهتماما بالغاً للجانب السياسي، الأمر الذي دفعه للحدّث المطول في كتابه تمثيلات المثقف عن الجمهور الذي يحتاج للمثقف، كما يحتاج هذا الأخير إليه، لأن كل رسالة بحاجة لمن يستقبلها، ففكرة الجمهور عند سعيد، تقابل فكرة الطبقة عند بيندا، إن هذا الجمهور يحتاج إلى الحق والحقيقة، وهو في غنى عن الصراع الطبقي وحرب المواقع، ونجد سعيد يتحرر من غرامشي، حيث يبدل المثقف العضوي بالمثقف الهاوي والطبقة العاملة بالجمهور والثورة الاشتراكية بالدفاع عن الحق، ويتضح أن مقولة سعيد المثقف الهاوي، تستمد خصوصيتها من مقولتيه الآخرين الجمهور والدفاع عن الحق، مما يجعل المثقف الهاوي، "صوتا أخلاقيا وكونيا وإنسانيا يدافع عن المظلومين والمضطهدين في جميع أرجاء العالم" 45.

وهكذا يصبح المثقف الجمعي (غرامشي) نقيضا للمثقف الهاوي (سعيد)، بسبب وضع المثقف الهاوي فوق غيره من المثقفين، وبديلا عن المثقف الجمعي، لأن المثقف الهاوي يعبر عن تطلعات جميع المحتاجين إلى الحق والحقيقة، طالما أن (قول الحق) هو أكثر قوة وصلابة من (قول السلطة)، وطالما أن المثقف الهاوي قوام عن المثقف الجمعي 46.

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

إن مفاهيم الحق والحقيقة والعدل، وغيرها تملأ كتاب سعيد تمثيلات المثقف، وهي تكشف عن خطابين، الأول أخلاقي والثاني سياسي، غير أن غرامشي يبدأ بالخطاب السياسي وينتهي إليه، ولا يتفق مع التصور المادي التاريخي الذي يستخرج المثقف من تاريخه الاجتماعي ويربط بين وظائف المثقفين والطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها، إن دور المثقف عند غرامشي، هو البرهنة على صحة أفكار سعيد، وما يربط بينهما هو رباط محدود يتجلى في العلاقة الواسعة بين المثقف والمجتمع، وهي علاقة تؤكد على حق الإنسان في العيش الكريم، وبجملة مختصرة إن العلاقة بين المفكرين تكمن في الإعلان أنه يجب على المضطهدين أن يكتبوا بكل حرية التاريخ الخاص بهم 47.

أن البعض من الباحثين والمؤرخين الغربيين طرحوا مفاهيم حول الشرق، ثم حصل تعديل في طرحهم، ما جعل سعيد يرى بأن المثقفين يساهمون في إنتاج الوقائع وليسوا معزولين عنها، ومنه يبرز دور المثقف المعارض وإمكانياته الفعالة، خاصة في الوسائل التي يستعملها لتأدية الدور المعارض الذي يقوم به المثقف، لا يرقى لمكانة المعارضة حتى يصبح "أحد أولئك المتمكنين من قول الحقيقة بوجه السلطة بصلافة وبشجاعة وبلا موارد وببلاغة فلا يرى المثقف حرجا في نقد أي سلطة مهما طغت وتجبرت" 48.

لا شك أن هناك علاقة تضافر ما بين كتاب سعيد تمثيلات المثقف وأوضاعه الشخصية، كمثقف عرف بانتمائه للقضية الفلسطينية، لكونه فلسطيني الولادة والجنسية، ولكونه عايش هذا الوضع المركب، هذا ما جعل من حواراته المتنوعة والمتعددة التي أجريت معه، تمثيلا صادقا للصورة "الأكثر بلورة لفكره، وعمق الإحساس لديه، والخلفية التي تمتع بها في الشؤون السياسية الفلسطينية، والهوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء تزداد اتساعا

كل يوم في الغرب والعالم العربي، ومن الغريب أن يؤدي إلى قدر بشع من اللامبالاة المصحوبة بالإعجاب بالنفس عند المفكرين والمثقفين القابضين على زمام الحكم" 49.

حضر سعيد إلى القاهرة بمناسبة عام فلسطين، الذي تبنته الجامعة الأمريكية، وقدم محاضرة تكشف عن عمق رؤيته الثاقبة لتاريخ القضية الفلسطينية، التي دأب على الحديث عنها قبل أن يكون عضواً في منظمة التحرير الفلسطينية، وقبل تركه لها بعد أن قدم آرائه التي لخصها من قبل في عام 1994، وعندما أجرى دافيد بارساميان مجموعة من الحوارات معه قدم لها أحمد إقبال، بروفييسور علم السياسة ومختص في تدريس قضايا الشرق الأوسط والعالم الثالث في معهد الدراسات السياسية، في كتاب بعنوانه "القلم والسيف" 50.

ولفهم كتاب سعيد تمثيلات المثقف، يجب علينا الرجوع لمسيرته الذاتية، ولحياته داخل وخارج الجامعة، ومعيشته على ضفاف ثقافتين الأولى عربية، والثانية غربية أمريكية، إن حكاية سعيد الذاتية، كشخص مرتحل في الجغرافيا وعلى حدود الثقافتين، تروي لنا الكثير مما تعرض له، حيث هددته اللوبي الصهيوني بالقتل مرات عديدة، والتهمت النيران مكتبته الخاص في الجامعة فضاعت منه الأعمال والأموال، كما هددت عائلته، ومن أشهر الحملات التي خطط لها اليمين الصهيوني المتطرف، حكاية اتهام سعيد بتزييف سيرته الذاتية، وذلك من خلال المقالة الشهيرة التي كتبها المحامي اليهودي الأمريكي جستس رايد فاينر Justus Reid Weiner، في المجلة الشهرية الأمريكية كومنتري Commentry، الموسومة بعنوان "بيتي العتيق الجميل وأكاذيب أخرى اختلقها إدوارد سعيد" 51، نشرت في العدد سبتمبر 1999، ونفس المجلة وصفت سعيد قبل أكثر من عشر سنوات، أي في

1988، بروفيسور الإرهاب. وقد عبر سعيد عن تلك المقالة بقوله: "يريد جستس أن يكسب شهرة على رجل مشهور" 52.

إن مسألة المنفى هي الحالة الأعمق والأكثر تأثيراً في الجوانب المتصلة بفكر ودور المثقف عند سعيد، ففي بعض كتبه مثل تمثيلات المثقف Representations of the intellectual، وتأملات حول المنفى ومقالات أخرى Reflections on exile and other essays، تحتل (مسألة المنفى) مكانة مركزية في كتاباته، إذ نجده يخصص محاضرة بكاملها للمنفى في الفصل الثالث من كتابه تمثيلات المثقف، موسومة بعنوان "منفى المثقفين: المغتربون والمهمشون" 53. وقد تحول المنفى الفكري في القرن العشرين من حالة فردية إلى وضعية جماعية، حيث نفيت شعوبا وأما بكاملها كما حصل للأرمن والفلسطينيين، كما يتخذ المنفى أشكالا قسرية واختيارية، ويترب عنه أحيانا شعورا بعدم الاندماج في المجتمع الذي نفي إليه المرء طيلة حياته، فيصير منبوذا اجتماعيا ومحروما من وطنه جغرافيا ومعنويا، فيتحول إلى عقوبة مريرة، ويعبر سعيد عن هذه الحالة الشعورية "لا يبعث الأحزان مصير مثل العيش في المنفى، وكان الحكم بالمنفى في العصور التي سبقت العصر الحديث عقوبة بالغة الشدة، فالنفي لا يقتصر معناه على قضاء سنوات يضرب فيها المرء في الشعاب هائما على وجهه، بعيدا عن أسرته وعن الديار التي ألفها، بل يعني إلى حد ما أن تصبح منبوذا إلى الأبد، محروما على الدوام من الإحساس بأنه في وطنه، فهو يعيش في بيئة غريبة، لا يعزيه شئ عن فقدان الماضي، ولا يقل ما يشعر به من مرارة إزاء الحاضر والمستقبل" 54.

ويتضح لنا بأن المنفى عند سعيد "يولد الضغينة، ويولد رؤية ماضية حادة، وما خلفه المرء وراءه يثير الندب والتفجع، كما يوفر مجموعة مغايرة من العدسات، لأن المنفى

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

والذاكرة يسيران معا، فما يتذكره المنفي من الماضي وكيف يتذكره، هو ما يحدد كيف يرى هذا المرء إلى المستقبل" 55، وفي نظر سعيد فإن " المثقف باعتباره منفيا يميل إلى الإحساس بأن فكرة الشقاء تسعده، حتى أن الاستياء الذي يكاد يشبهه (عسر الهضم) قد يصبح لونا من ألوان سوء الطبع أو انحراف المزاج الذي يتحول إلى أسلوب للتفكير بل أيضا إلى مأوى جديد له وإن كان مؤقتا" 56.

ومن الأمثلة البارزة لمنفى المثقفين . عند سعيد . الذين تمكنوا من التواءم مع المجتمعات المستقبلية، وتحصلوا على المراتب العليا اجتماعيا وسياسيا هنري كيسنجر القادم من ألمانيا النازية، وزيجنيو برزنسكي البولندي، كان لهما أدوار كبيرة في رسم وقيادة السياسة الخارجية الأمريكية في سبعينيات القرن الماضي، "وربما لا يكون برزنسكي وكيسنجر، من بين الحالات الاستثنائية ... فقد جاءت إلى أمريكا مجموعة كبيرة من الباحثين المتميزين في العلوم الإنسانية والاجتماعية وكان بعضهم من مصادر الثراء للجامعات الأمريكية بما قدموه من مواهب وخبرات العالم القديم" 57 .

هذا وعالج سعيد مسألة منفى المثقفين كفلسطيني تحتم عليه العيش بعيدا عن وطنه، في وطن معاد لفلسطين (الولايات المتحدة الأمريكية)، وينكر حقه الشرعي في الحرية والوجود، هذا البلد الذي تسود فيه مفاهيم مغلوطة عن الوطن الفلسطيني وقضاياه العادلة، ويروج لتلك المفاهيم مثقفون عرب وغير عرب، يوظفون عقولهم لإبداع أساطير وخرافات سياسية لصالح من يدفع لهم أجورهم، في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وكانت كتابات سعيد في هذا الشأن، تعبيرا صادقا عن معاناته الشخصية، ونضاله المرير من أجل توضيح الحقيقة ورفع اللبس على القضية الفلسطينية في الغرب، فقد كانت مرافعاته المتعددة للدفاع عن قضيته، وعن المثقف الحقيقي وقديسية ما يمثله من مبادئ وقيم إنسانية

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

رفيعة، فقد كان بحق الناقد والمفكر والمناضل والفنان الفرد المستقل والممثل للحق وأصحابه. "فالمثقف وضع حقيقي... ولكنه وضع مجازي. وأعني بذلك أن للمثقف في المثقف مستقى من التاريخ الاجتماعي والسياسي للنزوح والهجرة..." 58.

إن النخبة هي التي تؤثر وبأشكال مختلفة في حياة الناس الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وهي تستمد قواها ومواقعها من قوة أفكارها التي تبقى من صنع الفكر البشري، رغم أنها (الأفكار) تتمثل في أدوات ووسائل يستخدمها الإنسان، فهي بذلك صناعة بشرية خالصة وهي عمل ميدان المثقف، وفي ذلك يقول سعيد: "في عالم الدنيا. علمنا، أي العالم التاريخي والاجتماعي الذي صنعه الجهود البشرية. لن يجد المثقف بين يديه سوى أدوات علمانية يتوسل بها في عمله" 59.

وفي القرن العشرين تضاعفت وتعمقت الحياة الاجتماعية بكل أبعادها بدون استثناء، مما أدى إلى حدوث مآسي إنسانية جعلت الفيلسوف البريطاني من أصول يهودية أشيعيا برلين Isaiah Berlin، يرى بأننا "نعيش في عصر أفكار وضعها مفكرون متعصبون، لم يحط البعض منهم إلا بالقليل من الاحترام في حياتهم" 60، لكن هذا لا يعني أبدا أن المفكر لا يصنع إلا الأفكار الهدامة فحسب ولا مكانة له في سلم الحياة الاجتماعية، فإذا صح ذلك على البعض من المفكرين الروس، فلا ينبغي تعميم ذلك على كل المثقفين.

ويعتبر سعيد من بين المثقفين الذين ساهموا بفكرهم وأقلامهم في إنتاج الأفكار وصناعتها، فهو الذي كتب عن الثقافة الإنسانية انطلاقا من رؤية شمولية، كيف لا وهو الذي يتقن الكثير من اللغات وهو يهتم بالرواية والموسيقى والتاريخ والسياسة فكان له بذلك الأثر البالغ في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية ومن أهمها الأنثروبولوجيا والنظرية

الأدبية وخطاب ما بعد الاستعمار، وتحتل أعماله في النظرية النقدية مكانة محترمة بين النظريات النقدية الكبرى، وهو الذي كان نقده نقدا إنسانيا إذ اقترح نسخة جديدة للمذهب الإنساني في كتابه المذهب الإنساني والنقد الديمقراطي الذي نشره عام 2004، كما نجد سعيد يستنتج من أعمال فرانتز فانون Frantz Fanon، الأخيرة وبالأخص كتاب المعذبون في الأرض أن تحرير الإنسان الغربي من فرديته ونزعتة الذاتية الكولونيالية التي تبرر سيطرة الجل الأبيض 61.

إن البحث في كتاب سعيد تمثيلات المثقف Representations of the intellectual، ليس بالمهمة السهلة إذ يتوجب على من يفعل ذلك، أن يقرأ الكتاب مرات عدة حتى يتمكن من فهم أغواره، ومبتغى صاحبه من وراء تأليفه له، لأن هذا الكتاب حول المثقف يتصف بكثافة صاحبه الفكرية، وهو بمثابة الأشعة التي تلقي بضئها على انجازات هذا المفكر في رحاب الثقافتين الغربية والعربية المعاصرة. أول معضلة تطرح هي عنوان الكتاب نفسه، حيث "يسبب لأي مترجم عناء شديدا في نقله إلى العربية بسبب دلالاته المتشابكة بل واعتماده على تعدد الدلالات، فالمعروف عن الكتاب باللغة الانجليزية الحديثة ولوعتهم بالتورية، والتورية أعقد ما يتصدى له المترجم مهما تكن اللغة التي يترجم عنها أو منها" 62. وتتميز أساليب سعيد اللغوية في كتاباته المتعددة باستخدامه الجمل المعقدة والطويلة في الصياغات المتنوعة، وهو الذي كان يترأس "جمعية اللغات الحديثة" في أمريكا 63.

وقد فضل سعيد إصدار مؤلفاته باللغة العربية عن دار الآداب للنشر والتوزيع في بيروت لبنان، لأنه كان يشعر بثقة كبيرة، لأن ثمة مترجمين يعيدون النظر في الترجمات المختلفة ويدققون ويصححون، وكان سعيد أحيانا يختار اسم المترجم مثل ما فعل عندما

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

اختار الناقد والمفكر السوري كمال أبو ديب، الذي قام بترجمة كتب الاستشراق والثقافة والإمبريالية، وكان سعيد أحيانا يقوم بتقديم موافقته على مترجمي كتبه، الأمر الذي حدث حينما اقترحت دار الآداب على سعيد فواز طرابلسي لترجمة كتابه خارج المكان المتعلق بمذكرات سعيد الذاتية. وكانا المترجمين (كمال أبو ديب وفواز طرابلسي)، من بين الأصدقاء المقربين لسعيد، وهما يعرفان أعماله حق المعرفة 64.

ويبقى القول بأن عائق اللغة في الترجمة مطروح بحدة في الأبحاث والدراسات الأكاديمية على وجه الخصوص، لأن النصوص المترجمة تؤدي في بعض الأحيان إلى الشعور بنوع من خيانة اللغة.

ويشير الدكتور محمد عناني صاحب الترجمتين لكتابي سعيد الاستشراق والمثقف والسلطة في طبعتهما الأولى عن دار رؤية للنشر والتوزيع، بالقاهرة عام 2006، وهو المختص في تدريس اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة بمصر، في مقدمته للكتاب الثاني (المثقف والسلطة)، إلى أنه واجه تداخلا كبيرا في الدلالات، وأصيب بحيرة شديدة في تداخلها، ودفعه عنوان الكتاب لإعادة قراءته بتمهل، إذ تبين له أن المحور الأساسي الذي تدور حوله تلك الدلالات اللغوية هو علاقة المثقف بالسلطة، ولذلك جاء عنوان ترجمته للكتاب كذلك، خلافا لعنوان سعيد وهو تمثيلات Representations المثقف، والأمر نفسه بالنسبة لغسان غصن، حينما وضع عنوان صور المثقف عام 1996 في ترجمته لذات الكتاب 65.

يحاول سعيد في كتابه ذاك، الوصول إلى معيار كوني للتمسك به والرجوع إليه عند الحاجة، بغية التعاطي مع المعاناة الإنسانية والاضطهاد وتراجع العدالة، ويقدم لنا عرضا تحليليا لمفهوم المثقف العالمي، الذي لا يرتبط ولا يتقيد ببرامج حزب معين، ويتجاوز كل

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

يقينية مستمدة من خلفيته ولغته وقوميته، تحول دون معرفة حقيقة الآخرين، إنه مفهوم يدفع للتمسك بـ "معيار واحد للسلوك البشري، في إطار ما يسمى بالسياسات الخارجية، وهكذا فمثل ما ندين الأعمال العدوانية التي يرتكبها الأعداء دون وجه حق، علينا ألا نتردد في إدانة حكوماتنا إذا قامت بغزو بلد ما " 66.

وتجدر الإشارة إلى، أن سعيد يؤكد على ضرورة إعادة النظر في مفهوم المثقف، والأدوات المنوطة به في الحياة الإنسانية، خاصة وأنه بمثابة الركن الأساسي من أركان توجيه مسارات الأحداث ونقدها مقارنة ببقية أفراد المجتمع. المثقف عنده هو "شخص يواجه القوة بخطاب الحق" 67 ، بل يتعدى ذلك إلى مواقف أخرى جريئة كل الجرأة مؤكدا فيها على أن وظيفة المثقف هي أن يخبر مريديه بالحقيقة، للمثقف كما ورد في مقدمة كتاب تمثيلات المثقف أدوارا عامة، أهمها الدور السياسي والثقافي والاجتماعي 68، وهي التي إليها غرامشي أول الأمر، ولكنني أود أيضا أنؤكد هنا أن المثقف ينهض بدور محدد في الحياة العامة في مجتمعه، ولا يمكن اختزال صورته بحيث تصبح صورة مهني مجهول الهوية، أي مجرد فرد كفء ينتمي، إلى طبقة ما ويمارس عمله وحسب 69.

وبينما كان سعيد يعدد أدوار المثقف نجده يركز كثيرا على دور المثقف الفعلي وهو دور عملي واجتماعي مباشر، يعمل فيه على مضاعفة الوعي، لأنه فرد يخاطر بكيانه الشخصي في اتخاذ مواقفه الحساس وهو موقف الإصرار على رفض الصيغ الجاهزة والأقوال السهلة والتأكيدات المهذبة القائمة على المصالحات اللبقة والاتفاق مع كل ما يقوله وما يفعلُه أصحاب السلطة وذوو الأفكار التقليدية 70.

نجد سعيد ينبها على أن الغياب شبه الكامل للقيم الكونية الأخلاقية والاجتماعية، وعلى بعض المفكرين المعاصرين يستعملون بعض الحيل الفكرية، مثل المفكر الفرنسي ألكسيس دي توكفيل، الذي قام بنقد الديمقراطية الأمريكية، بسبب ما تعرض له السكان الأصليون من سوء معاملة، من طرف النظام الأمريكي، كذلك الأمر الأمريكي من أصول إفريقية، في الوقت نفسه، يتناسى هذا المفكر ويغض الطرف عما قام به الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين (1830-1962)، حينما كانت قيادات سياسية فرنسية تقرر، ورجالات فرنسا العسكرية تنفذ، أبشع جرائم عرفت الإمبراطوريات الاستعمارية ضد الشعب الجزائري الأغل.

ويضاف إلى ذلك، ما قام به جنرالات فرنسا أمثال بيجو وماسيو وشال...، ضد المسلمين الجزائريين في الحرب الشنعاء والبشعة التي شنتها فرنسا ضدهم بكل وحشية، إذ لا يدين ولا يستنكر ذي توكفيل كل هذه الجرائم. وهو الذي كان يتغنى بالقيم الديمقراطية والليبرالية الغربية مع العلم بأنها جرائم محرمة بمواثيق دولية، ويمكن وصفها بأنها جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب، ارتكبت من طرف سياسيين وعسكريين فرنسيين، بل أكثر من ذلك، فإن ذي توكفيل يجد الأعذار لأعمالهم يبررها، وكأن "كبرياءهم وكرامتهم لا تثير أية أحوال شعورية تجاه المجازر المرتكبة في الجزائر ضد المسلمين، لأنهم ينتمون إلى دين أدنى منزلة ولا بد من تأديبهم" 72.

ويواصل سعيد في نفس الإطار بأن أكثر المناورات الفكرية خسة هي التحدث بعجرفة عن انتهاكات في مجتمع الغير وتبرير الممارسات ذاتها تماما في مجتمع المرء نفسه 73، إن على المرء إذا أراد دعم العدالة الإنسانية عليه أن يدعمها للناس جميعا، وليس فقط

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

وانتقائيا لمن تصنفهم جماعتك، أو حضارتك، أو أمتك، أهلا لها 74، إن الخطابات الحماسية عن أجداد ثقافات الغربية وانتصاراتهم التاريخية، لا تستحق طاقة المثقف، "خاصة هذه الأيام التي تتألف فيها مجتمعات عديدة جدا من أعراق وخلفيات متنوعة، بحيث تقاوم أي صيغ تصغيرية" 75.

المثقف عند سعيد يجب أن يضع نفسه في موقع المثقف المنشق الخارج عن مزايا السلطة ومتعها، بل ينبغي عليه التشكيك في روايات الرسمية وكذا الأخبار التي تكرسها سياستها الإعلامية ونفوذ شركاتها الاحتكارية والمتعددة الجنسيات، وعلى المثقف إعلان ولاءه للحرية والمعرفة. المثقف حسب سعيد "شخصية يصعب التكهن بما سوف تقوم به في الحياة العامة ويستحيل اختزالها في شعار محدد أو في اتجاه حزبي معتمد أو في مذهب فكري جامد ثابت" 76، فهو شخص لا يتحكم في مواقفه وأفكاره وحتى في ردود أفعاله المبنية على مبادئ يؤمن بها، نظرياته الفكرية التي يتوصل إليها.

إن الصورة التي رسمها سعيد في ذهنه عن المثقف، هي صورة انتقائية وغير منحازة للأغراض السياسية، ومجردة عن الأسباب الاجتماعية والفكرية، التي يستقي منها المثقف أفكاره وآماله التي ينشرها بين الناس، فيصبح فعالا في قراءه، بدلا من أن يكون منفعلا بالعوامل السياسية والاجتماعية والفكرية التي تحيط به، ونتيجة لذلك يصرح سعيد بأنه: "اكتشف حفنة ضئيلة من المثقفين العرب فجأة يلعبون دورا جديدا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وكان هؤلاء في يوم من الأيام من المناضلين الماركسيين وكثيرا ما كانوا من أتباع تروتسكي ومؤيدي الحركة الفلسطينية، وتحول بعضهم، بعد الثورة الإيرانية إلى إسلاميين، وعندما فرت أربابهم أو طردت، خلد هؤلاء المثقفون على الصمت، على الرغم من بعض المحاولات التي بذلوها، هنا وهناك، بحثا عن أرباب جديدة يعبدونها" 77.

هذا ويلعب المثقف دورا لا يستهان به في الحياة الاجتماعية العامة، لأنه إذا كانت هذه الحياة هي بمثابة رواية طويلة أو مسرحية حسب تعبير شيكسبير، فلا بد لكل فرد من أفراد المجتمع أن يقوم بدور ما، فالمثقف يمثل المادة الأولية التي تعبر بصدق عن الحياة الاجتماعية، ولكي ندرك ما يمثله هذا المثقف، فهو "لا يمثل حركة اجتماعية فحسب، بل يمثل أيضا أسلوب حياة خاص، وهو أسلوب مزعج ومنفر، كما يقوم بدور اجتماعي يتفرد صاحبه تماما عن غير" 78.

وهناك قطبين بالنسبة لعالم المثقف، عالم المثقف الفرد من ناحية، والعالم الاجتماعي من ناحية ثانية، وفي هذا الأخير يكون المثقف حاضرا باستمرار وما بين العالمين توجد أنواع عديدة من العلاقات التي تقوم بشكل من أشكال التفويض، وتجعل بإمكان المثقف أن يتحدث أو يكتب أو ينشر أو يحاضر في مؤسسة من المؤسسات الأكاديمية، وما دام المثقف لا يعيش في قلعة عاجية، بل يعيش في حالة تتشكل من سلطات سياسية واجتماعية واقتصادية، حينئذ تصبح "العلاقة بين المثقف والعالم، كما أراها، هي علاقة بالسلطة، وأعمالي تركز على هذه العلاقة، ليس كعلاقة تكامل، بل علاقة تعارض" 79 .

إن الواجب الفكري الأساسي للمثقف هو البحث عن التحرر من الإكراهات المختلفة من هذه الناحية كان تصور سعي للمثقف "كمنفي وهامشي وهاوي ومبدع للغة الحق التي تكلم السلطة، فالمثقف لن يدجن ويتكيف مع الروتين الممل" 80.

ويعتبر كتاب سعيد تمثيلات المثقف محاولة جادة في تحديد أدوار ووظائف المثقف وعلاقته بالسلطة إن "بعض المجموعات والدول في العالم الثالث حاولت استتباعي، لكن مقاومة تلك الجهات ليست صعبة، وحتى فيما يتعلق بالحركة الوطنية الفلسطينية فقد

أوضحت أنني لن أقبل وظيفة رسمية من أي نوع، لقد احتفظت على الدوام باستقلاليتي. وفي بعض الأحيان أخشى أن يكون ما أقوم به نوعاً من عدم المسؤولية، لكن شكراً على أية حال لكوني أستاذاً في جامعة كولومبيا، ومع ذلك فإن موقفي يظل صحيحاً بالنسبة لي" 81.

عندما ظهر كتابي سعيد، الاستشراق عام 1978 والثقافة والإمبريالية 1993، وهما كتابين متكاملين حسب المختصين في قراءة كتابات سعيد، الذي كان واعياً نقدياً لتفسير الواقع. وكما عبرت عن ذلك الناقدة العراقية فريال غزول على المثقف "أن يثير القضايا الإنسانية الملحة داخل موقعه وفي عقر داره. فليس أن يصبح مسئولاً في جهاز ثقافي أو مؤسسة إعلامية بل أن يكون مستعداً لأن يبدع في السياق الذي يعمل فيه مهماً بعد عن المركز " 82. وفي الكتاب الأول، يتهم سعيد المثقف بانحيازه للسلطة (مثقف السلطة)، كما اتهمها بدورها بقبولة المثقف (حصره داخل تخصصه الأكاديمي)، أما في كتابه الثاني، فنجدته يدافع عن "المثقف الآخر" سواء كان غريباً أم عربياً، وفيه ترمز سعيد على الثقافة الأكاديمية المحتكرة من طرف نخبة ضيقة، من جهة، وكذلك السلطة السياسية التي تحتكر المثقف وتجعله تابع لها، هذا السبب فإن سعيد يذهب إلى "عدم التدخل بالنسبة للاختصاص في العلوم الإنسانية، فلهم (السياسيون) إدارة البلاد، وأما نحن (المثقفون) فسندرج في شرح ودورت و شليغل" 83.

يدعو سعيد المثقف لكي يكون لا مهنيًا، أي أن يكون حراً ومستقلاً، فدوره العلني أن يكون لا منتمياً ومشوشاً على الوضع الراهن، وكان يعني بذلك "من يعمل بذاته ولذاته، أي أنه شخص لا يتقيد بما يدين له من فضل إلى ما يربطه بالجامعات التي تدفع الرواتب، أو الأحزاب السياسية التي تطلب الولاء للخط السياسي للحزب، أو هيئات

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

المستشارين التي تتيح حرية إجراء البحوث ولكنها، بأساليب ذات دهاء وحذق، تصبغ أحكامهم بالصبغة التي تريدها وتفرض القيود على الصوت الذي يحاول الانتقاد" 84.

ومن ثمة، فالمثقف عضو في جماعة من المثقفين، له صوت مستقل، وأنه لا منتمي برؤيته المختلطة بين ما هو واقعي، وما هو مثالي، فلا ينبغي عليه خيانة المبادئ التي يؤمن بها مجرد أنه يعمل في جامعة ما أو صحيفة معينة أو حزب بذاته، المهم أن يكون صوت المثقف مدويا ومسموعا ومثيرا للجدل والمناقشات 85. لا ينبغي للمثقف أن يعيش منعزلا عن جماعته المهنية المحيطة به، لأن النظام الاجتماعي يتطلب ذلك، حيث يعبر المثقف عن قضاياها واهتماماته كما يراها هو، ولأن ذلك النظام يعمل على قبولية المثقف، في نظر سعيد إذ يصير المثقف محصورا وموجها لأهداف محددة من أجل تحقيق تلك الغاية تعمل المجتمعات المعنية على توفير ضغوطات متعددة منها ما يسميه سعيد مبدأ التخصص 86، فوضع المثقف داخل إطار تخصصه الأكاديمي يقيه وفق هذا الخط المرسوم دون الخروج عليه، وينتهي به الأمر إلى أداء ما كان عليه القيام به مسبقا، ولحل هذه المسألة يقترح سعيد نزعة الهواية أو المثقف الهاوي، "لأنني باعتباري من الهواة المتواضعين أشعر بالالتزامات التي تحفزني على تجاوز حياتي العملية والمهنية ذات النطاق الضيق" 87. إذ ينبغي على المثقف الهاوي أن يطرح الأسئلة ويثير الجدل والمناقشة يتحدى السلطة ولا يهادنها ويواجه الجمهور بما يثير قلقه.

إن محاضرات أو برنامج رايت نسبة لاسم المدبغة التي تقدمه في الإذاعة البريطانية البي. بي. سي. BBC، وشاركت في هذا البرنامج مجموعة من النخب الثقافية العالمية من بينهم الفيلسوف برتراند راسل، ويكن سعيد للبعض منهم احتراما خاصا، ويذكر لنا أنه ما إن أعلنت هيئة الإذاعة نبأ موعد إلقاء سلسلة محاضراته في أواخر 1992، حتى

"ارتفعت أصوات جوقة دائبة الصراخ تنتقد البي. بي. سي. بسبب هذا الاختيار، وكانت تهمة هذه الأصوات أنني من المناضلين الناشطين في سبيل الحقوق الفلسطينية، وهو ما يسلبني في رأي تلك الجوقة، الحق في الحديث من أي منبر يتمتع بالرزانة والاحترام" 88.

في المحاضرات الستة: (صور تمثيل المثقف، واستبعاد الأمم والتقاليد، ومنفى المثقفين: المغتربون والمهمشون، ومحترفون وهواة، وقول الحقيقة للسلطة، والآلهة التي تفشل دائما)، وهي التي جمعت في كتاب تمثيلات المثقف بعد عام واحد من إلقائها أي في عام 1993، ففي نهاية المحاضرة الخامسة (قول الحقيقة للسلطة)، يرى سعيد أن "ليس قول الحقيقة للسلطة ضربا من المثالية الخيالية بل إنه يعني إجراء موازنة دقيقة بين جميع البدائل المتاحة واختيار البديل الصحيح ثم تقديمه بذكاء في المكان الذي يكون من الأرجح فيه أن يعود بأكبر فائدة وأن يحدث التغيير الصائب" 89، ونشير أن عنوان المحاضرة السادسة والموسومة بعنوان (الآلهة التي تفشل دائما) أي أرباب دأمة الخذلان اشتقه سعيد من كتاب ريتشارد كروسمان : الإله الذي فشل Richard Crossman, The god that failed، الذي طبع سنة 1949، وهو يحتوي على شهادات للمثقفين الأوروبيين البارزين الذين أعلنوا ثوبتهم عن الماركسية والشيوعية مثل أندريه جيد، حيث وطف شهادتهم في الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي، فكان يجب عليهم الوقوف ضد المد الشيوعي 90.

مما سبق يمكننا القول، بأن سعيد يريد مثقفا غير مكتسي بلون سياسي مهما كان، بل هو بحاجة إلى مثقف "يحافظ على سمعته، معتدل في مواقفه، لا يأمل في الحصول على منصب سفير، ولا على شهادة فخرية، أو جائزة كبرى، هذه العادات الفكرية هي مصدر الفساد لدى المثقفين بدون منازع" 91.

إن مسألة الهوية عند سعيد، لها مفهوم غير ثابت ولا جامد ولا نهائي، بل هو مفهوم حيوي ديناميكي، يكتسب من عناصر ثقافية باستمرار تجعل الهوية متجددة، حيث يمكن لسعيد أن يكون فلسطينيا أو أمريكيا، أو عازفا بارعا على آلة البيانو، أو ناقدا لأوضاع المهمشين، أو مثقفا متحركا على ضفاف الثقافات، كان له ما يريد، ولهذا فهو يعتبر مثقفا كونيا ومركب الهوية، فالهويات عنده بشكل عام، متنوعة في جوهرها من المستحيل، اختزلها في عنصر واحد أو هوية واحدة، ويدرك سعيد تمام الإدراك لهذه الإشكالية وهذا ما يسميه (الجنة الثقافية وازدواجية الهوية) 92، وأشار سعيد لذلك في مقدمة كتابه الثقافة والإمبريالية .

يعتبر سعيد من بين المثقفين الذين أضافوا قيما إنسانية للمثقف، يتجلى هذا في قدرته ورؤيته على أن الفعل أهم لا القول، وسجاله وانتقاده للسلطات المستبدة كائن فعلا في أنشطته الثقافية المختلفة، وهنا تكمن مصداقيته كمفكر ملتزم بقضايا متعددة أهمها قضية شعبه الفلسطيني، وموضوعيته في تصريحاته بلا مبالاة، نقده الملتزم بالقضايا الفكرية والثقافية، ويمكن إدراج في هذا السياق بأنه على المثقف "يحمل على كاهله النضالي قضايا أمته" 93.

إن خصال سعيد الإنسانية والنقدية والثقافية، هي التي دفعت تيري كوتشران يرى بأن إدوارد سعيد، كان أكثر من أي ناقد آخر في النصف الأخير من القرن العشرين، يعالج بشكل منتظم قضايا تؤكد على تداخل الاهتمامات الأدبية والمصالح السياسية، وفي حالة سعيد ردد هذا التوجه في مجالات ردود أفعال لا تنتهي عبر النطاق السياسي والأدبي من جميع التوجهات، الأمر الذي بدا ظاهريا أنه يصدق على تأكيده على أن الأدب والسياسة تربطهما روابط لا تنفصم عراها، وبشكل أكثر تحديد فإن إسهامات سعيد أكثر

عمقا، في الفكر المعاصر، هو أنه بذل غاية الجهد حتى نجح في البرهان على أنه لا يمكن فقط تطبيق آليات الإدراك الأدبي المفاهيمية على مجالات وانتاجات أدبية أخرى.

ويبرز سعيد في سياق حديثه عن المثقف، بعض أعمال من الروائع العالمية لأدباء وفنانين، تجسد معاناة شعوبهم، وزيادة على الصبغة الفنية والأدبية والعلمية لتلك الأعمال، فهي ترمي إلى أبعادها الإنسانية، لكي يربط المثقف بين خبراته الذاتية ومعاناة الغير، ومن ثمة فإن "بيكاسو ونيرودا ...، جسدوا الخبرة التاريخية لشعوبهم في أعمال فنية جمالية وهي التي أصبحنا نعتز بأهم روائع فنية عظمى" 94.

كما اهتم سعيد بالأعمال الفكرية والنقدية البارزة في أواخر القرن العشرين، وظل يبحث في كتابات المختلفة ليجد تمثيلات المثقف التي آمن وعمل بها كمبادئ طيلة حياته، من أجل إبعاد الشكوك على المثقف الحقيقي، نظرا للأخطار المحدقة بهذا الصنف من المثقفين، الذين يمتلكون قدرات فكرية تسمح لهم بأداء أدوار رسالية في مجتمعاتهم، ويتخذون مواقف جريئة وصريحة تجاه المشاكل الراهنة، حتى وإن كان ذلك يطرح أسئلة حرجة ومربكة لمختلف السلطات ومن ثمة فإن للمثقف "دور عضوي يربطه برسالة يؤديها في المجتمع ... والتشديد على دوره الرفض القادر على قول الحقيقة للسلطة" 95.

ما يميز سعيد عن المثقفين، هو أن مبدأ العدل الذي يتحيز له لا يطبقه عن الإمبراطوريات الاستعمارية، ورواياتها عن الشعوب المستعمرة، ولا عن نقد السلطة بكل أشكالها فقط، بل يمتد ذلك إلى مثقفي العالم الثالث، لأن قسوتهم وإكراهاتهم لا تقل عن قسوة وضغوطات المستعمر. وهذا ما يقوم به سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية، حيث يعيد إنتاج نقد فرائز فانون للمستعمر لأسباب واضحة، وللمستعمر لأسباب خفية (تحتاج إلى

تدقيق وتحليل كافيين)، "اليوم ... يواجه العالم الثالث أوروبا مثل كتلة هائلة يجب أن يكون هدفها محاولة حل المشكلات التي لم تستطع أوروبا أن تجد الأجوبة عنها" 96.

وما يميز سعيد حسب بول بوفيه في كتابه إدوارد سعيد ومهمة الناقد، Paul Bové, Edward Said and the work of the critic "إنه (سعيد) يجمع لخصال ثلاث في آن واحد، تمثل حال وجودها في أي شخص الكينونة الحقيقية للمثقف المسؤول والكوني، وهذه الخصال هي أن سعيد متسع وعميق في معرفته، وله الرصانة التاريخية والأكاديمية، والبعد الأخلاقي والقيمي في الموقف السياسي الذي من دونه لا تقوم الحضارات، وغياب أي من هذه الخصال يحول المثقف إلى مجرد موظف عادي أو أكاديمي جاف ينضاف إلى جحافل الأكاديميين في طول وعرض العالم " 97.

ويرى بول بوفيه أن سعيد "أطلق مشاريعه الفكرية الكبرى، بدءاً من عمله المفصلي الاستشراق في نهاية السبعينيات من القرن الماضي 1978، ثم بكتاباته الأولى عن فلسطين بعد السماء الأخيرة 1986، وسفره القيم بين الثقافات في كتابه الثقافة والامبريالية 1993، ثم انخراطه في نقد عملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين، باعتبارها تدوس على منطق العدل وتغلب سرديات المنتصر، وكان منطلقه في ذلك البعد القيمي في الموقف السياسي ورفض منطق القوة والغلبة، والنضال من أجل العدالة كمبدأ إنساني رفيع لا يخضع لمنطق القوة، وعلى قاعدة قيمة العدل الإنساني بين بشر متساوين " 98.

وبمناسبة مرور ثلاثين عاماً على صدور كتاب الاستشراق، طرح فواز طرابلسي - كتاب سعيد خارج المكان المتضمن السيرة الذاتية له - سؤالين هامين، الأول يتعلق بتصنيف سعيد، ما إذا كان كاتباً أو باحثاً في حقول الاستشراق، والسؤال الثاني، يخص

موقف سعيد من الثورات العربية، لو كان حاضرا بيننا في ظل التغيرات التي تحدث في العالم العربي 99.

لقد كان ضمن ملامح الفكري والنظري تفكيك ثقافة النظام لدى العرب والغرب، واجتهد في توظيف الفكر الغربي ونقد الخطاب الناتج عنه، كما قاوم مفهوم صراع البشر، القائم على الأصول والأعراف والانتماءات الجغرافية والعرقية الصغيرة، على حد سواء.

واعتبر أن الحروب بين الحضارات والثقافات مدمرة للهويات نفسها، وكان ذلك من خلال كتبه ومقالاته ودراساته التي تنوعت موضوعاتها بين النقد الأدبي والنقد الثقافي ونقد الموسيقى والسياسة ... "هذا ما يفعله سعيد كباحث أكاديمي وكاتب مقالة ومتكلم باسم الفلسطينيين في الغرب ومن ثم عن حق أبناء العالم الثالث في تمثيل أنفسهم وتشكيل هوياتهم الثقافية والوطنية، ما يجعله مثالا لمثقف العالم الثالث الحر، الهاوي بالمعنى الذي قصد إليه في كتابه تمثيلات المثقف" 100.

إن كتب سعيد الاستشراق، وتغطية الإسلام 1981، Covring Islam، والثقافة والامبريالية، وعدد كبير من مقالاته ودراساته والكتب الجماعية التي شارك فيها، أو تلك التي كتب والمقدمات التي قدم بها لكتب، كل ذلك، يعيدنا إلى مساره الفكري وإنجازاته، وكل ما يمثله كمثقف تمكن من أن يلفت النظر لمفهوم المثقف ووظائفه الاجتماعية، وكان بمثابة "طريقة تفكير وتفكيك للوعي الغربي ونظرته للآخر وإعادة النظر لمفاهيمه وتصوراتهِ الغربية تجاه الشرق والعالم الثالث بعامة" 101 ، الأمر الذي أدى إلى طرح السؤال الأساسي لوظيفة المثقف ورأيه وموقفه، وما يدور في المجتمع الذي يعيش فيه وفي العالم الموجود فيه.

المبحث 1: من مثقف السلطة إلى سلطة المثقف

ويتبين لنا من أفكار سعيد، رفضه لتقوقع المثقف على نفسه في بيئته الأكاديمية كأستاذ للأدب الإنجليزي المقارن في جامعة كولومبيا الأمريكية، بل يجب على المثقف أن "يتخذ من شعاره شعار إبليس (لن أسجد لبشر خلقتة من طين)" 102 ، وبإمكاننا الإطلاع في كتاباته النقدية المختلفة، على دفاعه عن المثقف لكي يحصن نفسه بالمعرفة وبالمناهج التي يجدد بواسطتها أدواته الفكرية.

في الوقت الذي صدر فيه كتاب المثقفين والسلطة، باللغة الفرنسية عن دار سوي للنشر عام 1996، وهو عبارة عن مجموعة من النصوص التي اهتمت بالدور الذي يجب على المثقف القيام به من خلال نشاطاته الاجتماعية المختلفة، نجد سعيد يؤكد في كتابه تمثيلات المثقف على دخول المثقف في المعارك الفكرية والسياسية والثقافية، ويعود بنا في الكثير من المرات للتأكيد على أن "المجتمعات البشرية مركبة وأن المسارات الثقافية معقدة، ومن الخطأ الشنيع اختزالها إلى تعريفات مبسطة وجاهزة مثل الشرق والغرب" 103، يمكننا أن نستخلص من خلال مسيرة سعيد الذاتية بأنه "كمثقف كوني منفي، ليس هو من لا ينتمي لوطن، بل من يرفض أن يجعل من هذا الانتماء مطية لتبرير الخطأ والظلم والجهل ويتمسك بكونية المعايير الحقوقية والأخلاقية وتساوي الناس إزاءها" 104.

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

إن القرن العشرين هو قرن الغربة والمنفى بمتياز بإنتاجه الفكري. والهجرة قسرية كانت أم اختيارية، تعتبر مصيرا حتميا للكثير من المثقفين الكبار وكتاب هذا القرن، إن جوزيف كونراد وثيودور آدورنو من بين المفكرين المبدعين الذين ارتبطت أعمالهم وكتاباتهم بموضوع المنفى. ثم أن ترحال الكتاب والمفكرين واستقرارهم في المدن البديلة قد ألبسها أردية مزركشة غير معتادة، كما أنها أثرت في شكل كتاباتهم، إذ يمكننا أن نشير إلى ما بين المتنبي ودانتي وغيرهما، إلى إسكندرية كقافي، وطنجة بول بولز، ونيويورك إدوارد سعيد، ومراكش جون جينيه، واسطنبول آيورباخ، وهي أوطان، تتألق بانتسابهم لها.

والمنفى من أعقد التجارب التي عاشها الإنسان عبر العصور، "وخروج سيدنا آدم وحواء من الجنة ليس سوى النموذج الأول Archetype للمنفى القسري الذي ارتبط بالعقاب نتيجة تحدي الإنسان أو تمرده. وما توق الإنسان دخول الجنة سوى الرغبة الأبدية في استعادة الوطن الأم" 105، أو الرجوع إلى مسقط الرأس. ولا نستطيع في هذه العجالة استعراض كل النماذج المختلفة للمنفى عبر التاريخ، لأن القائمة الطويلة، ولعل القاسم المشترك بين هذه التجارب وغيرها، يتعلق بتصوير قسوة المنفى على النحو الذي "صوره دانتي كما جاء على لسان كاتشاجويدا حينما تنبأ لدانتي بالرحيل عن فلورنسا مشيرا إلى الشعور بالفقد الذي يحدثه المنفى:

وكما ارتحل هيوليتوس عن أثينا...

هكذا ينبغي لك أن تمضي مرتحلا عن فلورنسا

سوف تترك أحب الأشياء إليك وتمضي

هذا هو أول سهم يطلقه المنفى

سوف تعرف كم هو مالح طعم خبز الآخرين

المبحث 2: متاعب المنفى في أعمال إدوارد سعيد

وتعاني من مشقة صعودك وهبوطك درج الآخرين" 106.

والمنفى ليس فقط حالة جغرافية يعيش فيها المنفى، بل هو حالة انفعالية مرتبطة بقلق الهوية ارتباطا وثيقا، إنه نفي عن حضارة ما، ونفي عن اللغة ما، في ذات الوقت، "لا يبعث الأحزان مصير مثل العيش في المنفى... الذي يعني، أن يصبح المرء منبوذا إلى الأبد، محروما على الدوام من الإحساس بأنه في وطنه، فهو يعيش في بيئة غريبة، لا يعزیه شيء عن فقدان الماضي" 107.

يقول فيتاغورس ناصحا المهاجر إلى أرض غريبة: "إذا تركت وطنك فلا تنظر للخلف، فالإيرينيس Furies ورائك" 108. ورغم أن كلام فيتاغورس هنا كان موجها للإنسان الذي بدأ رحلته إلى العالم الآخر، ونصيحته له ألا يشعر بالندم لفراقه هذه الحياة الدنيا الزائلة، فإن هذه النصيحة يمكن تعميمها على أي مرتحل، خاصة وأن فيتاغورس نفسه ظل مقيما في المنفى بين إيطاليا ومصر حتى وفاته. أما الإيرينيس أو Furies في الأساطير الإغريقية، "فهي كائنات أنثوية تعيش في العالم السفلي ولها أجنحة وتظهر الثعابين بين خصلات شعرها. ومن ينظر إلى هذه الكائنات يكون عقابه أن يصاب بالجنون أو يتحول إلى حجر" 109.

وتمكن أهمية هذه الأسطورة في كونها تحمل المفارقة الكامنة في مسألة المنفى، حيث ينصح فيتاغورس المرء الذي ترك وطنه ألا ينظر إلى الوراء. والنظر إلى الوراء هنا يعني أن نتذكر الماضي وهو أمر شبه أكيد ومن المستحيل تجنبه. وهنا تكمن المعضلة، فإذا "نظرنا للخلف، أي نتذكر الماضي فسوف نقوم بتهييج الإيرينيس، (أي وعينا وإدراكنا بحقيقة

المبحث 2: متاعب ومنع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

وضعنا كمنفيين)، فيكون هلاكنا، ولكننا في نفس الوقت لا نستطيع أبدا أن نتفادى فعل ذلك، فالتذكر حالة شعورية، ومن ثم التناقض الذي تحمله الأسطورة" 110.

إن منفى إدوارد سعيد ليست حالة تجسيد، لهذه المفارقة فحسب، بل هي محاولة واعية، منه لتجاوز تلك المفارقة، وكذلك فهو يحاول تعدي التناقض الذي يدرك، أنه ليس ثمة سبيل إلى حله. لأن وعي إدوارد سعيد بوضعه كمنفي وتصوريه لهذه التجربة بأبعادها المؤلمة والقاسية، بل والممتعة أيضا، لم يجعله يوما ما يعتقد بإمكانية العودة الكاملة إلى الوطن، إن الأحداث التي تلت محنة النكبة للشعب الفلسطيني عام 1948، تركت تأثيراتها الجسام من الناحيتين النفسية والفكرية على إدوارد سعيد، وأسهمت في تشكيل رؤيته لطبيعة القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، لدرجة أنه، وبعد مرور أكثر من أربعة عقود من النكبة كان يحلو له أن يعرف نفسه بالقول: "لست مهاجرا ولكنني أعيش منفيا في انتظار العودة" 111.

وفي نفس الوقت، فإن موضوع المنفى نجده حاضرا بقوة في انتاجات سعيد الفكرية والنقدية، وفي جل المقابلات التي أجريت معه، بل يمكن القول، إن مسألة المنفى هي جوهر كتابات التي عبر فيها سعيد عن تجاربه الذاتية، وخاصة منها كتابه بعد السماء الأخيرة After the last sky، الذي نشر عام 1986، ونشير بهذه المناسبة إلى أن هذا العنوان مأخوذ من:

"إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟

أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة،

أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير؟

المبحث 2: متاعب ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

سنكتب أسماءنا بالبخار الملون والقرمزي،

سنقطع كف النشيد ليكملة لحنا

هنا سنموت. هنا في الممر الأخير

هنا أو هنا سوف يغرس زيتونه...دمنا" 112.

مع العلم، أن هناك من يعتبر هذا الكتاب، بمثابة السيرة الجماعية، إن صح هذا التعبير، للمجتمع الفلسطيني في الشتات، وفي الداخل. والكتاب الثاني الذي يرتبط بسيرة سعيد الذاتية: خارج المكان Out of place، الذي نشر عام 1999، والذي فاز بجائزة مجلة نيويورك الأمريكية الشهيرة للأعمال غير الروائية، حيث أعلنت عن ذلك في نهاية شهر شباط (فيفري) 2000. وقد وصفت لجنة تحكيم الجائزة سيرة إدوارد سعيد الذاتية بأنها: "توثيق لسجل المكان الذي ولد فيه الأستاذ الجامعي البارز إدوارد سعيد وقضى فيه طفولته: بدءا من شوارع القدس ووصولاً إلى القاهرة في فترة الاستعمار" 113، وذلك في إشارة صريحة للمكان المقدسي الذي حاول المحامي الأمريكي من أصل يهودي، جستس فاينر في مقاله، (بيتي العتيق الجميل، وأكاذيب أخرى اختلقها إدوارد سعيد) 114، أن يحوّه من من طفولة وحياة سعيد. ويتخذ الكتاب الأول (بعد السماء الأخيرة)، شكل تعليق مكتوب بالاشتراك مع المصور والفوتوغرافي السويسري جون مور J.Mhoor، الذي أقام معرضاً عن فلسطين، وصور عن حياة الفلسطينيين في الداخل، أما الكتاب الثاني (خارج المكان)، فهو سيرة إدوارد سعيد الذاتية التي كتبها في منتصف التسعينيات من القرن الماضي. ويبدو أن محاولة سعيد لتجاوز وضعه باعتباره منفياً، وذلك عن طريق عقلنة مفهوم

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

المنفى، عقلنة تبلغ أحيانا حد التنظير، ليست سوى محاولة لإثبات وضعه وتأصيله. وهذا ما نجده في سياق كتاباته المختلفة عن موضوع المنفى.

إنه لمن نافل القول، التأكيد على الدور الرائد لإدوارد سعيد في تأصيل ما عرف في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين بالنقد الثقافي، "ذلك النقد الذي عني بشكل أساسي بالمفاهيم المركبة المتعلقة بموضوعات مثل القومية والهوية والانتماء" 115. ومن أهم منجزات سعيد "تقويضه لخطاب المركزية الأوروبية وهيمنتها" 116 ، ذاك الخطاب الذي لا يقوم على فرض تصوره عن الآخر، التابع فحسب؛ بل أيضا، هو خطاب يقوم على فرض الآليات التي يحاول من خلالها هذا التابع، (أن يبنى بها خطابا يمكنه من تمثيل نفسه). وهذه هي الأطروحة الجوهرية التي أسس لها سعيد في كتابه الاستشراق الذي نشر عام 1978. وهي - كما يبدو لنا - ذات الأطروحة، التي تبناها سعيد كمنطلق أساسي في كتابه الثقافة والإمبريالية الذي نشر عام 1993.

وما دامت اهتماماتنا في هذا المجال منصبّة ومرتبطة بالنقد الثقافي، فإنه من الضروري القيام بوصف العلاقة المتشابكة والمتصارعة سياسيا وثقافيا، بين الثقافات الهامشية والثقافة السائدة في المجتمعات الغربية عموما، والمجتمع الأمريكي على وجه الخصوص، ومما ينبغي الوقوف عليه في هذه السياقات الفكرية، التي تدخل في صميم الموضوع من ناحية أولى، - أو ما نراه يصلح لتحقيق وتجسيد الهدف المرجو من وراء هذا العمل المتواضع على الأقل -، فإنه من الواجب علينا ، محاولة القيام بدراسة وتحليل البعض من انشغالات وآراء كل من جياتري سيفاك 117 Gayatri Spivak ، وهومي بابا علي Homi Bhabha Ali 118 في هذا الصدد.

المبحث 2: متاهج ومتج المنفى في أعمال إدوارد سعيد

إن ما يهمنا بالتحديد في هذا الصدد، هو مفهوم جياتري سيفاك للتابع الثقافي Subaltern ولوضعه الاجتماعي والثقافي بل والسياسي معا. فمشروع جياتري سيفاك قائم على تساؤل جوهري. "هل يمكن لأي هوية ثقافية تابعة، أن تأخذ شرعيتها ويسمع صوتها في ظل فداحة الواقع العرقي وفي سياق هيمنة قمعية؟" 119 . وسنتعرض أيضا لمفهوم هومي بابا عن التهجين الثقافي Cultural Hybridity ، واحتفائه بما يسميه الفضاء الثالث أو الفضاءات البيني 120 Liminal Spaces وبإمكاننا في هذا المضممار أن نصف هذه الفضاءات بالمنطقة التي تجد فيها الاختلافات الثقافية، الفرص للإفصاح عن نفسها.

وفي حالة إدوارد سعيد، يمكننا الوقوف بالبينه من خلال عرضنا، على أن فكره، لا يمكن أن يستوعب بواسطة هذه القوالب الجاهزة، حيث لا نستطيع القول، بأنه يمثل التابع، أو إنه مثقف أو كاتب هجين Hybrid، بالرغم مما يبدو من حديثه هو أحيانا، ورغم محاولة الكثير من الكتاب والنقاد أن ينعتوه بهذه الصفة. فيجب علينا من التأكيد هنا، بأن أية محاولة لاختزال هوية سعيد، في واحدة من هذه التصنيفات، يعتبر إساءة لا تغتفر، "إلى مفكر يرى أن إحدى مهام المثقف هو السعي الدائم لكسر هذه القوالب، التي تقف عقبة في طريق التفكير المنفتح على الثقافات المختلفة في تعددها وثرائها" 121 .

ولم يكن اختيار جياتري سيفاك وهومي بابا علي، بالتحديد في هذه الدراسة من باب الصدفة، بل هناك دواعي مبررة لذلك، فمن بين أسباب ذلك الاختيار، اهتمامهما بالكشف عن آليات العلاقات بين الثقافات المتباينة، سواء كانت ثقافات من طبيعة حوارية أو من طبيعة صراعية، وسواء كان ذلك داخل الثقافة الواحدة، أو في سياق ثقافات مختلفة، إن هذا الوضع بالذات، هو الذي يحيا فيه المثقف

المبحث 2: متاهجة ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

المقيم في المنفى، بل إن السبب الحقيقي والمباشر لذلك الاختيار، يرجع أساسا لكون كلا من جياتري سبيفاك وهومي بابا علي، يشتركان مع إدوارد سعيد في نفس المصير الأكاديمي. فكلاهما "ينتمي إلى ثقافات غير أوروبية، ولكنهما تبوءا أماكن مرموقة في جامعات أمريكية" 122 .

يتفق قطبا النقد الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية، على أن هناك داخل الثقافة الأوروبية بوجه عام، والأمريكية بشكل خاص، محاولة دوؤبة من المركز لاحتواء الهامش. ويرى الناقدان سبيفاك وهومي بابا، بأن "هذا الوضع يمثل عنصرا هاما من عناصر الحركة المتواصلة. بل إن التفاعل والصراع، بين هذه الثقافات المتباينة يمكن أن يعد، في الوقت ذاته، نقطة اختلاف، ومنطقة تنافس واتصال دائمين بين هذين الاتجاهين" 123.

ترى جياتري سبيفاك ان التابع يحاول التدرج من موضعه البعيد عن محيط الدائرة إلى مركز الدائرة وترى انه لا سبيل لفعل ذلك سوى بخلخلة الثقافة الغربية من داخلها، لينقلب الوضع وليصبح المركز/ المهيمن في محيط الدائرة 124. إن هدف سبيفاك باعتبارها ناشطة سياسيا وفاعلة في الحركة النسوية الأمريكية - هو بالأساس تمكين ثقافات الأقليات من تبوء موقع مركزي خارج العلاقات القائمة على الاختلاف داخل الثقافة الأوروبية أو الأمريكية السائدة. بيد أن جياتري سبيفاك نفسها تجيب بالنفي القاطع عن تساؤلها الشهير: هل يمكن للتابع ان يتكلم ؟ Can the subaltern speak? فهي تشرح انه في ظل سيادة الأبنية الثقافية والاقتصادية والسياسية الغربية والتي تستغل وضع الاختلافات العرقية لبسط سيطرتها ونفوذها، فإن التابع الثقافي لا يجد مجالا للتعبير الحر عن نفسه وترى جياتري سبيفاك أن الحل هو مساعدة هذا التابع you dont give the subaltern voice، ليس فقط عن طريق تمكينه من التعبير عن نفسه؛ بل عن طريق مساعدته للتخلص تماما من وضعه الهامشي. وهي لا تكتفي بأن يبقى التابع على حاله كتابع حتى وإن وجد سبيله إلى التمثيل Representation 125.

المبحث 2: متاحف ومتاحف المنفى في أعمال إدوارد سعيد

ونجد، بالمقابل، أن خطاب هومي بابا علي يحتفي بالتابع إلى الحد الذي يصل به إلى تمجيد وضعه الهامشي أو ما يصفه بالفضاءات البينية الفاصلة Liminal or Interstitial Spaces، وي طرح هومي بابا علي بعض التساؤلات في كتابه موقع الثقافة The location of culture الذي نشر عام 1994، تتعلق بالكيفية التي تتشكل بها هوية عناصر ثقافية تتسم بالاختلاف داخل نسق علاقات اجتماعية وسياسية معينة. ويتساءل أيضا- كما تفعل سيفاك - عن الإستراتيجية التي تمكن الثقافة المهمشة، تلك التي تتعرض لقوى المحو Erasure، من قبل الخطاب السائد، من أن تعبر عن نفسها 126.

وباستخدام مجموعة معقدة من الأدوات والنظريات النقدية كالتحليل النفسي عند جان لاکان والتفكيكية عند جاك دريدا، يحاول هومي بابا علي إعادة طرح وخلخلة بعض المسلمات المتعلقة بمفاهيم مثل القومية والتمثيل والمقاومة، ويخلص هومي بابا علي إلى أن هناك طاقات كامنة وهائلة تتموقع فيما يسميه الفضاء البيني حيث نجد هذه الاختلافات الثقافية فرصة للتعبير عن نفسها. ويضيف هومي بابا علي أن هذا الفضاء البيني ذو طبيعة هجينة وملتبسة في بعض الأحيان، مما يجعله أرضا خصبة لإنتاج ثقافة هجينة تتجاوز النزعة القومية والأصلية الضيقة إلى منطقة الفضاء الثالث الأكثر رحابة حيث تتمكن هذه الأقليات من تحدي الخطاب السائد فتؤسس لهوية ثقافية تأخذ شرعيتها وتظهر في لحظات تاريخية حاسمة 127.

وينبغي علينا أن نوضح أن آراء هذين الناقلين، وهي آراء تدين لإدوارد سعيد، ولا سيما لنظريته في الإستشراق، بالكثير، تعتبر جوهرية في تأسيس النقد ما بعد الكولونيالي والنقد الثقافي، وذلك بسبب اهتمامهما بتحليل مواقف المثقفين ودورهم في المنظومة الاجتماعية والسياسية التي ينتمون إليها. بيد أن تميز سعيد عن تلك الآراء يتأتى من مفهومه

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

للمثقف المنفي ومسؤوليته ودوره الذي يتأرجح بين رغبة حقيقية في تغيير العالم ووعي بدوره كمنتج للمعرفة وارتباطه بموقع فكري إنساني يصل في بعض الأحيان إلى حد الطوباوية، ففي حين تشكك سيفاك في إمكانية أن يقوم الناقد أو المثقف داخل المنظومة الثقافية الغربية بدور الوسيط الذي من خلاله يستطيع التابع أن يعبر عن نفسه، حتى ولو صدقت النوايا، يرى سعيد أن وظيفة المثقف المثقف الدنيوي هي أن يقول الحقيقة في وجه السلطة، Speaking thruth to power 128، وهذه نقطة جوهرية في الخلاف بين هذين الناقلين، إن تشكك سيفاك يصل أحيانا إلى درجة من التشاؤم حيث ترى أن علاقة التابع بالقوة أو السلطة هي علاقة ملتبسة، فهذا التابع يرفض الانصياع للسلطة ولكنه في ذات الوقت لا يملك مفردات السلطة أو القوة التي تمكنه من تغيير موقعه.

هنا يأتي دور المثقف الغربي اليساري الذي يحاول أن يقوم بمهمة تمثيل الثقافات المهمشة باعتبارها جزءا من مشروعه للتغيير الاجتماعي. ولكن سيفاك ترى في هذه الجهود محاولة استغلال وضع هذه الثقافات المهمشة خارج السلطة لإحداث تغيير سياسي معتبرة أنه من قبيل إعادة إنتاج الوضع الاستعماري المستغل للأقليات 129.

من ناحية أخرى فإن تحيز هومي بابا علي للعنصر الهجين ذي الهوية المزدوجة في القوميات والأقليات، بل مفهوم الهوية نفسه الذي يتسم - بالنسبة له - بالسيولة وعدم الثبات، يمكن أن يبدو على السطح أنه صدى لأراء سعيد عن التعددية الثقافية، وسوف نجد في أعمال هومي بابا علي أنه يغرق تماما في النظرية بحيث يقوم مشروعه على تفكيك خطاب سعيد- وأيضا سيفاك- وبالتحديد في ما يخص الثنائيات غرب/شرق، وسط/هامش، وهكذا، فيحول بذلك جميع هذه الاختلافات إلى صراعات على مستوى

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

الخطاب والنصوص بحيث يقوم بالتشكيك في مفاهيم ثقافية "أساسية" كالهوية والقومية 130.

ومن ناحية أخرى فإن مفهوم الهوية عند سعيد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكونه مثقفاً منفيًا. يصرح إدوارد سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية بأن مبدأ الهوية الأصلية لثقافة ما أو لشعب ما ليس سوى نتاج للفكر الثقافي خلال عصور الإمبريالية، وأن الهويات بشكل عام هي في جوهرها متنوعة ومن الصعب، بل من المستحيل، اختزلها في عنصر واحد متجانس. ويضيف سعيد أن تجربة الإمبراطوريات من أكثر التجارب التاريخية التي ولدت تشابك الثقافات بحيث يمكن القول إنه ليست هناك أية ثقافات "خالصة" أو أصلية 131، فسعيد يجزم بأن هذا الوضع الهجين للأفراد والجماعات يتصف بغناه وبتميز تراثه الثقافي. ولكننا لا نستطيع بأية حال أن نكتفي بالقول بأن سعيد مع التعددية أو الازدواج الثقافي على اعتبار أنه الوضع الأمثل أو المصدر الوحيد للثراء الثقافي، كما طرح العديد من أصحاب النقد الثقافي فيما بعد وعلى رأسهم هومي بابا علي.

إن سعيد مدرك تماماً لإشكاليات هذا الوضع الهجين أو مزدوج الهوية، ولعل ارتباط موضوع الهوية بالمنفى عند سعيد يجعل هذه المسألة أكثر التباساً وتعقيداً. ولا سبيل إلى الوقوف عند كيفية تعامل سعيد مع هذه الإشكالية سوى باستخدام أدوات إدوارد سعيد النقدية نفسها — والتي أستخدمها في قراءته للنصوص الثقافية بوجه عام والأدبية بوجه خاص، وأعني هنا ما أتفق على تسميته "الطباقية" Contrapuntalism 132، من هنا فإن حالة المنفى لدى سعيد يمكن أن تتسم في كثير من الحالات بالمتعة إذا استغل الجانب الإيجابي لها، كما يمكن أن تؤدي بأصحابها إلى تبوؤ مواقع ريادية في منفاهم، على أن هذا يجب أن يوازيه اعتبار منفى سعيد نموذجاً يمثل قلق الهوية وما يصاحبه من اغتراب،

المبحث 2: متاعب المتنفي في أعمال إدوارد سعيد

سواء في الوطن أو اللغة أو غيرهما، وهذا الموقف الطباقى نجده في القراءة المتوازية لبعض الأعمال التي تناولت هذا الموضوع على ملاحظة أساسية وهي أن موقف سعيد من هذه المسألة كان دائما يتأرجح بين الاحتفاء بالمنفى من جهة، والتعبير عن قسوة التجربة ومعاناة أصحابها من جهة أخرى.

إن كتاب سعيد بعد السماء الأخيرة الذي تم إنجازه بالاشتراك مع المصور الفوتوغرافي جون مور وهو عبارة عن تأملات مكتوبة بأسلوب عاطفي للغاية عن معنى الاقتلاع والشتات والمنفى وأيضا الهوية. وعنوان الكتاب مأخوذ من بيت لقصيدة لمحمود درويش بعنوان تضيق بنا الأرض كتبت عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان وخروج الفلسطينيين من بيروت، يصور درويش مرارة الشتات حين يتساءل :

إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟

إلى أين تطير العصفير بعد السماء الأخيرة؟ "

فمن خلال التعليق على العشرات من الصور الفوتوغرافية لرجال ونساء وأطفال فلسطينيين، داخل فلسطين المحتلة وخارجها، يخاطب سعيد من ناحية اللاجئين الفلسطينيين بالآلاف والملايين الذين فقدوا ديارهم وأوطانهم وبعضهم يقيم فعليا - وليس مجازا كما يتفاخر هومي باباعلي - في مناطق حدودية وفي مجتمعات للاجئين في جنوب لبنان وسوريا ورفح (على الحدود بين مصر وغزة)، ويقول سعيد في مقدمة كتابه إنه يصور تجربة الشتات الفلسطيني برؤية مزدوجة Double vision، لرؤية كاميرا جون مور وأيضا بعيون سعيد نفسه وذلك من خلال تفاعله مع الصور وتعليقاته عليها 133، ويكتب

المبحث 2: متاهج ومنع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

سعيد في مقدمة كتابه شارحا الهدف من تقديم هذا الكتاب مؤكدا بأنه يعتمد اللاموضوعية في تناوله مسألة المنفى والإبعاد:

إن هذا الكتاب ليس كتابا موضوعيا. لقد كان هدفنا أن نصور الفلسطينيين من خلال عيون فلسطينية. لقد اعتبر الكثير من الأصدقاء الفلسطينيين أن صور جون مور قدمتنا بأسلوب لم يفعله أحد من قبل. ولكننا شعرنا أيضا أنه رأنا كما نحب أن نرى أنفسنا داخل وخارج عالمنا في آن واحد، إن هذه الرؤية المزدوجة بالتحديد روح النص الذي كتبته، لقد وجدت نفسي أثناء الكتابة أبدأ استخدام الضمائر "نحن" بـ "أنتم" وأحيانا "هم"، كلها في إشارة للفلسطينيين 134. ويعتبر هذا الكتاب من أكثر كتب سعيد ثراء من حيث تناوله لموضوع الفقد والمنفى. والملاحظ أن معظم كتابات إدوارد سعيد عن المنفى في فترة الثمانينيات من القرن الماضي قد تحدثت عن الموضوع بنبرة تمزج الشجن والشعور بالمرارة واللوعة بالرؤية المتفائلة التي ترى في المنفى طاقة إبداعية هائلة، بل يمكن أن ترى فيها الهوية الفلسطينية في أقوى تجلياتها. فعلى تساؤلاته التي طرحها في أول الكتاب :

من نحن؟ هل نحن موجودون بالفعل؟ وما هو الدليل على وجودنا؟ 135.

تأتي الإجابة في نهاية الكتاب مؤكدة بقله: "أن أكثر الحقائق عن وجودنا تتمثل في الطريقة التي نعبر بها من مكان لآخر"، ويضيف سعيد: "أن الفلسطيني يجد نفسه مهاجرا وربما مزدوج الهوية في أي موقف يجد نفسه فيه" ويشير سعيد: "إلى أن هذا الوضع ليس مرتبطا بطبيعة وجوده ولكنه نتيجة للظروف التي وجد نفسه فيها، ويسلم بأن استمرارية وجود الفلسطينيين كأمة يكمن في وضعهم كمنفيين وفي ترحالهم المستمر" 136. ويمضي سعيد في محاولة اكتشاف الطاقة الكامنة في هذه الوضعية في فصول الكتاب

المبحث 2: متاعب ومنع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

المختلفة وردت تحت عناوين غنية بالدلالات وهي على التوالي: الدول والداخل والانطلاقة والماضي والحاضر.

لقد أشرنا إلى هذه الرؤية المزدوجة أو الطباقية التي تناولت موضوع المنفى والتي ميزت كتابات سعيد في الثمانينيات من القرن الماضي، ويمكننا الإشارة الآن إلى أن مثال آخر في مقاله الشهير تأملات في المنفى الذي نشر عام 1984 Reflections on exile ، حيث يؤكد سعيد: " أن التفكير في المنفى شيء جذاب للغاية، ولكن معاشته شيء فضيع جدا "، فرغم أن سعيد يحتفي بمعظم كتاب القرن العشرين الذين أرتبط إنتاجهم الأدبي والفكري بالمنفى، فإنه يؤكد بأن: "إنجازات المنفى غالبا ما تكون ناقصة وذلك بسبب فقدان شيء كان قد ترك و لا سبيل إلى استعادته أبدا" 137، ولا بد من الإشارة إلى أن سعيد في هذه المرحلة من الكتابة ، بدا أنه عند احتفائه بوضع المنفى والمنفيين من المبدعين والكتاب، كان من اليقظة بحيث لم يقع في الإشكالية التي وقع فيها بعض الذين كتبوا عن المنفى فيما بعد أمثال هومي بابا علي الذي يأخذ موقفا متشككا من جدوى أي مفهوم للثقافة القومية أو الوطنية كما شرحها فرانز فانون، كما يبدو متشككا أيضا في دور المثقف العضوي، كما قدمه غرا مشي 138.

في المقابل نجد أن إدوارد سعيد في تأملاته في المنفى يقول بوضوح: "بأن الحديث عن متاعب المنفى The pleasures of exile ، لا يجب أن يجعلنا نغفل عن الحقيقة التاريخية في كون المنفى يتسبب في تشريد الآلاف من البشر"، وفي المقال ذاته، يقول أيضا: "لا يمكن القول إن المنفى يخدم أي أفكار إنسانية، فإذا أخذنا القرن العشرين مقياسا، فإن مسألة المنفى تصبح موضوعا عصيا على الفهم جماليا وإنسانيا... فالقول بأن أدب القرن العشرين قد استفاد - على المستوى الإنساني - من وضع المنفى من شأنه أن يستخف

المبحث 2: متاعب ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

بمدى التشوه والخسائر التي أحدثها هذا الوضع للذين يعانون منه... إن المنفى أمر دنيوي وتاريخي محض، لقد تسبب في شتات ملايين البشر وذلك باقتلاعهم من محيطهم الأسري والجغرافي والتاريخي " 139 .

وهكذا فإن موقف إدوارد سعيد الوجودي من المنفى - كما بينته كتاباته في الثمانينيات من القرن الماضي - هو موقف يتسم بالالتباس تجاه موضوع الوجود الفلسطيني ذاته وموضوع الهوية والذي رآه سعيد متمثلاً بشكل كبير في قصيدة محمود درويش "بطاقة هوية" حيث أن جميع أنواع إثبات الهوية للفلسطينيين - على الأقل حتى بداية السبعينيات من القرن الماضي - كانت تشير إلى كل الجنسيات عدا الجنسية الفلسطينية. أما الصورة الأخرى، أو بالأحرى الوجه الآخر للصورة، فيجده سعيد متمثلاً في شخصية "المتشائل" التي أبتدعها إميل حبيبي، حيث يتساءل سعيد: "هل كان المتشائل شخصية خيالية أم تجسيدا حقيقيا لجوهر وجودنا كفلسطينيين؟" 140.

إن سعيد لا يريد أن يقف بالمنفى عند حدوده العقلية التأملية فحسب، بل يرى أن هناك حاجة ملحة للرد على تساؤله: هل نحن موجودون بالفعل؟، وفي فصل الداخل Interiors، من كتابه بعد السماء الأخيرة، يتحدث سعيد عن فلسطيني الداخل مشيراً إلى فلسطيني 1948، والصامدين في الأرض المحتلة، حيث يؤكد على: "أنه من المستحيل إنكار أصولهم الفلسطينية" 141، ويضيف سعيد قائلاً: "إن وجود هؤلاء الفلسطينيين الحقيقي يبعث على الاحترام والتقدير الشديد وخاصة إذا ما قارناهم بالنظرات الحذرة والقلقة للفلسطينيين المقيمين في الغرب" 142، أما من ولدوا في بعد 1967، فيرى سعيد أملاً كبيراً في بلورة كيان فلسطيني للمرة الأولى، فهو الجيل الذي أخذ على عاتقه بناء المؤسسات المختلفة. يشير سعيد هنا إلى: "هؤلاء الرجال والنساء الجدد الذين يشع منهم

المبحث 2: متاعب ومنع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

شعور بالأمان والتفاؤل، شعور أحسدهم أنا المقيم في المنفى " ويضيف سعيد: "إن صمودهم حقيقي، مادي، قوي: إنهم في فلسطين، فلسطين بالنسبة لهم ليست فكرة، كما تتمثل لنا في الشتات، بل هي مكان له وجود" 143.

يمكن أن نعتبر كتاب سعيد بعد السماء الأخيرة محاولة لصياغة ورصد واقع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وفي الشتات من خلال اكتشاف المعاني الكامنة في تعريفات مثل المنفى، الغربة، العودة، وهي ألفاظ ارتبطت بشكل خاص بالقاموس الفلسطيني. بل إن في الكتاب بعض إرهاصات السيرة الذاتية. ففي حين أن سيرة إدوارد سعيد خارج المكان لم تظهر سوى في أواخر التسعينيات من القرن الماضي فيمكننا قراءة كتاب بعد السماء الأخيرة بشكل متواز مع كتابه خارج المكان، ففي مقدمة هذا الأخير يؤكد سعيد على: "أن تجربة المنفى دائما ما يلازمها فقد شيء ما" 144، ومن هنا فهو يرى: "أن الكتابة بشكل عام، وكتابة سيرته الذاتية بشكل خاص، محاولة لتسجيل عالم مفقود أو منسي" 145.

إن سعيد يحاول تحليل وقع الصور عليه، وفعل التذكر الذي تحدّثه صور جون مور فيقول: "شيء ما فقد، ولا يبقى لنا سوى تمثيل أو صياغة هذا الواقع" 146، إلى أن السيرة الذاتية هي أكثر أجناس الأدب الحديث انشغالا بقضايا الهوية والموقع، "أن انشغالها بالهوية لا يقتصر على تناولها للهوية الفردية التي ينطلق منها المشروع السير ذاتي نفسه، ولكنه يتجاوزها إلى الهوية القومية أو الوطنية العامة" 147.

ويشير إدوارد سعيد في مقابلة له مع الكاتب البريطاني سلمان رشدي دارت في مجملها حول كتاب بعد السماء الأخيرة وما أثاره من أفكار ومشاعر إلى الأجواء التي كتب فيها هذا الكتاب المفعم بالعاطفة تجاه القضية، حيث يقول: "لقد وجدت نفسي أنني

المبحث 2: متاعب ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

أكتب من وجهة نظر من وجد نفسه أخيرا قادرا على ربط الجزء الخاص بمهنته كأستاذ للأدب الإنجليزي بالجزء الذي يحيا، ولو بشكل بسيط، حياة أي مواطن فلسطيني " 148، غير أن هناك فرقا بين السيرة الذاتية لسعيد في كتابه خارج المكان وبين كتابه بعد السماء الأخيرة، حتى ولو سلمنا بأن هذا الأخير، هو بالفعل سيرته الذاتية الأولى، فسيرته الذاتية خارج المكان تتحدث بشكل أساسي عن تجربته الشخصية، وحاجته "لتجسير المسافة، في الزمان والمكان، بين حياتي اليوم وحياتي بالأمس" 149، أما بعد السماء الأخيرة فيمكن اعتبارها سيرة جماعية للذات الفلسطينية. فكل صورة من صور الكتاب تستدعي لديه ذكريات عن ماض، أو تثير تعليقا على موقف أو حدث تاريخي، مما يجعلنا نقف على رؤيته وموقفه الفكري من العديد المسائل الخاصة بالصراع العربي الإسرائيلي أو بالوضع الفلسطيني أو غيرها من الأمور المتعلقة بالشأن الفلسطيني عموما.

والكتاب مليء بالأمثلة الدالة على هذه النقطة، ولكننا سوف نقف عند صورة بعينها، صور فيها جون مور بعض النساء والفتيات في مخيم السيدة زينب في دمشق وكانت قد أخذت عام 1983. تستدعي هذه الصورة لدى سعيد ذكريات عن طفولة أمه في الناصرة، ولكن سعيد يذكر بالتحديد موقفا أحدث جرحا غائرا في نفس والدته، هذا الجرح الذي لازمها أكثر من أربعين عاما. تتلخص قصته، في حكاية كانت تقصها عليهم والدتهم بشيء من المرارة عن تجريدتها من جواز سفرها فور زواجها حيث قام موظف التسجيل البريطاني بتمزيق أوراق هويتها قائلا إنها ليست بحاجة إليها الآن لأن اسمها سوف يضاف إلى جواز سفر زوجها، مضيفا أن هذا سيفسح المجال لمهاجر أو مهاجرة يهودية قادمة من أوروبا أن تجد فرصة للهجرة إلى فلسطين.

المبحث 2: متاحف ومتج المنفى في أعمال إدوارد سعيد

يرى إدوارد سعيد أن هذا الموقف يجسد موضوع النفي المزدوج الذي تتعرض له المرأة الفلسطينية، مرة بصفتها فلسطينية ومرة ثانية بصفتها امرأة حيث إن نفي هويتها المستقلة كامرأة فلسطينية قد جعل منها "شخصا تابعا يرتبط جودها بوظيفتها كزوجة أو أم" 150.

بعض النساء العاملات داخل إسرائيل و وضعهن الذي يصوره فيلم الذاكرة الخصة للمخرج الفلسطيني ميشيل خليفى تجعل إدوارد سعيد يرى في هذه الصور التجسيد الحي للصمود الحقيقي أيضا، ينظر سعيد لهذا الموقف الشخصي من منظور أكثر اتساعا يرتبط بوضع المرأة داخل المجتمع الفلسطيني حيث تتعرض للقهر والمنفى المزدوج كما أشرنا سلفا. يقول سعيد: "لقد أدركت فيما بعد أن وجود المرأة كشخص تابع موزع بين أدوار مهمة - ولكنها ثانوية - وهو قدر كل النساء الفلسطينيات والعربيات بشكل عام، هذه هي الصورة التي أقابلها طوال الوقت، وهذه هي طبيعة وجودهن في مجتمعاتنا المختلفة" 151. ولكن سعيد لا يفوته أن يرى الوجه الآخر لهذه الصورة القائمة، فالصور الفوتوغرافية المختلفة للنساء العاملات في المخيمات الفلسطينية وبعض النساء العاملات داخل إسرائيل، ووضعهن الذي يصوره فيلم الذاكرة الخصة للمخرج الفلسطيني ميشيل خليفى تجعل سعيد يرى في هذه الصور التجسيد الحي للصمود الحقيقي أيضا للمرأة الفلسطينية كفاعل أساسي في هذا المجتمع، وهو الشيء الذي ينفيه (يحاول أن ينفيه) الخطاب الرسمي الذكوري 152.

وفي نهاية الكتاب المثيرة للتفاؤل والأسى في آن واحد، يؤكد سعيد على أحد أهدافه، وهو التساؤل عن التاريخ الفلسطيني والهوية الفلسطينية بواسطة "النظر إلى الذات الفلسطينية في صيورتها وتعددتها وليس فقط كهدف ثابت للتصوير أو التمثيل" 153.

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

يحاول سعيد في كتابه الذي نشره في عام 1984، الحديث عن الجراح والهوية الفلسطينية من الأمور المحفوفة بالمخاطر على مستويات كثيرة، منها خاصة السياسية والإعلامية، وحتى الأكاديمية أيضا. أن يصور الواقع الحي الحقيقي للفلسطينيين بشكل بعيد عن الأوهام والمثالية المفرطة أو المسرفة في الشك والحذر: "نحن أيضا عرضة لتقلبات الزمن، للتطور، للتغيير، للصعود والهبوط. هذه حقيقة تدحض فكرة أن الفلسطينيين نموذج أصلي للتشرد والإرهاب... إن هديني أن أقدم مع جون مور صورة لشعب يتسم بالحيوية، بل أيضا بالتشظي وعدم الاكتمال" 154.

ارتبطت أعمال سعيد عن دور الناقد الأدبي بشكل خاص والمثقف بشكل عام بموضوع المنفى. ولعل كتابه الشهير تمثيلات المثقف *Representation Of The Intellectual* 1993 وما يحتويه من مقالات تجمع آرائه عن المثقف ودوره، وكتابته تأملات في المنفى 2001 هما عبارة عن محاولة لصاحبهما توضيح موقفه من خلاله للآخرين، عن مفهوم المثقف المتحرر أو اللامنتمي، إن مقالة سعيد الموسومة بعنوان: "المثقفون المنفيون، مهاجرون وهامشيون" *Intellectual Exiles : Expatriates And Maginals*، التي نشرت في كتابه تمثيلات المثقف 155، أي في الفصل الثالث من ترجمة الدكتور محمد عناني، وكذلك في مقدمة كتاب سعيد تأملات في المنفى الذي ترجمه ثائر ديب.

وكانت الإرهاصات حاضرة بقوة *Secular Criticism* في أعمال سعيد منذ بدايات الثمانينيات من القرن الماضي، خاصة في المقالين الشهيرين النقد الديني والنظرية المسافرة *Traveling Theory* واللذين تضمنهما كتاب العالم والنص والناقد *The World, The Text And The Critic* 1983، وفي هذا الكتاب الأخير يصور لنا سعيد النقد الحقيقي، بـ "النقد المشكك والديني" 156. ويشرح لنا سعيد بأن: "النقد

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

يعتبر، بحكم تكوينه، قوة فاعلة في الحياة، تكون عناصره متعارضة مع أي شكل من أشكال الطغيان والسيطرة والاستغلال" 157. ويضيف سعيد أيضا بأن "أنسب صفة يمكن أن تلصق بالنقد الحقيقي هي صفة المقاومة أو المعارضة لكل ما هو سائد" 158، وهذا هو القصد من لفظ الدنيوي عند سعيد. ولكن ينبغي علينا أن نشير إلى أن مفهوم سعيد لما هو علماني أو دنيوي لا يعني بالضرورة مقابلة الدنيوي بالديني، كما شاع استخدام هذا اللفظ، بل يمكن القول بأن سعيد طوّر هذا المفهوم ليستعمله في السياقات السياسية والثقافية، بحيث أصبح يشتمل، ، الموقف غير القومي والخارج عن المؤسسة، بالإضافة إلى الموقف اللاديني.

وفي بحث سعيد المستمر عن الدور الأمثل للناقد، يشرح سعيد أن الناقد المعارض يجد نفسه في موقع يمثل نقطة محورية وحساسة A Sensitive Nodal Point بحيث يضطر لأن يأخذ موقفا مساندا أحيانا وناقدا في نفس الوقت للجماعة 159، مما جعله يعلن بعد عشر سنوات أو يزيد أن "المثقف الحقيقي هو الكائن الدنيوي" 160.

بيد أن وضع المنفى هو نقطة الارتكاز في الحديث عن الناقد أو المثقف الدنيوي من منظور سعيد. لقد أشاد سعيد من خلال حديثه عن إنجاز الناقد الأوروبي إيريك أورباخ Erick –Auerbach وكتابه الشهير Mimesis أو المحاكاة، برؤيته المزدوجة التي كان مصدرها إقامته في منفاه في إسطنبول مما أتاح له رؤية واضحة لنشأة وتطور الدراما الأوروبية من العصور الكلاسيكية وحتى نهايات القرن العشرين. ومن ناحية أخرى، يرى سعيد أن مسؤولية المثقف تكمن في وضعه كوسيط نقدي يستطيع التعبير عن رؤى متعددة للممارسات الواقعية والاجتماعية والفكرية المختلفة ومن بينها – بطبيعة الحال – التعبير عن الفعل الثقافي الهجين الذي يراه سعيد نوعا من أشكال النضال ضد القوى الامبريالية

المبحث 2: متاهج ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

المختلفة، فإذا كان دور الناقد الديني - كما شرحه في مقاله - النقد الديني Secular Criticism وهو الإقامة في الفضاء (البيني) بحيث يصبح عابرا لحدود القوميات والانتماءات السياسية والأكاديمية، بل عابرا للحدود بين الثقافة والإمبريالية بين النص والعالم، بين الماضي والحاضر، فإن مشروعه النقدي برمته هو تجسيدا لهذا الدور. وليس أدل على ذلك من عناوين كتبه الاستشراق، الثقافة والإمبريالية، والعالم والنص والناقد. بالمقابل، فإن المثقف المنفي - كما شرح سعيد في كتاباته الأخيرة - يميل لأن يكون سعيدا بفكرة التعاسة التي تجلبها حالة المنفى - فالمنفى يصبح، إذن نموذجا "بالنسبة للمثقف الذي تم إغواؤه وأحيط وغمر بمكافآت على التكيف والانصياع والاستقرار"، ويواصل سعيد وصفه للنموذج المغاير قائلا: "إن المثقف المنفي الآخر، هو الذي يتحرك دائما، بعيدا عن السلطات المركزية، نحو الهامش" 161.

منفى المثقف عند سعيد لا يعني، إذن المنفى الجغرافي، بل يعني المنفى هنا حالة انتقاء التسامح مع أية سلطة أو مهادنتها No Reconciliation Allowed من هنا جاء حديث سعيد عن متعة المنفى 162. لقد حاول سعيد المثقف أن يحيا تجربة منفاه بطريقة طباقية، بمعنى أنه كان مثقفا داخل المؤسسة الأكاديمية الغربية في نفس الوقت الذي كان يأخذ موقفا لا متتميا أو معارضا للسائد. ولعل نظريته في الإستشراق هي في حد ذاتها تجسيدا لهذه التجربة الطباقية، هذا الموقف المتسم بالرؤية والحذر من ناحية، وبالفهم الذي يصل أحيانا إلى حد التعاطف مع قوى معينة، كما عبر عن ذلك سعيد في مقدمة كتابه العالم والنص والناقد 163.

أما على صعيد الممارسة العملية، فتتوقف عند التحول في موقف سعيد من محاولة الانغماس في السياسة والتي كان أساسها رغبة حقيقية في أن يكون داخل الأحداث،

المبحث 2: متاعب ومنع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

إلى الاعتراف في كتاباته الأخيرة بعدم القدرة على إحداث تغيير مباشر للواقع، ومن ثم، تفضيله للبحث عن القوة الكامنة في وضع المثقف المنفي والتحلي بنزعة إنسانية Humanistic، كما أوضح مرارا في مقالاته الأخيرة. ولقد أشار سعيد لهذا التغيير في مقدمة كتابه تأملات في المنفى Reflection On Exile 1994 164. حين أوضح أسباب تغيير موقفه على سعيد العمل السياسي والذي انتهى به لان يدير ظهره إلى أي انتماء مؤسسي أو سياسي للقضية الفلسطينية، وإن أبقى على انتمائه العاطفي والنفسي والأكاديمي حتى النهاية.

إن القراءة الفاحصة لفكرة منع المنفى تبين أن سعيد تبنى مبدأ ثيودور آدورنو القائل "إن من الفضائل ألا يشعر الإنسان بالاستقرار في وطنه" 165، ومن شأن قراءة كهذه أن تدحض أي قراءة غرائبية Uncanny لهذه الفكرة، بمعنى أن موقف سعيد لا يحمل شعور الخوف من المنفى والرغبة فيه في آن واحد، وبصورة لا واعية، بل يتجاوز هذا ليصبح موقفه موقفا نقديا وحياتيا واضحا و واعيا حاول هو مرارا أن يشرحه في العديد من مقالاته وكتبه الأخيرة. ففي إحدى تعليقاته على الصور والتكوينات التي تضمنها كتاب العالم أجمع كأرض غريب The Entire World As A Foreign Land للفنانة التشكيلية الفلسطينية منى حاطوم يكتب سعيد: "إن فن منى حاطوم يصعب تحمله (كما هو الحال عالم المهاجر، هذا العالم المليء بالتشكيلات الجروتسكية Grotesque ، فهي إما مبالغ فيها أو هي ضئيلة للغاية. ولكن من الحتمي رؤية هذا الفن الذي يعطي صورة ساخرة عن الوطن الواحد، أفضل أن يحيا الإنسان مشتتا ومقتلعا على أن يحيا مسترضى مستملا تحت وطأة علاقة ذات مسيطرة بتابع مغلوب على أمره. أفضل أن يحيا المرء صافي الذهن في منفاه على أن يعود عودة جامحة ولكنها مشوشة" 166.

المبحث 2: متاعب ومتع المنفى في أعمال إدوارد سعيد

فكأن سعيد يعبر عن الحكمة العربية القديمة (العلم في الغربة وطن / والجهل في الوطن غربة). ومن هنا يتبين لنا موقف سعيد النقدي والثقافي بل والحياتي يتمثل في تحرير المعرفة من أي استغلال سياسي أو اجتماعي. إن موقفه يكاد يكون صدى لكلمات ستيفن ديدا لوس حين أعلن بقوة: "لن أكون في خدمة ذلك الذي لم أعد به مؤمناً، وإن سمى نفسه أهلي أو وطني أو ديني. وسأحاول أن أعبر عن ذاتي في أسلوب من الحياة والفن بأقصى ما يمكنني من حرية ومن تكامل، مستخدماً في الدفاع عن نفسي تلك الأسلحة الوحيدة التي أبيعها لنفسي - الصمت والمنفى والدهاء" 167.

لقد حكم بطل صورة الفنان في شبابه على نفسه بالمنفى كما خرج جيمس جويس نفسه من أيرلندا مختاراً العيش في القارة أي أوروبا، لينجو بنفسه من ضباب الحضارة الأنجلو سكسونية 168. لقد كان المنفى لدى جويس حلاً لصراعه الوجودي بين موروته الثقافي الكاثوليكي المحدود ورغبة الفنان العالمي داخله لتجاوز هذه الحدود، من هنا كان اتخاذه شخصية يوليسيس - بطل هوميروس الجوال - محورا ملحمته الروائية عوليس Ulysses، بيد أن هناك فرقا كبيرا بين ثورة جويس التي أنتجت - في نهاية المطاف - أدبا شديداً الفردي و الغموض مثل Finnegans Wake، - وإذا جاز التعبير - ثورة إدوارد سعيد على أي انتماءات مؤسسية، ثورة تتجلى في محاولة التحرر التام من أية تبعية ولكنها تهتدي في ذات الوقت بمجموعة من القيم الايجابية والإنسانية.

لقد أعلن إدوارد سعيد في مقدمة كتابه تأملات في المنفى أن العودة الكاملة غير ممكنة و أن "الماضي لا يمكن استعادته بشكل كلي" 169. ولذلك فهو يقتبس من آدورنو هذا العزاء في أن "تصبح الكتابة وطناً لمن فقد وطنه" 170.

المبحث 2: متاحف ومتج المنفى في أعمال إدوارد سعيد

إن طباقية إدوارد سعيد وتحليلات المنفى في أعماله بمتعتها ومتاعبها، ورفضه الانتساب إلى أي شكل من أشكال الإيديولوجية، قومية كانت أو غير ذلك، يجعله - في نهاية الأمر - يتبنى موقفا ثقافيا ليبراليا يتسم بنزعة كونية وإنسانية، لكن السؤال يظل مطروحا كما طرحه إدوارد سعيد : هل بوسع هذا المشروع النبيل أن يقدم حلا إنسانيا وتاريخيا بل عمليا لدرء الظلم الإنساني والتاريخي العظيم الواقع على أي فلسطيني منفي داخل الوطن أو خارجه ؟

- 1 - E.W. Said, Representations of the Intellectual : The reith lectures vintage, London, 1993, P 9.
- 2 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 35.
- 3- المرجع نفسه، ص 35
- 4 - Julian Benda, The Treason of the Intellectuals, Trans, Richard Aldington, N.Y., Norton, 1969, P 43.
- 5- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 36.
- 6- المرجع نفسه، ص 37.
- 7- إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، دار النهار بيروت 1996، ص 22.
- 8 - Michel Foucault, Power / Knowledge : Selected Interviews and other writings 1972- 1977, Ed. Colin Gordon, New York; Pantheon, 1980, PP 127- 128.0
- 9 -E.W. Said, Representations of the Intellectual : The reith lectures vintage, London, 1993, P 15.
- 10 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 169.
- 11- إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، دار النهار بيروت 1996، ص 33.
- 12 - المرجع نفسه، ص 21.
- 13 - المرجع نفسه، ص 21.
- 14 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 123.
- 15 - إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، بيروت، دار النهار، 1996، ص 21 .
- 16 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 123.
- 17 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص ص 146 - 169.
- 18 - إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، دار النهار بيروت 1996، ص ص 23- 24.
- 19 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 36.
- 20 - فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 17.
- 21 - المرجع نفسه، ص 114.
- 22 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 45.
- 23 - إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، دار النهار بيروت 1996، ص 77.
- 24 - فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 109.
- 25 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 44.
- 26 - فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 85.
- 27 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 123.
- 28- إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، بيروت، دار النهار، 1996، ص 22.
- 29 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 124.
- 30- المرجع نفسه ، ص 124.
- 31 - E.W. Said, Opponents, Audiences, Constituencies, and Community, "Postmodern Culture, Ed. Hal Foster, London and Sydney ; Pluto Press, 1983, PP 135- 158.
- 32 - E.W. Said, The World, the text, and the Critic, Cambridge, Mass : harvard UP, 1983, P 169 .
- 33 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 124.
- 34 - المرجع نفسه، ص 125.
- 35 - E.W. Said, The World, the text, and the Critic, Cambridge, Mass : harvard UP, 1983, P 169 .
- 36 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 125.
- 37 - المرجع نفسه، ص 125

- 38 - المرجع نفسه، ص 125.
- 39 - المرجع نفسه، ص 126.
- 40 - المرجع نفسه، ص 126.
- 41 - إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996، ص 71.
- 42 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 126.
- 43 - أحمد إعجاز وإدوارد سعيد، الاستشراق وما بعد: إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي، ترجمة ثائر ديب، دار ورد للطباعة والنشر، دمشق، 2004، ص ص 36 - 38.
- 44 - G.B. Glucksmann, Gramsci et L'état, Paris : Fayard, 1975, P 56.
- 45 - فيصل دراج، أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد : إشكالات مختلفان، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص 131. 46- المرجع نفسه، ص 132.
- 47 - E.W. Said, Representations of the Intellectual : The reith lectures vintage, London, 1993, PP 7- 8.
- 48 - Ibid, P 22.
- 49 - Ibid, P 82.
- 50- إدوارد سعيد، القلم والسيوف، حوارات مع دافيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط3، 2007 دمشق.
- 51- فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط 1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 31 .
- 52- فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط 1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 33.
- 53- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006 ، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص ص 91 - 116.
- 54- المرجع نفسه ، ص 92.
- 55- إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى ج 1، ترجمة ثائر ديب، ط1 2004، بيروت، دار الآداب، ص 42.
- 56- المرجع نفسه، ص 101.
- 57- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006 ، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص ص 98 - 99.
- 58- المرجع نفسه ، ص 100.
- 59- المرجع نفسه ، ص 151.
- 60 - Isaiah Berlin, Russian Thinkers, ed. Henry Hardy and Aileen Kelly, (London : Penguin 1980), P 77.
- 61 - E.W. Said, Culture and Imperialism, Chatto and Windus, London 1993, P 325.
- 62- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006 ، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 6.
- 63 - صالح فخري، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 18.
- 64 - سماح إدريس ، كتابان جديان يصدران عن دار الآداب لإدوارد سعيد،
- 65 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006 ، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 10.
- 66- المرجع نفسه ص ص 23- 24.
- 67- المرجع نفسه، ص 40.
- 68- المرجع نفسه، ص ص 10 - 11.
- 69- المرجع نفسه، ص 43.
- 70- المرجع نفسه، ص 59.
- 71- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص ص 155 - 156.
- 72- المرجع نفسه، ص 156.
- 73- المرجع نفسه، ص 157.
- 74- المرجع نفسه ، ص 158.
- 75- إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، بيروت، دار النهار، 1996، ص ص 98 - 99.

- 76- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 21.
- 77- المرجع نفسه ، ص 192.
- 78- المرجع نفسه ، ص 47.
- 79 - ميشل فيليب، حديث إذاعي مع إدوارد سعيد، محطة إذاعية في نيويورك، برنامج " المفكر الاجتماعي " .
- 80- فخري صالح، إدوارد سعيد، دراسات وترجمات، ط1، بيروت 2009، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص 126.
- 81 - المرجع نفسه ، ص 222.
- 82 - فريال غزول، أثر فيكو على إدوارد سعيد، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، ص ص 209- 224.
- 83 - E.W. Said, Opponents, Audiences, Constituencies, and Community, "Postmodern Culture, Ed. Hal Foster, London and Sydney ; Pluto Press, 1983, P 98. (راجع مقالة إدوارد سعيد، معارضون، جماهير، دوائر، وجماعات)
- 84 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 122.
- 85 - المرجع نفسه، ص 149.
- 86 - المرجع نفسه ، ص 148.
- 87 - المرجع نفسه ، ص 150.
- 88- المرجع نفسه ، ص 18.
- 89 - المرجع نفسه ، ص 169.
- 90 - المرجع نفسه ، ص ص 182- 183.
- 91 - المرجع نفسه ، ص 167.
- 92- إدوارد سعيد، المهجنة، السرد، الفضاء الامبراطوري، تأليف مجموعة من الاكاديميين العرب، تحرير وإشراف د. اسماعيل مهنانة، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2013، ص ص 15- 40.
- 93- المرجع نفسه ، ص 102.
- 94- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط، 1 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 88.
- 95 - فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، الطبعة العربية الأولى 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 111.
- 96 - إدوارد سعيد الثقافة والأميرالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط3 ، 2004، بيروت ، دار الآداب، ص 255.
- 97 - Paul Bové, Edward Said and the work of the critic : Speaking truth to power, edited by ; UK : Duke University Press, 2001, P 88.
- 98- المرجع نفسه، ص 90.
- 99 - فواز طرابلسي، إدوارد سعيد في تطوره الفكري: من شرق غرب إلى رحاب الإنسانية جريدة الأبي العدد 1983، الصادر يوم الجمعة 8 نيسان / أبريل 2011.
- 100 - فخري صالح، إدوارد سعيد: دراسات وترجمات، ط1 2009، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص 27.
- 101 - المرجع نفسه، ص 103.
- 102 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط، 1 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 50.
- 103 - حسن الشامي، إدوارد سعيد المثقف الكوني اللامنتهي، جريدة الحياة 2003/12/03.
- 104 - المرجع نفسه .
- 105- فاتن مرسي، متع المنفى ومتاعبه في أعمال إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 88.
- 106- داني إيجيري، الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان، القاهرة : دار المعارف، ص 327.
- 107- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 92.
- 108- فاتن مرسي، متع المنفى ومتاعبه في أعمال إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 89.
- 109- المرجع نفسه ، ص 89.

- 110 – Dogenes Laertius, Vitac Pythagoras, Trans. R.Dhicks (Cambridge, MA. Harvard UP, 1979), P 337.
- 111 – حوار مع إدوارد سعيد، مجلة الشباب المصرية، يوليو 2003.
- 112 – صالح فخري، دفاعاً عن إدوارد سعيد، ط 1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 99. : راجع أيضاً، محمود درويش، قصيدة ورد ، ص 17
- 113 – صالح فخري، دفاعاً عن إدوارد سعيد، ط 1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 95.
- 114 – المرجع نفسه، ص ص 23 – 58.
- 115 – فاتن مرسي، متع المنفى ومتاعبه في أعمال إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 90.
- 116 – المرجع نفسه، ص 90.
- 117 – جياتري سيفاك ولدت في الهند وتحصلت على شهادة الليسانس من جامعة كالكوٲا، وأكملت دراسة الماجستير والدكتوراه في الأدب الإنجليزي في جامعة كور نيل. وهي تدرس في جامعات أمريكية منذ بداية السبعينيات من القرن الماضي.
- 118 – هومي بابا علي ولد في الهند وحصل على شهادة الليسانس من جامعة بومباي ثم أكمل تعليمه العالي في جامعة أكسفورد، ودرس ستة عشرة عاماً في إنجلترا قبل انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الثمانينيات من القرن الماضي كأستاذ في اللسانيات والأدب المقارن. ولا يزال مدرسا بجامعة كور نيل.
- 119 – فاتن مرسي، متع المنفى ومتاعبه في أعمال إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 90.
- 120 – المرجع نفسه، ص 90.
- 121 – إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، القاهرة، 2006، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 65.
- 122 – Peter Childs And Patrick Wiliams, Introduction On Introduction to Post Colonial Theory(London : Prentice Hall, 1997), P 15.
- 123 – المرجع نفسه، ص 18.
- 124 – Gayatri spivak, Can The Subaltern Speak ?, Eds, C.Nelson (Macmillan,1988), P 271.
- 125 – Gayatri Spivak – A Cretic Of Post Colonial Reason (Cambrdge, M A : Havard UP, 1999), P 193.
- 126 – Homi bhabha Ali, The Location Of Culture (London : Routledge, 1994), P 19 .
- 127 – Ibid, P 2 .
- 128 – E.W.Said, The World, The Text, And The Critic, (Cambridge, MA : Harvard UP , 1983) P 29.
- 129 – Sarah Harasym, The Post- Colonial Critic ,Ed. (London :Routledge, 1990), P 95¹ – Robert Young, Writing History And The West (London : Routledge, 1990), P 56.
- 130 – E.W.Said, Introduction ,Culture And Imperilism, (London : Vitage, 1993), p 11.
- 131 – سامية خلوصي، الطاقات الكامنة في الحدود، العولمة والنظرية الأدبية: النقد الأدبي على مشارف القرن، المجلد الأول، أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي، القاهرة 2000، ص 346 .
- 132 – E.W.Said, After The Last Sky, Palestinian Lives, (London : Faber & Faber,1986), P 3.
- 133 – Ibid, P 6.
- 134 – Ibid, P 34.
- 135 – Ibid, P 164.
- 136 – E.W.Said, Reflections On Exile, (Cambridge,MA :Harvard UP, 2003), P 173.
- 137 – الإشارة هنا إلى مقال "هومي بابا علي" لم يتضمنه كتابه "موقع الثقافة" وهو: The Comitment Theory, New Formation (Summer 1988) : PP 5 – 23.
- 138 – E.W.Said, Reflections On Exile, (Cambridge,MA :Harvard UP, 2003) P 174.
- 139 – E.W.Said, After The Last Sky, Palestinian Lives, (London : Faber&Faber,1986), P 26.
- 140 – Ibid, P 67 .

- 141 - المرجع نفسه، ص 68.
- 142 - Ibid, P 211.
- 143 - E.W.Said, Out Of Place : A Memoir (NY : Vintage Books, 2000), P 10
- 144 - المرجع نفسه، ص 11.
- 145 - E.W.Said, After The Last Sky, Palestinian Lives, (London : Faber&Faber,1986), P 84.
- 146 - صبري حافظ، رقص الذات لاكتابتها: تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 22، 2000، ص 9-10.
- 147 - Salman Rushdie, On Palestinian Identity : A Conversation With E.Said, Imaginary Homelands, P 184.
- 148 - إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط 1، 2000 بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 22
- 149 - E.W. Said, After The Last Sky, Palestinian Lives, (London : Faber&Faber,1986), P 78.
- 150 - المرجع نفسه، ص 78.
- 151 - E.W.Said, After The Last Sky, Palestinian Lives, (London : Faber&Faber,1986), P 79 .
- 152 - المرجع نفسه، ص 166.
- 153 - E.W.Said, After The Last Sky, Palestinian Lives, (London : Faber&Faber,1986), P 165.
- 154 - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط 1، القاهرة، 2006، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 92 - 116.
- 155 - E.W.Said, The World, The Text, And The Critic,(Cambridge, MA : Harvard UP , 1983) P 26.
- 156 - المرجع نفسه، ص 29.
- 157 - المرجع نفسه، ص 30.
- 158 - يستخدم سعيد هذا المصطلح الذي ارتبط باستخدام ليوتار له إشارة إلى المواقع التي أصبحت الأقليات الثقافية تقيم فيها داخل نسق ثقافي معين. ويشرح ليوتار أن زمن الدولة المركزية و هيمنة ثقافة أو حزب سياسي واحد متمثلا فيما يمكن تسميته الخطابات سردية الكبرى "grand narratives" قد ولى و استبدل به ما يسميه نطاقا محورية nodal point و هي أماكن تأخذ الأقليات الثقافية مواقعها وتعبّر عن نفسها مهما ضاقت هذه المساحة . و هي النقاط أو المواقع هي دوائر اتصال دائمة بين هذه الجماعات ، ففي ظل التعددية والاختلاف الثقافي الذي هو واقع بالفعل ، يرى ليوتار فرانسوا أن الحديث عن الهامش و المركز لم يعد له مكان في عالم فرضت فيه التعددية نفسها بشكل واضح : راجع: Jean Francois lyotard; The Post-Modern Condition; A Report On knowledge Trans Geoff Bennington And Brian Massumi; C. Minneapolis U Of Minnesota p.1984;15.
- 159 - E. W. Said, " Intellectual Exile; Expatriates And Marginals " The E .Said Reader ; Eds ; Moustafa Bayoumi And Andrew Rubin (NY, Vintage Books, 2000), p 378.
- 160 - عزالدين المناصرة، إدوارد سعيد والأدب الثقافي المقارن: قراءة طباقية، مجلة فصول العدد 64 (سبتمبر 2004)، ص 146 .
- 161 - E.W.Said, No Reconciliation Allowed, Reflections On Exile : Identity, Language, ED. André Aciman (NY : The New Press, 1999), P 87
- 162 - E.W.Said, The World, The Text, And The Critic ,(Cambridge, MA : Harvard UP , 1983) P15.
- 163 - E.W.Said, Reflections On Exile, (Cambridge,MA :Harvard UP, 2003) P-34.
- 164 - المرجع نفسه، ص 184.
- 165 - E.W.Said, The Art Of Displacement Logic Of Irreconcilables, : Mouna Hatoum's, (London: Tate Gallery 2000), P 17.
- 166 - طه محمود طه، مقتطفات من صورة الفنان في شبابه، موسوعة جيمس جويس بيروت، دار القلم، 1975، ص 3.
- 167 - المرجع السابق، ص 4.
- 168 - E.W.Said, Reflections On Exile, (Cambridge ,MA : Harvard UP, 2003) P- 35 .

169 – E. W. Said No Reconciliation Allowed, Reflections On Exile : Identity, Language, ED. André Aciman (NY : The New Press, 1999), P 114.

170 – Ibid, P 112

المقاومة هي "المعارضة أو فعل المقاومة، أو هي القدرة على أي منهما"

1 ، أما في السياسة فقد ذهب البعض من المنظرين إلى أنها، خطاب ثقافي، بمعنى "مجموعة متكاملة من الرموز والمعاني التي نشترك جميعا في معرفتها والالتزام بها. وإذا صح هذا الزعم فإن إعادة كتابة الخطاب السياسي يعد فعلا سياسيا، وذلك لأن إعادة كتابة هذا الخطاب هي جوهر ما تسعى المقاومة الثقافية إلى هدمه" 2، والمجموعة الثالثة تذهب إلى أن المقاومة وسيلة من الوسائل الفعالة، ومن ثم يمكننا تحويلها إلى وسيلة فعالة من وسائل التغيير الثقافي السياسي، فحينئذ لا يؤدي دحض هذا الواقع أو تقويضه إلى الطعن في الأدب المعتمد فحسب؛ بل يؤدي إلى نقض إيديولوجية المستعمرين برمتها، تلك الإيديولوجية التي تمكن نصوص المستعمر من أن تعمل عملها في سياقات المجتمعات الخاضعة للاستعمار.

ومن هنا ينشأ دور المثقف الأصيل: "يعد الفنان المستقل من الشخصيات القليلة التي لا زالت مؤهلة لمقاومة القولية ومحاربتها حتى لا تفضي إلى فناء كل ما هو حي بحق، فالإدراك بالحواس على نحو يتسم بالجدّة والأصالة أضحي يتضمن القدرة على مواصلة فضح وتخطيط سيل القوالب الجامدة التي تغمرنا بها وسائل الإعلام فتدركها أعيننا وتنطبع في أذهاننا. هذه الكلمات التي يثها الفن الجماهيري والفكر الجماهيري تعتمد عند اختيارها وتعديلها على مقتضيات السياسة، وهذا أمر في ازدياد مستمر...وما لم يكن المفكر على وعي بقيمة الصدق في الصراع السياسي، فلن يتسنى له التعامل مع كامل الخبرة الحياتية" 3.

ولذلك فإن "الطعن في السلطة ووضعها موضع مساءلة"، هو دور المثقف، ولكن طريقة تعامل المثقفين مع مسألة القوة والسلطة تختلف من مثقف إلى آخر، ففي حين

يقاوم إدوارد سعيد السلطة، ويشكك فيها، من خلال قراءته الطباقية، التي تكشف عن الأصوات أو المعاني المتقابلة المتصاحبة للثقافة الرفيعة أي الأدب المعتمد، فإن ميخائيل باختين يقاوم السلطة من خلال قراءته للثقافة الشعبية أي الكرنفال، أي المهرجان الطقسي الشعبي " 4.

وبالرغم من إن إدوارد سعيد لم يذكر ميخائيل باختين في كتاباته إلا في بعض المرات النادرة، وخاصة منها تلك التي وردت في كتابه العالم والنص والناقد 5. فإن هناك تراسلا وتوارد مواقف تبرر ما يمكن أن يجمع بينهما. ولكن كلا منهما، كان ينتمي إلى عصر يؤذن بتحويل في مجرى الأمور، وكان هدف كليهما هو تجريد الأدب المعتمد من اعتماده، أي نقض شرعيته وإلغاء الاعتراف به. إلى أي مدى يستطيع المثقف أن يتوخى الصدق في حديثه إلى السلطة ؟ يرى إدوارد سعيد "إن المثقف الأصيل (هاو) ذو (وعي نقدي)، وأنه يزعزع استقرار الوضع الراهن، وبذلك يقلب المسلمات والمزاعم الثقافية، وكذلك الأحكام التحاملية المسبقة، رأسا على عقب " 6.

في هذا السياق، لابد من توفر شرطين أساسيين مسبقا، هما: (نزعة الاحتفاء بعالم الحس) و(نزعة الاحتفاء بعالم الدنيا): بحيث يرى سعيد بأن: "الحقيقة الأساسية لدي، فيما أعتقد، هي أن المثقف فرد وهب ملكة تمثيل أو تجسيد رسالة أو رؤية أو فلسفة أو رأي أو موقف من شيء ما، مع الإفصاح عن ذلك لجمهور ما، وكذلك الإفصاح عنه بالنيابة عن ذلك الجمهور. وهذا دور له تأثيره القوي، ولا يمكن أن يؤديه المرء ما لم يتوفر لديه إحساس بأنه شخص من شأنه أن يقوم علنا بإثارة أسئلة محرجة، والتصدي لجمود الفكر التقليدي والفكر اليقيني الجازم، القائم على التسليم من غير تمحيص...، وما لم يكن

ممن يصعب على الحكومات تحييدهم بضمهم إليها...، وما لم يكن مبرر وجوده هو تمثيل ما دأبت الثقافة السائدة على نسيانه أو حجبها عن الأنظار، سواء كان أشخاصا أو قضايا".
7.

يقوم المثقف بهذا كله مستندا إلى أساس من الكليات المبادئ العالمية التي تصدق على البشر أجمع: "إن البشر جميعا لهم الحق في أن تعاملهم الدول أو الحكومات وفق معايير لائقة فيما يتعلق بالحرية والعدالة، وإن انتهاك هذه المعايير، عن عمد أو غير عمد، لابد من الكشف عنه وإثباته، ولابد كذلك من الاستبسال في محاربته" 8 .

ويرتبط إدوارد سعيد في نظريته عن المقاومة بدور المثقف، وهو ينطلق في ذلك خاصة من الفضاءات البينية التي عاش فيها، حيث ترعرع فما بين عالمين مختلفين في آن واحد : أولا في المحيط الأكاديمي، لكونه أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة كولومبيا، وثانيا بوصفه فردا يعيش في مجتمع غير الذي ولد فيه، أي في المنفى، ففي ظل هذه الفضاءات المتناقضة، عاش سعيد، فقد وجدنا هويته تشكل النص الذي يتوافق مع تلك البيئة، بل أن هويته تكونت على منوال تلك الفضاءات البينية، من ثمة أيضا صيغت النصوص التي جعلت من كتاباته تتميز بصور معينة.

إن هذه المفارقة التي تنطوي عليها هذه الثنائية في هويته هي التي كانت القوة الدافعة التي اكتسبت كتاباته قوة تأثيرها الفكرية، ثم إن هذا التناقض الذي يبدو لنا في الظاهر هو الذي حدد حيزا لكتاباته في وجوده في هذا العالم وفي تجاربه، لقد وضع سعيد كتاباته في سياق مادي محسوس، وبذلك شغلت كتاباته حيزا مرموقا في ميادين الآداب والثقافة والنقد وحتى في الموسيقى، وفي ذات الوقت، احتلت كتاباته موضع

الاهتمام والاشتغال في هذا العالم. لقد كانت حياة سعيد في المنفى سببا في صياغة المفاهيم التي يسميها (نزعة الاحتفاء بعالم الدنيا) و(روح الهواية) و(نزعة الاحتفاء بعالم الحس)، وهي "بكاملها مفاهيم جاء بها سعيد من أجل دحض المعترف به رسميا من إدعاءات ثقافية وصور من الظلم الاجتماعي والسياسي المثقف...، ويمثل بتا رسالة فردية، وطاقة لا تنضب، قوة لا تلين، تشتبك، بوصفها صوتا ملتزما واضح المعالم وجدير بالاعتراف به، مع عدد كبير من القضايا التي تتصل في نهاية الأمر بالتنوير والتحرر أو الحرية" 9.

إن تحديد مجال نشاط المثقفين على هذا المنوال هو العامل الذي يوجه منهجية سعيد في "التعامل مع المستشرقين والاستعماريين، ومنهجه في التعامل مع الثقافة والنصوص المعتمدة والقضايا السياسية" 10.

ثم أن "احتفاء المثقف بعالم الحس بهذا الشكل هو المبدأ الذي يستلهمه المثقف، أو هو الطاقة الكامنة التي تدفعه، في تصديه للقضايا الثقافية والسياسية، وفي إلزامه نفسه بذلك، وهو ما يمدده بالدافع الذي يحفز به إلى الصدق في حديثه إلى السلطة" 11.

إن هذا المثقف ينبغي له، في نظر إدوارد سعيد، أن يكون "صاحب وعي نقدي، وعي لا يكون حبيس إيديولوجية ما أو حزب ما، حتى يتمكن من إعادة النقد إلى العالم، والبحث عن حرية الرأي وحرية التعبير" 12.

ويتجلى الوعي النقدي أيضا في قوة تأثير المقاومة في قدرة المثقف على أن يرد بالكتابة على كتابة الإمبريالية الاستعمارية، أو يتجلى ذلك في قدرته على أن ينطق بالصدق في حديثه إلى السلطة عن الظلم المرتكب في حق المهمشين والمقهورين ومن لا يمثل لهم. وفي ذلك يرى سعيد بأن المثقف في "فهمه للعالم جوهريا، لا ينبغي أن يكون

من بين دعاة المهادنة والتهذئة، ولا هو من بناء الإجماع، بل هو شخص يرتحن وجوده كله وكيونته كلها بامتلاكه حسا نقديا، أي وعيه بأنه يرفض الوصفات أو الحلول السهلة، أو القوالب الفكرية أو اللفظية المستهلكة، أو الأقوال التي يقصد بها البرهنة على صحة ما يقوله أصحاب النفوذ ودعاة الحفاظ على الأعراف السارية وسلامة ما يفعلونه، وهي أقوال تتسم بقدر متزايد من محاملة المتلقي وتملقه، وهو لا يرفض ذلك رفضا سلبيا، بل يترجم رفضه إلى فعل بتعبيره عنه على الملأ " 13.

ويضيف سعيد قائلا في نفس الصدد بأنه: "لا ينبغي أن يكون لدى المثقف وعي نقدي يرفض الخطاب الاستعماري فحسب، بل يجب أيضا أن يتغلب على صعوبة فهم الشروط التي لا بد من استيفائها حتى تكون المعرفة ممكنة" 14.

وعليه فإن الوعي النقدي من شأنه أن "يطعن في الطبيعة المهيمنة للثقافة السائدة، ومن شأنه كذلك أن يطعن في سيادة المنهج التقليدي الثابت" 15، وهو ما يفضي تلك الرؤية النافذة التي تمكنا من قراءة ما في داخل النصوص وما يتوارى خلفها، ومن ثم تمكنا من قراءة الأدب المعتمد قراءة طباقية، ندرك فيها الألحان، أو الأصوات والمعاني، المتقابلة التي تصاحب اللحن، أو الصوت الاستعماري" 16.

لقد استعار إدوارد سعيد هذا المفهوم مصطلح القراءة الطباقية من الموسيقى، وهو مفهوم يعود إلى "موسيقى كنسية غربية ظهرت في القرون الوسطى، وعرفت باسم لاتيني يعني نغمة ضد نغمة، أو نغمة في مقابل نغمة، وصارت تعرف اليوم باسم الطباق الموسيقي أو تصاحب الألحان المتقابلة" 17، وقد "تأثر إدوارد سعيد في هذا الصدد بعازف

البيانو الكندي جلين جولد، الذي كان مثلاً يحتذى به في أداء الموسيقى الطبقية

18.

إن القراءة الطبقية عند سعيد هي من "مميزات الجمع بين الفكرة الدالة المتكررة (الموتيف) والصفة الفارقة (الاختلاف)، وهما الأساس لإقامة علاقة طبقية بين السرد الاستعماري ومنظور ما بعد الاستعمار. وبهذا ينشأ سرد يحتوي على نقطة دفيئة في مقابل كل نقطة معلنة، ونتمكن من النزول من سطح النص إلى أعماقه، بحثاً عن أدلة على تفشي النزعة الاستعمارية في الثقافة المعتمدة" 19 .

ولهذا فمن الضروري بالنسبة لإدوارد سعيد أن يكتسب الوعي النقدي، "فاعلية نقدية ذاتية بانفصاله عن الثقافة السائدة، وحلوله في وضع مناوئ ومستقل، يمكنه من الشروع في اكتشاف وتعليل مغزى العبارات التي تتألف منها النصوص" 20 .

وبهذا يمكننا في نهاية المطاف أن نلاحظ تلاقي نزعة الاحتفاء بالعالم المحسوس، مع القراءة الطبقية لإرساء الأساس الذي تقوم عليه نظرية سعيد في المقاومة.

إن طرح سعيد لهذه النظرة المتعلقة بالمقاومة كان الغرض منه، "الإطاحة بما سبق نظريته من افتراضات بشأن دور المثقف في الحياة العامة، فهو لم يكن راضياً عن النظرية الأدبية والنظرية الثقافية في نماذجهما السائدة، وذلك لأن اهتمامه كان موجهاً إلى الظروف المادية المحيطة بالتفكير والكتابة. ولذلك فقد حمل بشدة على القهر السياسي والثقافي، مع تركيزه على السلطة الاستعمارية والخطاب الاستعماري" 21 .

وذلك لأن المثقف ينبغي أن يمثل التحرر والتنوير، ولكن بوصفهما مفهومين تجريديين، أو إلهين يتعين على البشر عبادتهما

على الرغم من انقطاع صلتهم بالحياة والبون الشاسع الذي يفصلهما عن البشر. أما تمثيلات المثقف - الأفكار التي يقوم بتمثيلها وكيفية تقديمه هذه التمثيلات لجمهور ما- فإنها ترتبط بتجارب أو خبرات تقع على نحو مستمر في داخل مجتمع ما، ويجب أن تظل جزءاً لا يتجزأ من هذه الخبرات: خبرات الفقراء، المحرومين من حقوقهم، من لا صوت لهم، المحرومين من التمثيل، من لا حول لهم ولا قوة" 22 .

إن الأسباب التي دفعت إدوارد سعيد إلى وضع الخطاب الاستعماري الغربي موضع المساءلة، وما دفعه إلى ضم نظريته في التحليل الثقافي الغربي إلى نص من نصوص هويته داخل نسيج كبير واحد، هو الاحتلال الاستعماري لفلسطين لا سيما بعد حرب الأيام الستة في عام 1967.

ومن هذا المنطلق، فلا يمكننا بأي حال من الأحوال، إلا أن نعتبر هوية إدوارد سعيد، سوى نص واحد ارتبط بالنصوص التي كتبها، والتي كانت صوتاً أفصح عن هذه الهوية: "الحياة في المنفى، هي عقل من شتاء، فيه تدنو شفقة الصيف والخريف، وكذلك الطاقة الكامنة في الربيع، ولكنهما لا يدنوان بما يكفي لأن يكونا في متناول اليد.

وكل هذه العبارات تعني: "أن الحياة في المنفى تسير وفق تقويم سنوي مختلف، ويقل فيها عدد الفصول وقدر الاستقرار عن الحياة في الوطن، فالمنفى حياة تجرى في خارج إطار الحالة الاعتيادية التي تكون عليها الأشياء، إنها حياة ترحال يهيم فيها المرء على وجهه، حياة بعيدة عن المركز، حياة طباقية تتصاحب فيها معان متضادة، ولكن ما أن يبدأ المرء في الاعتياد عليها حتى تندلع قوى زعزعة الاستقرار الكامنة فيها" 23 .

المثقف عند إدوارد سعيد "هاو يميل، بحكم طبيعته، إلى الاحتفاء بعالم الدنيا، ويحل في وضع يستطيع منه الاحتفاء بعالم الحس. إن سعيد عاش في المنفى محاولاً إعادة قراءة النصوص المعتمدة على نحو طباقى. أما الهوية، عنده فهي "نشاط مبعثه الرعاية

المبحث 1: المقاومة الثقافية عند إدوارد سعيد

والعاطفة لا الربح والتخصص الضيق الأناني" 24 . إنها على نقيض الاحتراف، فهي تتفق مع رفض إدوارد سعيد العمل الفكري التخصصي، تلك المؤسسة الاجتماعية الراسخة التي فيها يتحدث الوسط الأكاديمي إلى نفسه، ويدير ظهره للمتطلبات الإنسانية الملحة في العالم 25 .

وهذا ما يؤدي بسعيد إلى ما أسماه الاحتفاء بعالم الدنيا، وهو "مفهوم يطعن في تلك السلطة ضيقة الأفق المعنية بالجزئي التي يتصف بها الخطاب الأكاديمي في معظمه" 26 ، إن هذه الأفكار بدورها تمهد الطريق أمام فكرة الاحتفاء بعالم الحس، حيث "لا يكون النص الأدبي مجرد حلقة جديدة تحل في موقع يخصها في داخل سلسلة من النصوص المعتمدة، بل يحمل الكثير من مظاهر عالم الأشياء، عالم المادة، بما يتضمنه من روابط ثقافية وسياسية واجتماعية بين محتوياته" 27 .

وتتفق جميع هذه الأفكار مع مشروع القراءة الطباقية للنصوص الإنجليزية المعتمدة، وهو المشروع الذي أراد إدوارد سعيد به "استخراج ما خفي في باطن هذه النصوص من معان مضمرة تومئ إلى النزعة الاستعمارية والنشاط الاستعماري" 28 .

وهكذا يتضح لنا بأن إدوارد سعيد لا يميّز اللثام عن "علاقات النسب Filiations التي يكون النص طرفا فيها، بل يكشف علاقات الانتساب أو الممالأة Affiliations التي يدخل النص نفسه فيها. فلا غنى هنا عن رحلة إلى الداخل من أجل زعزعة المعتقدات والمسلمات الجامدة، الراسخة، المتعارف عليها" 29.

إن رحلة سعيد إلى الداخل تعني: "داخل الثقافة السائدة والسلطة السائدة والنصوص السائدة، أي الأدب المعتمد، وهي أيضا كتابة ترد على كتابة الإمبراطورية

المبحث 1: المقاومة الثقافية عند إدوارد سعيد

الاستعمارية، وترد على نصوص الأدب المعتمد، وترد على السلطة، حيث إن الخنوع الدليل للسلطة في عالم اليوم هو واحد من أفدح الأخطار التي تحقيق بحياة فكرية يراد لها أن تكون مفعمة بالنشاط ومراعية للمثل الأخلاقية العليا" 30 .

وحتى نتمكن من فهم ما يعنيه سعيد بنزعة الاحتفاء بعالم الحس، التي تفضي في آخر الأمر إلى القراءة الطباقية، ينبغي أولاً أن نستعرض عدداً من المفاهيم السعيدية حتى نستطيع من ضمها إلى بعضها البعض، في شبكة إدوارد سعيد الفكرية المتكاملة. ، ففي البداية يمكن القول بأن النصوص عند سعيد هي من المنتوجات الثقافية، لها وجود مادي أو محسوس. أي أنها ليست مجموعة من الأبنية الخاملة، بل هي أفعال تقع في مكان ما في عالم الحس- العالم المادي- ولها تاريخ اجتماعي وسياسي وثقافي، أي لها وجود مادي "متشابه مع ظروف وزمان ومكان ومجتمع" 31 ، وهو "ما ينتج عن قدر من الاتصال المباشر بين المؤلفين و وسيلة التواصل اللغوي حتى يكون من موجودات العالم" 32 .

وعلى نقيض ما ذهب إليه الواقعيون والبنويون، يرى إدوارد سعيد أن النص جزء من ذلك العالم الذي تشكل منه النص، أو استنبط منه، في أثناء محاولة قام بها مؤلفه لفهم خبرة الإنسان بالعالم، حيث إنه حدث له خصوصية حسية بالإضافة إلى تعلق وقوعه بوقوع حدث آخر،... وهما صفتان يحملهما النص في ثناياه بوصفهما جزءاً لا يتجزأ من قدرته على نقل المعاني وتوليدها" 33 .

وإلى جانب نزعة الاحتفاء بعالم الحس، "نجد علاقة المملأة أو الانتساب التي تشير إلى نوع من التماهي أو التوحيد الذي يتحقق من خلال الثقافة. ويدعو إدوارد سعيد

إلى الأخذ بالفكرة لأنها تمكن القارئ من النظر إلى النص بوصفه ظاهرة من ظواهر العالم المادي، تقع في داخل علاقات مملأة غير معتمدة، وهو ما يضمن ديمومة النص بوصفه نصاً، بالإضافة إلى ضمان ديمومة مكان المؤلف، واللحظة التاريخية، وظروف النشر، والذيق والتلقي، والقيم التي استلهمها النص، والقيم والأفكار التي تأسس على التسليم بها، ومجموعة مسلمات أجمع الناس عليها ضمناً، والخلفية المفترضة وغير ذلك" 34 .

وعندما يدخل النص في علاقة مملأة مع الثقافة والتاريخ والمجتمع، فإنه يتلخص حتماً من رقبة ما يسمى بالأدب الأوروبي المعتمد ويرجع إلى نسيج ثقافته. ولذا فإن "إعادة إنشاء شبكة علاقات المملأة تؤدي إلى إبراز الخيوط التي تربط النص بالمجتمع والمؤلف والثقافة، أي إلى تحويل النص إلى شيء مادي محسوس" 35 .

إن تعزيز مادية النص على هذا النحو يمكن إدوارد سعيد "من قراءة نصوص الأدب الإنجليزي طباقاً، وحتى يتسنى له التيقن من مدى مشاركة هذه النصوص في تنفيذ المشروع السياسي المتسع الكاسح الذي وضعته الإمبريالية الاستعمارية. ومن ثم فإن القدرة على قراءة الأدب المعتمد (الأدب الإنجليزي) طباقاً تكشف حقيقة الصلة بين الهويات الثقافية: هوية المجمعات الخاضعة للاستعمار وهوية ثقافة الإمبراطورية الاستعمارية، أي تكشف معزوفة طباقية متكاملة" 36 ، مجموعة من الألحان أو الأصوات أو المعاني المتقابلة المتصاحبة.

ويعتبر إدوارد سعيد عالم الحس، وكذلك الصلة الوثيقة التي تربطه بالمتقشف (الناقد) وتربطه بالنص، المفتاح نفهم عن طريقه دور المتقشف. فبدون "الاحتفاء بعالم الحس لن يكون لدى المثقف ما يتحدث عنه، أو ما يتحدث إليه، فعمل المثقف يتأثر بالمكان

المبحث 1: المقاومة الثقافية عند إدوارد سعيد

الذي يجري فيه، وأصحاب المصالح التي يخدمها، ومدى اتفاهه مع مبدأ أخلاقي ثابت يعتقد أنه ينطبق على البشر أجمع، وكيفية تمييزه بين السلطة والعدل، وما يكشف عنه من اختيارات وأولويات مؤلفه" 37.

ومن هنا، فإن كتابات وأعمال إدوارد سعيد بكاملها، تعتبر بصفة عامة، نوعاً من المقاومة التي تتجه إلى الخطاب السائد. وعندما قال بفكرة قراءة نصوص الثقافة الأرشيفية أو النصوص المعتمدة قراءة طباقية، إنما أراد بذلك تمكين المثقف من رؤية المواجهة والمناوأة التي تجري بلا انقطاع بين السلطة والمقاومة في أرجاء العالم الخاضع للاستعمار، وهذا هو المقصود بعينه عندما يقول سعيد: "حين نعود بأنظارنا إلى محتويات الثقافة الأرشيفية، نبدأ في إعادة قراءتها طباقاً، (أي بوصفها أصواتاً ومعاني متقابلة متصاحبة)، لا أحادياً (أي بوصفها صوتاً أو معنى واحداً)، ونجمع في قراءتنا بين وعينا بتاريخ الإقليم المركزي (مركز الإمبراطورية) الذي تسرده النصوص و وعينا بالسرديات التاريخية الأخرى التي يعمل ضدها (ومعها) الخطاب السائد... فبإمكاننا، على سبيل المثال، قراءة وتفسير الراويات الإنجليزية التي نجد أن تعاملها (المضمر في معظمه) مع الهند أو جزر الهند الغربية، على سبيل المثال، يتشكل بفعل - بل لعله ينبع من - التاريخ الذي يخص الطرفين: تاريخ الاستعمار والمقاومة والنزعة القومية لدى السكان الأصليين. وبوصلنا إلى هذه النقطة تبزغ أمامنا سرديات بديلة أو جديدة، تتحول إلى سرديات معترف بها أو كيانات مستقرة خطابياً" 38.

إن القراءة الطباقية عند سعيد تقوم بوظيفة الكشف على: "ذلك الجانب من العالم المحسوس الذي تصوره هذه النصوص المعتمدة". وهو نفسه ذلك الجانب الذي لولا

القراءة الطباقية لبقية مجهولا. ويؤدي الكشف عن هذا الجانب إلى كشف التداخل والتشابك بين الاستعمار والمقاومة.

وهذا هو السبب الذي جعل من إدوارد سعيد أن يعلن، في كتابه الثقافة والإمبريالية الذي نشر سنة 1993، عن "دخول المقاومة إلى الحياة الثقافية. وبإمكانية هذه القراءة الطباقية أن تقوم بالكشف عن ما قد تعمل القراءة الأحادية معنى، على إخفائه فيما يتعلق بالصلة السياسية بين عالم المحسوس والنص المعتمد" 39.

إن رواية مانسفيلد بارك Mansfield Park، الصادرة سنة 1814، للأديبة الإنجليزية جين أوستن، "تخفي استثناء السلطة التي مكنت الإمبريالية من تشكيل الواقع على نطاق واسع. ولكن بإمكان القراءة الطباقية أن تميّط اللثام عن الممالة السياسية التي دخل هذا النص المعتمد طرفا فيها، فقراءة الرواية بوصفها، لحنا متعدد الأصوات (قراءة طباقية) مصاحبا للتوسع الأوروبي" 40.

يتبين لنا جليا مما سبق بأن، ثمة علاقة تبادلية بين المجتمع المستعمر والمجتمع المستعمر، أساسها ارتكان الأحوال في كل منهما بالأحوال في الآخر. "ثم إن غياب السير توماس بيرترام عن قصره مانسفيلد بارك أثناء إشرافه على مزارعه في أنتيجا Antigua، يفضي إلى نوع من التفسخ في العلاقات بين أهل بيته، وعندما يعود يستعيد البيت استقراره وتراعى أصول اللياقة والأخلاق مرة أخرى" 41 .

كما نستفيد من قراءة هذا النص طباقيا، في تسليط الضوء عن الحضور الجغرافي والواقع الإيديولوجي لروضة مانسفيلد، إذ يتسنى لنا من أن نستنتج، بأن السير توماس يفعل الشيء نفسه في مزارعه بأنتيجا، حيث يقوم بتطبيق القانون، والمحافظة على النظام العام،

ويسيطر على كل ممتلكاته بالمستعمرة، مستندا في ذلك على سلطة لا مجال للشك للطعن فيها، أو الاعتراض عليها 42 .

ليس في مانسفيلد بارك شيء يمكن أن يتعارض مع تحليلنا إذا ما افترضنا أن السير بيرترام يفعل في مزرعته في أنتيجا- على نطاق أوسع- الأشياء نفسها التي يفعلها في مانسفيلد بارك. فأما كان نوع الخروج عن سواء السبيل في أنتيجا... فان السير توماس بيرترام كان قادرا على إعادة الأمور إلى نصابها، وبذلك يبقى على سيطرته على المجال الاستعماري الذي كان يعيش فيه.

ونلاحظ هنا بأن جين أوستن تعتمد، بشكل أوضح، على "الجمع بين السلطة في البيت والسلطة في خارج حدود الإقليم المركزي في علاقة تزامنية، موضحة بذلك أن القيم التي تقتن بأمر أسمي، مثل رسامة الكهنة وتطبيق القانون ومراعاة الأخلاق الحميدة، يجب أن تقوم على أساس متين من السيطرة الفعلية على ملكية أراضي المستعمرات. أنها ترى في وضوح أن حياة مانسفيلد بارك والسيطرة على مقاليد الأمور فيها، ترادف حياة أراضي وأطيان بالمستعمرات والسيطرة على مقاليد الأمور فيها، مع وجود ارتباط وثيق بينهما. فالشيء الذي يضمن السكينة والتآلف في مانسفيلد بارك هو ارتفاع الإنتاجية وقواعد ضبط السلوك وحفظ النظام المرعية في مزارع المستعمرة" 43 .

وتعد روضة مانسفيلد، بالنسبة للسير توماس، صورة رمزية مصغرة من المجال الاستعماري الذي يخصه، فأملأه الاستعمارية هي التي تكفل له الحياة المنظمة الهائلة التي تخلو من شقاء العمل في مانسفيلد بارك، وبدون تلك الأملاك قد يخلو البيت من الاستقرار ومكارم الأخلاق" 44.

وهنا أيضا تقوم القراءة الطباقية بتسليط الضوء على "تجسد الإمبريالية الاستعمارية جغرافيا، وعلى استغلالها مساحات واسعة من سطح الكرة الأرضية، وذلك بإضفاء حضور على تلك الغيابات أو الفضاءات النائية، التي قد يكون بعضها غير معروف" 45 .

وعليه فإن أنتيجا، كما تصورها جين أوستن ليست مجرد إشارة إلى: "روح المغامرة التجارية التي تدفع المرء إلى حيازة أراض وبسط سيطرته عليها فيما وراء البحار من أجل تحويلها إلى مصدر للثروة في الإقليم الذي جاء منه. كما أنها ليست واحدة من الإشارات الكثيرة التي تشهد على وجود حس تاريخي ينضج بسلوكيات قديمة وأخلاق كريمة بل تضم أيضا صراعات بين أفكار، ومنازعات مع فرنسا في عهد نابليون، ومعرفة بتغيرات اقتصادية واجتماعية مزلزلة كانت تقع في حقبة ثورية من حقب تاريخ العالم" 46 . إن مزرعة أنتيجا تحتل موقعا واضح المعالم على الخريطة الأخلاقية التي رسمتها جين أوستن، فال بيرتام ما كان لهم أن ينعموا بتلك الحياة لو لم تكن مزارع القصب.

ولذلك فإنه: "من قبيل التزييف الجذري أن نجرد الرواية من علاقات المملأة التي تربطها بإطارها الزماني والمكاني، أو أن نقتلعها من أرض الواقع الذي دخلت في مواجهة معه، أو أن ننكر ما تحدثه من تأثير في الواقع (على نحو يصل بنا إلى حد النظر إليها بوصفها خيطا معارضا في داخل نسيج الثقافة الغربية)، إن رواية جين أوستن مانسفيلد بارك لتدور حول إنجلترا وحول أنتيجا، والصلة بينهما تعلنها جين أوستن صراحة، إنها، إذن، رواية عن استتباب الأوضاع في البيت، أو الولاية الأم، وعن استعباد الإنسان خارج الولاية الأم. ويمكن قراءة الرواية، بل ينبغي قراءتها، على هذا النحو" 47 .

فضلا عن ذلك فإن القراءة الطباقية "تظهر للعيان الارتباط الذي يكاد يكون تاما بين الأعراف الثقافية والأعراف السياسية المعمول بها في مجال الاستعمار الاستيطاني للكرة الأرضية، فأوبرا عايدة، التي كتبها فيردى، تثير أسئلة مركبة عن علاقتها بال لحظة التاريخية والثقافية الغربية التي كتبت فيها" 48 . وكذلك فهي تظهر أيضا "أسئلة عن تفردھا، وموضوعھا، وإطارھا الزمان والمكاني، وفخامتها السابغة، ومؤثراتها البصرية والصوتية التي تلهب العواطف على نحو غريب، وموسيقاھا المتطورة إلى حد الإفراط، والوضع الأسري المقيد الذي تصوره، واختلافھا عن بقية إنتاج فيردى" 49 .

في رأي إدوارد سعيد، قراءة طباقية، لأنها تجسد سلطان النسخة الأوروبية من تاريخ مصر في لحظة من لحظات تاريخھا في القرن العشرين، هو تاريخ يجعل القاهرة في السنوات من 1869 إلى 1871 موقعا ملائما إلى حد غير عادي 50 ، وبإمكان النظر الطباقية أن تكشف عن "بنية الإحالة والاتجاهات العقلية في النص، وشبكة من علاقات الممالأة، وروابط، وقرارات، وعلاقات تعاون وتواطؤ، وكلھا يمكن قراءتها بوصفھا السبب في مجموعة من الملامح المفزعة التي جاء نص الأوبرا البصري والموسيقي متسما بتا" 51 .

وتدور أوبرا عايدة لفيردي، حول بطل مصري يقهر الإثيوبيين ولكنه يتهم بالخيانة ويحكم عليه بالإعدام، وهي تستحضر في الذهن التنافس بين القوى الإمبريالية في الشرق الأوسط. لقد شجعت بريطانيا تحركات الخديوي إسماعيل في شرق أفريقيا، إذ اعتبرتها وسيلة لعرقلة المشروعات الفرنسي والإيطالي في الصومال وأثيوبيا. ولذا فمن وجهة نظر فرنسية، نجد أن أوبرا عايدة تصور الأخطار التي يمكن أن تترتب على نجاح الخطة المصرية في إثيوبيا" 52 . ومن ثمة، فهي مثال واضح على "تورط الثقافة الأوروبية في عملية

الاستعمار الاستيطاني، مع تجردها، في الوقت نفسه، من أية صلة واضحة بالعالم الذي خلقتة، في سعيها للوصول إلى التعالي، كما هو الحال في الفن الغربي الكلاسيكي " 53 بل إن أوبرا عايدة لفيردي هي رمز ساطع على خضوع (مصر) للاستعمار الاستيطاني. وكما طبق إدوارد سعيد آليات القراءة الطباقية على رواية جين أوستن، حاول أن يفعل بالمثل مع أوبرا عايدة لفيردي، بوصفهما نصين معتمدين، وطبقها كذلك على رواية كيلنج كيم K.Kim، ورواية ألبير كامو الغريب L'étranger.

ويوضح سعيد بقراءاته الطباقية لهذه النصوص لبين لنا كيف أن هذه الطريقة في القراءة "تسبر أغوار السياقات الاستعمارية لهذين النصين من أجل استيضاح كيف أن العمليات التي تنطوي عليها الأفكار الجوهرية وبناء الحبكة في كل منهما تنبع من، وتنعكس في، ظروف تاريخية بعينها.

فيبين لنا سعيد كيف أن "كيلنج يكتب من منظور نظام استعماري واسع النطاق" 54 ، وكيف أن رواية كامو (الغريب) "ترتبط، من وجهة النظر التاريخية، بعلامة ممالة، أو تبعية، بالمشروع الاستعماري الفرنسي نفسه وكذلك بمعارضة استقلال الجزائر معارضة سافرة" 55 . ولذلك ينبغي النظر في رواية كامو بوصفها عنصرا من العناصر التي تندرج في جغرافية الجزائر كما شكلتها فرنسا بطريقة منهجية منظمة" 56 .

ومن ثم فالقراءة الطباقية يمكن أن تكتشف بأن "الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، الذي بدأ في عام 1830 ، واستمر في أثناء حياة كامو، امتد إلى داخل النصوص وصار واحدا من مكوناتها" 57 ، لقد أدجت أعمال كامو في الأدب الغربي المعاصر

المبحث 1: المقاومة الثقافية عند إدوارد سعيد

المعتمد، ولكن احتلال فرنسا الاستعماري للجزائر يمكن أن نرصده، إذا ما نظرنا إليه طباقا على الرغم من غيابه عن كتاباته.

إن المقاومة عملية ذات شقين، أولهما العمل على استرداد الأرض المغتصبة 58، وثانيهما: المقاومة الإيديولوجية 59، إلا أن إدوارد سعيد يولي اهتمامه إلى الشق الأخير الذي يتكون من: "إصرار على رؤية تاريخ المجتمع كاملا، متسقا، غير منقوص، (ثم بحث عن) نهج بديل في رؤية التاريخ البشري... يقوم على إزالة الحواجز بين الثقافات (وأخيرا الدخول إلى) الخطاب الأوروبي والغربي من أجل الاختلاط به، والعمل على تحولات فيه، ودفعه إلى الاعتراف بالتاريخ المهمش أو التاريخ المقموع أو التاريخ المنسي" 60 . وهذا هو ما يعنيه إدوارد سعيد بالكتابة "التي ترد على الكتابة الصادرة عن ثقافة مركز الإمبراطورية الاستعمارية، من أجل دحض سرديات الأوروبيين عن الشرق وأفريقيا" 61 .

إن هذا الجهد الحثيث هو ما يسميه إدوارد سعيد "الرحلة إلى الداخل" 62 . وهنا نجد إدوارد سعيد "يرفض المساعي التي تلح على تميز مقومات الذات والتي لها القدرة على تحريض البشر بعضهم على بعض، وتدل على تخليهم عن عالم الدنيا" 63 ، الذي يؤثره على ما سواه، ويذهب سعيد في نفس السياق إلى "أن الإلحاح على تميز هويات مثل الزنجية والإسلامية والأيرلندية والكاثوليكية أمر لا أهمية له إلا في المراحل المبكرة من تشكيل الهوية. وهذا يعني أنه يؤيد الرؤية التعددية للعالم المحسوس، التي تقوم لا على الثقافة في مفهومها المتطرف بل على الثقافة وقد نقيت من عناصرها الاستعمارية، وهي ثقافة أطلق فيها الوعي والنشاط الواعي من إسارهما" 64، ويرى إدوارد سعيد: بـ "أن التحرر، وليس الاستقلال القومي النزعة، هو البديل الجديد، فهو تحرر من طبيعته أن يتضمن، كما يقول فرانتر فانون:

"تحولا في الوعي الاجتماعي يجعله يجاوز الوعي القومي"، ومن ثمة يمنع تقسيم البشرية، الذي لولاه لكاد أن يكون محتوما، إلى (نحن) الغربيين وهم (الشرقيين)" 65 .

ويمكن لإنشاء الهويات أن يؤدي، وفق مفهوم جديد، إلى الحرية، "لأن هويات أفراد الجنس البشري تكون كيفما شاءوا لها أن تكون، حتى إذا كانوا من نتاج خطاب قمعي" 66.

ومن الواضح جليا هنا، أن إدوارد سعيد يولي "أهمية حيوية لقيام المرء بالمقاومة من أجل إعادة صياغة ذاته حتى تتحول إلى ذات من ذوات ما بعد الاستعمار" 67. وهنا نلمس تأثير فرانتز فانون عليه: "إن الجهد الذي يبذله البشر من أجل اقتناص الذات والتدقيق في عناصر الذات، وكذلك التوتر الدائم الذي تسببه لهم حريتهم، هما العاملين اللذان من خلالهما يتمكنون من خلق الظروف المثالية للوجود في عالم إنساني" 68.

إن هذه الظروف المثالية للوجود تنتج عن أشكال من خطاب المقاومة مثل: "كتابات بعض مثقفي المناطق الاستعمارية أو الهامشية الذين كتبوا أعمالهم بلغة استعمارية، والذين شعروا بأنهم جزء عضوي من المقاومة الجماهيرية للإمبراطورية الاستعمارية، وأخذوا على عاتقهم مهمة نقدية تنقيحية تهدف إلى التعامل وجها لوجه مع ثقافة الإقليم الاستعماري المركزي، مستخدمين في ذلك الأساليب الفنية وأشكال الخطاب والأسلحة التي تزودوا بها من المعرفة البحثية التخصصية وكذلك من النقد بعد أن ظلت حكرا على الأوروبي. أعمال هؤلاء الكتاب، إذا ما حكمنا عليها حكما موضوعيا، لا تعتمد إلا ظاهريا... على الخطاب الغربي في تياره الرئيسي، فالنتيجة التي ترتبت على أصالة هذه

الأعمال وقدرتها على الإبداع هي تحول حدث في معالم الحقول التي ترتادها فروع المعرفة البحثية" 69 .

إن هذه الأعمال هي "كتابة ترد على كتابة، متبعة في ذلك عددا متنوعا من إستراتيجيات استلاب أدوات الاستعماريين" 70 و"الرحلة إلى الداخل"، عند إدوارد سعيد، حيث " تتيح الفرصة لإنشاء نصوص تخدم بناء الطغيان الذي يمارسه الخطاب السائد، وتفسح مجالا للأعمال الثقافية الهجينة" 71، التي تتلاحق فيها عناصر ثقافية متباينة وهو ما يقتضي في نظر سعيد، قراءة "نصوص من مركز الإمبراطورية الاستعمارية ونصوص من أطرافها قراءة طباقية، لان النصوص ليست أشياء مكتملة الصنع، بل هي ممارسات وأعراف ثقافية جارية" 72. وما المقومات السياسية للمقاومة، عند إدوارد سعيد، "إلا هذه القدرة على مجابهة الخطاب السائد، والقدرة على إنتاج كتابة ترد عليه بالقيام برحلة إلى الداخل" 73

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

ينقد سعيد الرواية الغربية من المنظور الجديد الذي ينتقل بالتجربة التحليلية من النص إلى الخطاب التاريخي والثقافي في آن واحد، ففي الوقت الذي كان فيه الاتجاه البنيوي مهيمنا على المنظور النقدي بصفة تكاد تكون مطلقة، كان سعيد يفتح هوة تزداد اتساعا في تغيير ذلك المنظور من الأفق المحصور في ميدان جمالية النصوص إلى قراءة السياقات التاريخية والقراءة للسياقات الثقافية معا، يرى سعيد "كم هو موقظ وملهم، لذلك لأن يقرأ المرء جانبه الخاص وحسب، بل أن يستوعب أيضا كيف أن فنانا عظيما مثل كبلينغ (وقل من يفوقونه امبريالية ورجعية)، صاغ الهند بكل تلك المهارة وكيف أن روايته كيم لم تعتمد على تاريخ طويل من المنظور الأنجلو. هندي فحسب، بل تنبأت كذلك، بالرغم من نفسها، باستحالة التمسك بهذا المنظور في إلحاحها على الإيمان بأن الواقع الهندي كان يتطلب، بل بحق يستدعي الوسايا البريطانية إلى ما لا نهاية له" 74 .

وفي نفس السياق فقد تصدى هذا المفكر العالمي بموقفه النقدي الواضح والجرئ لمقولة جاك دريدا الشهيرة "لا شيء خارج النص"، وقد أصر على رفض هذه المقولة جملة وتفصيلا في كتابه العالم والنص والناقد الذي نشر عام 1983 The world, and the critic ، إن مقالات من أمثال مقالات دريدا يمكن العثور عليها بين الحين والآخر في المقتطفات الأدبية، وأما قيمتها فتكمن في توضيحها الإحساس بقوى المنهج المتضاربة وجذورها الراسخة في صلب النشاط الفكري الأمر الذي يحسن بعدئذ إدراكنا أن الخطاب النقدي المعاصر معارض في مواقفه لكل ما هو سلافي . سواء أكان يتعلق بالعمل أو بالناقد أو بالمعرفة أو بالواقع. فما أن آل النقد المعاصر إلى اليتيم، جراء المقالات النقدية المتطرفة لكل من فرويد ونيتشه، بخصوص الجذور والموروثات والمعرفة نفسها، حتى نال

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

استقلاله المنهجي باحتلاله موقعا فعالا في هذا العالم" 75. ويضيف سعيد قائلا "ومع ذلك فما من أحد منهم يتهم ذلك الاهتمام الكبير بالفروق الدقيقة بين النظرية السقيمة والتطبيق أو بين النقد الأدبي وبين الفيلولوجيا والفلسفة وعلم اللغة والسيكولوجيا والسوسيولوجيا" 76 .

مارس سعيد هذا الرفض بعمق وإصرار في كتابه الاستشراق، فهو يلح على العلاقة الوطيدة التي يرتبط فيها الأدب وأشكال الممارسات الثقافية المختلفة بالعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحيط به، ومما هو لافت للانتباه أن النقد الذي مارسه في كتابه هذا قد اتجه إلى الخطاب الاستشراقي لكونه أخطر عملية في تحويل الشرق من إطاره التاريخي الثقافي إلى مجرد ظاهرة نصية ولأن قيمة أي تقرير عن الشرق لا تأتي من الشرق نفسه، بل من خلال إقصاء هذا الشرق وإزاحته، فلا وجود لهذا الشيء إلا ضمن النصوص الغرائبية والتخيلية التي تؤسس لتمثيلات هذا الشرق في المخيلة الغربية، التي تعتمد في ذلك على مؤسسات وتقاليده وأعراف ونظم رمزية للفهم متفق عليها من أجل تحقيق تأثيرها "إن العلاقة القائمة بين الغرب والشرق كانت ولا تزال علاقة قوى، أي علاقة تحكم الغرب في الشرق على مستوى درجات مختلفة" 77.

كما نجد سعيد يرفض مطلقا التمييز بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية، فليس ثمة معرفة منفصلة عن الواقع الذي تظهر فيه، ومن ثمة فكل نص يظهر في ظروف تاريخية واجتماعية معينة، وهذا هو بالذات ما يعنيه سعيد بدنيوية النصوص، فهي بمثابة أحداث واقعية في المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تثمر النقد والوعي النقدي Critic

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

Consciousness، فالنصوص ليست معزولة عن شروطها الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.

من هذه الزاوية تكمن أهمية النظر إلى النصوص بوصفها حالة ثقافية، وليست قيمة بلاغية أو جمالية، لهذا يحدد سعيد منهجيته في القراءة التي تركز على الأعمال الأدبية الفردية " كنتاج عظيم للخيال الخلاق أو التأويلي، من ناحية، وكونه جزء من العلاقة بين الثقافة والامبريالية، من ناحية ثانية 78.

ومن خلال هذا الطرح المنهجي، تكمن أهمية تفكيك النصوص الكولونيالية من منظور الأقليات كالمرأة، والسود، ومثقفى العالم الثالث، والمُعذَّبون في الأرض بتعبير فانون. إن الكشف عن دور النص في الصراع السياسي الثقافي هو واحد من أهم إنجازات سعيد في قراءته للثنائيات المتضادة في علاقة الامبريالية بالثقافة "ليست الثقافة ولا الامبريالية حاملتين راكنتين، ومن هنا فإن الروابط بينهما كتجارب تاريخية حيوية ومتشابكة ومعقدة" 79، ويجب فهم أن الخطاب النقدي عند سعيد يركز على أن النص ليس بريئاً فهو يخفي إيديولوجية مناقضة لخصوصيتها البلاغية والجمالية، وعليه فهو يرى "أن النص في النهاية أشياء مادية، ليست مجرد فيض خالص يفيض عن نظرية من النظريات" 80 .

ومن ثمة كان رفض سعيد التعامل مع النصوص كبنية مادية، بل ينبغي النظر إليها على "أنها أفعال وضعت في العالم كمنتجات ثقافية، وأفعال ثقافية، في علاقة مع السلطة التي أنتجتها" 81 . ويستخدم سعيد التجربة التاريخية ليشير إلى أن الكلمات ليست تقنية و لا باطنية، وإنما هي تتجه إلى كل ما هو حي، وصراعي وخاصة منها تجربة الانخلاع والمنفى والهجرة والإمبراطورية.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

إن النصوص عند سعيد هي عبارة عن "صف لدنيوية، وهي أحداث إلى حد ما، وهي فوق كل هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية قسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو عليها التكرار لكل ذلك" 82 .

وركز سعيد على "كشف العلاقة بين البنية والحدث من ناحية، والتضاد الناتج عن سيطرة النظم الامبريالية وأنساقها الثقافية والمقاومة الوطنية المعارضة لتلك السيطرة من ناحية أخرى، ويحاول قراءة هذه الثنائيات قراءة طباقية، وهي قراءة تهدف إلى عزل السلطة التشريعية المهيمنة للإمبريالية عن تلك النصوص لأن الإمبريالية تعمل على أنها ذات حضور جامع للقوانين" 83 .

وعليه فإن وظيفة القراءة الطباقية عند سعيد هي "التي تأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد لتعدد الأصوات ولا يتوقف عند الصوت الواحد ليس إلا لكي تكشف ما الذي قد تخفيه القراءة الأحادية حول الدنيوية السياسية" 84 .

إن أول ما يلفت النظر إلى مصطلح القراءة الطباقية هو التسمية ذاتها. يفيدنا سعيد من البداية، بأنه استخدمه استخداما مجازيا، حيث أنه استعاره في الأصل من الموسيقى. وجاء هذا المصطلح نتيجة العلاقة الوثيقة بين أفكاره المرتبطة بالنقد الأدبي ومجموعات الأنساق متعددة النغمات 85 ، وقد أورد سعيد نقطتين ينفرد بهما المصطلح ومصدره الموسيقي لهما دلالة على تحليل النصوص الأولى منهما تعدد الأصوات ، والثانية التركيب والثراء اللذين تمنحهما التعددية في الأصوات الموسيقية . ولأن سعيد كان متبحرا في علم الموسيقى وبارعا في العزف على آلة البيانو . فهو يقر بانجذابه إلى "ظاهرة تعدد

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

الأصوات ... وشديد الاهتمام بالكتابة الطباقية والأشكال الطباقية، وشديد الانجذاب إلى نوع التركيب المتاح بشكل جمالي وإلى المدى الكبير المتاح بين التناغم والتنافر النغمي وإلى ربط الأصوات المتعددة في كل متكامل منظم" 86.

إن اهتمام سعيد بالقراءة الطباقية أضاف مسحة إلى أفكاره حول ارتباط النقد بالعالم، وهذا النقد ليس مطالبا بالتواصل مع العالم تواسلا يتسم بالتفكير النقدي والمعارضة فقط، بل يقصد إلى الكشف عن الأصوات التي تعمل في الحياة الثقافية مع إعطاء كل من هذه الأصوات فرصة الظهور والتحليل، بما أنها أهملت في أشكال النقد التقليدي السابق.

ويتبين لنا من خلال هذه القراءة الطباقية أن سعيد يدقق في تحليل النصوص ذاتها، ويهدف إلى معالجة النص وما يحتويه من المسكوت عنه والمنطوق به في علاقته بالعالم الذي انبثق عنه هذا النص، والذي يخاطبه في ذات الوقت : "عند قراءة نص ما، ينبغي أن يفتح على ما اندرج فيه، وما استبعد منه. فكل عمل ثقافي عبارة عن رؤية للحظة ما، ينبغي اختبار هذه الرؤية إلى جانب المرجعيات التي أثارها تلك الرؤية لاحقا" 87.

هذا الرأي يذكرنا بالفكرة القائلة : أن للنصوص علاقة قائمة مع بعضها البعض على شكل شكل تجاوز وتكامل، فالنص ليس جزيرة معزولة، ولا هو حدث فردي، أو إنه من إنتاج ثقافة أعظم من ثقافة أخرى، وهكذا من بين دلالات مصطلح تعدد الأصوات أن النص لا بد أن يتم في تحليله ظل العوامل الأخرى، ثقافية كانت أم اجتماعية، أم تاريخية، إلى آخر العوامل المؤثرة في النصوص، "دون إغفال العامل اللغوي طبعاً، فالنصوص هي جزء من عالم المجتمع وحياة الإنسان. وبالطبع جزء من اللحظات التاريخية التي تؤلف فيها هذه النصوص وتفسرها" 88.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

ويمر النص عند سعيد بمرحلتين، ففي البداية يخضع للفحص في مقابل التراث الثقافي والجمالي المنتمي إليه، ثم يفحص في المرحلة الثانية من خلال الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت به أو هي بالذات التي تصورها تلك النصوص، ويجب أن توضع في مقابل النصوص التي أنتجت ثقافات أخرى حتى وإن كانت من ثقافات مختلفة حتى يصبح النص في علاقة اختلاف أو تنافر، وهذا ما يعنيه سعيد "المنظور المزدوج الذي لا يرى الأشياء منعزلة إطلاقاً"، بالإضافة إلى أن "الفكرة أو التجربة دائماً في وضع المقارنة مع أخرى، الأمر الذي يؤدي إلى أن كليهما قد ظهر في بعض في شكل جديد و ربما غير متوقع ...".⁸⁹

وعليه فالغرض من هذه المقابلة هو تسليط الضوء على الأبعاد الجديدة للنصوص، والتجارب التي تعبر عنها وكان من الممكن أن تظل خفية، لو لم يفسرها الناقد تفسيراً طباقياً.

إن اهتمام سعيد بالقراءة الطباقية كان نتيجة لاهتمامه بالعالمين الغربي و غير الغربي، وقد أراد الحصول على نماذج تمثيل الواقع التي ظهرت خلال الفترة الاستعمارية وما بعدها في كل البلدان المستعمرة والمستعمرة، وبعد ذلك يضعها في الأطر الجديدة التي تتسق مع رؤاه المرتبطة بعالمية الثقافة وعمل النقد الواعي Critic Consciousness، (المتمثل في الناقد والمثقف والمفكر والأكاديمي) في سياق التاريخ العلماني.

إن القراءة الطباقية متعددة الطبقات وثرية حيث إن جميع جوانب التجربة تخضع للتحليل، بينما تستحضر تجارب الماضي بوصفها جذوراً للمشكلات والصراعات الآنية، إذ يحدو الأمل الناقد في أن التوصل إلى رؤية عند فهم تلك المشكلات، ربما تؤدي إلى

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

حلها. وواحد من أهداف القراءة الطباقية كما مارسها سعيد نفسه هي وضع الأدب الغربي، وخاصة منه ذلك الذي تم إنتاجه أثناء السيطرة الامبريالية، وهو يركز على الدور الذي لعبته تلك الأعمال الأدبية في إنجاز المشروع الامبريالي. وعليه فإن القراءة الطباقية وفقا لهذا المنظور السعدي تمكن الفرد من أن يدرك مثلا، أن : "الإشارة إلى أستراليا في رواية د فيد كوبرفيلد، أو الهند في رواية جين إير ، وردت لأنه من الممكن ورودها ولأن القوة البريطانية جعلت مثل هذه الإشارات العابرة لهذه الأشكال من الاستحواذ الطاعني ممكنة ... " 90.

ويسعى سعيد من خلال قراءته الطباقية التصدي للعلاقة القائمة بين للآداب الغربية وغير الغربية أي أشكال الإنتاج الثقافي بصفة عامة. وهدفه الأساسي هو تقديم "فكر جديد عن الطريقة التي قد تمكن مواقف مثقفي ما بعد الاستعمار من مد حدود المنطقة المتداخلة القائمة بين الحواضر والمجتمعات التي سبق استعمارها" 91.

يرى سعيد أنه يمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق إعادة بناء التجارب مرة ثانية من خلال القراءة، غير أن ما يقترحه ليس مجرد إعادة رسم للعلاقات التي كانت قائمة من قبل: " فالنقطة هي أن القراءة الطباقية لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار كلتا العمليتين، أي الامبريالية والمقاومة، الأمر الذي يمكن تحقيقه إذا امتدت قراءة النص لتشمل ما كان محظورا بالقوة قبل ذلك " 92.

وهكذا يقترح سعيد إعادة قراءة التراث الثقافي، والتعامل مع الرواية الإنجليزية بمنظور جديد في محاولة من أجل " قراءة أحادية الصوت بل طباقية، تشتمل على وعي

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

متزامن لكل من تاريخ حواضر العالم الذي يروى، وغيره من روايات التاريخ الأخرى التي يتعامل معها... الخطاب السائد " 93.

تعد هذه محاولة من أجل إخراج الروايات المضادة للسيطرة من الصمت الذي فرض عليها، ومن إبعادها إلى أركان النسيان والإهمال من جهة، كما أنها محاولة تبين أن القراءة النقدية معين متجدد يتغير مع تغير الزمن الذي يقرأ العمل فيه. يتحقق هذا الغرض عند السماح لكلا الطرفين بالحديث عن طريق جهود المثقف لا بإلقاء اللوم على طرف دون آخر، في محاولة لإظهار بدائل جديدة تنتج عن هذا التمازج. كما نرى أن سعيد يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن هذا الأسلوب في قراءة النصوص يسمح بظهور "نوع أكثر إثارة من التفسير العلماني... وبشكل عام وأعم فائدة من تراشق الاتهامات في الماضي... أو العداوة بين الثقافات الغربية وغير الغربية التي تؤدي إلى أزمات " 94 .

يطبق سعيد أسلوب القراءة الطباقية تطبيقاً موسعاً على الرواية الغربية، لذا يمكن من خلال تتبع تحليل سعيد لبعض الروايات وإشاراته للبعض الآخر رسم إطار لهذا النوع من القراءة. من البداية يبرر سعيد اهتمامه بالشكل الروائي على وجه الخصوص بأنه رأى في الرواية التي أنتجتها الثقافة الغربية بعض بنيات المواقف والإشارات Structures of attitude and reference أي أنماط لرؤية الذات والآخر وتمثيلهما. وعلى هذا ترتكز فكرته الرئيسية على أن هذه البنيات يمكن الكشف عنها وتصويرها فقط عن طريق القراءة الطباقية، حيث إن هذا الأسلوب النقدي يسمح للناقد بتوضيح أن هذه البنيات "سائدة ومؤثرة في شتى الطرق و الأشكال والأماكن حتى قبل زمن الإمبراطورية المعلن رسمياً، وهي

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

أبعد ما تكون عن الثبات أو النقاء فهي مهجنة ومشاركة على حد سواء في تعظيم جنس على آخر بقدر اشتراكها في النبوغ الفني وفي السلطة السياسية والسلطة التقنية" 95.

ويعتقد سعيد أساسا بالعلاقة التي لا تنفصم بين الفن ومجريات الأحداث في العالم وفي كون الفن عنصرا مكملا للواقع لا مجرد نسخة منه. ومن خلال تحليله لعدد من الروايات، يبين سعيد أن الروائيين الغربيين اشتركوا في موقف موحد، كان من شأنه أن يعزز واقع الإمبراطورية التي ساندت هذا الموقف بدورها.

يفحص سعيد جانبا مهما من تصوير المواطن الأصلي تحت سيطرة الغرب، في دولة أنتيجا بالكاريبي في رواية جين أوستن مانسفيلد بارك، والهند في رواية كيبلينغ كيم ، وفي أفريقيا في رواية جوزيف كونراد قلب الظلام. هذا الجانب هو الوجود المشوب بغياب أي دليل في هذه الروايات عن الصراع الذي يعاني منه المؤلف حول قضية الحكم الإمبريالي في أي من الراضي المستعمرة. وهو الدليل الذي كان يجب أن نراه في أي من تلك الأعمال. يكشف سعيد غياب أي صراع في تلك الروايات الثلاث، فكونراد مثلا كان يشعر بشئ من الإحباط نتيجة للشروع التي تسببت فيها الإمبراطورية، غير أنه توصل للخلاص من خلال "ممارسات تبرر ذاتها على مر الزمن لفكرة أو رسالة ما، ومن خلال بنية تحيط بإحكام بموظفي الإمبراطورية وهي بنية يبجلونها أيضا، وعلى الرغم من أنهم هم من أقاموا تلك البنية في المقام الأول ... فإنهم يتعاملون معها على أنها من المسلمات"، أما كيبلينغ فهو لا يعبر عن أي صراع داخلي فيما يتعلق بوجود بريطانيا في الهند لأن الأمر بالنسبة له يتلخص في قوله " لقد كان أفضل قدر للهند أن حكمتها انجلترا" 96.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

وهكذا نجد القضية محسومة على الصعيد الأخلاقي. وبالنسبة لجين أوستن فإن تصويرها للسيد برترام على أنه شخصية مالك للأراضي جدير بالاحترام، بالإضافة إلى الجدية التي يدير بها مشاريعه وأملاكه، يعد قبولا ضمنيا بوجوده من خلال المزرعة التي يملكها في أنتيجا Antigua. ومن بين النقاط التي أثارها سعيد أن في أي من الروايات الثلاث عندما يظهر المواطن، أو تصور المستعمرات بشكل مفصل، نجد الكاتب يتعامل مع هذا الظهور من الناحية الأخلاقية، فالكاتب يصور مكانا متعلقا بالسياسة وله أبعاد إيديولوجية. وهو مكان تتصارع فيه العديد من المصالح و الأفكار، بحيث يخرج هذا التصوير من حيز النقل الفوتوغرافي للتمثيل في رواية أدبية" 97 ، بالإضافة إلى ذلك هناك خلو الواقع السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي من أي شكل من أشكال الردع ذات الثقل للنظرة الإمبريالية التي تعامل أي منهم بها مع العالم من حوله" . الفنانون كانت رؤاهم معززة لا فاصم لها . كانت تلك بعض المساوي التي طرحها سعيد عند قراءته لتلك الروايات الثلاثة 98 . يرى أن هذا الأسلوب في القراءة لا يحيط من قيمة تلك النصوص، بل بالعكس تهدف القراءة الطباقية بكافة العناصر التي تضعها في عين الاعتبار، إلى التعبير عن ثراء التجربة الإنسانية، حيث إن الغرض منها "التأكيد وإلقاء الضوء على مواضع الانفصال، لا تجاهلها أو التقليل من أهميتها" 99.

وافق النقد الطباقى مع أهداف سعيد نتيجة لمرونة هذا النوع من القراءة، فزيادة على تغطيته للجوانب التقنية في تحليل النصوص مثل الكناية والاستعارة والتورية وغيرها، بإمكانه أيضا أن يستوعب التعليق على الجوانب التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

ويتضح لنا من كتابات سعيد بأنه يذكر لنا بأنه عند صياغة لفكرة القراءة الطباقية كان مدفوعاً بإنتاج نوع من التحليل يشابه الفن في حد ذاته : "لذا أردت محاولة تنظيمه بطريقة تسير على نمط فن من الفنون لا على شكل أكاديمي" 100. وربما ينشأ هذا الشعور بالغموض حيال اندراج أعمال سعيد في داخل إطار من النقد منتظم الحدود من رغبته الملحة في وصفه "بالمثقف المعادي للانتماء إلى فكر مهيمن"، فهو طيلة حياته كان على وعي بسلبيات فكرة التبعية. كما نجده في كتاباته يستنكر بشدة الانتساب إلى أي مثقف، ويتبع ذلك رفضه انتساب مثقفين له، حيث يقول: "لا أعتقد أن نوعية الأعمال التي أكتبها تنشأ عن صيغ ومفاهيم يمكن توريثها، بل إنها تنبثق عن التجارب الشخصية" 101 .

وهكذا يبدو لنا أن خوض التجارب بصفة ذاتية، حتى في أكثر المجالات تنظيمياً مثل مجال النقد، هو سر ممارسات سعيد في التخصص. ونجد اشتقاق هذه الصفة الموسيقية وربطها بالنقد سببه يعود إلى اهتمام سعيد بتعميق الفكر النقدي بحيث يتعدى مجرد المعارضة بين قطبين من الأفكار، بل يهدف إلى توفير المثقف لفكر بديل عما قدمه أصحاب الأعمال الأدبية الكبرى، الذين تكمن نقطة ضعفهم في العمى حول ما كان يحيط بهم لكونهم كانوا يعيشون في عالم محوره أوروبا خاصة والغرب عامة.

ومفهوم الفكر البديل عند سعيد من المبادئ المميزة للنقد الطباقية حيث يضع على عاتق الناقد والمثقف مسؤولية تحديد موارد بديلة وقراءات بديلة وأنماط بديلة لعرض الأفكار، المهم بالنسبة لسعيد هو التوصل إلى أداء بناء مبدع وخلاق من ناحية، ومعارض للأنماط السائدة من ناحية ثانية، يسعى لزيادة صوت جديد إلى الساحة السياسية والثقافية، وإلى إضفاء صبغة التركيب على ما كان ينظر إليه من أعمال نظرة

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

كلية بتقديم عمل مواز، ولكن متمايز عن العمل السابق ، يبين ما كان خفيا ومسكوتا عنه 102.

وتأخذنا هذه القراءة البديلة الناتجة عن القراءة الطباقية إلى تعزيز مفهوم التعاطف. إن مفهوم التعاطف ... هو المنطلق البلاغي المؤثر لدى سعيد ... أي نظر المرء إلى موقعه بوصفه موقفا معبرا عن نظام من المعتقدات (أو موقفا سياسيا) لا انتماء انتسابيا" 103 . وحيث أن مشاعر الصراعات والانقسامات هي السائدة في المجتمعات الحديثة، يرى سعيد نفسه مفكرا إنسانيا بمعنى أنه يتحمل مسؤولية سد الفجوات والقضاء على الاختلافات ويتولى محاولة تحقيق هذه الأمور على الصعيد الثقافي من خلال عمله. لهذا فإنه في حديثه عن المثقفين في المنفى يضفي على تجاربهم بعدا إضافيا ألا وهو جودة الرؤية التي تنشأ عن وعيهم وفهمهم لأكثر من ثقافة واحدة أو وطن واحد. وفي هذه الحال، فإن رؤيتهم هذه " تؤدي إلى وعي بأبعاد متزامنة، أي وعي طباقي " 104 .

وبهذا يرى سعيد بأن التجارب الجديدة والقديمة وما تقدمه الثقافة الأم والثقافات التي تستضيف المثقف والذكريات والواقع، يمكن وضعها قبالة بعضها البعض بأسلوب "يحد من الحكم الصارم ويعلي من شأن التعاطف الذي يعطي القضايا قدرها" 105 . بالنسبة لسعيد يتعين الحكم على أي وضع يشترك فيه طرفان برؤية مزدوجة، غير أنه لا يقصد مجرد القول بسطحية أن لكل قضية وجهين 106، بل يقصد بالازدواجية التحرك في إطار المعرفة في مواجهة الجهل. وهنا يكمن خوف سعيد من تعزيز الجهل عن طريق عمل المثقف غير المستنير، الذي لا يعني بالعد الإنساني للقضايا، ولا يهتم بروح التفاهم والتعاطف.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

مما تقدم يعتبر هدف سعيد الأساسي من القراءة الطباقية استغلال القراءة في كسر الحواجز التي بنتها المدارس النقدية والاختلافات الجغرافية. فيقول "لقد كنت أقترح خطوطا طباقية للتحليل العالمي، حيث تتم قراءة ديكنز وثاكاراي، الكاتبين المنتسبين إلى الحاضرة لندن، بوصفهما كاتبين تأثرت تجربتهما التاريخية بالمشاريع الاستعمارية ... التي كانا على دراية شديدة بها" يدرك سعيد أنه بتولي البحث في التجارب الحياتية، مع الحفاظ على مشاركة كافة الدول والأطراف المعنية، قد يكون هناك خطر على الثقافات الأقل قوة، حيث يؤدي عدم توازن القوى إلى التقليل من أهمية الاختلافات على حساب تسلط ثقافة على أخرى، لذا يتعين على الناقد والمثقف توخي الحذر والأخذ بعين الاعتبار "الطوبوغرافيا المركبة وغير المتعادلة" 107.

هذا بالإضافة ، إلى أنه بالقدر الذي يدعم فيه سعيد الفكرة القائلة بأن جهود المثقفين لا بد ألا تنفصل عن عالم السياسة و لا عن المجتمع، وبالقدر الذي يدرك أن أي عمل لا يمكن أن يخلو من حكم على الأمور، فإنه يعارض استغلال موقع المثقف . الذي يشغل منصبا أكاديميا أو ذلك من المثقفين . كمنصة للدفاع. فالهدف المرجو من المثقف هو تسليط الضوء على الأمور المشتركة، ودعم التفاهم مع التأكيد من وصول التجربة الحياتية إلى عدد أكبر من الناس، حيث إن وضع قيود على التجارب الحياتية، من خلال النظريات الاستثنائية، من شأنه أ، "ينشئ دفاعات عن هذه التجربة، ولا أن يدعم المعرفة بها. وبالتالي سوف تخط (تلك القيود) من شأن تجارب الآخرين" 108.

إن مهمة المثقف هي عكس ما سبق ذكره، وأن أفضل مدخل للتعامل مع أي من التجارب هو المدخل الطباقية الذي يتبناه سعيد، فيقول: "نحن المثقفين لا بد وأن تكون

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

لدينا القدرة على التفكير في التجارب المتباينة ولكن كل بأولوياتها الخاصة بها وسرعة تطورها وتكويناتها وترابطها الداخلي ونسق علاقاتها الخارجية" 109. وبالإضافة إلى منح كافة وجهات النظر حقها من الأهمية، فإن القد الطباقية يعني "أيضا الامتناع عن حكم الآخرين والامتناع عن تصنيفهم أو وضعهم في مراتب، وقبل كل شيء الامتناع عن ترديد القول بأن ثقافتنا أو بلدنا نحن تأتي في المرتبة الأولى ... فملتقف لديه ما يكفي من القيمة دون الحاجة إلى اللجوء إلى هذه الممارسات" 110، لقد أثار مفهوم سعيد للقراءة الطباقية جدلا حادا، فالبعض من النقاد اعتقد أن أهميتها تكمن في تطبيقها على النصوص التي يجتمع فيها كل من المستعمر والمستعمر، فهو أسلوب مفيد لأنه "يظهر ما يستتبعه الاستعمار من نتائج، ربما تبقى خفية في قراءات أخرى" 111.

وهكذا تبدو أهمية هذه القراءة في مرونتها التطبيقية على النصوص الغربية التي تظهر الإمبريالية فيها، حيث يمكن من خلالها دراسة العلاقة بين هذه النصوص والعالم والتاريخ الذي أنتجت وتعيش فيه. "وهكذا بالتأكيد على انتساب النص - لا على نسبه وأصله وواقعه الثقافي والاجتماعي - إلى الأدب الإنجليزي ومعايير الأدب المعتمد، يتمكن الناقد من الكشف عن الآثار الثقافية والاجتماعية التي قد تبدو وكأن النص ذاته يشير إليها مجرد إشارات عابرة" 112.

إن اعتراف النقاد بالدور الذي تلعبه القراءة الطباقية هو عبارة على تصديق ضمني لنظرية سعيد النقدية، فهي نوع من تطبيقي من النقد غير المعني بأمور الدين، من حيث إن هذه القراءة تربط النص بأمور العالم بدلا من التوقف عند تأسيس علاقة أبوية بين النص وأسلافه.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

غير أن هذه القراءة أثارت مخاوف البعض الآخر من النقاد حيث إنها يمكن أن تكون وسيلة للحط من شأن الأدب الغربي. فمن وجهة نظر ايرفنج هاو مثلاً، لا تكمن إشكالية هذا النمط من القراءة في تعلقه بوجهة النظر الشخصية للنقاد، بل في صعوبة التوصل إلى حل وسط بين "الحكم الأخلاقي" على النص (وهو الحق الذي يمنحه ايرفنج هاو للنقاد) والتقييم النقدي "للعمل الخاضع للتحليل" 113.

فبالرغم من أن القراءة الطباقية تساعد القارئ على توضيح نمط الهيمنة الإمبريالية، نتيجة للنقد الذي يقدمه الناقد، فإن سعيد لا يرد على السؤال: "كيف يؤثر تقبل الإمبريالية على رد فعلنا تجاه الرواية؟" 114، لم يقدم سعيد إجابة صريحة لذلك الاستفهام ولكنه ينكر استهداف هذا النوع من القراءة التقليل من قيمة الثقافة الغربية، وخاصة إنتاجها الأدبي. وقارئ سعيد يصدق أنه هو بذاته نتاج لتلك الثقافة الغربية، فقد درس في جامعاتها، ودرس فيها آدابها، وإن كان قد وجه لها النقد، فذلك من منطلق القارئ الواعي بحقائق أمور تلك الثقافة وآدابها، لا من منطلق النقد من أجل التحقير والحط من قيمتها.

لقد رفض سعيد الأسس المطلقة التي كانت النظريات النقدية الشكلائية تتعامل بها مع النصوص، الأمر الذي أدى إلى إيجاد هذه القراءة الطباقية، حيث تجمع في طياتها العوامل الشكلية والاجتماعية والسياسية وغيرها. وضع سعيد فنيات هذه القراءة في أطر واضحة المعالم، يمكن تتبعها عند قراءة نصوص أخرى لم يخضعها للتحليل والتطبيق على غرار ما فعل في روايات مانسفيلد بارك وقلب الظلام وأوبرا عايدة وكيم والغريب ... التي تعرض لها بالدراسة والتحليل في كتابه الثقافة والإمبريالية. لا يمنعنا أي شئ من تتبع خطى

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

هذه القراءة الطباقية كما وردت في تطبيقات سعيد، لأننا في النهاية نجد أنفسنا أمام أسلوب نقدي يحلل عالم النص تحليلاً ثاقباً.

بالنسبة لسعيد ينبغي تعزيز الترابط والتركيز على الجوانب المشتركة. بين الموقف الذي يرى أن العديد من الأساليب النقدية المختلفة تفتقده في تفسيرها للأعمال الثقافية. ويرتكز سعيد في تفكيره على المجتمع والثقافة من جهة والسياسة والتدخل العسكري من جهة ثانية، وهو يعتبر أنهما لا ينفصلان. فعلى هذا الأساس تنشأ أهمية انعكاس هذه العلاقة على تحليل الأعمال الفنية ومن هنا يأتي دور القراءة الطباقية، التي تعمل بوصفها وسيلة تمكن الفرد من فهم التجربة الحقيقية وتمثيلها في العمل الفني، وبذلك "تعتبر القراءة الطباقية عن كليهما خطاباً امبريالياً والأدب المقارن معاً باعتبارهما زوجاً لا ينفصل، وبينهما علاقة لا هي افتراضية ولا آلية بل أقوى من ذلك" 115.

ولا يقلل سعيد من أهمية الأدب في عالم اليوم، لاحتوائه على القيم الجمالية والتاريخية والاجتماعية لهذا يجب على الناقد أن يأخذ كل ذلك في الحسبان عند دراسته للنصوص، فهو يطرح مفهومين جديدين: النسب filiation والانتساب Affiliation حيث يقول: "النسب هو كل ما يصف مكونات النص التقنية والجمالية أما الانتساب فهو ما يمنح النص مجال حركته، أي مجموعة الظروف المحيطة به، ومكانة المؤلف واللحظة التاريخية التي يتم فيها استعادة أو تناول النص" 116، ويضيف سعيد في نفس المقام، بأن التحول من البنوة إلى التبني From filiation to affiliation يوجد في أي مكان في الثقافة ويجسد الشيء الذي يسميه جورج سيميل بالسيرورة الثقافية العصرية التي بواسطتها - (تستولد الحياة أنماطاً لها على الدوام) - أنماطاً ما أن تبرز إلى الوجود حتى (تطالب

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

بشرعية تسمو على اللحظة، الأحيان وشرعية عتيقة من نبض الحياة، وهذا السبب هو ما يجعل الحياة دائما على تعارض كامن مع النمط" 117.

إن التحول من النسب إلى الانتساب هو ما جعل سعيد يصرح بمعارضة مناهج التحليل البنيوي وما بعد البنيوي التي توغل في الشكلائية وتخفي الحدث وتستبعده عن القارئ، لأن الحدث يتضمن إيديولوجيات، ويبرر سعيد اختياره للنقد الثقافي المقارن منهجا له، فهو ينتقد النظرات النقدية الشكلائية "إن أكثر ما يثر الموضوعة الرائجة من النظرية الشكلائية والتفكيكية هو لحاجتها في التركيز على المسائل اللغوية والنصية" 118.

يلجأ سعيد انطلاقا من هذا الواقع النقدي ليصنف الممارسة النقدية في أربعة أوجه رئيسية هي: "أولا النقد العملي الموجود في مراجعة الكتب وفي الصحافة الأدبية، ثانيا التاريخ الأدبي الأكاديمي، الذي يدرس الأدب الكلاسيكي والفيلولوجي أو تاريخ الحضارة، ثالثا التقويم و التأويل من زاوية أدبية، رغم أن هذا العمل أساسا هو عمل أكاديمي، فإنه على نقيض سلفيه، فالتقويم هو الشئ الذي يعلمه ويمارسه أساتذة الأدب في الجامعة والمستفيدين منه هم الملايين من الناس، ورابعا النظرية الأدبية وهي مضمار جديد نسبيا، فهي بمثابة ميدان للباحث الأكاديمي في الولايات المتحدة الأمريكية، إن والتر بنيامين وجورج لوكاش قاما بعملهما النظري في مطلع القرن العشرين، غير أن النظرية الأدبية لم تبلغ بعد مرحلة النضج إلا في السبعينيات من نفس القرن بالرغم من وجود دراسات ريادية أنجزت قبل الحرب العالمية الثانية بزمان طويل، بسبب الاهتمام بالنماذج الأوروبية، مثل البنيوية وعلم الدلالات والتفكيكية" 119.

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

إن تعليم سعيد المتخصص في الدب الإنجليزي المقارن هو الذي منحه نظرة شاملة للنصوص التي يقرأها والنقد الذي يمارسه، وأول فكرة كانت نقطة الانطلاق في عمله النقدي هي رفضه التسليم بفكرة الفن للفن، أي ألف من أجل الفن، وهو ما جعله يتصدى للنظرة التي تفصل الأدب عن الحياة المعيشة، بغية إمتاع القارئ أولاً ثم أخيراً، أو لكون الأدب هو منتج ثقافي يهدف إلى ترفيه القارئ، ومن ثمة جاء تأكيد سعيد على ربط الأدب بما يجري من حوادث في العالم، "ليس أمام الناقد سوى أن يكون علماني" 120، بالنسبة لسعيد تتطلب القضايا غير العادية التي تنبثق عن المشكلات التي تسببها العصبية القومية والتشبيث بالهوية أن تتناولها " رؤية علمانية إنسانية لا تعتمد في أساسها على أن التاريخ الإنساني نتاج للتدخل الإلهي " 121. وهكذا فإن جهود سعيد في عمله النقدي تتصف بمحاولات دعوية على مستوى المفاهيم التطبيق معاً، لتعزيز فكرة الإنتاج الثقافي والنقدي باعتبار أن هذا الأخير هو امتداد للإنتاج الأول أي الثقافي ، وهما بهذا لا ينفصلان عن بعضهما البعض من جهة، ولا ينفصلان عن العالم الذي نعيش فيه. ولفهم أفكار سعيد عن طبيعة عمله النقدي والتي تتسم بالإشكالية نوعاً ما، يجب علينا فهم القوة المحركة لتلك الأفكار، لهذا نجه قد قرر منذ بداية عمله النقدي بأن "نظريات النقد الأمريكي وحتى الأوروبي في الثمانينيات من القرن العشرين تقبل صراحة مبدأ عدم التدخل" 122.

إن موقف سعيد النقدي الذي يعتبر مساهمة في تعدي الأشكال النقدية الرئيسية الأربعة الأنفة الذكر، "إذ ينتقد التخصص والثقافة الرسمية والاحترافية النقدية، قصد إخراج النص من تيه النصية Textualité، والدخول به في الدنيوية، أو السياقات المادية للنص

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

والناقد لأن النقد الديني Secular Criticism (العلماني)، يسمح بفحص العالم الديني لا الروحاني الذي تتحدث فيه النصوص، يتجه من ناحية أخرى إلى المشكلات الخاصة التي تعتبر النظرية النقدية مما يحدث حين تحاول الثقافة أن تفهم ثقافة أن تهيمن عليها، أو أن تقتنصها في حالة كونها أضعف منها" 123.

إن النقد عند سعيد "يجب أن يرى نفسه مشجعاً للحياة ومعارضاً، بحكم تكوينه، لأي شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والظلم" 124، إن المشكلة في النقد المعاصر كما يراها سعيد تكمن في الوظيفة المتطرفة التي تهتم بالخصائص الشكلية للنص ولذلك نجد سعيد يدعو إلى تقويم الأدب على أنه: "عمل فردي لكاتب فرد متشابك في ظروف يسلم بها الجميع مثل الإقامة والجنسية والمحلة والمألوفة واللغة والأصدقاء إلى آخره وهكذا يربط بين هذه الظروف وبين العمل كيف يفصل بينهما وكذلك كيف ويجمعهما كيف يقرأ العمل وشروطه الدنيوية" 125.

ويقترح سعيد نوع من العلاقة بين المثقف ودنيويته، فلا بد له أن يكون أكثر ارتباطاً بالواقع وما يجري فيه من تحولات جوهرية، ولذا أقلقت سعيد وظيفة الناقد والمثقف منذ صدور كتابه العالم والنص والناقد 1983، وتمثيلات المثقف سنة 1994. وهذا ما جعل بيل أشكروفت يرى أن قدرة المثقف في أن يقول أي شيء ينتمي إلى مجتمعه لا يمكن أن تغنيه عن مفهوم الدنيوية فبدونها لن يكون المثقف عالماً يتكلم منه وإليه، إن مفارقة موقع سعيد في ذاك العالم هو مصدر المفارقة الذي يميز مسيرته، ولكن ليس ثمة تساؤل حول العالم، وارتباطه بالنص والناقد، وهو شيء حاسم في إدراكه قيمة عمل المثقف، إن رؤية سعيد

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

لدور الناقد هي هجوم جذري على التخصص والبرج العاجي الزاحف الذي راح يميز النقد الأكاديمي، والذي يزيله مرة بعد مرة من الوقائع السياسية للمجتمع المعاصر 126 .

وقد انطوت آراء سعيد في الدنيوية على إعلان للانشغال بالنص واحترام عناصره التاريخية، لأنه أدرك في العقد السابع من القرن العشرين، بأن النصية هي التي هيمنت على النظرية الأدبية، وتم عزل التاريخ الذي ظل خارج النصوص، حيث كان الارتقاء بالعناصر الفنية الداخلية للنص مع تمجيد للبنى، مما أدى إلى بروز التاريخانية والاهتمام بالتاريخ باعتباره نصاً أدبياً، وأشار سعيد إلى ذلك بلغة تنطوي على موقف فيه انحياز واضح لدنيوية الناقد والنص "وكما يحدث للأكاديمية الأمريكية اليوم، إذ تقوم النظرية الأدبية بعزل النصية بكل أجزائها عن الظروف والأحداث وكل ما هو ملموس يجعلها ممكنة وواضحة على أساس أنها جهد إنساني" 127 .

اهتم استشراق سعيد بانشغالات كبرى في العالم فهو يعتني بالأساليب الفكرية التي جاء بها الأوروبيون لمعرفة الشرق عبر قرون عديدة، وصلت إلى ذروتها خلال التماسك الإمبريالي في القرن التاسع عشر. وكان اهتمام سعيد بمعرفة أوروبا يوضح لنا على نحو مثير الترابط بين المعرفة والسلطة لأنها تبني وتهيمن على الشرقيين من خلال التعرف عليهم" 128، كما نجد سعيد يميز في استشراقه بين الانطولوجي (الوجودي)، والمعرفي (الابستمولوجي)، بين الشرق والغرب، وهو أسلوب اعتمدته الدراسات الأكاديمية الغربية في إعادة تشكيل الشرق وصياغته في عملية الإنشاء الخطابي وفي إطار علاقة القوة والعلبة في مرحلة ما بعد التنوير" 129 .

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

وقد ركز سعيد في النقد على "أشكال ثقافية كالرواية التي احتلت مكانة معتبرة في الممارسات الإمبريالية وعليه فالنقد الثقافي الذي يدعو إليه هو الذي يضع المثقف الناقد في العالم وبذلك فهو يرى بان عملية النقد تتمثل في العوامل والأساسية أولا العالم ثانيا النص وثالثا الناقد" 130 .

وتضمن كتاب بيل أشكروفت واهليلويا "إدوارد سعيد مفارقة الهوية" الذي ترجمه الشاعر سهيل نجم إلى اللغة العربية وراجعته الدكتور حيدر سعيد، مسائل الدنيوية والنص والدنيوية والناقد والاستشراق، والثقافة بوصفها امبريالية وفلسطين الفقدان.

وفيما يخص مسألة الدنيوية والنص تظهر انشغالات سعيد الثقافية بعد نشره لكتابه الشهير الاستشراق عام 1978، إذ نجده يهتم بالمثقف والمجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية فقد وضع المثقف في مكانة متعالية واحتل مركزا حيويا لدوره الثقافي والنقدي، في ذات الوقت يقدم كتابه الذي نشر سنة 1983 العالم والنص والناقد، آلية لقراءة مؤلفاته المتنوعة في النظرية الأدبية والنقد والسياسة وحتى الموسيقى والتاريخ.

ويرى سعيد بأنه عندما يتم الابتعاد عن أسباب الإبداع في الأدب، يصبح النص منفصلا عن جذوره في الحياة وعن صاحبه في التأليف، وبهذا الانفصال يصبح النص منعزلا، وكأنه مستقل عما كينونته وشكله. وبذلك يتخذ هالة من التمجيد، ليصبح بدوره مكونا لطقوس ثقافية تتداولها جماعة أو نخبة، فلا يبقى للنص دور يلعبه في تغيير الواقع، ويكتسب النص قيمة رمزية معينة وتوطيد شبكة علاقاتها، أي أن النص يصبح مغلقا على ذاته، لا منفتحا على العالم، وهذا ما يفصله سعيد في النقد الدنيوي 131 .

المبحث 2: القراءة الطباقية للنصوص عند إدوارد سعيد

لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل منجزات سعيد في تأسيس نظرية الخطاب الكولونيالي الذي يعتبر شكل للتعبير النظري، ومع أن سعيد يشار له باعتباره مؤسساً لتيار دراسات ما بعد الكولونيالية في النقد الأدبي، فإنه كان يرفض أن يسمى ناقداً من نقاد ما بعد الكولونيالية، كما جاء على لسانه في مناقشة رسالة جامعية في طنطا بمصر بتاريخ 1998/11/18. وقد جعل بيل أشكروفت من الخطاب الكولونيالي مرادفاً لما بعد الكولونيالية. ولا يمكننا أيضاً أن نتجاهل العلاقة الفكرية الثنائية بين انشغال سعيد بنظام الخطاب وهيمنة سلطة القوة لفوكو، مع العلم أن فكرة هذا الأخير عن الخطاب هي مساحة من المعرفة الاجتماعية، محددة دون الإشارة إلى الكلام بمعناها التقليدي، فالعالم بالنسبة له ليس موجوداً، لكي نتحدث عنه، بل إنه خطاب يمكن للعالم أن يوجد بواسطته 132. وفي مثل هذا الخطاب يتواصل المتكلمون والمستمعون، الكتاب والقراء إلى فهم أنفسهم وعلاقتهم ببعضهم البعض وموقعهم في نظام التمثيلات في كتاب الاستشراق خاصة، إذ يرى سعيد في هذا الأخير، بأن تمثيلات الغرب عن الشرق هي سيئة.

- 1-Webster's Encyclopedia Unabridged Dictionary of the English Language ,NY :Gramercy Books,1989.
- 2 - Duncombe, S.Cultural Resistance : A Reader , NY : Verso, 2002 .
- 3 - Mills C.W. Power, Politic And People : The Collected Essays. ED. Irving Louis Horowitz. NY : Ballantine, 1963. P 299.
- 4- E.W.Said, Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994, P91.
- 5- E. W.Said, The World, The Text, And The Critic (Cambridge, Mass : Harvard UP, 1983), P 173.
- 6- نبال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 136.
- 7 - E.W.Said, Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994, P 11.
- 8 - Ibid, P 12.
- 9 - Ibid, P 73.
- 10 - نبال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 137.
- 11- المرجع نفسه، نفس الصفحة
- 12 -E.W.Said, The World, The Text, And The Critic (Cambridge, Mass : Harvard UP, 1983), P 28.
- 13 - E.W.Said, Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994, P 23.
- 14 - E.W.Said , The World, The Text, And The Critic (Cambridge, Mass : Harvard UP, 1983), P 182.
- 15- E. W.Said, The Problem Of Textuality : Two Exemplary Positions. Critical Inquiry 4 (1978) : P 185
- 16- نبال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 138.
- 17- Finny, T. M. History Of Music NY : Harcourt Brace & Co, 1995 .
- 18- Robbins L., Edward Said's Culture and Imperialism : A Symposium, Social Text 12. 3 1994, P 21
- 19- نبال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 138.
- 20- E. W.Said The Problem Of Textuality : Two Exemplary Positions Critical Inquiry 4 (1978) : P.173.
- 21- نبال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 138.
- 22 - E.W.Said, Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994, P 113
- 23 - E.W. Said, « Mind Of Winter : Reflections On A Life In Exile » Harper's Magazine, 269 (1984),P.55.
- 24 - E.W.Said, Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994, P 88.
- 25- نبال محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 139.
- 26- المرجع نفسه، نفس الصفحة
- 27- المرجع نفسه، نفس الصفحة
- 28- المرجع نفسه، نفس الصفحة
- 29- المرجع نفسه، نفس الصفحة
- 30 - E.W.Said , Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994, P 121.
- 31 - E.W. Said, The World, The Text, And The Critic (Cambridge, Mass : Harvard UP, 1983), P 35.
- 32 - Ibid, P .33
- 33 - Ibid, P 39
- 34 - Ibid, P 174.
- 35- Ibid, P 175

- 36 – E.W.Said, Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P 60.
- 37– E.W.Said, Representations Of The Intellectual. NY : Vintage Books, 1994 P 89.
- 38– E.W.Said, Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, PP 59–60.
- 39 – Vis Wanathan, Power Politic And Culture , N.Y Pantheon Books, 2001, p 186.
- 40 – نihal محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 141.
- 41- E.W.Said, Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P 71.
42. – نihal محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 141 _ 142.
- 43 – المرجع نفسه، ص 142.
- 44 – E.W. Said, Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P 104.
- 45 – Ibid, P 69.
- 46 – Ibid, P 75.
- 47 – Ibid, P 112
- 48 – Ibid,P 313.
- 49 – Ibid, P 135
- 50 – Ibid, P 137
- 51 – Ibid, P 151
- 52 – Ibid, P 151
- 53 – Ibid, P 151.
- 54 – Ibid, P 156
- 55 – Ibid, P 162
- 56 – المرجع نفسه، ص 212.
- 57 – المرجع نفسه، ص 212.
- 58 – المرجع نفسه، ص 212.
- 59 - E.W.Said, Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P 252 .
- 60 – المرجع نفسه، ص 252..
- 61- المرجع نفسه، ص 259 – 260.
- 62 – المرجع نفسه، ص 260 .
- 63– E.W.Said, Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P 261
- 64 – المرجع نفسه، ص 276.
- 65 – نihal محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 145.
- 66 – E.W.Said, Orientalism. NY : Vintage,1978, P 45.
- 67 – نihal محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 145.
68. – المرجع نفسه، ص 145.
- 69 – Frantz Fanon, Black Skin, White Maskes, London : Pluto Press, 1986, P 231.
- 70 – E.W.Said Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P .293.
- 71 – Ashcroft B.,The Empire Writes Back : Theory and Practice in Post – Colonial Literatures , London; Routledge , 1989.
- 72 – E.W.Said Culture And Imperialism, London : Chatto And Windus, 1993, P.295

73 - Ibid, P 312

74- نihal محمد النجار، المقاومة الثقافية والسلطة : إدوارد سعيد وميخائيل باختين، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، القاهرة، ص 146.

75- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط3 2004، دار الآداب بيروت، ص 66.

76 - إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة محفوظ عبد الكريم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 127.

77 - المرجع نفسه، ص 127.

78- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار النشر للدراسات العربية، ط 1، 1981، بيروت، ص 1 - 13.

79- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية ترجمة كمال أبو ديب، ط2 1998، دار الآداب بيروت، ص 66.

80 - المرجع نفسه، ص 85.

81 - إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ج1، ترجمة نائل ديب، ط 1 2004، دار الآداب بيروت، ص 24 . 25.

82 - بيل أشكروفت، وبال أهليواليا، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، ط1 2000 / 2002، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ص 30 . 31.

83 - إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة محفوظ عبد الكريم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 8.

84 - بيل أشكروفت، وبال أهليواليا، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، ط1 2000 / 2002، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ص 130.

85 - المرجع نفسه، ص 129.

86- Edward Said, Culture and Imperialism, N.Y : Vintage Books, 1994, P 318.

87. Edward Said, Criticism, Culture and Performance : An Interview , « Performing Arts Journal 13.1 january 1991, P 26.

88 - Edward Said, Intellectual Exile ; Expatriates and marginals, Grand Street 12.3 Fall 1993, P 121.

89 - Edward Said , Beginnings; Intention and Method , N.Y. Colombia U.P. 1985; P 4.

90 - Ibid, P 122.

91- Edward Said, Culture and Imperialism, N.Y : Vintage Books, 1994, P 78.

92 - Ibid, P.18

93- Ibid, PP 66 – 67.

94- Ibid, P 51.

95- Ibid, PP 18 –19.

96- Ibid, PP 111 – 112.

97- Ibid, P 146.

98- Ibid, P 67.

99- Ibid, P 146.

100 - Ibid, P 147.

101 - Edward Said, « An Interview » Boundary 2 20.1 (Spring 1993) : p 3.

102- Ibid, p 4.

103 - Paul Bové, Edward Said and the work of the critic : Speaking truth power, London U.P 2000, PP 69 -70.

104 - Michael Sprinker , Edward said , A CRITICAL READER (oxford, U.k. and Cambridge, USA : Blackwell, 1992), P 46.

105 - Edward Said, « Reflections on a life in exile », HAPER'S MAGAZINE 269. 1612 (September 1984), P 55.

106 - Edward Said, « Reflections on a life in exile », HAPER'S MAGAZINE 269. 1612 (SEPTEMBER 1984), P 55.

- 107 - Edward Said, « Intellectuals in the post-colonial world », Salmagundi 70 - 71 (Spring - Summer 1986) : 55.
- 108- Edward Said, Culture and Imperialism, N.Y : Vintage Books, 1994, P 318.
- 109 - Edward Said, « Intellectuals in the post-colonial world », Salmagundi 70 - 71 (Spring - Summer 1986) : 56.
- 110 - Edward Said, « Intellectuals in the post-colonial world », Salmagundi 70 - 71 (Spring - Summer 1986) : 57.
- 111 -Bill Ashcroft, and Helen Tiffin, Concepts in Post - Colonial Studies (London, NY : Routledge, 1998),PP 55 -56.
- 112 - Edward Said, Culture and Imperialism, N.Y : Vintage Books, 1994, P 336 .
- 113 - Bill Ashcroft, and Helen Tiffin, Concepts in Post - Colonial Studies (London, NY : Routledge, 1998),P 56.
- 114- Irving Howe, History and Literature, (a review of Said's Culture and Imperialism), Dissent 40 (Fall 1993) :P 358.
- 115- Irving Howe, History and Literature, (a review of Said's Culture and Imperialism), Dissent 40 (Fall 1993) :P.559
- 116 - Edward Said, Culture and Imperialism, N.Y : Vintage Books, 1994, P 50.
- 117 - أمينة رشيد، إدوارد سعيد، مجلة فصول ، العدد 64، صيف 2004، ص 103.
- 118 - إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة محفوض عبد الكريم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 17.
- 119 - إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ج1، ترجمة ثائر ديب، ط 2004، 1، دار الآداب بيروت، ص 28.
- 120 - إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة محفوض عبد الكريم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 5.
- 121 - المقصود بالعلماني هنا هو كون الناقد يهتم بما يحدث في الواقع والعالم من حوله وبالتاريخ الذي يصنعه البشر، وليس القصد بالمصطلح المعنى المضاد لـ "الديني".
- 122- E. Said, A critical Reader (oxford, UK Cambridge, USA Blackwell, 1992), P 232.
- 123- E.Said, The World,the text,and the critic, Cambridge, Harvard UP, 1983, P 3.
- 124 - إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة محفوض عبد الكريم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 32.
- 125 - المرجع نفسه، ص 35.
- 126 - إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ج1، ترجمة ثائر ديب، ط 2004، 1، دار الآداب بيروت، ص 20.
- 127 - بيل أشكروفت، وبال أهليواليا، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، ط 2000/2002، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ص 43.
- 128 - المرجع نفسه، ص 45.
- 129 - المرجع نفسه، ص 69.
- 130 - حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط 1، 2007، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 81.
- 131 - ابن خليفة مشري، " إدوارد سعيد والنقد الثقافي المرجعية والخطاب "، مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية، العدد 09، جانفي 2009.
- 132 - Edward Said, The world, the text, and the critic, Cambridge : Harvard UP, 1983,PP 1- 29.

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

إنه لمن الصعوبة الكبيرة جدا أن نقوم بتقديم تحليل كامل ومتكامل لرؤية إدوارد سعيد تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي، بصفة عامة، والقضية الفلسطينية، بصفة خاصة، لأن العوامل التي ساهمت في تكوين هذه الرؤية، وفي تحديد الدور الذي حدده سعيد لنفسه، أو ألقى به الأقدار في طريقه، هي من التركيب والتعقيد إلى الدرجة التي تستدعي نظرة فاحصة ومعمقة، ليس فقط على كتابات سعيد الخاصة بهذا الصراع، بل على إنتاجه بصفة عامة، وإنما أيضا على حياته الشخصية وسيرته الذاتية.

وما هو معروف لدينا، هو أن لإدوارد سعيد كتابات ثرية ومتنوعة وكثيرة، تناولت جوانب عديدة من الصراع العربي - الإسرائيلي، بصفة عامة، والقضية الفلسطينية بصفة خاصة، "غير أن قيمة إسهام سعيد في هذه القضية مستمدة من الأهمية والمكانة التي يتمتع بها هو نفسه، وتأثيره الفكري والمعنوي، حيث أن سعيد لم يكن أستاذا مختصا في علم السياسة وإدارة الأزمات والصراعات. بل إن بعض كتاباته عن ذلك الصراع تعكس شعورا دفينا بالازدراء تجاه بعض مدارس العلوم السياسية، خاصة منها تلك التي ركزت على البعد النفسي في إدارة تلك الصراعات الدولية"¹.

وفي هذا السياق، يمكن إخضاع كتابات إدوارد سعيد، وأعماله حول الصراع العربي - الإسرائيلي لدراسة من المنظور السياسي وإدارة الأزمات والصراعات الدولية، ولا يفوتنا في هذه العجالة، الإشارة إلى أن إدوارد سعيد لم يبدأ في الكتابة عن القضية الفلسطينية أو عن الصراع العربي - الإسرائيلي إلا بعد هزيمة 1967، أي "في المرحلة التي شهدت أولى المحاولات والجهود الجادة من أجل الإحياء والبعث والتجديد لحركة وطنية فلسطينية"² ، ويبدو، أن سعيد قد عثر في تلك المرحلة على هويته المفقودة، وآمن في

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الوقت ذاته بقدرتها على تجسيد الذات والشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة، وذلك بعد فترة طويلة من الضياع والتشتت، وما إن شرع في كتابة مقالته الأولى عن التجربة الفلسطينية التي نشرها عام 1969 ، حتى بدأت رحلة إدوار سعيد الطويلة والشاقة مع القضية الفلسطينية، ولم تتوقف مساهمته فيها وعطاؤه الغزير لها، سواء من موقعه كمتقف عالمي فلسطيني الأصل والهوية، أو بوصفه ناشط سياسي ارتبط عضويا بالحركة الوطنية الفلسطينية، بغض النظر عن موقفه تجاه القيادة التاريخية لهذه الحركة، ممثلة في ياسر عرفات أو في الدائرة الضيقة المحيطة به، وهذه مسألة من بين المسائل التي يجب الوقوف عندها وتحليلها 3 .

إلا أن عدم تناول سعيد للصراع العربي - الإسرائيلي وللقضية الفلسطينية في كتاباته قبل هزيمة العرب في 1967، لا يعني إطلاقاً بأنه كان يقف بفكره بعيداً عن كل ما يقع في وطنه الأم، أو أنه كان مقطوع الصلة به، بل أن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً، إن القضية الفلسطينية لم تفارق عقل سعيد، ووجدانه لحظة زمنية واحدة منذ نعومة أظفاره، فهو بدأ بالتأسيس قولاً وعملاً بعد هزيمة 1967، وما تبع ذلك لبعت الحركة الوطنية الفلسطينية، بل كانت نقطة الانطلاقة والتغير في حياته، وفي تعاطيه معها، فمنذ تسرب هذه القضية إلى عقله ووجدانه في مرحلة طفولته الأولى، وحتى اكتمال تكوينه العلمي والأكاديمي، "من خلال عاملين أساسيين:

العامل الأول، هو إحساسه بوضعه كلاجئ فلسطيني يعيش في المنفى أي خارج المكان كما يقول هو نفسه، وأما العامل الثاني، فهو إحساسه المتنامي برسالته كمتقف عضوي، بتعبير غرا مشي، والمتواكب مع تكوينه العلمي ونضجه الفكري" 4 . حيث شكلا

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

هذان العاملان معا في مرحلة النضج الفكري لإدوارد سعيد، ورؤيته الإنسانية المتكاملة للصراعات الدولية التي تبدو فيها القضية الفلسطينية جزءا منها، "بل حركة تحررية إلى جانب الحركات التحررية العالمية الأخرى المناهضة للاستعمار بكل أشكاله وصوره، وخاصة منها السياسية والثقافية" 5 .

ومن المعروف أيضا، أن إدوارد سعيد كان قد انشغل منذ بداية مسيرته الفكرية بقضية المثقف وهويته ودوره ورسالته في الحياة، وهذا الانشغال هو الذي دفعه لكي يحدد لنفسه، منذ بداية الطريق في هذه المسيرة رسالة واضحة يجب عليه أن يؤديها، ومن ثمة كان من الواجب عليه أيضا، أن يخطط لنفسه أي طريق أو أي منهج ينبغي عليه أن يسلكه لتحقيق الرسالة التي كلف نفسه تجاه قضيته الجوهرية. وقد كتب يقول: "لم أقدر أن أعيش حياة غير ملتزمة أو مذبذبة: لم أتردد في إعلان التزامي بقضية مكروهة إلى حد التطرف" 6 .

ولذلك نجد سعيد قد أخذ على عاتقه منذ وقت مبكر، مهمة كشف كل الأقنعة الداخلية منها والخارجية، وخاصة منها قناع الاستعمار وأساليبه المختلفة في السيطرة على الشعوب المستضعفة وقهرها، ويعتبر الشعب الفلسطيني واحد منها. وقد انخرط إدوارد سعيد، وتفاعل مع قضية وطنه الأم، مباشرة بعد هزيمة 1967، إن هذه الحرب بين العرب وإسرائيل هي التي دفعته إلى النشاط السياسي، بعد عام واحد فقط، حيث طهر له أول مقال سياسي موسوم بعنوان: تصوير أو توصيف العرب.

وفي هذه المرحلة بدأت تتبلور فيها الحركة الوطنية الفلسطينية المستقلة التي استرجعت له الشعور بهويته المفقودة، وهي بذلك مرحلة أعادت له اكتشاف الرسالة التي

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

سبق له أن حددها لنفسه كمثقف عضوي، بعد نقلها من سياقها العام، ومن فضائها الإنساني، إلى السياق الفلسطيني، والفضاء العربي، وفي التعبير عن نيته في الاضطلاع بتلك الرسالة بوسائل وأساليب تتناسب مع طبيعة المرحلة الجديدة، وهي التي أصبح فيها سعيد "يتفاعل مع القضية الفلسطينية كناشط سياسي دون أن ينسى بأنه منفي: خارج المكان، حتى وهو يمارس ذلك الدور، على خلاف ما كان عليه قبل الهزيمة، يتفاعل مع القضية بوصفه مثقف ومنفي، ومنه فإن رسالته الأساسية هي رسالة كل المثقفين العلمانيين ذوي النزعة الإنسانية، فكفكة المثقف يجب أن ترجح دائما كفة الناشط السياسي" 7.

وإذا انطلقا من هذه المعطيات يتبين لنا، بأن رؤية إدوارد سعيد للقضية الفلسطينية لا تكتمل نظرة العقول لها، إلا إذا قمنا بدراستها من خلال منهجيتين مرتبطتين، المنهجية الأولى، تفكيرية تحليلية، حيث نقوم في المجال الأول، بالفصل في أبعادها المختلفة وفي أدوار الشخصيات البارزة التي كان لها بالغ الأثر في رؤية سعيد، وفي المجال الثاني، من خلال التمييز بين إسهاماته كمنفي خارج المكان وكمثقف عالمي وناشط سياسي، يقول سعيد في مقدمة كتابه الذي يروي لنا سيرته الذاتية: "غير أن الغالب كان شعوري الدائم أنني في غير مكاني" 8 ، ويختم سعيد الفصل الأول من ذات الكتاب، باستفهام يصب في نفس السياق بقوله: "فهل يمكن لإدوارد، والحال هذه، أن يكون إلا في غير مكانه ؟ 9 .

وأما المنهجية الثانية، فهي تركيبية تلفيقية، تقوم على دمج تلك الأبعاد الثلاثة معا بغرض الكشف عن التناسق الداخلي في بنية خطاب إدوارد سعيد الفكري، من ناحية، والتناسق الخارجي بين ذلك الفكر وممارساته، من ناحية ثانية" 10.

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

إن معاناة إدوارد سعيد الشخصية أو معاناة أسرته الفلسطينية، لم تكن هي التي صنعت إحساسه بالنكبة الكبرى التي حلت يشعبه عام 1948. فقد ولد الطفل إدوارد لأسرة ميسورة الحال من أب من أصول فلسطينية، وأم من أصول فلسطينية ولبنانية. وكان أبوه وديع، الذي ولد في مدينة القدس وترعرع فيها وتعلم في مدارسها، قد هاجر للولايات المتحدة الأمريكية في 1911، ومكث فيها عشر سنوات خدم خلالها في القوات الأمريكية التي شاركت في الحرب العالمية الأولى في أوروبا، ثم عاد إلى منطقة القدس، بعد أن حصل على الجنسية الأمريكية، واستقر به الحال في القاهرة، وأسس فيها شركة تجارية ناجحة، وفتح لها فرعا في الإسكندرية، ولأن عائلة سعيد الكبيرة لوالده، ظلت تعيش في القدس بفلسطين، فقد قضى إدوارد سعيد طفولته وصباه متنقلا بين القدس والقاهرة وبيروت.

وفي القاهرة تلقى إدوارد معظم تعليمه الابتدائي والثانوي، في مدارس يؤمها الأجانب والطبقة المصرية ميسورة الحال: المدرسة الأمريكية بالقاهرة، ومدرسة الجزيرة، وفيكتوريا كوليدج 11. أما في بيروت فكانت عاصمة للبلاد الذي تنتمي له عائلة أمه، واعتاد أن يقضي فيها معظم إجازاته الصيفية، وأما القدس فقد كانت هي المدينة العائلة الكبيرة وبها معظم ممتلكاتها، بما في ذلك بيتها الذي يوجد في حي الطالبية الراقي، وفيه ولد الطفل إدوارد عام 1935، رغم أن أسرته الصغيرة كانت تعيش وقتئذ في القاهرة، ويعود سبب ولادته بالقدس إلى أن أمه هيلدا كانت قد وضعت قبله طفلا ذكرا في أحد مستشفيات القاهرة وتوفي عقب ولادته، وخشي والده أن تتكرر الحادثة.

ولذلك فقد ولد إدوارد في بيت العائلة في القدس، على يد قابلة يهودية ألمانية هي السيدة باير، وأن يقيم في هذا البيت فترات متقطعة بين الحين والآخر 12. عاش إدوارد مع

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

والده وعائلته الكبيرة في هذا البيت القدسي معظم شهور عام 1948 الحاسم الذي التحق فيه بمدرسة سان جورج الشهيرة، مما مكّنه من متابعة بعض جوانب المحنة التي كان يمر بها وطنه وهو لا يزال صبيا بعد في الثانية عشرة من عمره، وتشاء الأقدار أن يكون هذا العام هو آخر الأعوام التي لم يعد بمقدور إدوارد أن يعود بعدها إلى وطنه، مثلما اعتاد في طفولته الأولى، فما هي إلا شهور قليلة حتى أجبرت بقية العائلة على الرحيل ففقدت جميع ممتلكاتها، وظلت هذه الأحداث منقوشة في ذاكرة ووجدان الطفل إدوارد سعيد.

ولما كانت أسرة الصبي سعيد ميسورة الحال 13، وكان والده يحمل الجنسية الأمريكية، إذ كان بوسع العائلة التنقل الحر في أي مكان تشاء، مما يمكن القول أن إدوارد أدرك أنه في وضع مادي مريح أفضل بكثير من أقرانه والأغلبية الساحقة من الشعب الفلسطيني، الذي أجبر على مغادرة الوطن والرحيل منه والتشرد في بقاع العالم ليعيش محنة اللجوء منذ عام 1948، ومع ذلك فقد تركت هذه الأحداث آثارا جسيمة على الجانبين النفسي والفكري للصبي إدوارد 14، وساهمت بقسط كبير في تشكيل رؤيته لطبيعة القضية الفلسطينية، والصراع العربي-الإسرائيلي، وكان يحلو لسعيد أن يعرف نفسه بعد أكثر من نصف قرن على تاريخ النكبة بقوله: "لست مهاجرا ولكنني أعيش منفيا في انتظار العودة" 15.

وجاء على لسان سعيد فيما بعد، بأنه سيبدأ نضالا لن ينقطع حتى مماته، وذلك لفضح الانحياز في السلطة التي تعتمد في مصادر قوتها كليا على صورتها الإيديولوجية عن ذاتها بوصفها فاعلا أخلاقيا يتصرف بقصد شريف وبنوايا لا شك فيها، موضحا أن ظلم السلطات إنما يعتمد أولا على صلاحياتها في تغيير قواعد حكمها" 16.

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

وربما تكون هذه الشكوك العميقة في السلطة، أي سلطة، أيا كانت إيديولوجياتها، والتي ستصاحب إدوارد سعيد طيلة حياته وسترسخ لديه إيمانا عميقا بعلو مكانة قيم الحرية والعدالة والمساواة الإنسانية وسموها فوق كل اعتبار. إن دفاع إدوارد سعيد المستميت، عن عدالة القضية الفلسطينية وتعريضه للظلم التاريخي الذي لحق بالشعب الفلسطيني عكس بحق عمق إيمانه بهذه المبادئ والقيم الإنسانية العالمية أكثر مما عكس مشاعره القومية أو وطنيته المتأججة.

ولا جدال في المكانة العلمية والأكاديمية الكبيرة التي حظي بها في الغرب، بسبب مساهماته الثقافية والفكرية المتميزة، وذلك خاصة بعد نشره لكتابه: الإستشراق 1978 والثقافة والإمبريالية 1993، يقول سعيد: "في كتابي الاستشراق والثقافة والإمبريالية، وفي الكتب السياسية الخمسة أو الستة التي كتبها عن فلسطين والعالم الإسلامي التي ألفتها في الوقت نفسه، شعرت أنني أجلو للجمهور الغربي أشياء كانت إما خافية عليه أو أنه لم يجز استنفادها على الإطلاق" 17. هذا بالإضافة إلى كتاباته ومقابلاته المختلفة، ذات الأبعاد القيمة التي جعلتها تبدو مختلفة ومتميزة عن كتابات أخرى عن القضية الفلسطينية 18 .

هناك سببا آخر مهما، جعل من مساهمات إدوارد سعيد مؤثرة ووصلت إلى العقل الغربي، وهو البعد الشخصي في القضية، فإحساسه بالظلم الكبير الذي وقع عليه، وعلى كل أسرته وعلى شعبه ووطنه وشعوره كلاجئ فلسطيني، أضفى على أطروحاته قدرا كبيرا من الصدق في القول وحرارة الإيمان، وجعلت منه المفكر المبجل والمحترم من طرف الجميع، مهما بلغت درجة الاختلاف مع الغير أو كره البعض له، يبدو في أعين الغرب طرفا في قضية فكرية وشخصية في الآن ذاته. ومن ثم جاء إحساس الأوساط الصهيونية المتطرفة

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

بالهلع، حينما شرع إدوارد سعيد في كتابة مذكراته الشخصية التي يؤكد فيها "أنه فلسطيني الانتماء والهوية ومقدس المولد". فبينما كان كتابه الذي يحتوي على سيرته الذاتية لا يزال تحت الطبع، نشرت مجلة كومان تري Commentary الأمريكية اليمينية والمعروفة بانحيازها وميولها للصهيونية مقالا بعنوان: "بيتي العتيق الجميل وأكاذيب أخرى اختلقها إدوارد سعيد" 19 ، كتبه محامي يهودي أمريكي جستس رايد فاينر ويعمل في معهد غير معروف الأبحاث اسمه معهد القدس للأبحاث العامة، قيل إنه يلخص بحثا قام به المؤلف واستغرق ثلاث أعوام لإعداده.

أنصب ذلك البحث على محاولة إثبات أن إدوارد سعيد زيف في سيرته الذاتية، حين ادعى أنه لاجئ فلسطيني وكان والده يملك بيتا في القدس، وأنه التحق بمدرسة سان جورج المقدسية، وأن أملاك أسرته صودرت عامي 1947/1948، وتلقفت أجهزة الدعاية الصهيونية الرهيبة البحث وراحت تستخدمه كأداة لشن حملة ضارية على إدوارد سعيد، الذي كان قد تعرض في عام سابق لحملة مماثلة وصلت إلى حد اتهامه بأنه منظر الإرهاب. غير أن الحملة استهدفت هذه المرة لضرب مصداقيته كمفكر وكمتقف، وذلك بواسطة التزوير في تصريحاته، مركزة في ذلك على نفي صفتي الفلسطيني واللاجئ عنه لكي يصبح في عيون الغرب مجرد شخص كاذب وبلا قضية كما يدعي. وقد استند ذلك البحث إلى جنسية والد إدوارد الأمريكية وإقامته بالقاهرة، ومصادفة ولادة إدوارد نفسه بالقدس، غير أن هذه الحملة سرعان ما باءت بالفشل الذريع أمام مواجهاته الصلبة وقدراته الفكرية" 20.

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

تنبع أهمية كتابات إدوارد سعيد حول القضية الفلسطينية والصراع العربي-الإسرائيلي، من أهمية سعيد نفسه بوصفه مثقفا موسوعيا يحظى باحترام عالمي ليس فقط في مجال تخصصه كناقذ أدبي، بل أيضا كموهوب بارع في مجالات متشعبة وفي أكثر من تخصص، حيث تمكن من ممارسة تأثير بالغ وحقيقي على الثقافة والفكر الغربيين 21.

لقد حرص إدوارد سعيد على تلقي دراساته العليا في أرقى جامعات العالم: برنستون وهارفارد، ثم عين أستاذا للأدب الإنجليزي والأدب المقارن جامعة كولومبيا فور حصوله على درجة الدكتوراه في 1963 وظل يعمل بها حتى مماته عام 2003 ، وقد أثبت سعيد خلال مسيرته العلمية، بأنه ليس مجرد أستاذ حاذق في تخصصه الذي اختاره بعناية شديدة، لكنه كان متعدد المواهب واسع الإطلاع، ولديه حس مرهف وقدرات هائلة على استيعاب ما يدور حوله من قضايا والتفاعل معها بسرعة فائقة، ويجب الإشارة بأن إدوارد سعيد برع كعازف هاو على آلة البيانو ثم صار ناقدا للموسيقى ومستشارا فنيا مفضلا لأحدى الدوريات الفنية المتخصصة The Nation، كما قدم إسهامات معتبرة في النقد الموسيقي 22 .

إن قيمة إدوارد سعيد الفكرية ليست في حاجة إلى برهان أو استدلال، وتبرز ليس فقط مما كتبه هو نفسه بل من خلال ما كتب عنه، وهي أعمال كثيرة حقا ولكنها لم تغطي بعد جميع مكنونات الرجل، ومن المعروف أن كبرى الدوريات والصحف العالمية كانت تتسابق لنشر مقالاته، كما أن أكبر وسائل الإعلام العالمية المكتوبة والمرئية والمسموعة خصصت لحواراته حيزا هائلا، وذلك بإنتاجها عنه وعن حياته وسيرته الذاتية أفلاما وثائقية عديدة، كما أن هيئة الإذاعة البريطانية أدرجت اسم إدوارد سعيد ضمن

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

قائمة المفكرين الذين تستضيفهم لإلقاء محاضرات ريث الشهيرة، وهي عبارة عن لقاءات سنوية تنظم في ذكرى مؤسس الهيئة وهي تحمل اسمه، ولا يدعى لها إلا عمالقة العالمي 23، مع العلم بأن برتراند راسل هو المفكر الأول الذي افتتح هذه السلسلة من المحاضرات. وعلى الرغم من أن لإدوارد سعيد كتابات عديدة حول القضية الفلسطينية، والصراع العربي - الإسرائيلي، فإن معظمها عبارة عن مقالات نشرت في الصحف والدوريات العربية وخاصة منها صحيفتي الحياة والأهرام الأسبوعية، وقد أخذت شكل التعليق على تطورات تلك القضية وذلك الصراع، وخاصة بعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو، ثم أعيد نشرها في عدد من الكتب 24.

ربما جاء كتاب إدوارد سعيد الوحيد على شكل دراسة متكاملة هو الكتاب الذي حمل عنوان: "القضية الفلسطينية" ونشر عام 1979 25 ، بالإضافة إلى عدد آخر من الدراسات القصيرة نشرت في كتب مع آخرين، من بين هذه الكتب على سبيل المثال الكتاب الذي ألفه مع كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens 26. غير أنه من الظلم لإدوارد سعيد حصر مساهماته الفكرية في موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي والقضية الفلسطينية فحسب، ففي الواقع أن الأغلبية من إنتاجه الفكري لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بذلك الموضوع، فعلى سبيل المثال، فإن إدوارد سعيد لجوزيف كونراد، الكاتب الروائي واللاجئ والمنفي مثله، يمثل موضوعاً لأطروحته للدكتوراه وحضور كونراد الدائم، وغيره من المنفيين، في العديد من أعماله المستقبلية، كان له صلة وثيقة بإحساس إدوارد كفلسطيني مقتلع من أرضه 27.

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

ففي كتاب سعيد خارج المكان، الذي حاز على تقدير عالمي كبير، ليس لمجرد سيرته الذاتية كمنفي، بل أيضا كمفكر كوني يحكي قصة شعبه المحتل والمحروم من كل حقوقه المشروعة طبيعيا وقانونيا، مما أضفى على هذه القضية الفلسطينية بعدا عالميا وصبغة إنسانية بالغة التأثير²⁸. وما نجده في كتابات سعيد حقيقة، خاصة منها، ما هو موجود في كتابيه الاستشراق والثقافة والإمبريالية، التي ربما "ما كانت لتكون على هذا القدر من الشهرة والمكانة والنفاذ، لو م تكن صادرة عن شعور شخصي صادق، وعميق بالظلم المسلط على الشعب الفلسطيني، وإدراكا منه لحجم التشويه المقصود لقضيته، من طرف وسائل الإعلام وأجهزة صنع الثقافة الغربية، لعرفنا مدى أهمية المكانة التي تحتلها القضية الفلسطينية في نشاطاته الفكرية"²⁹.

إن التأمل الدقيق في كتابات إدوارد سعيد عن الصراع العربي - الإسرائيلي، يعكس لنا بوضوح رؤية إدوارد سعيد كمتقف علماني ليبرالي ذو نزعة إنسانية، وهي رؤية تنطلق من مسلمات عديدة، نذكر من بينها : أن القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي - الإسرائيلي، ومن ثمة فحله لا يتم إلا من خلال تسوية عادلة ودائمة للقضية. ثم أن جوهر القضية الفلسطينية وأساسها هو الظلم الذي وقع على شعب احتلت أراضيه واستيطان الجزء الأكبر منها وطرد نسبة عالية من سكانه بقوة الحديد والنار وتشريدهم وإجبارهم على العيش كلاجئين خارج وطنهم، فتسوية هذه القضية لن يتم إلا بتحرير الوطن المحتل واستعادة كامل حقوق هذا الشعب المشروعة والمغتصبة، وفي مقدماتها حق العودة للاجئين وحقهم في التعويض عن الأضرار التي لحقت بهم، وتمكينهم من تقرير مصيرهم بأنفسهم بدون أي إكراه. وإن الشعب الفلسطيني كونه جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية ذات التاريخ

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الحضاري والثقافي له خاصية، تجعله يتميز في ذات الوقت عن بقية الشعوب العربية 30، وعليه فله كامل الحق في تشكيل حركته الوطنية المستقلة التي تعبر عنه.

ومن ثمة فإن الحركة التحررية الفلسطينية، هي جزء لا يتجزأ من حركات التحرر الوطنية والعالمية المناهضة للاستعمار، والتبعية بكل أشكالها السياسية والاقتصادية والثقافية، ويجب أن تكون للحركة الفلسطينية علاقة عضوية بالحركة التحررية العالمية لأنها تشكل سندها المتين وحصنها الحصين ومجالها الحيوي الذي يضمن لها تحقيق الأهداف المنشودة، حتى تحقق الانتصار في معركتها من أجل التحرر وحق تقرير المصير 31 .

ويمكن القول أن إدوارد سعيد كرس حياته للدفاع عن قضية التحرر العالمي وكشف علاقات الهيمنة والتبعية وآلياتهما، وخاصة منها آليات الهيمنة والتبعية السياسية والثقافية، ولكنه خصص جانبا كبيرا من نشاطه الفكري والحركي للدفاع عن الحقوق الفلسطينية، وعن حركة التحرر الوطني الفلسطيني والتصدي لكافة المحاولات الرامية لتشويههما أو الانتقاص من قيمتهما، سواء كان ذلك على الصعيد الفلسطيني أو الإقليمي أو الدولي 32 .

وعلى الرغم من انخراط إدوارد سعيد بكل همه وثقله وتفانيه في الحركة الوطنية الفلسطينية في أواخر الستينيات من القرن الماضي، وعلى الرغم أيضا من محاولته القيام بدور مباشر فيها كناشط سياسي، فإن طبيعته كمفكر شمولي تغلبت ورجحت كفة إدوارد سعيد المثقف على كفته كناشط سياسي الملتزم بمواقف القيادة أو الأطر السياسية والتنظيمية العامة للحركة.

إن تراث إدوارد سعيد الفكرية حول القضية الفلسطينية والصراع العربي-الإسرائيلي هو تراث كبير يصعب حصره ويشمل عددا كبيرا من الكتابات المقروءة

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

والأحاديث الشفهية، المسموعة والمرئية، ويتسم هذا التراث بميزتين تميزه عن غيره. الأولى منهما هي: "أنه موجه في معظمه للقارئ أو المستمع أو المشاهد غير العربي، بصفة عامة، والغربي، بصفة خاصة. ربما كان الاستثناء الوحيد، في هذا الإطار، مجموعة من المقالات كتبها إدوارد سعيد حول اتفاق أسلو، جمعت في كتاب بعنوان "غزة - أريحا: سلام أمريكي، والذي كان واضحاً أنه موجه للقارئ العربي، بعامة، والقارئ الفلسطيني، بخاصة" 33.

وأما الميزة الثانية فهي: "أنه جاء في معظمه، ماعداً بعض الدراسات المحدودة حول قضايا بعينها، في شكل تعليقات مكتوبة أو مقروءة أو مسموعة، على أحداث جارية تمتد منذ أواخر الستينيات من القرن الماضي، حين بدأ إدوارد سعيد يهتم بالحركة الوطنية الفلسطينية الجديدة الناشئة بعد حرب 1967 وينخرط فيها، وحتى رحيله في عام 2003. فهو بذلك تراث بحاجة إلى مجهود جهيد لتصنيفه وتبويبه ودراسته منهجياً" 34 .

إن القراءة الإجمالية لأعمال سعيد تسمح لنا أن بالقول أنه يعكس رؤية مفكر متكامل في رؤاه، وغير متخصص في دراسة العلوم السياسية والصراعات الدولية، وهو يكره التعصب والتطرف أياً كان مصدره، (قومياً أو وطنياً أو مذهبياً أو عرقياً أو دينياً)، إنه يمتق العنف مهما كان شكله وأسلوبه، ولكنه يتسم بالشجاعة والالتزام الكامل مع قناعاته ومبادئه الفكرية والأخلاقية.

ومن الأدلة القطعية على هذه الخصال، أن دفاع إدوارد سعيد المستميت عن حقوق الشعب الفلسطيني، لم يثنه عن رؤية العدو الإسرائيلي بعيون إنسانية وتفهم لما تعرض له اليهود من كوارث واضطهاد في تاريخهم. فهو يميز في كتاباته بين الحركة

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الصهيونية: السياسية، العدوانية، التوسعية، المغتصبة والمنتهكة لحقوق الشعب الفلسطيني، وبين الشعب اليهودي الذي عانى الكثير من الاضطهاد، وعاش أحداث المحرقة النازية التي يندى لها الجبين الإنساني. فإن إدوارد سعيد "يرفض كل محاولة من طرف إسرائيل لاتخاذ حادثة المحرقة كذريعة لتبرير سياستها الوحشية تجاه الشعب الفلسطيني، كما يرفض أيضا، كل محاولة فلسطينية لإنكار أي علاقة للقضية الفلسطينية وحادثة المحرقة، وهو لا يتردد في الذهاب بعيدا في ظل هذه الأفكار إلى درجة أنه استخدم ألفاظا حادة، منها مثلا: "علينا أن نواجه بالقدر نفسه من الاستنكار ادعاءات إسرائيل عن الأمن النفسي والمحاولات العربية الأخيرة للحصول على مساندة أشخاص منحطين مثل روجيه غارودي لإلقاء الشكوك على الستة ملايين من الضحايا، إذ ليس في الموقفين ما يساند قضية السلام أو التعايش بين شعبين يربط بينهما بقوة تاريخهما المأساوي" 35.

وهذا الموقف ينطلق من اعتقاد راسخ لإدوارد سعيد، مفاده أنه لا توجد أية مصلحة عربية في إنكار ما حدث لليهود أو التقليل من تأثيره على سلوكهم، حيث يقول : "ما حصل بين 1933-1945 يفوق في مجمله قدرتنا على الوصف ناهيك عن الفهم. وكلما أمعن المرء في دراسته تلك المرحلة ازداد يقينه بأن إبادة الملايين من الأبرياء لا بد أن تترك للأجيال القادمة، اليهودي منها وغير اليهودي، إرثا بالغ الإيلام والتأثير. ومهما اتفقنا، على سبيل المثال، مع توم جيف في كتابه المليون السابع على أن إسرائيل استغلت المحرقة لأهداف سياسية، فليس لنا بالتأكيد أن نستهن بالذاكرة الجماعية عن تلك المأساة والرعب الذي أورثته لليهود إلى اليوم" 36 .

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

وأضاف إدوارد سعيد قائلا: "هناك بالطبع مجازر أخرى في التاريخ... لم تحظ بالاعتراف ولم ينل ضحاياها التعويض. لكن لا يجب أن يشكل أبداً، في رأيي، سبباً لإنكار مشاعر الاستهوال والرغبة إزاء تلك المأساة التي حلت بالشعب اليهودي، وأجد أن من المهم بالنسبة إلي، كعربي، أن أحيط أقصى ما يمكن بتلك التجربة الجماعية وتفاصيلها البشعة، لأن محاولة الإحاطة هذه تضمن للشخص إنسانيته وتصميمه على أن كارثة كهذه يجب أن لا تدرج أبداً في النسيان وأن لا تتكرر في تاريخ الإنسانية" 37.

ويسلم إدوارد سعيد في كتاباته بأن الظلم الذي وقع على الشعب الفلسطيني كان مدبراً من طرف قوى خارجية تتمثل في قوى الاستعمار التقليدي من ناحية، وفي قوى الإمبريالية الجديدة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وهي القوة التي تبنت المشروع الصهيوني واحتضنته وأقامت معه تحالفاً دائماً لم تنفك روابطه إلى يومنا هذا مع الكيان الصهيوني، ولكن إدوارد سعيد لم يتوقف إطلاقاً في كشف أخطاء القيادات العربية والفلسطينية وتعرية أساليبها في سوء إدارة الصراع مع إسرائيل، وتحميل هذه القيادات مسؤولية نتائج ما حدث للشعب الفلسطيني من ناحية، وشعوب الأمة العربية من ناحية ثانية، وفي نظر سعيد فإن إسرائيل لـ "لم تحقق إنجازاتها معتمدة على نفسها فحسب، بتفوقها العسكري الكاسح، بل كانت معتمدة أيضاً على القوى الخارجية المتحالفة معها، إن التفوق العسكري" 38 عند إدوارد سعيد، ليس إلا عاملاً من بين عناصر القوى الشاملة التي تفوقت فيها إسرائيل، وهنا نجد أنه يلجأ إلى أهمية معركة من نوع آخر وهي معركة كسب الرأي العام، فيقول: "ما مكن إسرائيل من أن تفعل ما تفعله بالشعب الفلسطيني خلال السنين 54 الأخيرة كان نتيجة حملة تم تخطيطها في شكل علمي ودقيق لتسويق

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

أعمال إسرائيل وفي الوقت نفسه تشويه وطمس أعمال الفلسطينيين، أي أن القضية لم تكن مجرد امتلاك جهاز عسكري قوي، بل تعبئة الرأي العام خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية. إنه نوع آخر من القوة يأتي من عمل متأن منهجي يقود الرأي العام إلى التماثل بسهولة مع موقف إسرائيل فيما لا يظهر الفلسطينيون من خلاله إلا في صورة أعداء إسرائيل وبالتالي كأشخاص منفرين وخطرين ومعادين" 39.

ويؤكد إدوارد سعيد على أن "خسارة الفلسطينيين والعرب لمعركة الرأي العام، جاءت نتيجة جهل وعدم معرفة دقيقة لثقافة الغرب وحضارته، وما فيه من مؤسسات وآليات لصنع القرار، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تشكل القوة العظمى الوحيدة في العالم المعاصر" 40. وأن القضية الفلسطينية لم تكن أبدا بالنسبة لإدوارد سعيد مجرد قضية تهم الفلسطينيين أو العرب أو المسلمين فقط، وإنما كان واعيا ومدركا تماما لأبعادها المتداخلة والمتشابكة بوصفها قضية معقدة جدا تهم "عواالم كثيرة مختلفة، متناقضة ومتقاطعة في الوقت ذاته" 41.

والواقع أن إدوارد سعيد كان يتأمل دائما الأسباب التي جعلت من القضية الفلسطينية، في مختلف مراحل تطوراتها، "منطقة مد وجزر لكل هذا الكم الهائل والمتناقض للحركات والتيارات السياسية الفكرية المتزاحمة على كافة الأصعدة العالمية والإقليمية والمحلية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومن المطالبين باستخدام أكثر وسائل التسوية سلمية واعتدالا إلى الداعين إلى استعمال أقصى درجات القوة والعنف تطرفا" 42، وقد حاول إدوارد سعيد التعمق في الأسباب التي "دفعت بتلك التيارات والحركات المتناقضة إلى الاهتمام بالقضية الفلسطينية بهذا الحد الكبير، كل حسب الطريقة الخاصة به، بعد اعتناق

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

حركة التحرر الوطنية الفلسطينية في نهاية الستينيات من القرن الماضي، ثم عقب اندلاع الانتفاضات الفلسطينية المتعاقبة في الثمانينيات والتسعينيات من نفس القرن، فقد تفاعل مع هذه القضية رجل الدين والعلماني، اليساري واليميني، الرأسمالي والاشتراكي، المعتدل والمتطرف، التقليدي والحداثي، وكان إدوارد سعيد يرى تلاقي هذا الكم الهائل من المتناقضات يمنح القضية زخماً ويزيدها غنى، وقد طالب القيادة الفلسطينية إدراك دلالة ذلك والمحافظة عليه " 43.

ويروي لنا إدوارد سعيد، كيف أنه حرص عند زيارته لمدينة سياتل الأمريكية لإلقاء محاضرات، أن يتناول العشاء مع والدي راشيل كوري، الفتاة الأمريكية اليهودية التي دهمها بلدوزير إسرائيلي بطريقة متعمدة، بينما كانت تحاول منعه من هدم بيوت الفلسطينيين في غزة مؤكداً على أن: "ما كشفه عمل راشيل كوري في غزة هو بالضبط النقلة النوعية للتاريخ الحي للشعب الفلسطيني كمجموعة بشرية ذات خصائص وطنية وليس مجرد مجموعة من اللاجئين المحرومين، هذا هو ما كانت راشيل تتضامن معه. وعلينا أن نتذكر أن هذا النوع من العمل التضامني لم يعد مقصوراً على عدد ضئيل من الأشخاص الشجعان هنا وهناك، بل أصبح معروفاً في أرجاء العالم 44 .

وقد ألقى محاضرات في أربع قارات أمام آلاف الأشخاص، وكان ما يجمعهم هو فلسطين وكفاح الشعب الفلسطيني الذي أصبح الآن كلمة متداولة ومرادفة للتحرر والاستنارة، وفي مراحل مختلفة من مراحل تطور هذا الكفاح، بغض النظر عن كل أنواع الذم والشتم والإساءة التي يرميهم بها أعداؤهم " 45 .

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

وهكذا يؤكد إدوارد سعيد على عالمية القضية الفلسطينية باعتبارها تهم الضمير العالمي الإنساني، والشعوب العربية والإسلامية، ومن هنا جاء حرصه على السمعة الأخلاقية للحركة الوطنية الفلسطينية. ولم يتزعزع أبداً إيمانه الراسخ والمطلق باستحالة الحل العسكري. ففي رأيه "ليس بوسع إسرائيل، مهما بلغت قوتها العسكرية ودرجة وحشيتها وجبروتها إخضاع الشعب الفلسطيني أو قهره وإجباره على الاستسلام لشروط التسوية الإسرائيلية والرحيل عن أرضه" 46.

ولكننا نلاحظ بأن إدوارد سعيد قد أدرك في ذات الوقت أنه ليس "بوسع الشعب الفلسطيني الأعزل والمحاصر من جانب النظام الرسمي العربي أن يلحق هزيمة عسكرية بإسرائيل أو حتى أن يقود حركة مقاومة مسلحة ناجحة بالمعنى الذي عرفته بعض حركات التحرر الوطنية مثل حركات التحرر في الفيتنام والجزائر" 47 .

ومن هنا أيضاً جاءت إدانته للعنف، مهما كان شكله ومصدره. فقد ركز هو نفسه على إدانة العنف الوحشي الذي تمارسه إسرائيل باستخدامها المفرط للقوة العسكرية ضد الشعب الفلسطيني، باعتباره عنفاً يهدف إلى تكريس الاحتلال وقمع شعب بكامله، لكنه لم يتردد في إدانة العمليات الاستشهادية الفلسطينية، وخاصة منها تلك التي كانت تستهدف المدنيين، وذلك بالرغم من تهمه مشاعر اليأس والإحباط التي تدفع بالبعض للقيام بهذا النوع من العمليات، فإنه اعتقد أنه من الصعب تبرير قتل المدنيين الأبرياء مهما كانت الظروف والأسباب، وفي رأيه أيضاً أن هذه العمليات الاستشهادية مضرّة بالنضال الفلسطيني أكثر مما تنفعه وتفيده 48 .

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

غير أن هذا لا يعني أبداً، أن أوهاما قد راودت إدوارد سعيد حول احتمال تسليم إسرائيل الحقوق الفلسطينية المشروعة من تلقاء نفسها، بل "اعتبر أن طريق المقاومة، وليس تقديم التنازلات، هو السبيل الأوحـد لاسترداد الحقوق المغتصبة من الشعب الفلسطيني الأعزل. لكن هذه المقاومة عنده لا تعني ولا تقتصر إطلاقاً على المقاومة المسلحة فحسب، فهو يمتق هذا النوع من المصطلحات بكل قواه، بل المقاومة عنده بالمعنى الشامل، أي المقاومة التي تملك إستراتيجية واضحة وسياسات دقيقة وخطط مرسومة وبرامج محددة المعالم، تستهدف حشد الطاقات الشعبية وتعبئتها، سواء كانت منها طاقات مادية أو معنوية من أجل رفض الاحتلال ودعم إرادة الصمود والتحدي وإظهار التصميم والعزيمة على استخلاص كافة الحقوق وكسب معركة الرأي العام العالمي 49 .

ومن أفضل الإستراتيجيات التي كان يراها إدوارد سعيد، وأكثرها فعالية في التوصل إلى تسوية عادلة وحقيقية، هي إستراتيجية التعايش السلمي بين الشعبين الفلسطيني واليهودي في دولة واحدة ثنائية القومية، وليس إستراتيجية الانفصال الكامل. وهو يسلم بأن مثل هذه الإستراتيجية لا يمكن أن تكون أحادية الجانب بل يجب أن تكون ثنائية، ولا بد أن يقتنع بها الطرفان المتصارعان كل الاقتناع ويدعمها المجتمع الدولي كل التدعيم.

والتعايش السلمي عند إدوارد سعيد لا يعني نسيان الماضي، بل استعادته وتمثله، لأن الاستيعاب الصحيح للماضي هو الذي يؤسس لحل حقيقي إنساني ودائم. وفي هذا الصدد يقول: "من المرفوض تماماً القول إن علينا أن ننسى الماضي ونتقدم نحو دولتين منفصلتين. إنها إهانة للذكرى اليهودية لضحايا المحرقة بمقدار ما هي إهانة للفلسطينيين

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الذين تستمر معاناتهم ويستمر سلبهم على يد إسرائيل. الحقيقة البسيطة هي أن التجربتين الفلسطينية واليهودية مرتبطتين تاريخية وبشكل عضوي" 50 .

وتجدر الإشارة إلى أن تجربة جنوب أفريقيا كانت ماثلة في ذهن إدوارد سعيد، وكان يعتبرها نموذجا يحتذى به، فيقول: "يبقى الكفاح من أجل الحرية، الذي أنهى النظام العنصري وأرسى في 1994/4/27 أول حكومة منتخبة ديمقراطيا، واحدا من أعظم الإنجازات في تاريخ الإنسانية، وعلى الرغم من مشاكل الحاضر فإن جنوب أفريقيا بلد يلهمنا الكثير عند زيارته والتفكير فيه، خصوصا الدروس التي يقدمها لنا كعرب في الكفاح والإبداع والمثابرة" 51 .

واستلهاما لهذه التجربة يؤكد إدوارد سعيد على: "انه ينبغي علينا، في مواجهة انعزالية الصهيونية، وأن نقدم حلا للصراع يؤكد، كما في التعبير المستعار من ويلسون ماندبلا، على إنسانيتنا المشتركة عربا ويهودا" 52 .

ثم يضيف إدوارد سعيد قائلا: "لا تزال غالبيتنا ترفض فكرة أن اليهود الإسرائيليين وجدوا هنا ليقبوا، وأنهم لن يغادروا مثلما أن الفلسطينيين لن يغادروا. إن صعوبة قبول الفلسطينيين بهذا أمر مفهوم، أخذا في الاعتبار أنهم لا يزالون يعانون من الاستيلاء على أرضهم والاضطهاد اليومي. لكننا لم نؤكد كفاية، في تعبيراتنا الاعتبارية اللامسؤولة التي توحى بأنهم سيجبرون على المغادرة — مثل الصليبيين —، على العمق الأخلاقي لمطالبنا في إنهاء الاحتلال العسكري، أو أن نعرض عليهم نوعا من الضمان للأمن وتقرير المصير بما لا يلغي أمننا وتقريرنا لمصيرنا. وهذا ما يجب أن يقدم أساسا لحملة كبرى في كل مكان، وليس الاعتماد الذي لا أساس له في الحقيقة على أن رئيسا أمريكا متقلبا سيقدم لنا دولة:

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

شعبان في أرض واحدة أو المساواة للجميع، صوت واحد للشخص الواحد أو الإنسانية المشتركة المؤطرة في دولة من قوميتين" 53 .

إن رؤية إدوارد سعيد للقضية الفلسطينية، تتسم بالشمول والتماusk ، وتنطوي على قدر كبير من النزاهة والاستقامة الفكرية والسمو الأخلاقي، فهي رؤية فيلسوف ومفكر ثوري يريد تغيير المنطقة إلى الأفضل، وهي ليست نظرة خبير أو محلل تستغرقه الممكن الراهن، بأكثر مما يشغل نفسه بالآفاق الإستراتيجية الرحبة لمستقبل مبني على وعي بحركة التاريخ 54 .

ولذلك من الطبيعي أن يتعرض إدوارد سعيد لهجوم كاسح من تيارات كثيرة متقاطعة فلسطينية وعربية وإسرائيلية وأمريكية. ولأن رؤيته ترجح فيها كفة المثقف على كفة السياسي، فقد كان من المتوقع أن لا تتسع للجمع بين الاثنين في كفة واحدة. وهكذا "فعندما تخيره بين دور المثقف ودور السياسي، فإنه يختار دور المثقف بدون أي تردد" 55 .

لقد شكلت هزيمة حرب 1967، وما تبعها من تفاعلات ساهمت في إطلاق حركة التحرر الوطني الفلسطينية، نقطة تحول في حياة إدوارد سعيد، وحتى في تفكيره. فحتى تلك السنة كان مشغولا أكثر انشغال بحياته الأكاديمية التي قطع درجها بالنجاح والشهرة، ولكنه كان يعيش حالة من المنفى، وقد زادت هزيمة 1967 من حدتها.

ويصف حالة المنفى بأنها حالة متقطعة من حالات الكينونة. فالمنفيون مجتثون من جذورهم، ومن أرضهم، ومن ماضيهم. وهم عادة بلا جيوش أو دول، مع أنهم غالبا ما يبحثون عنها. ولذا يشعر المنفيون بتلك الحاجة الملحة إلى إعادة تشكيل حياتهم المحطمة، ويتم ذلك عادة عندما يقررون باختيارهم أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم جزء من

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

إيديولوجيا ظاهرة أو متجدد. والأمر الحاسم هو أن حالة النفي الخيالية من هذه الإيديولوجيات الظاهرة المصممة للم المنفى المحطم في كل جديد - هي حالة لا يمكن احتمالها في النهاية 56 .

ولكن هذه الحالة غير القابلة للاحتمال لن تطول كثيرا بعد 1967، حيث عشر إدوارد سعيد على الايدولوجيا الظاهرة وعلى الشعب المتجدد اللذين يبحث عنهما ليسمو من خلالهما فوق عذاب المنفى المحطم. وبعد السنوات الثلاثة التي تلت هزيمة الجيوش العربية، كانت حركة المقاومة الفلسطينية تنمو ويلتف حولها الشعب الفلسطيني في تصميم واضح ليس فقط لرفض الهزيمة، ولكن أيضا على أخذ زمام قضيتهم التي تاجرت بها الأنظمة العربية، أصبحت عملية بناء المؤسسات الفلسطينية في المنفى تتمحور حول منظمة للتحرير بدأت تجسد الهوية والشخصية الفلسطينية المستقلة 57 .

وكان من الطبيعي أن يتفاعل إدوارد سعيد، وهو "المهموم أصلا فكريا بقضايا الاستعمار والتحرر الوطني وآليات الهيمنة الثقافية، مع التطورات التي تشهدها الساحة الفلسطينية وأن ينبهر بها قبل أن يقرر أنه معني بها على الصعيد الشخصي وأن عليه أن يشارك فيها بشكل مباشر وأن يصبح جزءا لا يتجزأ منها" 58 .

ومما ساعد على هذا التحول وجود علاقات حميمة قد ربطت إدوارد سعيد ببعض الأكاديميين الفلسطينيين المقيمين بالولايات المتحدة الأمريكية منذ الخمسينيات من القرن الماضي ومتابعين للشأن الفلسطيني العام، مثل إبراهيم أبو لغد، بعضهم قرر الانخراط في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية إلى حد الاستغراق الكامل فيه، مثل حنا ميخائيل، الذي كان يعمل أستاذا في جامعة واشنطن قبل أن يقرر فجأة الالتحاق بالحركة الوطنية

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الفلسطينية ويتدرج في صفوفها إلى أن أصبح من قياداتها البارزة ومات في ظروف غامضة عام 1976 أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، أو شخصيات تجمع بين الثقافة والسياسة مثل كمال ناصر، الشاعر والخطابي والسياسي الذي ربطته به صلة قرابة قوية، وكان يلتقي به كثيرا بالقاهرة التي لجأ إليها سياسيا بسبب نشاطه المناهض للحكومة الأردنية، قبل أن يلتحق بمنظمة التحرير الفلسطينية، ويصبح من أبرز قادتها إلى أن تم اغتياله في بيروت عام 1973 أثناء عملية عسكرية شهيرة قام بها أيهود باراك شخصا 59 .

في هذه الأجواء المشحونة بالمشاعر الوطنية الفلسطينية المتأججة قرر إدوارد سعيد القيام بزيارة استطلاعية ودراسية للأردن للاحتكاك المباشر بالحركة، وبعملية بناء المؤسسات الفلسطينية، ثم عاد إلى نيويورك ولديه شعور بأنه عثر على هويته المفقودة وأنه أصبح جزءا لا يتجزأ من الحركة الوطنية الفلسطينية حديثة العهد بالولادة 60 .

غير أن إدوارد سعيد قرر، أن الدور المناسب له في هذه المرحلة هو تعريف الرأي العام الغربي والأمريكي بالقضية الفلسطينية، بواسطة الكتابة في الصحف ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية، والمساهمة في التعبئة والتنظيم للنخبة الغربية المقيمة في الولايات المتحدة الأمريكية وربطهم بالعالم العربي. فبدأ يكتب ويتحدث بانتظام عن القضية الفلسطينية في وسائل الإعلام الغربية، وخاصة منها الأمريكية، وشارك في تأسيس مؤتمر الخرجين العرب من الجامعات الأمريكية، والمشاركة في رئاسة تحرير مجلتهم Arabic Studies Quarterly، فبدأت معها رحلته وعلاقته الطويلة بالقضية الفلسطينية، والتي لم تنقطع حتى رحيله، فرغم الحصار الصهيوني المفروض عليه، تمكن من بناء شبكة علاقات واسعة بالنخبة الفكرية، مما سهل له التواصل مع وسائل الإعلام وذلك بتميزه الأكاديمي، ولأنه كان مفكرا إنساني

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

النزعة، وكاتب يتقن الإنجليزية، وعلى دراية بالتاريخ والثقافة، وبأسلوب عمل المؤسسات الأمريكية والغربية، فقد عرف كيف يخاطب ويلفت انتباه ونظر العقل الغربي، ويحوز ثقة العرب والمسلمين المقيمين بأمريكا والغرب في ذات الوقت 61 .

ووجدت كتاباته وأحاديثه صدى واسع النطاق لدى النخبة الأمريكية، وحتى في الأوساط اليهودية منها، وتفاعلت معها الجاليات العربية والإسلامية المقيمة هناك. وظل إدوارد سعيد على اتصال دائم بالعواصم العربية الفاعلة، وخاصة منها بيروت، التي كانت تقيم فيها والدته التي كانت علاقته بها عكس علاقته بأبيه، - "المؤكد أن أمي كانت الرفيق الأقرب إلي والأكثر حميمية خلال ربع قرن من حياتي" - 62 ، والتي أصبحت بعد أحداث سبتمبر الأسود مقرا بديلا للحركة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي سياق هذه الزيارات المتكررة أصبحت علاقات إدوارد سعيد بمنظمة التحرير تتقوى وتتدعم، خاصة بعد لقائه الأول بالرئيس ياسر عرفات عام 1974، وقيامه بترجمة خطابه الشهير في هيئة الأمم المتحدة إلى اللغة الإنجليزية

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياة إدوارد سعيد، حيث توطدت علاقاته بقيادات منظمة التحرير الفلسطينية، وارتبط بصدقة خاصة مع الشاعر محمود درويش، وشفيق الحوت ممثل المنظمة في بيروت، وكلاهما أصبح عضوا في اللجنة المركزية لتحرير فلسطين خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي.

وساعدت زيارات إدوارد سعيد المتكررة لبيروت لمساعدة والدته المريضة، والإبقاء على اتصالاته مع المنظمة. ورغم المحاولات المستمرة من جانب فصائل فلسطينية لضمه إليها، إلا أن إدوارد سعيد الحريص على استقلاله الفكري وحرية الأكاديمية جعلته يرفض

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الانخراط في أي صف من هذه الفصائل، وكان يقول: "مناضل: نعم، أما ملتحق أو عضو فكلًا" 63 ، I WAS A PARTISAN, YES, BUT A JOINER AND MEMBER, NO لقد شهدت هذه المرحلة طورا جديدا من حياة إدوارد سعيد كناشط سياسي حيث انخرط في العديد من الاتصالات والمفاوضات العلنية والسرية، كان هدفها فتح جسور حوار مباشر بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية وحس نبض بعض القوى الإسرائيلية حول أسس وآليات التسوية السلمية، وتكللت هذه المرحلة بانضمام إدوارد سعيد إلى عضوية المجلس الوطني الفلسطيني في 1982، ثم وصلت في نهايتها إلى استقالته منه عام 1991.

هناك عوامل كثيرة حفزت الإدارة الأمريكية وإدوارد سعيد في ذات الوقت، للقيام ببعض المهام الدبلوماسية، كتكليفه بنقل رسائل إلى ياسر عرفات. ومن هذه العوامل قناعة إدوارد سعيد بإمكانية التعايش بين الفلسطينيين والإسرائيليين على أساس من المساواة والاحترام وعودة الحقوق المغتصبة ونبد العنف والعنف المضاد، ومنها أيضا علاقاته ببعض كبار الموظفين في الإدارة الأمريكية، خاصة في عهد الرئيس جيمي كارتر، من ناحية، والعديد من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية، من ناحية ثانية 64 .

فقد نقل إدوارد سعيد رسالة في 1978 من سيروس فانس وزير الخارجية الأمريكي آنذاك، للرئيس عرفات، عبر شفيق الحوت، لإقناعه بأهمية قبول القرار 242 كخطوة ضرورية للحوار بين المنظمة والولايات المتحدة، وعندما طال الرد الذي لم يصل سافر إدوارد سعيد بنفسه إلى بيروت وقابل عرفات وعددا من القيادات الفلسطينية للتعرف مباشرة على موقف المنظمة من الموضوع 65 . وخلال حضوره اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني حثه على القبول بمبدأ الأرض مقابل السلام وقيام دولة فلسطينية مستقلة في حدود 1967

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

تعايش مع دولة إسرائيلية جنبا إلى جنب. كما حضر العديد من اللقاءات السرية التي نظمت وشارك فيها الأمريكيون والإسرائيليون والفلسطينيون من أجل الوقوف على آفاق التسوية السلمية.

لكن تجربة إدوارد سعيد كناشط سياسي وكوسيط كانت مريرة، حيث اكتشف بأن الرئيس عرفات هو الشخص الوحيد الذي يمسك كل خيوط السلطة، في ظل غياب تقاليد وآليات عمل ديمقراطية لصنع القرار داخل منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد خروجها من بيروت إلى تونس شعر إدوارد سعيد بتفاقم الأوضاع إلى الأسوأ، فمارساتها كانت تعكس سمات الفساد وجهل وعدم كفاءة في إدارة الصراع، ثم تفتت تلك الممارسات على نحو وبائي، وشكلت السمة الغالبة على السلوك في العديد من المواقف وإدارة الأزمات 66.

وفيما يخص اللقاءات السرية التي شارك فيها إدوارد سعيد فقد اكتشف بأن الخبراء الأمريكيين والإسرائيليين المتخصصين في إدارة الصراع بدئوا يسيطرون عليها ويوجهونها بحرفية بغرض ابتزاز الطرف الفلسطيني للحصول منه على أكبر قدر ممكن من التنازلات، ورغم هذه العوامل التي بدأت تثبط من عزيمة وحماس إدوارد سعيد، وربما أفقدته الأمل في جدوى العمل السياسي المباشر في مثل هذه الظروف، وهو الذي يصنف من بين أصحاب النفس الطويل، إلى أنه بدل "محاولات متكررة لترشيد آليات صنع القرار فاقترح إنشاء آلية لدراسة والتفكير في البدائل المتاحة Think thanks، لكن محاولاته باءت بالفشل" 67 .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن إدوارد سعيد لم يتوقف عن الكتابة خلال نشاطه السياسي والدبلوماسي، وربما تعكس هذه الكتابات في هذه المرحلة درجة من

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

إحباطه، ففي بعض الفترات عكست مواقف مؤيدة، وفي أوقات أخرى كانت متحمسة للخط الذي رسمه ياسر عرفات داخل الأجنحة المتصارعة على السلطة في منظمة التحرير الفلسطينية، "فقد أيد إدوارد سعيد مثلاً ياسر عرفات ضد الانشقاق الذي قاده أبو موسى بدعم من سوريا" 68، وتضمنت مقالات إدوارد سعيد في نفس الشأن، نقداً لاذعاً للدول العربية، بسبب سياساتها غير الديمقراطية وانتهاكاتها لحقوق الإنسان، وضمنها كذلك نقداً مباشراً لبعض مظاهر الفساد في منظمة التحرير الفلسطينية، ونقد بلهجة شديدة منظمة التحرير نفسها، تركزت انتقاداته حول سياسة المنظمة تجاه الولايات المتحدة وعجزها عن توصيل رسالتها وشرح قضيتها العادلة جداً لوسائل الإعلام ولمؤسسات المجتمع المدني في الغرب" 69 .

وبدأ إدوارد سعيد يدرك بأن دور المثقف والناشط السياسي، لم يعودا قابلين للتعايش في منظمة أصابها قدر هائل من الفساد، وبهذا بدأ سعيد المثقف يتمرد على كيان سعيد الداخلي الناشط السياسي، ويريد التحرر من قبضته ليتمكن من قول كل ما يمليه عليه ضميره، وخاصة بعد "أن أصبح عرفات يدير أزمة الخليج بطريقة عشوائية اضطرته فيما بعد لتقديم التنازل تلو الآخر للدور الأمريكي في خدمة المواقف الإسرائيلية.

ويجب الإشارة هنا إلى أن إدوارد سعيد، كان يدير خلافه مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بطريقة حضارية لائقة بمكانته. "فقد انتهز مناسبة اكتشاف إصابته بمرض اللوكيميا ليعلن عن استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني، مبرراً إياها بالأسباب الصحية، ولم يصرح بالأسباب الحقيقية، التي كانت في الواقع لخلافات سياسية إلا بعد أن تفجرت هذه الخلافات عقب التوقيع على اتفاقيات أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

عام 1993 في أعقاب مفاوضات سرية. فقد شعر سعيد، حينئذ بأن الصمت وحتى الحديث بصوت منخفض وهادئ، لم يعد مقبولا، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياة إدوارد سعيد وعلاقته بالقضية الفلسطينية" 70 .

والمرحلة الأخيرة من حياة إدوارد سعيد، 1993-2003 أي من اتفاقيات أوسلو إلى يوم رحيله في 25 سبتمبر 2003، وهي المرحلة التي شهدت قمة نضجه وتألقه الفكري وترسخت مكانته بوصفه مثقفا عالميا من طراز رفيع، وبصفته مناضلا فلسطينيا ملتزما بقضية شعبه وبأهداف حركة تحرره الوطني، ولكن هذه المرة من موقع معارضته لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية نفسها، حيث لم يكتف سعيد في هذه المرحلة بإنتاج مجموعة من أهم كتبه ودراساته باللغة الإنجليزية، منها صور المثقف أو محاضرات ريث، 1993؛ خارج المكان 1999؛ تأملات في المنفى 2000؛ القوة والسياسة والثقافة 2001؛ الثقافة والإمبريالية 1993، وغيرها، إنه كقائد للمعارضة الفكرية، ضد اتفاقيات أوسلو وتابع بدقة بالغة تطورات عملية التسوية على الأرض، مثلما تابع تطورات العالم العربي في ظروف عجزه المساوية 71 .

وعلى الرغم من كونه من أشد الأنصار حماسة للتسوية السلمية وهو الذي عمل من أجل تحقيقها بدون كلل ولا ملل، فقد أكد منذ الوهلة الأولى، أن اتفاق أوسلو لن يؤدي إلى سلام، وإنما استسلام كامل للمطالب الإسرائيلية، فهو اتفاق كارثي للشعب الفلسطيني. فذهب في مقالاته يعدد حججه وأسبابه: استمرار عمليات الاستيطان والسيطرة الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني وقدراته: المياه والاقتصاد والمعايير وتحويل السلطة الفلسطينية إلى أداة لتحقيق أمن إسرائيل وليس أمن الشعب الفلسطيني 72 . كما

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

أكد إدوارد سعيد على أن إسرائيل تخطط لتحويل الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967، إلى طرق سريعة ملتفة ومحيطة بالمستوطنات ومخصصة للمستوطنين والجيش الإسرائيلي، وإسرائيل لم تخف نواياها ومخططاتها قط.

وبعد انتقادات سعيد المبدئية لاتفاقيات أوسلو، وتبعه لنتائجها على أرض الواقع، تأكد من صدق تحليلاته، مما دفعه لصب جام غضبه على ياسر عرفات واتهمه بالعجز والفساد وعدم الكفاءة في إدارة الصراع، وبأنه حاول بهذا الاتفاق إنقاذ مستقبله السياسي بالتفريط في حقوق الشعب الفلسطيني، وفي هذا نجد سعيد يقول: "أظهرت السلطة الفلسطينية خلال السنوات الخمس من عملية السلام استهتارا مشينا وتبلدا مذهلا ورياء لانهاية له إزاء مسؤوليتها الأخلاقية والسياسية تجاه ماضي شعبها" 73 . ويضيف سعيد قائلا: "وعندما ألقى ياسر عرفات خطابه السقيم السيئ الصيت في الاحتفال في البيت الأبيض عام 1993، لم يقل شيئا عن الماضي بل خصص معظم الخطاب لشكر إسرائيل والولايات المتحدة، جلادي الشعب الفلسطيني، على كرمهما. "كان ذلك عرضا بالغ التفاهة مشبعا بالخنوع والرياء. من جهته ألقى إسحاق رابين خطابا كأنه الخطاب الفلسطيني المطلوب، مسهبا إلى حد الملل في الكلام، عن التوضيحات التي قدمتها إسرائيل في مسيرتها الصعبة نحو السلام، من دون أن يذكر شيئا بالطبع عن القرى 400 التي دمرتها إسرائيل عام 1948، أو مشاركته مع الجيش الإسرائيلي في الطرد المتعمد لثلثي السكان الأصليين وتشريدهم عن مساكنهم ومزارعهم لكي يستولي عليها مهاجرون من بولندا والولايات المتحدة الأمريكية" 74 .

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

وعندما وصل التعنت الإسرائيلي إلى درجة فاقت كل التصورات، وخاصة ما حدث في الولايات المتحدة في 9/11/2001، وتولي آريال شارون السلطة، اصطدم مع ياسر عرفات وحاصره في رام الله، لم يراجع إدوارد سعيد موقفه من عرفات ولم يلتمس له العذر فيما ارتكبه من أخطاء، بل ذهب يتأمل في هذه المفارقة العجيبة التي أصبح فيها رجل مثل عرفات محاصرا من رجل مثل شارون، رغم كل ما قدمه له من تنازلات، فيقول إدوارد سعيد: "في وضع ياسر عرفات، إذا ما تركنا جانبا تاريخه المليء بالأخطار وسوء الحكم، ما يدفعه إلى الشعور بأنه يهودي مطارد من دولة لليهود، ولا يمكن إنكار أن المفارقة الكبرى في حصاره في مجمعه المدمر في رام الله من طرف الجيش الإسرائيلي، أن معاناته تأتي بتخطيط وتنفيذ من زعيم مجنون يدعي تمثيل الشعب اليهودي. لا أريد المبالغة في هذه المقارنة، لكن الصحيح أن الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي يشبهون، من حيث الضعف، يهود أوروبا في أربعينيات القرن الماضي. فالقوات البرية والبحري والجوية - المعتمدة على حد كبير على التمويل والتجهيز الأمريكيين، تشن الدمار على الفلسطينيين المفتقرين إلى أي حماية" 75 .

وهذا ما يبين لنا بأن الشئ الجوهرى في فناعة إدوارد سعيد هو أن حل القضية الفلسطينية لا يكون بتحول الضحية إلى جلاذ، ولكن عندما يتحلى جلاذ اليوم، بما يكفي من الحكمة لتذكيره بمشاعر الضحايا والمظلومين. و يمكننا الآن الوصول إلى عدد من الأمور الهامة يجمعها لنا سعيد في بعض النتائج التالية:

إن القضية الفلسطينية، خاصة، وما يتعلق بالصراع العربي- الإسرائيلي، عامة، لم تكن بالنسبة لإدوارد سعيد "بمجرد موضوع بحثي أو أكاديمي، بل هي قضية حياته التي

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

عاشها فكريا وروحيا، وتأثرت بها أعماله الفكرية وسلوكاته" 76 ، ومعنى هذا أن رؤيته للقضية لا تتضح جليا لمجرد فحص في كتاباته، بل من خلال فحص لمجمل إنتاجه الفكري وسلوكاته العملي في الحياة اليومية.

إن إدوارد سعيد له كتابات تعكس فكره ومواقفه من قضايا سياسية، إلى جانب كتابات أخرى وثيقة الصلة بالقضية الفلسطينية، مثل قضايا العلاقة بين القوة والسياسة والثقافة، وقضايا العلاقة بين المنفى والهوية والقومية واللغة، وقضايا الهيمنة والإمبريالية والتبعية الثقافية، التي حاول سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية أن يـ "وسع المنظومات الواردة في الكتاب السابق (الاستشراق) ليصف نسقا أكثر شمولية من العلاقات بين الغرب الحواصري الحديث وأصقاعه الواقعة ما وراء البحار" 77 . ولا يمكن فهم موقفه من قضيته الأصلية والجوهرية هذه، ودوره الفعال فيها، بمعزل عن رؤيته الفلسفية والسياسية العامة.

إن قيمة إدوارد سعيد المتعلقة بالقضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي، مستمدة من قيمة كتاباته وطريقته في القول والعمل، وله وزن المفكر والمثقف من العيار الثقيل، فقد فرض نفسه رغم الحرب الشعواء التي شنتها عليه الصهيونية العالمية، في وسائل الإعلام المختلفة 78 ، وهو الذي استطاع مخاطبة الغرب بلغته وبالطريقة التي يفهمها، حيث وصلت رسالته إلى النخب الغربية وأثرت عليهم.

والملاحظ لخطاب إدوارد سعيد، تجاه القضية الفلسطينية، والصراع العربي - الإسرائيلي، يتبين له إن هناك اتساق كبير في بنيته الداخلية والخارجية، "فلا يوجد تناقض بين خطابه كمنفي، وخطابه كمثقف، وخطابه كناشط سياسي، هذا من ناحية، ولا توجد

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

أية فجوة بين فكره وممارساته، من ناحية ثانية" 79 . حيث اتصف كلاهما بقدر عالي من الشجاعة ووضوح الرؤية.

لقد انطلق فكر إدوارد سعيد من رؤية إنسانية مؤمنة بقيم العدل والمساواة بين جميع الناس، أفرادا كانوا أم شعوبا أم أمما، ودعا إلى نبذ التطرف سواء كان دينيا أم عرقيا أم وطنيا أم قوميا، كما نبذ العنف والإرهاب، وطبق كل ذلك على نفسه، وعلى شعبه الفلسطيني، وعلى أمته العربية، وحتى على البشرية جمعاء، بما في ذلك اليهود أنفسهم. حيث نجده يشير إلى "سفاهة الآراء التي حاولت الإنقاص من مساهمتهم خلال معاناتهم من المحرقة النازية، ولم يتردد في تسمية نظرية هنتنجتون عن صدام الحضارات بصدام الجاهلات، وبنفس الشجاعة، أدان إرهاب الدولة الإسرائيلية ومسؤوليتها عن دوامة العنف والعنف المضاد في المنطقة" 80 .

والمثير للانتباه والجدل في ذات الوقت هو ارتباط إدوارد سعيد، بصدقات عريضة بكبار المثقفين أو المفكرين أو الفنانين اليهود وغيرهم، وكان مندهشا من تمسك بعضهم بمواقف مؤيدة للصهيونية، رغم إعجابه ببعض منهم، ففي رثائه للمفكر البريطاني أشعيا برلين كتب معبرا عن دهشته البالغة: "برلين كان شخصا مؤمنا بالإنصاف والمشاعر الإنسانية في كل شيء إلا فيما يخص إسرائيل. وكان اندفاعه المتحمس والأعمى في هذا المجال مشابها لسلوك المتطرفين، سواء من اليمين أو من اليسار، الذين استنكر برلين مواقفهم دوما في كتاباته" 81 .

ويضيف سعيد قائلاً: "بهذا المعنى كان برلين مثقفا عضويا بالنسبة إلى إسرائيل ولصيقا بمصالح تلك الدولة، خصوصا عندما تحتاج تلك المصالح اعتبارات الإنصاف

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

والإنسانية، إلى درجة دفعت قراءه والمعجبين به إلى السير على طريقه وإعلاء شأن إسرائيل والتغافل عما ترتكبه من مظالم. لا يمكن القول إن برلين خلق الأكاذيب لخدمة إسرائيل، لكنه سمح لنفسه بالعمى نفسه الذي يتصف به الصهاينة العاديون إزاء الفلسطينيين، ذلك الشعب الذي لم تكن جريمته سوى الوجود في أرض حسب تعبير بلفور، لها أهمية جغرافية عظيمة إلى درجة لا يمكن تركها لرغبة وأهواء سكانها الأصليين" 82. وفي نفس المعنى تقريبا، نجد سعيد يعبر عن ذلك، تجاه جون بول سارتر بقوله: "الذي بقي على تأييده العميق للصهيونية، بدوافع لا يمكن التأكد منها حتى الآن" 83.

وفي مقابل هذا أشاد إدوارد سعيد بعازف الكمان اليهودي منوهين، الذي ربطته بإدوارد سعيد صداقة أصيلة ووثيقة. فلم يكن معروفا عنه بأنه متعاطف مع إسرائيل. إذ فجيء إدوارد سعيد حين قرأ في الصحف بأنه "فاز بجائزة إسرائيل، التي تمنح سنويا لأحد اليهود وتقدم في الكنيسة لاعتبارها أرفع تكريم، يقدم لشخص عن خدماته الجليلة للعالم ولليهود" 84. لكن دهشة إدوارد سعيد زالت عندما قرأ كلمة منوهين التي ألقاها في الكنيسة، والتي انتقد فيها السياسة الإسرائيلية، وطالبها بمراجعة معاملاتها للفلسطينيين، وذكر بأن من يحكم بالسيف يهلك به.

ولم يتردد إدوارد سعيد هنا في تشبيه صديقه اليهودي منوهين بأحد أنبياء إسرائيل قائلا: "على امتداد ما يقرب من خمسين سنة، كان منوهين، إلى جانب أينشتاين، نموذجا للعبري اليهودي على وجه التحديد. وقف دائما إلى جانب شعبه، وقدم بسخاء لتحقيق رفاهيته. وها هو الآن، مثل أحد أنبياء العهد القديم، يستخدم خطاب مبادئ الأخلاق اليهودية ليدين سلوك دولة انتهكت بسبب كونها دولة عبرية، حسب ما كان يرى بوضوح،

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

الأسس التي قامت عليها. إن معاملة إسرائيل للفلسطينيين كانت ترمز بالنسبة إليه لتخلي اليهود عن مبادئ الأخلاق لصالح القوة العسكرية، كما تجسد في الحرب التي تشنها بلا هوادة ضد شعب آخر" 85 .

لقد كان موقف منوهين مثالا نادرا وتعبيرا صادقا على ידי فنان جاهر بقوله، وبتأييد ما هو صائب في وقت كان اتخاذ مثل هذا الموقف يكاد يكون مستحيلا. "لم يهاجم عدوا واضحا أو هدفا موافقا عليه، بل على العكس من ذلك تماما، ندّد علنا بشعبه بالذات فيما كانوا يكرمونه. إن القيام بمثل ذلك العمل جهارا نهارا، ليس بالعمل السهل أبدا. لكنه عمل وموقف يسجل حقا لمنوهين، كإنسان ورجل يتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره، إن هذا هو ما فعله" 86 .

وكان إدوارد سعيد من الرجال الذين لا يتصرفون إلا وفق ما يمليه عليهم ضميرهم، وتحمل كل أنواع الأذى المترتبة عن ذلك، وفي حقيقة الأمر لم يكن ذلك سوى تعبير عن الضمير الإنساني في أرقى صوره. وفي هذا الصدد، فإن إدوارد سعيد تحدث عن بعض ما تعرض له من أذى، بسبب تمسكه بأوامر ضميره، وكان سببا زاده إصرارا وثباتا على مواقفه الجريئة. حيث يقول: "في أواخر يونيو وأوائل يوليو من عام 2000، قمت بزيارة عائلية إلى لبنان حيث ألقى محاضرتين، ومثل غالبية العرب، رغبت أنا والعائلة في زيارة جنوب لبنان لكي نرى الحزام الأمني الذي احتلته إسرائيل طول 22 سنة، وطردتها منه المقاومة اللبنانية" 87 .

ويضيف سعيد: "فكانت زيارة ليوم واحد وهو الثالث من تموز، قضينا خلالها بعض الوقت في سجن الخيام الذي أقامته إسرائيل في 1987 وعذبت فيه 8000 شخص في

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

ظروف بالغة الوحشية. وبعد ذلك ذهبنا إلى نقطة الحدود، حيث لم يزد توقفنا هناك عن عشر دقائق، ومن دون أن أدري التقطت لي صورة وفي يدي حصى صغيرة ألقيتها في مسابقة مع بعض الشباب كانوا برفقتنا، وكان هذا هو التعبير الشعبي عن احتفال اللبنانيين بالانسحاب الإسرائيلي. ومما هو مؤكد، أننا لم نستهدف أحداً، فقد كانت المنطقة مقفرة لأميال وأميال. وبعد يومين نشرت تلك الصورة في إسرائيل وأنحاء الغرب، ضمن تقارير وصفتني إرهابي يلقي الحجارة وداعية للعنف" 88 .

ثم يستطرد إدوارد سعيد قائلاً: "لم يكتف الصهاينة بذلك بل عمدوا إلى تنظيم حملة أخرى لطردني من الجامعة حيث أعمل منذ 38 عاماً. واستخدموا المقالات والتعليقات الصحفية ووسائل الشتم والتهديد بالقتل لتخويفي وإسكاتي، لكن الحملة باءت بالفشل بسبب الوقوف الكثير من الشرفاء معي" 89 . ثم ينهي إدوارد سعيد قائلاً: "وهناك الفصل الأخير من هذا المسلسل، هو ربما الأكثر خزيًا وإثارة للحزن. ففي أواخر تموز 2000 اتصل بي مدير معهد ومتحف فرويد في فيينا ليسأل إذا كنت أقبل الدعوة لإلقاء المحاضرة السنوية عن فرويد في مايو 2001، وقبلت، وبعدئذ ومن دون سابق إنذار وفي 2001/2/8 أبلغت من جانب رئيس المعهد، وهو عالم اجتماع نمساوي اسمه شولاينو أن مجلس الإدارة قرر إلغاء محاضرتي بسبب الوضع السياسي في الشرق الأوسط والنتائج المترتبة عليه، ولكنه اعترف بعد ذلك أن حادثة إلقاء الحصى هي من بين أسباب إلغاء المحاضرة" 90 .

إن الأمر البالغ في دلالاته بالنسبة لشخصية إدوارد سعيد، هو أن إلقاء حصى عبر الحدود تعبيراً عن فرحة رحيل جيش الاحتلال، يعتبر عملاً إرهابياً، "في الوقت ذاته، لا ترى في المذابح اليومية، التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني في أرضه المغتصبة، حيث يعود

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

إدوارد سعيد مؤكداً قناعاته وتصميمه على الاستمرار في الدفاع عن تلك الأرض بكل قواه" 91 ، وفي عبارات تعبر بحق وبكل موضوعية، عن مكانة إدوارد سعيد الفكرية وإنسانيته، يصرح: "ما زلت أعتقد أن دورنا كشعب ينشد السلام مع العدل هو أن نقدم رؤية بديلة للصهيونية، رؤية تقوم على المساواة والشمولية وليس على التمييز العنصري والإقصاء. وكل مواجهة تزيد قناعاتي بأن لا بديل لدى الإسرائيليين أو الفلسطينيين سوى تقاسم الأرض التي يطالب بها كلاهما. كما أعتقد أن انتفاضة الأقصى يجب أن توجه في اتجاه هذا الهدف، على رغم ضرورة تصعيد التصدي السياسي والثقافي لسياسات الاحتلال المشينة" 92 .

إن هذه الغطرسة الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني لن تحقق أي نتائج سوى المزيد من المعاناة والكراهية بين الشعبين، وهو ما يفسر إخفاق آريال شارون. ويرى سعيد بأنه من أجل هذه القضية، ينبغي على الفلسطينيين، أن "نسمو فوق إفلاس الصهيونية ونواصل التعبير بوضوح عن رسالتنا الداعية إلى السلام مع العدل. ومهما كان الدرب صعباً فلا يمكن التخلي عنه. وإذا أوقف أي واحد منا، يمكن لعشرة آخرين أن يحلوا مكانه. هذه هي السمة المميزة بحق لكفاحنا، ولا يمكن للرقابة أو التواطؤ الديني أن يحولا دون نجاحه" 93 .

إننا قد نختلف مع إدوارد سعيد في البعض القليل جداً من الأفكار التي كافح من أجلها، ولكننا نشاطره الرأي في الكثير من أفكاره، ولذلك فلا نملك إلا أن نحترمه كثيراً، لقد رحل الرجل عن هذا العالم في 2003/9/23، وهو يحمل أنبل شعلة، ولن يكن بوسع أحد أن يحل محله، فلم يكن شخصاً عادياً. فقد كان بمفرده جيشاً فتاكاً، ولكن ما هو مؤكد أن نضال الشعب الفلسطيني، وكل الشعوب المتطلعة للحرية والعدالة والمساواة

المبحث 1: مكانة المسألة الفلسطينية في كتابات إدوارد سعيد —

سيستمر في نضالها، من أجل تحقيق غاياتها بفضل الأعمال الفكرية والتراث الذي خلفه لنا رجال من طراز إدوارد سعيد.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

عندما أعيد انتخاب جورج بوش الابن في نوفمبر 2004، سادت الساحة العامة العربية حالة من القنوط والحيرة في آن واحد، فالقنوط، كان مصدره أطروحة تبناها قطاع واسع طوال الحملة الانتخابية مفادها لا فرق بين جورج بوش وجون كيري بالنسبة لنا نحن كعرب. فقد بحثنا، بلا جدوى، عن "موقف ايجابي واحد فقط لجون كيري إزاء أي من القضايا العربية، أما الحيرة فقد نبعت من سؤال فرضته نتيجة الانتخابات التي أكدت فوز جورج بوش بفارق ضخم وصل إلى 3,7 مليون من الأصوات الشعبية" 94 .

وبقي السؤال بلا إجابة عند الكثير من الناس، "يدور حول موقف الناخب الأمريكي نفسه، لا حكومته فقط. فما الذي يدفع بالأمريكي العادي إلى أن يتجاهل الاعتبارات التي أثارت استياء العالم، أو يعجز عن إدراكها، فيعيد للحكم الرئيس جورج بوش الابن الذي أدت سياسته إلى ارتفاع نسبة العداء للسياسة الأمريكية في كل منطقة من مناطق العالم، وليس فقط في المنطقة الدول العربية ؟" 95 .

ورغم هذا السؤال المطروح، فإن هناك اعتراف ضمني بأنه كان هناك بعض الفارق بين المرشحين للرئاسيات الأمريكية، ثم فضل الناخب الأمريكي جورج بوش على جون كيري، إن "هذا التناقض هو من بين أسباب القنوط والحيرة، ضاع في غمرة الاستسلام لليأس والغضب. وتظل النتيجة أن أمريكا في العقل الجمعي العربي حالة ميئوس منها في انخيازها ضد المصالح العربية. فهي صندوق أسود لا يملك مفاتيحه سوى اللوبي الصهيوني الموالي لإسرائيل" 96 .

هذه الصورة القائمة لأمريكا، تؤدي بالضرورة إلى طرح حلول وبدائل معينة، للتعامل مع أمريكا، "انطلاقاً من الرضوخ لها، ثم في المرحلة الثانية المواجهة معها، وأخيراً الوصول إلى مرحلة القطيعة الكاملة، أما بالنسبة للحل الأول أي الرضوخ فهو البديل الذي يتبنى باسم

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

الواقعية، وهو خيار يقوم على الانسحاق الثقافي والحضاري والركوع السياسي والاقتصادي لذلك الكيان العملاق" 97 ، ونحن لا نملك أية قوة في مواجهته، وتبقى مواجهة أمريكا تتراوح بين العنف المسلح والمواجهة الثقافية والدينية.

أما مسألة قطع العلاقات معها، فهي بديل ينطوي على التنازل الضمني من أمريكا لخصوم المصلحة العربية، وذلك عبر الانسحاب بالكامل من السعي للتفاعل معها أو التأثير فيها. وإذا كانت هذه البدائل مبنية على صورة معينة لأمريكا، فهل هي صورة صحيحة، تساعدنا فعلا على فهم ذلك هذا الكيان الغامض بما يفتح الباب أمام بدائل أخرى للتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية ؟

يرى إدوارد سعيد أن الصورة قائمة بالفعل ما لم ننتبه إلى أمريكا الأخرى كما سماها 98 ، وهي التي "لا يمكن اكتشافها دون دراسة نقدية للواقع الأمريكي من جوانبه المختلفة، فأمريكا ليست كتلة واحدة، وإنما تحتوي على الكثير من الأصوات والتيارات الفكرية التي تسعى الحكومة الأمريكية إلى إسكاتها أو تهميشها" 99 .

إن تلك الصورة السلبية مبنية، على فهم ناقص للولايات المتحدة الأمريكية، فهو يحتزل مجتمعا شديد التعقيد في مجموعة محددة من التفاعلات الرسمية وطبقة حكام قليلة معزولة عن سياقها العام، بل يجردها عن تفاعلاتها الحقيقية التي لا تقل أهمية في الحياة السياسية الأمريكية، بمعنى آخر، فإن تلك الصورة السلبية ترجع للمخططات السياسات الأمريكية، وسياساتها المختلفة في مناطق عديدة من العالم، بل "يساهم في تشكيل تلك السياسات بنفس القدر، تقصير عربي في متابعة الشأن الأمريكي متابعة دقيقة، تسمح برؤية

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

قسمات مهمة لذلك الكيان الضخم على نحو يفتح الباب لإيجاد بدائل أخرى للتعامل معه " 100 .

والحقيقة أن تلك الصورة تمثل الوجه الواحد لأمريكا الذي يجب علينا أن ننتبه إليه، لأنه لا يمثل الوجه الحقيقي لكل أمريكا، وهذا ما يسميه إدوارد سعيد أمريكا الرسمية في مقابل الوجه الثاني لها، وهو ما يعرف عنده بأمريكا الأخرى، وأما بالنسبة لإعادة انتخاب جورج بوش، وما أحاط بهذه العملية من مفارقات، تتعلق بعلاقة العرب مع الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تناول سعيد الكثير من مظاهر تلك العلاقة بالتحليل والنقد 101 .

إن النظرة الدقيقة لإدارة جورج بوش في عهده الثانية، تجعلنا نلاحظ بأنها تمثل استمرارية لإدارته الأولى، من حيث الرؤى والتوجهات العامة. ويجب الإقرار بوجود فارقا ضئيلا بين الإدارتين في العهدين الأولى والثاني. فإدارة جورج بوش الثانية، كالإدارة الأولى، لأن نشاطهما كان "يتحرك في مربع فكري تتدافع فيه المنظومة الفكرية لتياري المحافظين الجدد واليمين المسيحي معا، دون باقي اليمين الأمريكي، وهي بذلك تنتج سياسات تكون معبرة عن أحدهما في بعض الأحيان، وعنهما معا أحيانا أخرى" 102 .

رغم أن هناك اختلافات جوهرية بين هذين التيارين من حيث "طبيعتهما، ونشأتهما، وأصولهما الفكرية، والتي تؤدي برموزهما للدخول في صراع علني أحيانا، فإن هناك نقاط تماس يمكن من خلالها للتيارين أن يلتقيا، خاصة في قضايا السياسة الخارجية الأمريكية، وبالذات تجاه العالم العربي والإسلامي" 103 .

لقد ظهر تيار المحافظين الجدد Neo-conservative ، في "أولى إرهاباته في منتصف الأربعينات من القرن العشرين وتبلور في الستينات من نفس القرن، وهو تيار

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

فكري نخبوي، انقلب على الليبرالية الأمريكية. فقد بدأ تيار المحافظين الجدد بمجموعة من الكتاب والمثقفين وأساتذة الجامعات الذي كانوا ينتمون وقتها للتيار الليبرالي الأمريكي، ولكنهم انتقدوا الليبرالية الأمريكية بسبب انتهاج سياسات دولة الرفاهية والموقف من العلاقة مع الإتحاد السوفيتي منذ بدأ الحرب الباردة، في منتصف الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، وكان محور الجدل في تلك المرحلة هو ذلك الربط الذي عقده البعض بين التحدي الشيوعي في الخارج والراдикаلية السياسية في الداخل" 104 .

ولكن ظل هؤلاء جميعا على "انتمائهم لليبرالية، رغم تمردهم على البعض من جوانبها التطبيقية، حتى بدأت قطيعتهم معها في نهاية الستينيات من القرن العشرين بعد مراجعة شاملة لجوهر أفكارها" 105 .

وكان المجتمع الأمريكي في الستينيات من القرن الماضي مليئا بالأحداث الكبرى التي شكلت بداية لنهاية الارتباط بين هؤلاء المحافظون الجدد بالليبرالية. فقد كانت تلك المرحلة، هي أوج مرحلة لحركة الحقوق المدنية في أمريكا، و"ما تبعها من صدور لقوانين أرسى أسسا جديدة في المجتمع الأمريكي، وتم تدعيم برامج دولة الرفاهية من خلال تمرير تشريعات ليندون جونسون التي عرفت باسم المجتمع العظيم "Great Society" 106 ، هذا فضلا عن أنها شهدت أيضا عنفوان الحركة المناهضة لحرب الفيتنام.

وكانت هذه التطورات تجسد في الواقع صعود أفكار الليبرالية الأمريكية، فيما يتعلق بأوضاع المجتمع والدور الأمريكي في الخارج، وكانت هي المحك الذي أدى بهؤلاء الكتاب والمفكرين إلى مهاجمة الليبرالية الأمريكية والانقلاب عليها واعتبارها مسئولة عن مجموعة من المخاطر التي صارت، في رأيهم، تحيط بالمجتمع الأمريكي في الداخل والخارج" 107 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحمال سعيد

ولكن موقف المحافظين الجدد من رؤية الليبرالية الأمريكية، في ذلك الوقت، للدور الأمريكي في الخارج، كانوا ليبراليين لا يؤمنون بالانعزالية في السياسة الدولية، إذ كانوا يؤيدون أن تلعب بلادهم دورا قويا في العالم. "غير أن اختلافهم مع الليبرالية الأمريكية كان في جوهره موقفهم من الشيوعية، والذي تبلور أثناء حرب الفيتنام أكثر من أي وقت مضى، فقد كان المحافظون الجدد يؤمنون إيمانا عميقا بأن الشيوعية خطر حقيقي يهدد الوجود الأمريكي ذاته، فالشيوعية بالنسبة لهم كانت إيديولوجية صراعية في جوهرها، ومن ثم لا مجالا للتعايش معها، بل لابد من القضاء عليها، وإلا قضت على الولايات المتحدة الأمريكية" 108 .

وعليه فإن الحرب على الشيوعية لم تكن في نظر المحافظين الجدد، حربا باردة على الإطلاق، "بل هي حرب ساخنة بكل المقاييس، وهي حرب لا يمكن فيها المهادنة أو التوافق، إذ هي معركة وجود ينبغي أن تستخدم فيها الوسائل المختلفة، - حتى اللاأخلاقية منها - بما في ذلك السلاح النووي إذا لزم الأمر ذلك، رغم أنه لابد أن يظل الملجأ الأخير" 109 .

ولذلك كانت من أولى معارك السياسة الخارجية الأمريكية التي خاضها هذا التيار ضد الليبرالية الأمريكية، هي تلك التي "دارت بشأن المكارثية، ويعتبر إرفنج كريستول Irving-Kristol، واحدا من أهم الرموز البارزين لتيار المحافظين الجدد، وهو الذي يوصف أيضا، بأنه الأب الروحي لذلك التيار، فهو من احتفظ بالانتقاد الأكبر لليبراليين الأمريكيين. واعتبر أن هجوم المكارثية لم يكن دفاعا عن الحريات المدنية بقدر ما كان تعاطفا مع الشيوعيين كتقدميين من رفقاء الكفاح" 110 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

ثم جاءت مناهضة الليبراليين لحرب الفيتنام، لتمثل نقطة القطيعة، "فقد وجد المحافظون الجدد في هذا الحدث، استعدادا لدى الليبرالية لتقويض النظام العام، في إشارة إلى أحداث الجامعات وقتها، وعجزا عن إدراك حجم الخطر الشيوعي. فقد اعتبروا أن موقف الليبرالية، وخاصة اليسار الجديد منه، الداعي إلى احتواء الشيوعية، إنما يمثل انعزالية غير مقبولة ومهادنة خطيرة مع تهديد فعلي يمس الوجود الأمريكي" 111.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن حرب فيتنام كانت النقطة التي كشفت عن الاختلاف الجوهري بين المحافظين الجدد والليبرالية، الأمر الذي أدى إلى القطيعة معها، وكان الاختلاف متعلقا بمسألة نسبية القيم. فقد "اعتبر تيار المحافظون الجدد أن الليبرالية عجزت عن الانتصار على الشيوعية، بل وعن إدراك حجم الخطر الذي تمثله لأنها تقوم على نسبية القيم. فلا يوجد شر مطلق أو خير مطلق، مما نتج عنه عدم وضوح أخلاقي أدى إلى عجز الليبرالية عن إدراك الشر الكامن في الشيوعية" 112.

وهذا يعني بأن الحرب على الفيتنام هي التي فجرت أزمة تيار المحافظين الجدد مع الليبرالية، التي طالما انتموا إليها، على أساس يتعلق بجوهر فكرها، لا فقط بمنهج تعاملها مع القضايا الداخلية والخارجية.

ومنذ الوهلة الأولى كان لتيار المحافظين الجدد، "موقفا مناهضا للعمل الدولي الجماعي، إنه كان يرفض الانعزالية، إلا أنه كان يشك كثيرا في إمكانية تحقيق المصالح الأمريكية عن طريق العمل الدولي الجماعي، خصوصا من خلال المنظمات الدولية. وقد نبع ذلك الموقف من تقويم هذا التيار لدور الأمم المتحدة، خاصة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. فقد اعتبر رموز هذا التيار، هذه المنظمة الأممية تجسيدا

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

لأخطاء الليبرالية في السياسة الخارجية، لأنها تناهض حقيقة العلاقات الدولية التي تقوم بالنسبة لهم على القوة وليس المساواة بين الدول" 113.

وعليه فقد اعتبر أصحاب هذا التيار، بأن أحد الأخطاء المهمة التي وقعت فيها الإدارات الليبرالية الأمريكية المتتالية، هي "تعاونها الدولي من خلال الأمم المتحدة، التي أدت إلى التوسع الشيوعي في العالم، وانهيار الهيمنة الغربية عامة، والأمريكية على وجه الخصوص" 114، وكان جوهر انتقاد تيار المحافظين الجدد للأمم المتحدة، هو أن "عملها يتسم بازدواجية المعايير، ففي الوقت الذي أدانت فيه حكومة روديسيا البيضاء، لم توجه أية إدانة إلى نظام نكروما الديكتاتوري في غانا، وبينما طالبت فرنسا وبريطانيا بالخروج من قناة السويس، لم تطالب الاتحاد السوفيتي بالخروج من بودابست" 115.

وكل هذه الحوادث لم تكن معزولة عن قضايا أمريكا الداخلية والخارجية. فلم تكن من باب الصدفة، أن "تزامنت مع احتجاجات حركة الحقوق المدنية داخل المجتمع الأمريكي، وكذلك رافقت الحركات التحررية الوطنية المختلفة في آسيا وأفريقيا، بل إن حركة الحقوق المدنية كانت قد استلهمت فكر المهاتما غاندي بشأن العصيان المدني السلمي" 116.

وبالرغم من أن تيار المحافظين الجدد، كان قد بدأ بعدد محدود من الكتاب وأساتذة الجامعات، كان على رأسهم إرفنج كريستول وناثان جليزر وهارفي مانسفيلد، إلا أنه سرعان ما انتشرت أفكاره من خلال الدور الذي لعبه هؤلاء عبر رئاسة تحرير صحف ومجلات كبرى، كان من أهمها مجلة كومنتاري Commentary اليهودية اليمينية، ثم عدد من المجلات التي أنشئوها مثل بابليك إنترست Public Interest وناشيونال إنترست

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

National Interest، فضلا عن دورهم في تربية أجيال جديدة، خصوصا في الجامعات، من الطلبة الذين آمنوا برؤاهم الفكرية وتخرجوا من كبرى الجامعات الأمريكية وصاروا اليوم في مواقع قيادية مهمة 117.

ولكن يجب الإشارة، إلى أنه على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، أي قبل وصول جورج بوش إلى الحكم، تكاثرت نفوذ تيار المحافظين الجدد في مؤسسات الحكم ودوائر صنع القرار، حيث نجح في أن يخلق البنية التحتية اللازمة لتكريس نفوذه في مؤسسات فكرية وبحثة، وانتشار لرموزه في الإعلام، وتربية إطارات يتم تطعيم المؤسسات المختلفة بها. ولكن رغم ذلك، ظل في الواقع تيار المحافظين الجدد تيارا فكريا نخبويا، أي ليست له قاعدة شعبية. ومن ثم، فإنه يعتمد على القاعدة الشعبية لتيارات يمينية أخرى 118، من أهمها تيار اليمين الديني وبعض فصائل اليمين التقليدي، خصوصا تلك التي تتفق مع المحافظين الجدد بشأن السياسة الخارجية الأمريكية. ولعل هذا هو السبب الذي جعل البعض يخلط بين هذه التيارات، رغم الاختلافات بينها، بل والعداء الصريح أحيانا بين رموزها، خصوصا بين رموز تيار المحافظين الجدد وتيار اليمين الديني 119.

وعلى عكس تيار المحافظين الجدد، نجد تيار اليمين الديني تيارا نخبويا في جوهره من حيث الطابع والفكر، فهو يؤمن بأهمية دور النخبة الفكرية في المجتمع، واختلاف هذا الدور عن أدوار باقي القطاعات. مثلا، فهو يرى "أنه من الخطر أن يطلع عوام الناس على الحقيقة كاملة، لأن هذا قد يؤدي إلى فوضى وغليان، ومن ثم لا بد أن تظل الحقيقة الكاملة مقصورة على النخبة الفكرية فقط، لأنها قادرة على التعامل معها بحكمة وفاعلية.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

ومن ثمة، فمن الأفضل أن تظل عقلية المواطن البسيط محكومة بالتقاليد، ولا مانع من أن تحكمها القيم الدينية، بدلا من التقاليد، فهي تجعل العواطف الشعبية تحت السيطرة" 120.

وقد يرجع هذا الخلط بين التيارين لسبب آخر، وهو "تزامن صعود التيارين في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، وبداية الثمانينيات من نفس القرن، حينما كان رونالد ريغان Ronald Reagan رئيسا لأمريكا، بل والتشابه في الخطاب وقتها من زاوية مناهضة الليبرالية" 121.

ورغم انحسار اليمين الديني في الفترة الممتدة بين العشرينيات والستينيات من القرن العشرين، بعد صعوده في القرن التاسع عشر، فإن فترة الانحسار تلك لم تكن هي نهايته، إذ كانت مرحلة إعادة ترتيب أوراق البيت، وعاد بكل قواه على الساحة في السبعينيات. وكان التشابه بين خطابه والمحافظين الجدد هو مناهضتهما للنسبية الأخلاقية كإحدى سمات الليبرالية الأمريكية، غير المقبولة في مجتمع مسيحي، وأدت إلى انحلال أخلاقي وانحيار للقيم الدينية، وهو اختلاف جوهري بين التيارين. رغم أنهما يؤمنان بمسألة البعد الأخلاقي، وأهميته في السياسة الداخلية والخارجية، إلا أن تيار المحافظين الجدد، علماني يقيم هذا البعد الأخلاقي على أساس منظومة قيم قد تأتي من التقاليد وليس بالضرورة من الدين" 122.

وبتعبير آخر، فإن التيارين يؤمنان بمسألة الوضوح الأخلاقي، وهو ما يؤدي إلى "الاتفاق حول سياسات بعينها في الكثير من الأحيان، ولكنه يؤدي أيضا إلى خلافات، خصوصا بشأن أولويات القضايا. فتيار اليمين الديني كان حتى الثمانينيات يركز على قضايا الداخل، وخاصة قيم المجتمع أي القضايا الاجتماعية، مما جعله يضع قضايا مثل الإجهاض

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

وإقامة الصلوات في المدارس، والمثلية الجنسية على قمة أولوياته. إلا أن نقطة الالتقاء كانت دوما العداء للشيوعية، وإن كان على أساس ديني وقومي، فالشيوعية كانت بالنسبة لهم تمثل التهديد الملحد لأمريكا المسيحية" 123.

ولليمين الديني موقف من الحداثة. فهو يؤمن بأن "أحوال البشرية تزداد سوءا بمرور الوقت، والبشر عاجزون وحدهم عن تحسين الأوضاع ووقف التدهور، فالأمر يحتاج إلى تدخل قوة عليا، ومن ثم، فإن عودة السيد المسيح إلى الأرض هي وحدها التي تمثل الإنقاذ والخلاص" 124.

إن البعض من أفراد هذا التيار، يؤمنون إيمانا راسخا "بعودة السيد المسيح ليحكم العالم لألف عام. والمسألة عندهم، لا تتوقف عن مجرد الاعتقاد بتلك العودة، بل هو الأساس لقراءة الأحداث العالمية، فالكتاب المقدس عندهم لا يتعرض فقط لتاريخ البشرية، بل يقدم خريطة لأحداث المستقبل، وبالتالي الدور الذي ينبغي للمؤمنين أن يلعبوه من أجل أن تتحقق تلك النبوءة ويتم إنقاذ البشرية" 125.

ومن على هذا، نلاحظ تأييد هذا التيار المطلق لإسرائيل، رغم أن الكثير من رموزه "متهمون بالعداء للسامية، إلا أن أحدا منهم لم يشكك في تأييدهم لإسرائيل. فتجمع اليهود في الأرض المقدسة أحد شروط تحقق النبوءة كلها. ثم إن المفاوضات مع الفلسطينيين عندهم بلا جدوى. فهي من ناحية، مناهضة للنبوءة، لأن إسرائيل ستظل في عداء مستمر مع أعداء المسيح، وسيتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق. ثم إن البشر عموما عاجزون عن تحسين أوضاعهم، من ناحية أخرى" 126.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وظلت مسألة تأييد إسرائيل مهمة في نظر هذا التيار، إن دوره في السياسة الخارجية الأمريكية قد تنامي، منذ بداية التسعينيات، حيث "صار يلعب دورا مهما في عدد من القضايا الأخرى. فقد كان هذا التيار من أهم القوى التي أدت مثلا إلى صدور قانون الاضطهاد الديني في 1998، وهو الذي لعب دورا أساسيا في فرض العقوبات على إيران في 1996، وكانت إحدى القوتين الرئيسيتين في الكونجرس الأمريكي دفعنا نحو إصدار قانون السلام في السودان في أكتوبر 2002. وقد اكتسب هذا التيار قوته بفضل التطور التكنولوجي، حيث صار له عددا هائلا من برامج التلفزيون والراديو، وصارت له قنوات مستقلة خاصة به، فضلا عن شبكة هائلة من المبردين يتم التواصل معهم عبر الإنترنت" 127.

ولتيار اليمين الديني نفوذ شعبي، يعود إلى منظمة الائتلاف المسيحي - Christian Coalition التي أنشأها روبرتسون بعد فشل حملته لمنصب الرئاسة الأمريكية في انتخابات 1988. "وقد تولى هذا الائتلاف الشاب رالف ريد الذي لم يتعد عمره في ذلك الوقت، الخامسة والعشرين ما بين 1993-1997، والذي يرجع إليه الفضل في تحويل هذا التيار من خلال منظمته إلى قوة بالغة الفاعلية في العمل السياسي الأمريكي. وكانت هذه المنظمة هي إحدى المنظمات المهمة التي لعبت دورا محوريا في تحقيق الفوز الساحق للجمهوريين في انتخابات 1994 التشريعية، حيث نجحوا في السيطرة على الأغلبية في الكونجرس، بمجلسيه لأول مرة منذ أربعين عاما" 128 .

والجدير بالذكر هنا هو ، أن "رالف ريد كان قد سعى إلى توسيع نطاق نفوذ هذا التيار، فدخل في تحالفات مع عدد من المنظمات الكاثوليكية اليمينية، وعدد من

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

اليهود الأرثوذكس أيضا" 129. كما نشير في هذا السياق "للعلاقات القوية لهذا التيار مع اليمين الإسرائيلي، حتى أصبح تقليدا متعارفا عليه منذ عهد مناحم بيغن، أن يزور زعماء حزب الليكود هذه المنظمات في واشنطن، قبل لقائهم بالمسؤولين الأمريكيين" 130.

يتضح لنا من هذا العرض، أن هناك نقاط اختلاف بين تيار المحافظين الجدد واليمين الديني. لكنهما يتحدان في حالة "وجود عدو خارجي. ففي الحرب الباردة، كانت نقطة الالتقاء بينهما، هي العداء للشيوعية، رغم أن أحدهما، عاذاها على أساس سياسي استراتيجي، بينما اعتبرها الطرف الآخر، تهديدا للقيم الدينية في مجتمع مسيحي" 131.

ولما انهار الاتحاد السوفيتي سابقا، انهيار العدو الذي وحد بين التيارات اليمينية المختلفة، وخاصة منها هذين التيارين، ومن ثمة، "حدثت فجوة بين هذه التيارات بشأن طبيعة الدور الأمريكي في عالم جديد. الأمر الذي أُنذر بحدوث نكسة لليمين الأمريكي بعد الصعود الذي حققه في عهد الرئيس رونالد ريغان" 132.

وبعد غياب العدو الواحد، كان من الصعب على التيارات المستخدمة للخطابات المتشددة أن "تبقى محافظة على مكتسباتها على الأرض، فقد حدثت مواجهات واتهامات متبادلة، بين تيار المحافظين الجدد واليمين الديني. واعتبر هذا الأخير، بأن المحافظين الجدد، بفكرهم العلماني، يمثل خطرا على حركة اليمين، لا تقل خطورتها عن الليبرالية، فراح اليمين الديني، يركز على أعداء الداخل المسؤولين عن الانهيار الأخلاقي" 134.

إن أحداث 2001/09/11 أعادت للتيارين قوتهما. "فقد أصبح هنا عدو جديد، وصار من السهل استخدام الخطاب نفسه، واتهام الآخرين بالتهاون معه، بالضبط كما كان الحال زمن الشيوعية. "إن المتابع لأدبيات تيار المحافظين الجدد واليمين الديني يلاحظ

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

بوضوح إعادة إنتاج الخطاب نفسه، وإن كان قد تم تكييفه ليتناسب مع العدو الجديد. الذي أحدث انقلابا في السياسة الخارجية الأمريكية" 135.

وصدر كتاب لبعض رموز تيار المحافظين الجدد بعنوان الخطر الراهن Present danger، والتعبير نفسه أطلقته مجموعة من الرموز الأولى لهذا التيار على لجنة شكلوها في السبعينيات، تسمى لجنة الخطر الراهن Committee on the present danger، "وقتها كان الخطر الراهن هو الشيوعية، أما في عام 2000، فلم يكن هناك عدوا واضحا كان الخطر الراهن، هو أن تتخلى أمريكا عن مسؤولياتها الدولية، فتخفض الميزانية العسكرية، وتتجاهل دورها في تشكيل العالم" 136، الأمر الذي من شأنه أن يخلق مخاطر حقيقية "لا تقل في تهديدها عما كان يمثلها الإتحاد السوفيتي منذ ربع قرن" 137. وتبنى تشارلز كروثامر وهو أحد رموز هذا التيار، المقولة التي اعتبرت "أن عقد التسعينيات كان عقد الفرص الضائعة، لأن إدارة جورج بوش الأب، ثم إدارتي كلينتون عجزت عن تحويل لحظة الهيمنة الأمريكية إلى عصر الهيمنة الأمريكية" 138.

وكان للولايات المتحدة لأول مرة الفرصة لتشكيل النظام العالمي، على نحو يدعم أمنها ويخدم مصالحها ومبادئها، "بدون معارضة من أية قوة دولية فاعلة، ولكن بدلا من أن تسعى للإطاحة بالديكتاتوريات الخطيرة في بغداد وبلغراد، جمعت إدارة كلينتون بين التهديد والعمليات العسكرية غير المجدية. وبدلا من أن تضغط بقوة لتغيير النظام السياسي في كل من بيونج يانج وبكين، قامت إدارتي بيل كلينتون وجورج بوش، عبر الانخراط في علاقات مع كلا النظامين، وبدلا من مواجهة التهديد الاستراتيجي والأخلاقي الذي مثلته تلك الأنظمة الشريرة، سعت الولايات المتحدة إلى العمل معها جريا وراء وهم الاستقرار" 139.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

تلك الفرصة لا تعوض إلا "بتغيير جوهرى في الأسس التي تقوم عليها نظرة الحكام والرأي العام الأمريكيين لدور الولايات المتحدة في العالم" 140، بهدف الحفاظ على الهيمنة الأمريكية، وتشكيل العالم على نحو يخدم المصلحة الأمريكية، ولتحقيق ذلك ينبغي زيادة القوة العسكرية المستخدمة عند اللزوم لردع من يعارض أمريكا، المستعرضة عند الضرورة للقضاء على الإيديولوجيات المعادية" 141.

وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001، تمت إعادة إنتاج الخطاب نفسه من جديد، الذي كان يحتوى على كل المنطلقات والرؤى، والخطط، بدءا من فكرة إحداث تغيير راديكالي في السياسة الخارجية الأمريكية، ومرورا بفكرة تغيير النظم، بما فيها النظام الصيني، ووصولا إلى إعادة النظر في الأسس التي تقوم عليها أية تسوية للقضية الفلسطينية، وكل ما في الأمر هو أن هذا التيار كان قد نجح ببراعة في ربط كل ذلك بأحداث 11 سبتمبر 2001.

ويتضح أن هذا الخلاف تيارى المحافظين الجدد واليمين الديني يتضاءل في السياسة الخارجية الأمريكية، مقارنة بسياساتها الداخلية. ورغم اختلاف منطلقا تهما، إلا أن كليهما اعتبر الشيوعية خطرا على أمريكا، وأيدا وجود جيش قوي وميزانية عسكرية كبيرة، بل إن كليهما يدعم إسرائيل بشكل مطلق، ويؤيد سياسات حزب الليكود خاصة. لذلك "يتفق هذان التياران، في مواقفهما في الكثير من القضايا الخارجية، ما جعلهما ركيزة معا لحكم إدارة جورج بوش. فمن ناحية، يوجد لفكر المحافظين الجدد نفوذ قوى داخل هذه الإدارة، بداية من المواقع الحساسة التي تتولاها رموزه، ومن ناحية أخرى، لا يملك جورج بوش

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

استعداد اليمين الديني الذي يمثل أحد القطاعات المهمة التي تحسم الانتخابات لصالح الجمهوريين عندما يضيق الهامش بين الحزبين " 142.

وبإعادة انتخاب جورج بوش، ظلت هذه التركيبة قائمة (المحافظون الجدد، في مراكز مهمة لصنع القرار، واليمين الديني المسيحي كأحد أسس القاعدة الشعبية التي يركز عليها جورج بوش، الذي يظل لدينا لهم بالفوز). وقد جاءت ترشيحات الرئيس للمناصب المختلفة في فترة حكمه الثانية لتكون مؤشرا قويا يدل على إحكام قبضة تلك المنظومة الفكرية على عملية صنع القرار. ونستنبط أن "من وراء تلك الترشيحات المختلفة، سواء لمناصب القيادة في الشؤون الداخلية أو الخارجية، أن الولاء كان المعيار الأول للاختيار. وقد هدفت هذه الترشيحات إحكام القبضة على أداء الهيئات المختلفة للجهاز التنفيذي وتقليص مساحة الاختلاف في وجهات النظر داخلها، بل حتى داخل الحلقة الضيقة المحيطة بالرئيس" 143.

وتزداد الخطورة بالنظر إلى طبيعة العلاقة بين المؤسسات السياسية المختلفة. فالرقابة والتوازن Checks and Balances، اللذان يمثلان أهم الدعائم الرئيسية التي يقوم عليها النظام السياسي الأمريكي، قد أصابهما عطب حقيقي في عهد جورج بوش، حيث انهارت المعارضة المؤسسية. "فالكونجرس، وهو الشريك الأساسي للسلطة التنفيذية، تظل الأغلبية فيه بيد حزب الرئيس، والخطورة لا تنبع من نجاح الجمهوريين في زيادة عدد مقاعدهم، بل تتمثل في ضعف الحزب الديمقراطي الذي يعاني من أزمة صنعها لنفسه، حينما أنحنى بالكامل لرغبات الرئيس وحزبه بعد أحداث 2001/09/11. فانحسر بذلك الكونجرس في ممارسة الرقابة الدستورية، وكذلك المؤسسة الثالثة التي كان يفترض أن تقوم بالرقابة والتوازن،

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

أي القضاء، فهي مرشحة أيضا للانحراف، حيث ستتيح للرئيس بوش فرصة تعيين قاض واحد على الأقل أثناء فترة حكمه في المحكمة العليا، الأمر الذي سيؤدي لميل المحكمة نحو اليمين فضلا عن عشرات التعيينات للمحاكم الفيدرالية الأدنى درجة" 144.

إن إعادة انتخاب جورج بوش سيعطي فرصة أربعة سنوات للمحافظين الجدد، "نحو المزيد لترسيخ أفكاره ونفوذ، وهو قادر على ذلك. بل أكثر، إنه سيعطي شرعية لليمين عموما كتيار فكري" 145.

وحيث، ستموت المعارضة المؤسسية في أمريكا، تجاه إدارة تسيطر فيها نخبة من المحافظين الجدد سعيها هو إعادة تشكيل خريطة العالم، والتركيز على قاعدة شعبية يمثلها اليمين الديني، الذي يؤكد على هوية أمريكا المسيحية، وهو من أهم قواها السياسية وأكثرها نشاطا. "إن المحافظين الجدد يعملون على رسم خريطة للعالم العربي والإسلامي، وكانت أحداث سبتمبر 2001 هدية قيمة لهذا التيار لتبرير أهدافه التي كانت معدة سلفا، وعلى رأسها غزو العراق، تم الخلط بين تبرير الإرهاب والسعي لفهمه كظاهرة، والتعامل مع العرب والمسلمين ككتلة واحدة، وعدم التفرقة بين مناهضة السياسة الخارجية الأمريكية وكرهية أمريكا والأمريكيين. وبتعبير جورج بوش بعد أيام فقط من أحداث 2001/09/11 قوله: (فهم يكرهون حرياتنا)، عبر عن حيرته من سوء الفهم (يكرهنا الناس، رغم أننا شعب خير)" 146.

وفي هذا السياق فإن ترتيب خريطة المنطقة عند المحافظين الجدد لا تكون إلا بالقوة العسكرية ومواجهة الإيديولوجيات المعادية وعلى رأسها الإسلام الذي يتسم بروح المقاومة.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

وهذه الصورة يبعديها تؤكد على وجود كتاب ومفكرين على استعداد للتنظير لها والترويج لتوجهاتها.

وبالنسبة لإعادة تشكيل العالم العربي والإسلامي، فإن الكاتبة شيرل بينارد Cheryl Benard. وهي واحدة من أصحاب هذا التيار، ففي الوقت الذي اعتبر كتاب هانتنغتون: من نحن ؟ مثالا حيا لإعادة تشكيل الهوية الأمريكية على أساس البعد الديني (اليمين الديني)، - أصدرت تقريرا عن مؤسسة راند بعنوان إسلام مدني ديمقراطي Civil Democratic Islam الشركاء والموارد والاستراتيجيات، "وتكمن أهمية التقرير هذا في طبيعة المؤسسة المشرفة عليه، وتوجهات كاتبته، وموضوعه، إن مؤسسة راند هي إحدى مراكز الفكر في أمريكا، ويوجد عددا هائلا المؤسسات المماثلة، نشأت منذ الثمانينيات من القرن الماضي، بحيث لا يلتزم باحثوها بأصول البحث العلمي، فهي مراكز للفكر، لا للدراسات والبحوث، تمولها هيئات حكومية، كمكتب وزير الدفاع الأمريكي وأجهزة الأمن والمخابرات" 147.

والكاتبة شيريل بينارد تعمل مستشارة بمؤسسة راند، وهي أحد رموز تيار المحافظين الجدد، وهي ذات صلة وثقة بالدائرة المقربة بالرئيس جورج بوش، وهي قرينة زالماني خليل زاد، ذي الأصول الأفغانية، الذي عمل في مجلس الأمن القومي تحت رئاسة كوندوليزا رايس في إدارة جورج بوش الأولى، ثم مستشارا خاصا للرئيس أثناء غزو أفغانستان، ثم سفيرا لبلاده في أفغانستان بعد احتلالها، ثم سفيرا للعراق أثناء الاحتلال الأمريكي له 2003، وممثلا لأمريكا لدى الأمم المتحدة" 148.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

إن خطورة هذا التقرير، تكمن في تجسيد خطة ينبغي التعامل بها مع الإسلام، فهي تقر بعدم الاعتماد على التيارات الموجودة في العالم الإسلامي كشركاء، وتدعوا إلى صناعة إسلام جديد وصفته في مقدمة تقريرها بعملية بناء الدين building Relegion على غرار بناء الأمم Nation building 149، والخطورة في عملية بناء إسلام جديد، أنها عملية تتم في الغرب ثم يتم تصديره إلى العالم الإسلامي كبديل عن إسلامه، لأن هذا الإسلام الحالي لا يصلح كشريك، لأنه ليس معتدلاً، بينما الإسلام الجديد الذي سيبني في مراكز فكر شيرل بينارد منزوع منه روح الاستقلال والاعتزاز بالحضارة الإسلامية، وهو بلا أنياب أو منزوع السم Defanged. حسب ما كتبت في هامش من تقريرها 150.

ولكي تصل بينارد لهذه النتيجة، فقد بدأت من مقولات إدوارد سعيد المعروفة التي فضحها فيها وأطلق عليها تعبيره الفذ تغطية الإسلام Covring Islam وهي التسمية نفسها التي أطلقها على كتابه الذي نشر عام 1981، وتلك المقولات في حقيقة الأمر تغطي أكثر مما تكشف 151.

وجاءت بينارد، بخطة تتعامل بها مع العالم الإسلامي وتعتمد على من أسمتهم بالحدثيين Modernists، وجلهم يعيشون في أوروبا وأمريكا، (خارج العالم الإسلامي)، والقاسم المشترك بينهم، هو لا صلة لهم بالعالم الإسلامي إطلاقاً، لا بقضاياها، ولا حتى بواقعها، ولا وزن لأي منهم فكرياً وسياسياً، ولا أصل لهم في الحركات الاجتماعية، فهم باحثون ومفكرون مسلمون يعملون في جامعات أمريكية وأوروبية، منهم، ابن وراق صاحب الكتاب الشهير لماذا أنا لست مسلماً ؟ باعتباره البديل الإسلامي والوجه المعتدل الوحيد للإسلام الذي يمكن لأمريكا التعاون معه 152.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

إن هؤلاء الشركاء لإعادة بناء الإسلام يوجدون في الغرب. والمطلوب هو ربطهم مع بعضهم لكسر عزلتهم الحالية، وترويج أفكارهم، ثم استخدام الإعلام لتسويقهم في العالم العربي الإسلامي. وذلك من أجل خدمة أهداف السياسة الأمريكية.

إن العالم العربي والإسلامي المتأزم، يقابله إدارة أمريكية قوية عسكريا، وهو الجانب الأول الذي تستخدم في سياستها الخارجية، وفي تعاملها مع العالم العربي الإسلامي. والسؤال الجدي المطروح: هل من سبيل لمقاومة ذلك السباق المستمر إلى الأسفل ؟ 153 ، أي المزيد من التعصب والعسكرة على الجانبين ؟ وما هو نوع المقاومة الممكنة في ظل كل هذه الأوضاع المختلفة ؟ 154.

إن الخطاب الموجود في العالم العربي والإسلامي تجاه أمريكا في العقود الماضية، وبعد إعادة انتخاب الرئيس جورج بوش الابن، ليس هو المرة الوحيدة التي كان مخيبا للآمال، فهو خطاب احتوى على الكثير من التعميم، وكان مصحوبا بحالات انفعالية، حيث كان يرى أن أمريكا حالة مرضية ميئوس من علاجها لانحيازها الدائم واللامطلق لإسرائيل، والخطاب نفسه يقدم انتقادات لانهائية لكل سياسات أمريكا الخارجية، ولم ينتقل، إلى نقطة إيجابية واحدة تتغير فيها المطالب المشروعة إلى تفكير موضوعي، يبحث في سبل مقاومة سلبيات تلك السياسات، تجاه العالم العربي والإسلام، وبالتالي فلماذا لم ننجح في إحداث تلك النقلة النوعية الضرورية للتغيير مثلما فعل اليهود الصهاينة؟ "السبب هو أننا، نحن العرب والمسلمين، قد قصرنا في فهم أمريكا فهما جيدا، بحيث أن الفجوة لا تزال كبيرة وخطيرة. بين حجم الانشغال بالدور الأمريكي وأثره على مصالحنا الحيوية، وبين الاهتمام الجدي بفهم أمريكا فهما علميا دقيقا يسمح بحماية هذه المصالح" 155 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

في ظل غياب البحث العلمي، فإنه من الطبيعي أن يبقى فهمنا لأمريكا أسيرا لانطباعات ولصور نمطية مبنية على تجارب فردية أو خبرة أحداث ووقائع تاريخية بعينها، يتم من خلالها القفز إلى تعميمات لا تقوم على ضوابط منهجية. الأمر الذي يقلل من البدائل المطروحة، وتظل محصورة في نطاق الصراع الحضاري، وهو فخ لا بد من الحذر منه لأنه غلو لا يخدم إلا تيار الغلو الأمريكي 156.

ولكل هذه الأسباب، أولى إدوارد سعيد أهمية كبيرة في كتاباته لإنشاء مراكز للدراسات الأمريكية في العالم العربي 157. ففي كتاب الاستشراق Orientalism، اعتبر سعيد أن غياب مثل تلك المراكز المعنية بدراسة أمريكا، دراسة معمقة ونقدية، أحد المؤشرات الدالة على استمرار الهيمنة الثقافية 158، لأنه يسمح بقبول النموذج الرسمي لهوية أمريكا وتغيب النماذج الأخرى، مما يغلق الباب أمام العمل الفعال والمقاومة.

وفي واقع الأمر، فإن قيمة إدوار سعيد لا تتوقف عند دوره كمفكر وباحث اتسمت كتاباته بعمق نظري، تبنى من خلاله أطر تحليلية نقدية اهتم بشكل منهجي بإبراز التعقيدات الهيكلية ذات البعد التاريخي لعلاقات القوة. بالإضافة إلى تلك المساهمة الفكرية، فقد تبنى سعيد رؤية لدور المثقف، مما جعله يولي الاهتمام الكبير للمشاركة في مجرى الأحداث والتفاعل مع الحاضر والاستجابة لتحدياته، وكان سعيد نفسه نموذجا مجسدا لذلك الدور، من خلال انخراطه في العمل السياسي المباشر وكتاباته في صحف كبرى مثل الأهرام ويكلي Al Ahram Weekly التي دعا فيها إلى الاهتمام بالدراسات الأمريكية، وهي دعوة تجلّى فيها الدور الذي لعبه سعيد في التفاعل مع الحاضر وتحدياته، وبمعنى آخر، "فإن دراسة أمريكا، عند إدوارد سعيد كانت تفتح الباب للمقاومة من خلال التعرف على

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحمال سعيد

المسكوت عنه والتفاعل معه، أي اكتشاف الوجه الآخر لأمريكا الذي يمكن التحوار معه. ففي غمرة الانشغال باليأس والغضب، تضيع بعض الخيوط المهمة، والمفتاح، إذن، هو التقاط تلك الخيوط وحياتها على نحو قد ينتج نسيجاً مختلفاً لصورة ذلك الكيان المعقد المسمى أمريكا" 159 .

ولعل انتخابات الرئاسة الأمريكية 2004، مثلاً ممتازاً يمكن استخدامه كنموذج يتم إخضاعه لذلك النوع من الدراسة التي تهدف إلى التقاط الخيوط والتركيز على المسكوت عنه.

أولاً: ليس صحيحاً القول بأنه بعدم وجود فرق بين جون كيري وجورج بوش في السياسة الخارجية. لا يظهر "الاختلاف فعلاً من خلال تصريحاتهما إزاء كل القضايا العربية، بل يتضح من خلال رؤية كل منهما للعالم وكيفية التعامل معه. إن الفرق الرئيسي بينهما، يخص الأسلوب الأمثل لإدارة الإمبراطورية الأمريكية، إن مشروع جورج بوش تقوم فيه السياسة الخارجية والأحادية في اتخاذ القرارات على الجانب العسكري، أما جون كيري فيميل إلى تيار يمين الوسط الديمقراطي، حيث يستخدم في تلك السياسة، المعونات والاتفاقات الدولية والتجارة الحرة والضغط الاقتصادي، والاستعداد لاستخدام القوة العسكرية عند الضرورة الملحة فقط" 160.

ثانياً: لا بد من قراءة الانتخابات الأمريكية في سياق النظام الانتخابي الأمريكي نفسه، "إنه نظام مصمم عن قصد لإعطاء الناخب الأمريكي دوراً، ولكنه يضع ذلك الدور دوماً تحت السيطرة من جانب النخبة، وهذا الدور محدود بقيود دور المال، والإعلام، وجماعات المصالح، فلا بد من أخذ هذه المتغيرات بعين الاعتبار، قبل إصدار أحكام جزافية

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

حول حقيقة ما قاله الأمريكيون فعلا عبر صناديق الانتخابات " 161 ، أي إن ما يجري في أي اقتراع يتطلب الانتباه إلى المسكوت عنه، بنفس قدر إلى ما يقال، فالمسكوت عنه في أحيان كثيرة يكون أكثر دلالة مما تم تناوله.

وفي الانتخابات الأخيرة، مثلا، رغم الخطاب المتضمن تصدير الديمقراطية والحرية للعالم، فإن صمتا مطبقا أحاط بقضية انحسار الحريات المدنية داخل أمريكا نفسها، وهو صمت شارك فيه المرشحين أنفسهم، وحتى الإعلام الأمريكي. ومما يثير الانتباه إليه أن من بين استطلاعات الرأي التي أجرتها المؤسسات على تنوع انتماءاتها للوقوف على طبيعة القضايا التي شكلت أولوية الناخب لحظة التصويت، - لم يضم استطلاع واحد منها قضية الحريات ولا الحقوق المدنية - ضمن القضايا أصلا.

لكن لعل المسكوت عنه في رسالة جون كيري الانتخابية كان أهم مما قاله فعلا. فما لم يقله جون كيري كان بالغ الدلالة لأنه يجيب عن أسئلة كثيرة. فعلى سبيل المثال، رغم أن جون كيري بنى حملته الانتخابية على أنه الأفضل من أجل إعادة العافية إلى تحالفات أمريكا الدولية، فإنه لم يذكر أبدا طبيعة الصلاحيات التي ستكون أمريكا على استعداد لإشراك الحلفاء فيها - إذا ما فاز بالانتخابات الرئاسية- بحيث كلما تحدث عن الحلفاء كان إشراكهم يعني فقط تحملهم الأعباء المادية والبشرية مع أمريكا، ورغم أنه لم يكف عن انتقاد إدارة جورج بوش بشأن أدائها في العراق، إلا أنه لم يجب عن أي من الأسئلة الصعبة، ولم يقدم أكثر من أفكار لا تعدو أن تكون خططا قصيرة المدى، فلم يقل، مثلا، ما هو هدف أمريكا بشكل واقعي في العراق في ضوء تردي الأوضاع، ولم يتحدث عن سقف التكلفة في الأرواح البشرية والمادية التي يمكن لأمريكا تحمله 162.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

إن سكوت جون كيري عن كل ذلك يجسد حجم المأزق الذي عانى منه الديمقراطيون، وهو مأزق صنعه الحزب لنفسه ودفع جون كيري ثمنه وغيره من المرشحين، فم منذ أحداث 2001/09/11، أصاب قادة الحزب الديمقراطي الذعر من الارتفاع المذهل في شعبية الرئيس (و هي عادة الرادع الأول لعضو الكونجرس لتحدي الرئيس)، وخشوا من اتهامهم بالتهاون إزاء الأمن القومي، فباستثناء أصوات قليلة من الديمقراطيين، مثل روبرت بررد و باتريك ليهي وتيد كيندي، فضلا عن النواب السود، انهارت تماما المعارضة المؤسسية، وانحنوا بالكامل أمام رغبات الرئيس ووافقوا على الكثير من البنود الخلافية، في أجندة الرئيس الداخلية والخارجية، فوافقوا على خفض الضريبي المذهل الذي تقدم به الرئيس، وأسهموا في تمرير قانون حب الوطن (باتريوت).

واستعدت أمريكا لانتخابات تشريعية تجري في نوفمبر 2002، وهي التي تأتي في منتصف مدة الرئاسة، ينتخب فيها كل أعضاء مجلس النواب وثلث أعضاء مجلس الشيوخ، وقد شهدت البلاد في ربيع وصيف 2002 أحداثا كانت تنذر بتحول المناخ السياسي الذي ساد بعد أحداث سبتمبر 2001، حيث تفجرت سلسلة من الفضائح المالية جسدتها انهيار شركة إنرون، ومجيء صيف 2002 كان عجز الموازنة قد وصل إلى مستوى جديد، فضلا عن تزايد نسبة البطالة، الأمر الذي كان ينذر ببوادر مرحلة جديدة ربما يستعيد فيها النظام الأمريكي بعض توازنه، ولكن إدارة جورج بوش كانت لها إستراتيجية للتعامل مع انتخابات 2002، وهي تغيير الموضوع، وكانت وسيلتها هي العودة إلى قضية الأمن القومي التي هي أساس شعبية جورج بوش، وذلك عبر طرح مسألة غزو العراق في المعركة الانتخابية.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وكانت إدارة جورج بوش قد عقدت العزم على غزو العراق منذ انتهاء الحملة العسكرية على أفغانستان 163. لقد بنى الحزب الديمقراطي رصيده تقليدياً - منذ الثلاثينيات من القرن الماضي - باعتباره الحزب الأفضل في التعامل مع القضايا الاقتصادية، بينما بنى الحزب الجمهوري رصيده على أساس أنه الأفضل في التعامل مع السياسة الخارجية، فحين أُلقت إدارة جورج بوش بقضية العراق إلى المعترك السياسي، تغيرت قواعد اللعبة، فكان على الديمقراطيين أن يتبنوا إستراتيجية انتهازية كلفتهم الكثير، مقدمتا ألا ينبغي لهم السماح لجورج بوش استثمار الحالة التي عمت البلاد، بعد أحداث 2001/09/11، لتحقيق انتصار لحزبه مستخدماً شعبيته، خاصة بشأن الحرب على الإرهاب، أما بشأن الإستراتيجية البائسة، فكانت قراراً بعدم مواجهته بشأن الأمن القومي، والسعي إلى صرف الانتباه بسرعة إلى قضايا الداخل 164. بمعنى آخر، سعى الديمقراطيون إلى تضييد قضية الأمن القومي بـ "التنازل عنها بالكامل لجورج بوش، عبر إعطائه ما أراد بشأن العراق، ثم تغيير الموضوع بسرعة، حتى تحتل قضايا الداخل الأولوية في الانتخابات، لكن جورج بوش وقتها كان قد حول الحرب على الإرهاب إلى قضية داخلية أي قضية من قضايا الأمن القومي، وفعل نفس الشيء بشأن غزو العراق، فالمسألة لم تعد بالنسبة للناخب استفتاء على سياسة جورج بوش الخارجية لأنه نجح في ربط قضية العراق بشكل وثيق بأحداث 2001، وقدمها للرأي العام بوصفها جزءاً من الحرب على الإرهاب، فهي بذلك تتعلق بالأمن الشخصي للمواطن داخل الأراضي الأمريكية نفسها، أي أنها لم تعد في الواقع قضية من قضايا السياسة الخارجية" 165.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وقد أثبتت الدراسات الصادرة بعد الانتخابات صحة هذا التحليل، فعلى سبيل المثال، "ثبت أن عدد السود، وهم أهم القوى التي تعطي أصواتها بكثافة للديمقراطيين، الذين أدلو بأصواتهم في تلك الانتخابات كان الأقل بالمقارنة بآخر عامين انتخابيين (1998 و2000)، بينما كانت أعداد الناخبين اليمينيين هي الأعلى على الإطلاق بالمقارنة بأية انتخابات تشريعية سابقة. وكان الجمهوريون قد سعوا فعلا إلى دفع الناخبين المحافظين للتصويت عبر حملة تعبئة مكثفة أطلق عليها اسم مشروع 72 ساعة قام بها الحزب في الأيام الثلاثة السابقة مباشرة على الاقتراع العام" 166.

وهكذا دخل الحزب الديمقراطي معركة الانتخابات الرئاسية في 2004، "وهو يعاني من مأزق صنعه لنفسه، وقد ازداد هذا المأزق عمقا، لما كان مرشح الحزب جون كيري عضوا في مجلس الشيوخ، و قد وافق على كل تلك السلسلة من القوانين والقرارات، فلم تنجح حملة كيري بالقدر الكافي في فك الترابط الذي استخدمه جورج بوش وبين قضية العراق والأمن القومي، بمعنى أن جون كيري عجز عن تقديم بديل مقنع للناخب الأمريكي، هذا، واستطلاعات الرأي التي أجريت عقب الانتخابات تعزز ذلك، فقد فاز جورج بوش رغم تزايد قلق أغلبية الأمريكيين إزاء أجدته الداخلية والخارجية، ورغم ارتفاع نسبة من صاروا يؤمنون بأن غزو العراق كان غلطة، بل وحتى ارتفاع نسبة من اعتبروا بلادهم تسير في الطريق الخاطئ" 167.

إن أية قراءة متأنية لنتيجة إعادة انتخاب جورج بوش في 2004، "لا بد أن تأخذ في حسابها الاعتبارات المختلفة التي شكلتها، فحصول جورج بوش على 51% من الأصوات الشعبية، هي نسبة عالية قطعا مقارنة بمقاييس الانتخابات الأمريكية، ولكن هناك 49%

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

صوتوا لغير جورج بوش، فماذا عنهم؟ وحتى نسبة 51% التي صوتت لبوش تحتاج للدراسة والفرز، فهم ليسوا جميعا منتمين لليمين الديني، الذي لا تتعدى نسبته في الولايات المتحدة 23% 168، والنتيجة، هي "أن الصورة الرسمية لأمريكا صحيحة، وهي إحكام قبضة المحافظين الجدد على صنع القرار، مع وجود حالات مقصودة لإعادة تشكيل العالم، بل وحتى تشكيل هوية أمريكا ذاتها، ولكنها صورة ليست حقيقية، لأنها ليست كل أمريكا. وإنها هي الصورة المراد ترويجها للعقل الجمعي الأمريكي، ثم تصديرها للعالم باعتبارها وحدها المتحدثة باسم أمريكا والمعبرة عنها". إلا أن هذه الصورة تستبعد الكثير من القوى والتيارات والمصالح، وتفرض عليهم هذه الصورة الرسمية التي عليهم قبولها والانسحاق فيها، وهذا ما يوضح أن أمريكا الرسمية ليست كلها كتلة واحدة. فالخلاف بين جون كيري وجورج بوش هو أحد تجليات التباين داخل المؤسسة الحاكمة Polilitical Establishment، أي داخل أمريكا الرسمية نفسها" 169، وهذا الخلاف ليس هو الوحيد، بل توجد تباينات داخل أمريكا الرسمية، فهناك، على سبيل المثال، التباين التقليدي بين المؤسسات والهيئات المختلفة، والمعارك بينها (في الواقع كقاعدة وليس كاستثناء في النظام السياسي الأمريكي)، وصلت في عهد جورج بوش الابن إلى مستويات غير مسبقة 170.

والخلاف الذي برز بين وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية، من ناحية، ووزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي، من ناحية ثانية، بشأن غزو العراق ليس جديدا في الحالة الأمريكية، وقد "كان الكونجرس الأمريكي وراء قانون نقل السفارة الأمريكية للقدس في 1995، ولكن القانون لقي معارضة قوية من وزارة الخارجية الأمريكية، بل صدر دون توقيع الرئيس بيل كلينتون الذي استخدم حقه في الامتناع عن التوقيع حين واجه أغلبية ساحقة

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

في المجلسين، ولم يكن الموقف الذي تبناه المدنيون في وزارة الدفاع قبل غزو العراق، هو الموقف الوحيد بداخلها، حيث اختلف معهم العسكريون اختلافاً وصل إلى حد الصراع، والأمير نفسه بالنسبة لأجهزة المخابرات المركزية الأمريكية¹⁷¹، وبمعنى آخر، "إن الصراع المؤسسي ليس جديداً في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن جوهر الصراع وصل إلى مستويات جديدة، إذ أن إدارة جورج بوش تحدث انقلاباً حقيقياً في سياسة أمريكا عموماً". 172 .

وهناك عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين المخضرمين مثل روبرت بيرد وتيد كيندي وباتريك ليهي، "الذين عارضوا أجندة جورج بوش في الداخل والخارج معاً، وهناك معارضة المواقف التي لا تقل أهمية حتى من بعض الرموز المهمة في حزب الرئيس نفسه، حيث لا يجوز وضع أعضاء بارزين من الحزب الجمهوري مثل ريتشارد لوجار وتشاك هيغل في نفس السلة مع أنصار الحرب اللانهائية من المحافظين الجدد"¹⁷³ .

إن البديل، هو رؤية أمريكا ككيان معقد ومتعدد، ورغم كل ذلك (التيارات المتعصبة والمتسلطة والعسكرة)، توجد هناك أصواتاً مهمة بداخل أمريكا الرسمية ترفض ذلك الطرح، حيث هناك أمريكا أخرى، حسب تعبير إدوارد سعيد، يمكن التفاعل والحوار معها، وذلك لا يمكن أن يحدث بدون القيام بفرز خلاق (تفكيك أمريكا) لذلك الكيان الضخم.

إن الحديث عن "أمريكا الأخرى مقابل أمريكا الرسمية ينطوي على استخدام للشائيات التقليدية المفيدة لعملية الفرز والتصنيف كما هو الحال مع ثنائية إدوارد سعيد الخاصة بالثقافة والثقافة المضادة"¹⁷⁴ .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

لكن الفائدة لا تتحقق، "إن لم تكن مصحوبة بتفكيك فوري لتوضيح ما تنطوي عليه من إشكاليات، فبقدر التعدد الذي تنطوي عليه أمريكا الرسمية، فإن أمريكا الأخرى نفسها ليست كتلة واحدة، ينبغي هي الأخرى أن تخضع لفرز لا يقل دقة وأهمية. إنها هي الأخرى تمثلها الحركات الاجتماعية الجديدة بما تضم من تنظيمات وجمعيات لا حصر لها ذات أهداف ودوافع شتى" 175، وهي تسعى إلى "تغيير جذري سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، هذه الحركات الاجتماعية الجديدة تتميز عن الحركات التقليدية، من حيث أنها نقلت الاهتمام من القضايا الاقتصادية مثل حركة العمال، إلى الاهتمام بطبيعة العلاقات الاجتماعية، بما فيها الجوانب المتعلقة بالهوية، وهي حركات تعتبر المشاركة هدفا في حد ذاتها، لأنها تصنع لهم نوع من العلاقات التي يهدفون لإيجادها أصلا، وبالتالي فهم يسعون لبناء هويات جديدة" 176 .

وهناك الكثير من الحركات الاجتماعية داخل الولايات المتحدة الأمريكية التي تختلف من حيث النشأة والأهداف، ولكنها تتسم في "أغلبها بالانفتاح على العالم عبر التنسيق مع نظيرتها خارج الحدود الأمريكية، وتنطوي هذه الحركات تحت لواء عشرات المنظمات والتي لا تتفق بالضرورة على كل شيء، ولأغراض الفرز وحده، يمكن تصنيف التنظيمات المختلفة التي تنطوي تحت لواء هذه الحركات الاجتماعية إلى ثلاثة مجموعات رئيسية:

مجموعات هدفها سياسي لناهضة التدخل الأمريكي في الخارج، وانحسار الحريات والحقوق المدنية في الداخل. وأخرى هدفها اجتماعي، اقتصادي تقاوم العولمة الاقتصادية على أسس مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية. وثالثة هدفها ثقافي، تدعو

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

إلى احترام التنوع العرقي والثقافي وإعادة تعريف الهوية الأمريكية على نحو يعكس ذلك التوجه " 177 .

إن العمل المشترك بين هذه المجموعات، وهو الأصل لا الاستثناء، "يجعل الحدود الفاصلة بينها تتلاشى فكريا وحركيا، فضلا عن أن التلاقي الفكري الذي ينبع من الإيمان المشترك يقيم العدل والمساواة والحرية، رغم التباين في الأولويات والتكتيكات والبدائل المطروحة" 178 .

بعد أحداث سبتمبر 2001، وقبل غزو أفغانستان، "تشكلت في أمريكا حركة مناهضة للتوجهات الداخلية والخارجية، أعلنتها إدارة جورج بوش فور وقوع الحادثة، وبعد أسبوع تشكل ائتلاف سمي (العمل الآن من أجل وقف الحرب وإنهاء العنصرية) يعرف باسم أنسر ANSWER، وضم مئات المنظمات المدنية التي تختلف في نشأتها وأصولها الفكرية وأهدافها، ولكنها عملت جميعا منذ عقود طويلة من أجل الدفاع عن الحقوق المدنية في الداخل، أو ضد التدخل الأمريكي في الخارج. وقد ضمت اللجنة التنفيذية للائتلاف، عددا كبيرا من الشخصيات الأمريكية المرموقة من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعات" 179 .

ونظمت أنسر ANSWER تظاهرات واعتصامات في أنحاء الولايات المتحدة ضد إدارة جورج بوش، "وحتى من أجل فلسطين الحرة، وضد جدار الفصل العنصري الإسرائيلي، وعملت أيضا، مع ائتلافات أخرى مثل متحدون من أجل السلام والعدل وهو ائتلاف يضم حوالي 800 جماعة محلية. وكان إدوارد سعيد من أهم ، بإلقاء المحاضرات، وبالاشتراك في دعم شبكة تحالفاتها الواسعة" 180 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحمال سعيد

والواقع إن هذه الحركات نشأت بعد أحداث 2001/09/11 لمناهضة سياسات إدارة جورج بوش، وهي في نفس الوقت امتداد لتاريخ طويل من المقاومة النشيطة لسياسات الخارجية الأمريكية. "فهناك أيضا الحركة المناهضة للسباق النووي في عهد الرئيس جيمي كارتر التي كان هدفها تجميد ذلك السباق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي" 181 .

زيادة على مناهضة سياسات أمريكا "في أمريكا اللاتينية التي كانت انتهاكا صارخا لحقوق الإنسان، بدعوى جلب الديمقراطية لتلك المنطقة من العالم" 182 . وقد "تعرضت هذه الحركة للجمود في نهاية عهد جيمي كارتر وبداية عهد رونالد ريغان، بسبب الغزو الروسي لأفغانستان 1977، وقضية الرهائن الأمريكيين في طهران" 183 . لكنها سرعان ما عادت للساحة من جديد، وقادت العمل المباشر أثناء حرب الخليج الأولى، وظلت على الساحة من أهم المدافعين عن الحقوق الفلسطينية، حتى أخذت شكلها، الذي ذكرناه بعد أحداث 2001/09/11. على الرغم من إن التعبيرات الراضية لأبعاد العولمة الاقتصادية كانت موجودة، منذ نهاية الثمانينيات، فإن البداية الحقيقية لنشأة الحركة المناهضة للعولمة بشكلها الحالي في أمريكا هي سنة 1994، بعد نهاية دورة الأرغواي ونشأة منظمة التجارة العالمية OMC، التي تزامنت مع التوقيع على اتفاقية نافتا (اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية عام 1993)، والتصديق عليها من طرف الكونغرس الأمريكي. حيث واکب ذلك التوقيع حركة مقاومة ضد تلك الاتفاقية، عملت جاهدة للضغط على صانع القرار الأمريكي، فهزمت هذه المقاومة، حينئذ أدرك نشطوها بأن المعركة لا تزال مستمرة، وقد عارض هؤلاء تلك الاتفاقيات بناء على تحليل لهيكل الاقتصاد العالمي، حيث أن تحرير التجارة العالمية بنفس الشكل، يؤدي إلى تركيز السلطة والمال بيد نخبة ضئيلة، ويعطي قوة

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

للشركات العملاقة، في دول الشمال والجنوب على حد سواء. فهو يؤدي إلى سباق إلى أسفل في كل العالم فيما يتعلق بحقوق الإنسان والبيئة 184 . وقد هاجموا، رفض منظمة التجارة العالمية OMC أخذ معايير العمالة وحماية البيئة في الاعتبار، لأنه يسمح لتلك الشركات متعددة الجنسيات التحرك بسهولة في بلدان العالم بحثا عن العمالة الرخيصة، الأمر الذي يدفع بدول العالم الثالث خصوصا إلى تخفيض معايير تشغيل العمال من أجل جذب الاستثمار. وهو الأمر الذي تنحسر معه تلك المعايير في كل مكان 185، حتى تقل معه قدرة اتحادات العمال على حماية الحد الأدنى المناسب من الأجور، وغير ذلك من الأمور التي أكدت عليها منظمة العمل الدولية، وهي تقوض أيضا من سيادة الدولة، وتعطي المزيد من القوة لتلك الشركات العملاقة التي تهدد العمال، والدول التي لا توفر المناخ الملائم للاستثمار بالهروب منها لبلدان أخرى مستعدة لتوفير ذلك 186.

وقد أدرك مناهضو العولمة أن العمل المحلي داخل دولة واحدة ضد اتفاق أو آخر لم يعد كافيا لمواجهة عملية عالمية تقوم بإعادة ترتيب هيكل الاقتصاد العالمي برمته، مما يعني ضرورة أن تكون المقاومة عالمية هي الأخرى 187. فعلى سبيل المثال، ظهرت منظمات مثل "يكفي خمسون عاما" 50 Years is Enough التي نشأت في الذكرى الخمسين لإنشاء البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، والتي تركز على مناهضة سياسات المؤسساتين التوأم، خصوصا في بلدان العالم الثالث، كبعد من أبعاد الاقتصاد العالمي وهذه المنظمات هي ائتلاف يضم عددا كبيرا من المنظمات غير الحكومية المنتمية لأكثر من 65 دولة حول العالم 188.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وهناك منظمات أخرى تركز على العولمة الاقتصادية بكل أبعادها، مثل الجمعية الفرعية التي أنشأتها مؤسسة المواطن العام الأمريكي public citizen Inc. 189 سميت جلوبال تريد ووتش Global Trade Watch وغرضها نشر الوعي العام بشأن العولمة مثالب العولمة الاقتصادية، عن طريق إجراء البحوث ونشرها والعمل القاعدي المباشر بين الجماهير، زيادة على ضرورة وضع آليات للمساءلة والرقابة على الشركات متعددة الجنسيات، والمؤسسات المالية الدولية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وقد لعبت هذه الجمعية دورا فعالا في التحضير للمظاهرات التي اجتاحت مدينة سياتل أثناء انعقاد مؤتمر منظمة التجارة العالمية في 1999 190 .

أما عن المنظمات غير الحكومية والتي تنظم إلى تلك المنظمات الأم في شكل ائتلاف، فهي ذات طابع يتسم بالتعددية الشديدة من حيث الأهداف والرؤى والنشأة فهي تضم منظمات معنية بقضايا المرأة، والبيئة وحقوق الإنسان والديمقراطية، ومنظمات دينية، وسياسة ذات أهداف محدودة مثل الديمقراطية في اللاوس، أو أنصار التبت...، بل أن هذه الجمعيات أو المنظمات تكون ذات أهداف محلية صغيرة ثم تنضم للحركة الأكبر في لحظة بعينها، مثل جمعية صغيرة للسود الأمريكيين مقرها واشنطن، نشأت لمناهضة خصخصة إحدى المستشفيات العامة، وجدت دعما من المنظمات الائتلافية المناهضة للعولمة، حيث ساعدتها في حملتها حتى حققت هدفها، بمعنى بأن تلك المنظمات الكبرى قد تتبنى قضايا صغيرة لمنظمات غير حكومية محلية، طالما أنها ذات علاقة بالقيم التي تتبناها تلك المنظمات 191 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

كما سبقت الإشارة فإن تعريف الهوية الأمريكية لا يزال محل صراع مستمر لن ينته بعد. فهناك محاولات مستمرة للتعامل مع التعددية العرقية في التجربة الأمريكية، انطوت كلها على تعريف بعينه للهوية الأمريكية، ومن أولى تلك المحاولات تلك التي تبنت موقفا اعتبر قيم وثقافة الرجل الأبيض البروتستانتى القادم من أوروبا الغربية هي الأفضل للكيان الأمريكي، ومن ثمة لا بد أن تذوب فيها كافة الثقافات والقيم الأخرى، بمعنى فرض تلك الثقافة الأفضل على الآخرين 192.

ثم جاءت محاولة أخرى تبنت مفهوم بوتقة الصهر Melting-Pot التي تعني انسحاق الكل في ثقافة واحدة، إلا أن الجديد في هذه البوتقة، إن الثقافات المختلفة بما فيها ثقافة الرجل الأبيض يتم صهرها في تلك البوتقة، مما ينتج عنه ثقافة جديدة فريدة من نوعها هي نتاج لعملية الصهر، وإن ظلت في النهاية ثقافة واحدة مهيمنة، على الجميع الذوبان فيها 193 .

وقد تزامنت مع هذا الطرح محاولة أخرى بالتوازي تبنت مفهوم التعددية الثقافية Cultural-Pluralism وهي محاولة تعترف بثقافات الجماعات العرقية المختلفة وإسهامها في إثراء الحالة الأمريكية، والاحتفاء بتميز كل واحد منها عن الأخرى، ولكن هذا المفهوم جعل الاحترام والاحتفاء مقصورا على المجال الخاص، بينما ينسحق الجميع في ثقافة واحدة مهيمنة في المجال العام (و هي مرة أخرى ثقافة الرجل الأبيض)، بمعنى آخر، كان الجديد في هذا التطور هو الاعتراف بدرجة أكبر بإسهام الثقافات الأخرى في إنتاج الثقافة المهيمنة 194.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، جاءت مرحلة جديدة تعتبر امتدادا طبيعيا لحركة الحقوق المدنية بمعناها الواسع، وهي التي عرفت بحركة التنوع الثقافي: Multiculturalism، حيث قدم أنصارها تعريفا جديدا للهوية الأمريكية، مثل دعوة أمريكا لإعادة اكتشاف أصولها المتعددة، وإعادة الاعتبار للجماعات المختلفة واحترامها، لا امتصاصها في ثقافة واحدة مهيمنة. وهذا الطرح يقوم على اعتبار الثقافة عملية تقوم على التدافع والتفاعل، فهو طرح يرفض فكرة الأصل الواحد، "فالثقافة ليست كيانا ثابتا أصم، ولا يمكن خلقه خلقا ثم فرضه على الجماعات المختلفة 195.

وينطوي تيار التنوع الثقافي على تعددية بداخله، "تبرز تجلياته في الواقع الأمريكي بأشكال شتى، كالسياسة العامة أو الأدب والفكر، وأهم تجلياته تلك المعركة الفكرية الكبرى التي يخوضها أحد فصائله بشأن إعادة النظر في كتابة التاريخ الأمريكي، وما ينبغي أن يتم اعتماده للتدريس في المدارس" 196.

وقد لعب المحافظون الجدد دورا محوريا في تلك المعركة، "حين حاربوا ظهور أمريكا الأخرى من خلال كتب التاريخ، وكانت المعركة دليلا على إصرار المحافظين عموما، والمحافظين الجدد على وجه الخصوص" 197، على تقديم تاريخ أمريكا على نحو ناصع البياض، و"تحذف منه عمدا صفحات مهمة تعلق بجماعات وقوى تعرضت لمظالم وكوارث على يد أمريكا الرسمية بدءا من مأساة السكان الأصليين، والعبودية والقهر الطبقي والتمييز ضد المرأة، ولى العنصرية والتمييز المؤسسي الذي لا يزال حتى الآن ضد الكثير من الأقليات بكافة أنواعها، وقد رفضت كل تلك القوى الحكاية المهيمنة، والتي تعتبر أن

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

أمريكا ذات حكاية واحدة متصلة لا يمكن دحضها، هي حكاية التقدم المستمر نحو المساواة والحرية للجميع" 198.

وبتعبير آخر، فقد رفضت كل تلك القوى اعتبار أن الثقافة الغربية هي أعلى نقطة في تقدم الإنسانية، واعتبارها الأصل التاريخي للولايات المتحدة الأمريكية 199. ورغم أن معركة تيار التنوع الثقافي هي أمريكية بالأساس، إلا أنه بسبب الخبرة الأمريكية ذاتها فإن التيار قادر أكثر من غيره على التفاعل مع صراعات أخرى خارج الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة تلك التي تدعو لمقاومة الهيمنة الغربية بأشكالها المختلفة، العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، "فهو تيار يدعو لرؤية العالم باعتباره مكونا من أصوات وتيارات وثقافات عدة مختلفة، بل ومتناقضة أحيانا، دون أن يكون لأي منها حق الهيمنة، وهو أيضا أكثر التيارات تشككا في دعاوى الهيمنة تحت شعارات نبيلة مثل نشر الحرية والديمقراطية، لأنها مورست ضد قواه قبل غيرهم، فخبرة الأمريكيين الأصليين Native Americans تجعلهم أكثر حساسية إزاء دعاوى الهيمنة تحت شعار جلب التقدم إلى مناطق متخلفة، ودعاوى نقل الحضارة الغربية إلى أرض خاوية بلا شعب" 200، والأمريكيون من أصل لاتيني يعرفون معنى أن تندلع حرب تحت شعار الديمقراطية، وخبرة مارتن لوثر كينج علمت السود معنى أن يتهم زعماء المقاومة والدفاع عن الحقوق بالإرهاب. رغم الاختلاف حول الأهداف المباشرة والبدائل المطروحة، تظل هذه القوى جميعا، مناهضو الحروب الإمبراطورية ومناهضو العولمة، وأنصار التنوع الثقافي، "تعمل بالتنسيق مع بعضها، بناء على ما يوحد بينها وهو الإيمان بقيم مشتركة تمثل أجندة جورج بوش خطرا عليها، وهذا التنسيق ليس غريبا على الحركات الاجتماعية الجديدة، إذ هو أيضا أحد

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

خصائصها ولعله أحد مصادر قوتها، فهذه الائتلافات Coalitions التي تنشأ بين مجموعات وقوى مختلفة تتسم بالمرونة الشديدة، أي قد تنضم قوى معينة لبعضها لتقوم بعمل مشترك من أجل هدف ما اليوم، ثم تنفصل غدا لتعمل كل منها بشكل منفصل حين تختلف، ثم يأتي يوم آخر بقضية جديدة فينضم بعض هؤلاء إلى آخرين وهكذا" 201 .

وهم جميعا يعملون داخل أمريكا، ويسعون للتواصل مع حركات أخرى خارج أمريكا، فعلى سبيل المثال، "اختار ائتلاف من حركات مناهضة الحرب والعولمة أن يعقد مؤتمره في بيروت في سبتمبر 2004، وكان اختيار عاصمة عربية متعمدا، حيث كان يهدف إلى فتح باب التفاعل والتنسيق مع الحركات العربية، وقد عبر المؤتمر على الضرورة الملحة لانضمام الحركات العربية، من أجل سد الفجوة الثقافية التي تستغلها إدارة جورج بوش لاثام الحركات العربية بالإرهاب" 202 .

ولابد من الإشارة إلى الدور الفعال الذي تلعبه "الحركات الاجتماعية نحو التغيير الحقيقي في الولايات المتحدة الأمريكية، فرغم دعاوى التخويف، وسيل السخرية الذي تعرضت له كل الحركات الاجتماعية عبر التاريخ دون استثناء، فضلا عن التعتيم الإعلامي المفروض عليها، فإنها كانت في الواقع وراء كل التغيرات الكبرى في التاريخ الأمريكي" 203 .

204، فالأولى بنا عند دراسة أمريكا، أن نتجنب الوقوع في نفس الفخ، "فما يحتاجه العرب اليوم، هو النقل الحرفي لهذه الدراسات الأمريكية إلى مؤسساتنا البحثية وإعادة إنتاجه وفرضه، ثم استكمالها بما يخدم الهدف المرجو منه" 205 ، مثلا لقد ظلت الدراسات الثقافية هي "ما يطلق عليه في الولايات المتحدة بالدراسات الأمريكية، لكننا في حاجة عند تناول هذه

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

الجوانب، ألا نركز، في دراسة التاريخ الأمريكي على الجانب الرسمي منه فقط، وإنما يجب علينا أن نضعه جنباً إلى جنب مع المسكوت عنه في تلك الحكاية الرسمية" 206. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على دراسات اللغة والمجتمع، فلا يجوز أن ننقل إلى البلاد العربية، مفهوم الدراسات الأمريكية الأمريكي الذي يستبعد السياسة والاقتصاد والمال والإعلام، مما أطلق عليه تقليدياً الدراسات الأمريكية داخل أمريكا" 207 .

إن الدراسات المطلوبة عندنا حول أمريكا، يجب أن تقوم على "تكامل العلوم والمناهج البحثية، للتوصل إلى صورة مبدعة عميقة، تكشف عن حقائق مهمة عن المجتمع الأمريكي التي تغلفها الصورة الرسمية، فهي دراسة لا تقف عند حد المعرفة من أجل المعرفة، أو المعرفة من أجل استبدال حالة من الارتياح العام، بحالة الحيرة، بل هي دراسة محددة الهدف، أي التعرف على أمريكا الأخرى، للتفاعل والحوار معها في عمل مشترك" 208 . ومن ثمة، فإن العمل المشترك مع القوى والحركات الاجتماعية الأمريكية، يعمل على "تهديم أطروحة صراع الحضارات ومحاولات تكريس الهويات المطلقة من نوع الغرب ككتلة واحدة، فهي منطلقات

يجب رفضها والتحذير من الوقوع في فخ تبنيها" 209 .

وهذا العمل المشترك يجب "أن يكون مع تلك القوى الحية وهي كثيرة في مجتمعاتنا، ومن شأن هذا الاشتباك أو العمل المشترك أن يبنى على الخبرة الإنسانية وربطها بخبرات وقوى وجماعات أخرى" 210 ، بمعنى آخر، إن ربط الموقف الرسمي العربي والإسلامي، بتاريخ من الممارسات السابقة لجماعات بشرية أخرى، بل وربط الخبرات العربية ومظالم قوى أخرى، على أساس قيم إنسانية مشتركة.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

إن المشكلة في العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ليست في توجهات الإدارة، وإنما في غياب رؤية واضحة عند العرب، لما يجري هناك في أمريكا وكيفية التعامل معه، والعمل المشترك المراد الانخراط فيه، يجب أن يقوم على الدعم المتبادل بين القوى والحركات الاجتماعية، والتبني المشترك للقضايا التي تعبر عن قيم إنسانية مشتركة كالعدل والحرية وحقوق البشر في حياة كريمة تحترم آدميتهم.

ومن المؤكد أن الواقع العربي بحاجة ماسة إلى فرز كالحالة الأمريكية. للتفاعل مع هذه الأخيرة دون التخلي عن الكرامة الوطنية. إن الخطر الحقيقي يكمن في تيار التعصب الأمريكي والعربي معاً، وبعبارة أخرى، "إن التهديد الحقيقي الذي تواجهه الأمة العربية مصدره تزامن صعود تيارات الغلو في أمريكا وفي مجتمعاتنا العربية في آن واحد" 211 .

وإذا كان مفتاح مواجهة الغلو الأمريكي هو الدراسة النقدية تهدف إلى التعرف بدقة على تيارات الغلو وأهدافها، والتفاعل مع غيرها من التيارات الأمريكية، فإن انحسار التيار الأساسي عن المجرى العام للفكر والرأي والعمل السياسي في العالم العربي إنما يؤدي لاختلال التوازن 212 .

وأخيراً، ليس ما هو سائد في البلاد العربية من أزمات متنوعة ومتزايدة، ناتج عن قهر خارجي وقمع داخلي معاً، وكل ذلك يولد المزيد من تيارات الغلو والتطرف، ويخنق التيار العاقل، إن المهمة الداخلية هي البحث في سبل حماية ذلك التيار بفصائله السياسية والفكرية والاجتماعية والمدنية، حتى يستعيد عافيته من أجل أن يلعب ذلك الدور المهم في التفاعل مع أمريكا الأخرى.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

عندما أعيد انتخاب جورج بوش الابن في نوفمبر 2004، سادت الساحة العامة العربية حالة من القنوط والحيرة في آن واحد، فالقنوط، كان مصدره أطروحة تبناها قطاع واسع طوال الحملة الانتخابية مفادها لا فرق بين جورج بوش وجون كيري بالنسبة لنا نحن كعرب. فقد بحثنا، بلا جدوى، عن "موقف ايجابي واحد فقط لجون كيري إزاء أي من القضايا العربية، أما الحيرة فقد نبعت من سؤال فرضته نتيجة الانتخابات التي أكدت فوز جورج بوش بفارق ضخم وصل إلى 3,7 مليون من الأصوات الشعبية" 94 .

وبقي السؤال بلا إجابة عند الكثير من الناس، "يدور حول موقف الناخب الأمريكي نفسه، لا حكومته فقط. فما الذي يدفع بالأمريكي العادي إلى أن يتجاهل الاعتبارات التي أثارت استياء العالم، أو يعجز عن إدراكها، فيعيد للحكم الرئيس جورج بوش الابن الذي أدت سياسته إلى ارتفاع نسبة العداء للسياسة الأمريكية في كل منطقة من مناطق العالم، وليس فقط في المنطقة الدول العربية ؟" 95 .

ورغم هذا السؤال المطروح، فإن هناك اعتراف ضمني بأنه كان هناك بعض الفارق بين المرشحين للرئاسيات الأمريكية، ثم فضل الناخب الأمريكي جورج بوش على جون كيري، إن "هذا التناقض هو من بين أسباب القنوط والحيرة، ضاع في غمرة الاستسلام لليأس والغضب. وتظل النتيجة أن أمريكا في العقل الجمعي العربي حالة ميئوس منها في انخيازها ضد المصالح العربية. فهي صندوق أسود لا يملك مفاتيحه سوى اللوبي الصهيوني الموالي لإسرائيل" 96 .

هذه الصورة القائمة لأمريكا، تؤدي بالضرورة إلى طرح حلول وبدائل معينة، للتعامل مع أمريكا، "انطلاقاً من الرضوخ لها، ثم في المرحلة الثانية المواجهة معها، وأخيراً الوصول إلى مرحلة القطيعة الكاملة، أما بالنسبة للحل الأول أي الرضوخ فهو البديل الذي يتبنى باسم

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

الواقعية، وهو خيار يقوم على الانسحاق الثقافي والحضاري والركوع السياسي والاقتصادي لذلك الكيان العملاق" 97 ، ونحن لا نملك أية قوة في مواجهته، وتبقى مواجهة أمريكا تتراوح بين العنف المسلح والمواجهة الثقافية والدينية.

أما مسألة قطع العلاقات معها، فهي بديل ينطوي على التنازل الضمني من أمريكا لخصوم المصلحة العربية، وذلك عبر الانسحاب بالكامل من السعي للتفاعل معها أو التأثير فيها. وإذا كانت هذه البدائل مبنية على صورة معينة لأمريكا، فهل هي صورة صحيحة، تساعدنا فعلا على فهم ذلك هذا الكيان الغامض بما يفتح الباب أمام بدائل أخرى للتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية ؟

يرى إدوارد سعيد أن الصورة قائمة بالفعل ما لم ننتبه إلى أمريكا الأخرى كما سماها 98 ، وهي التي "لا يمكن اكتشافها دون دراسة نقدية للواقع الأمريكي من جوانبه المختلفة، فأمريكا ليست كتلة واحدة، وإنما تحتوي على الكثير من الأصوات والتيارات الفكرية التي تسعى الحكومة الأمريكية إلى إسكاتها أو تهميشها" 99 .

إن تلك الصورة السلبية مبنية، على فهم ناقص للولايات المتحدة الأمريكية، فهو يحتزل مجتمعا شديد التعقيد في مجموعة محددة من التفاعلات الرسمية وطبقة حكام قليلة معزولة عن سياقها العام، بل يجردها عن تفاعلاتها الحقيقية التي لا تقل أهمية في الحياة السياسية الأمريكية، بمعنى آخر، فإن تلك الصورة السلبية ترجع للمخططات السياسات الأمريكية، وسياساتها المختلفة في مناطق عديدة من العالم، بل "يساهم في تشكيل تلك السياسات بنفس القدر، تقصير عربي في متابعة الشأن الأمريكي متابعة دقيقة، تسمح برؤية

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

قسمات مهمة لذلك الكيان الضخم على نحو يفتح الباب لإيجاد بدائل أخرى للتعامل معه " 100 .

والحقيقة أن تلك الصورة تمثل الوجه الواحد لأمريكا الذي يجب علينا أن ننتبه إليه، لأنه لا يمثل الوجه الحقيقي لكل أمريكا، وهذا ما يسميه إدوارد سعيد أمريكا الرسمية في مقابل الوجه الثاني لها، وهو ما يعرف عنده بأمريكا الأخرى، وأما بالنسبة لإعادة انتخاب جورج بوش، وما أحاط بهذه العملية من مفارقات، تتعلق بعلاقة العرب مع الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تناول سعيد الكثير من مظاهر تلك العلاقة بالتحليل والنقد 101 .

إن النظرة الدقيقة لإدارة جورج بوش في عهده الثانية، تجعلنا نلاحظ بأنها تمثل استمرارية لإدارته الأولى، من حيث الرؤى والتوجهات العامة. ويجب الإقرار بوجود فارقا ضئيلا بين الإدارتين في العهدين الأولى والثاني. فإدارة جورج بوش الثانية، كالإدارة الأولى، لأن نشاطهما كان "يتحرك في مربع فكري تتدافع فيه المنظومة الفكرية لتياري المحافظين الجدد واليمين المسيحي معا، دون باقي اليمين الأمريكي، وهي بذلك تنتج سياسات تكون معبرة عن أحدهما في بعض الأحيان، وعنهما معا أحيانا أخرى" 102 .

رغم أن هناك اختلافات جوهرية بين هذين التيارين من حيث "طبيعتهما، ونشأتهما، وأصولهما الفكرية، والتي تؤدي برموزهما للدخول في صراع علني أحيانا، فإن هناك نقاط تماس يمكن من خلالها للتيارين أن يلتقيا، خاصة في قضايا السياسة الخارجية الأمريكية، وبالذات تجاه العالم العربي والإسلامي" 103 .

لقد ظهر تيار المحافظين الجدد Neo-conservative ، في "أولى إرهاباته في منتصف الأربعينات من القرن العشرين وتبلور في الستينات من نفس القرن، وهو تيار

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

فكري نخبوي، انقلب على الليبرالية الأمريكية. فقد بدأ تيار المحافظين الجدد بمجموعة من الكتاب والمثقفين وأساتذة الجامعات الذي كانوا ينتمون وقتها للتيار الليبرالي الأمريكي، ولكنهم انتقدوا الليبرالية الأمريكية بسبب انتهاج سياسات دولة الرفاهية والموقف من العلاقة مع الإتحاد السوفيتي منذ بدأ الحرب الباردة، في منتصف الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، وكان محور الجدل في تلك المرحلة هو ذلك الربط الذي عقده البعض بين التحدي الشيوعي في الخارج والراдикаلية السياسية في الداخل" 104 .

ولكن ظل هؤلاء جميعا على "انتمائهم لليبرالية، رغم تمردهم على البعض من جوانبها التطبيقية، حتى بدأت قطيعتهم معها في نهاية الستينيات من القرن العشرين بعد مراجعة شاملة لجوهر أفكارها" 105 .

وكان المجتمع الأمريكي في الستينيات من القرن الماضي مليئا بالأحداث الكبرى التي شكلت بداية لنهاية الارتباط بين هؤلاء المحافظون الجدد بالليبرالية. فقد كانت تلك المرحلة، هي أوج مرحلة لحركة الحقوق المدنية في أمريكا، و"ما تبعها من صدور لقوانين أرسى أسسا جديدة في المجتمع الأمريكي، وتم تدعيم برامج دولة الرفاهية من خلال تمرير تشريعات ليندون جونسون التي عرفت باسم المجتمع العظيم "Great Society" 106 ، هذا فضلا عن أنها شهدت أيضا عنفوان الحركة المناهضة لحرب الفيتنام.

وكانت هذه التطورات تجسد في الواقع صعود أفكار الليبرالية الأمريكية، فيما يتعلق بأوضاع المجتمع والدور الأمريكي في الخارج، وكانت هي المحك الذي أدى بهؤلاء الكتاب والمفكرين إلى مهاجمة الليبرالية الأمريكية والانقلاب عليها واعتبارها مسئولة عن مجموعة من المخاطر التي صارت، في رأيهم، تحيط بالمجتمع الأمريكي في الداخل والخارج" 107 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحمال سعيد

ولكن موقف المحافظين الجدد من رؤية الليبرالية الأمريكية، في ذلك الوقت، للدور الأمريكي في الخارج، كانوا ليبراليين لا يؤمنون بالانعزالية في السياسة الدولية، إذ كانوا يؤيدون أن تلعب بلادهم دورا قويا في العالم. "غير أن اختلافهم مع الليبرالية الأمريكية كان في جوهره موقفهم من الشيوعية، والذي تبلور أثناء حرب الفيتنام أكثر من أي وقت مضى، فقد كان المحافظون الجدد يؤمنون إيمانا عميقا بأن الشيوعية خطر حقيقي يهدد الوجود الأمريكي ذاته، فالشيوعية بالنسبة لهم كانت إيديولوجية صراعية في جوهرها، ومن ثم لا مجالا للتعايش معها، بل لابد من القضاء عليها، وإلا قضت على الولايات المتحدة الأمريكية" 108 .

وعليه فإن الحرب على الشيوعية لم تكن في نظر المحافظين الجدد، حربا باردة على الإطلاق، "بل هي حرب ساخنة بكل المقاييس، وهي حرب لا يمكن فيها المهادنة أو التوافق، إذ هي معركة وجود ينبغي أن تستخدم فيها الوسائل المختلفة، - حتى اللاأخلاقية منها - بما في ذلك السلاح النووي إذا لزم الأمر ذلك، رغم أنه لابد أن يظل الملجأ الأخير" 109 .

ولذلك كانت من أولى معارك السياسة الخارجية الأمريكية التي خاضها هذا التيار ضد الليبرالية الأمريكية، هي تلك التي "دارت بشأن المكارثية، ويعتبر إرفنج كريستول Irving-Kristol، واحدا من أهم الرموز البارزين لتيار المحافظين الجدد، وهو الذي يوصف أيضا، بأنه الأب الروحي لذلك التيار، فهو من احتفظ بالانتقاد الأكبر لليبراليين الأمريكيين. واعتبر أن هجوم المكارثية لم يكن دفاعا عن الحريات المدنية بقدر ما كان تعاطفا مع الشيوعيين كتقدميين من رفقاء الكفاح" 110 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

ثم جاءت مناهضة الليبراليين لحرب الفيتنام، لتمثل نقطة القطيعة، "فقد وجد المحافظون الجدد في هذا الحدث، استعدادا لدى الليبرالية لتقويض النظام العام، في إشارة إلى أحداث الجامعات وقتها، وعجزا عن إدراك حجم الخطر الشيوعي. فقد اعتبروا أن موقف الليبرالية، وخاصة اليسار الجديد منه، الداعي إلى احتواء الشيوعية، إنما يمثل انعزالية غير مقبولة ومهادنة خطيرة مع تهديد فعلي يمس الوجود الأمريكي" 111.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن حرب فيتنام كانت النقطة التي كشفت عن الاختلاف الجوهري بين المحافظين الجدد والليبرالية، الأمر الذي أدى إلى القطيعة معها، وكان الاختلاف متعلقا بمسألة نسبية القيم. فقد "اعتبر تيار المحافظون الجدد أن الليبرالية عجزت عن الانتصار على الشيوعية، بل وعن إدراك حجم الخطر الذي تمثله لأنها تقوم على نسبية القيم. فلا يوجد شر مطلق أو خير مطلق، مما نتج عنه عدم وضوح أخلاقي أدى إلى عجز الليبرالية عن إدراك الشر الكامن في الشيوعية" 112.

وهذا يعني بأن الحرب على الفيتنام هي التي فجرت أزمة تيار المحافظين الجدد مع الليبرالية، التي طالما انتموا إليها، على أساس يتعلق بجوهر فكرها، لا فقط بمنهج تعاملها مع القضايا الداخلية والخارجية.

ومنذ الوهلة الأولى كان لتيار المحافظين الجدد، "موقفا مناهضا للعمل الدولي الجماعي، إنه كان يرفض الانعزالية، إلا أنه كان يشك كثيرا في إمكانية تحقيق المصالح الأمريكية عن طريق العمل الدولي الجماعي، خصوصا من خلال المنظمات الدولية. وقد نبع ذلك الموقف من تقويم هذا التيار لدور الأمم المتحدة، خاصة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. فقد اعتبر رموز هذا التيار، هذه المنظمة الأممية تجسيدا

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

لأخطاء الليبرالية في السياسة الخارجية، لأنها تناهض حقيقة العلاقات الدولية التي تقوم بالنسبة لهم على القوة وليس المساواة بين الدول" 113.

وعليه فقد اعتبر أصحاب هذا التيار، بأن أحد الأخطاء المهمة التي وقعت فيها الإدارات الليبرالية الأمريكية المتتالية، هي "تعاونها الدولي من خلال الأمم المتحدة، التي أدت إلى التوسع الشيوعي في العالم، وانهيار الهيمنة الغربية عامة، والأمريكية على وجه الخصوص" 114، وكان جوهر انتقاد تيار المحافظين الجدد للأمم المتحدة، هو أن "عملها يتسم بازدواجية المعايير، ففي الوقت الذي أدانت فيه حكومة روديسيا البيضاء، لم توجه أية إدانة إلى نظام نكروما الديكتاتوري في غانا، وبينما طالبت فرنسا وبريطانيا بالخروج من قناة السويس، لم تطالب الاتحاد السوفيتي بالخروج من بودابست" 115.

وكل هذه الحوادث لم تكن معزولة عن قضايا أمريكا الداخلية والخارجية. فلم تكن من باب الصدفة، أن "تزامنت مع احتجاجات حركة الحقوق المدنية داخل المجتمع الأمريكي، وكذلك رافقت الحركات التحررية الوطنية المختلفة في آسيا وأفريقيا، بل إن حركة الحقوق المدنية كانت قد استلهمت فكر المهاتما غاندي بشأن العصيان المدني السلمي" 116.

وبالرغم من أن تيار المحافظين الجدد، كان قد بدأ بعدد محدود من الكتاب وأساتذة الجامعات، كان على رأسهم إرفنج كريستول وناثان جليزر وهارفي مانسفيلد، إلا أنه سرعان ما انتشرت أفكاره من خلال الدور الذي لعبه هؤلاء عبر رئاسة تحرير صحف ومجلات كبرى، كان من أهمها مجلة كومنتاري Commentary اليهودية اليمينية، ثم عدد من المجلات التي أنشئوها مثل بابليك إنترست Public Interest وناشيونال إنترست

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

National Interest، فضلا عن دورهم في تربية أجيال جديدة، خصوصا في الجامعات، من الطلبة الذين آمنوا برؤاهم الفكرية وتخرجوا من كبرى الجامعات الأمريكية وصاروا اليوم في مواقع قيادية مهمة 117.

ولكن يجب الإشارة، إلى أنه على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، أي قبل وصول جورج بوش إلى الحكم، تكاثرت نفوذ تيار المحافظين الجدد في مؤسسات الحكم ودوائر صنع القرار، حيث نجح في أن يخلق البنية التحتية اللازمة لتكريس نفوذه في مؤسسات فكرية وبحثة، وانتشار لرموزه في الإعلام، وتربية إطارات يتم تطعيم المؤسسات المختلفة بها. ولكن رغم ذلك، ظل في الواقع تيار المحافظين الجدد تيارا فكريا نخبويا، أي ليست له قاعدة شعبية. ومن ثم، فإنه يعتمد على القاعدة الشعبية لتيارات يمينية أخرى 118، من أهمها تيار اليمين الديني وبعض فصائل اليمين التقليدي، خصوصا تلك التي تتفق مع المحافظين الجدد بشأن السياسة الخارجية الأمريكية. ولعل هذا هو السبب الذي جعل البعض يخلط بين هذه التيارات، رغم الاختلافات بينها، بل والعداء الصريح أحيانا بين رموزها، خصوصا بين رموز تيار المحافظين الجدد وتيار اليمين الديني 119.

وعلى عكس تيار المحافظين الجدد، نجد تيار اليمين الديني تيارا نخبويا في جوهره من حيث الطابع والفكر، فهو يؤمن بأهمية دور النخبة الفكرية في المجتمع، واختلاف هذا الدور عن أدوار باقي القطاعات. مثلا، فهو يرى "أنه من الخطر أن يطلع عوام الناس على الحقيقة كاملة، لأن هذا قد يؤدي إلى فوضى وغليان، ومن ثم لا بد أن تظل الحقيقة الكاملة مقصورة على النخبة الفكرية فقط، لأنها قادرة على التعامل معها بحكمة وفاعلية.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحمال سعيد

ومن ثمة، فمن الأفضل أن تظل عقلية المواطن البسيط محكومة بالتقاليد، ولا مانع من أن تحكمها القيم الدينية، بدلا من التقاليد، فهي تجعل العواطف الشعبية تحت السيطرة" 120.

وقد يرجع هذا الخلط بين التيارين لسبب آخر، وهو "تزامن صعود التيارين في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، وبداية الثمانينيات من نفس القرن، حينما كان رونالد ريغان Ronald Reagan رئيسا لأمريكا، بل والتشابه في الخطاب وقتها من زاوية مناهضة الليبرالية" 121.

ورغم انحسار اليمين الديني في الفترة الممتدة بين العشرينيات والستينيات من القرن العشرين، بعد صعوده في القرن التاسع عشر، فإن فترة الانحسار تلك لم تكن هي نهايته، إذ كانت مرحلة إعادة ترتيب أوراق البيت، وعاد بكل قواه على الساحة في السبعينيات. وكان التشابه بين خطابه والمحافظين الجدد هو مناهضتهما للنسبية الأخلاقية كإحدى سمات الليبرالية الأمريكية، غير المقبولة في مجتمع مسيحي، وأدت إلى انحلال أخلاقي وانحيار للقيم الدينية، وهو اختلاف جوهري بين التيارين. رغم أنهما يؤمنان بمسألة البعد الأخلاقي، وأهميته في السياسة الداخلية والخارجية، إلا أن تيار المحافظين الجدد، علماني يقيم هذا البعد الأخلاقي على أساس منظومة قيم قد تأتي من التقاليد وليس بالضرورة من الدين" 122.

وبتعبير آخر، فإن التيارين يؤمنان بمسألة الوضوح الأخلاقي، وهو ما يؤدي إلى "الاتفاق حول سياسات بعينها في الكثير من الأحيان، ولكنه يؤدي أيضا إلى خلافات، خصوصا بشأن أولويات القضايا. فتيار اليمين الديني كان حتى الثمانينيات يركز على قضايا الداخل، وخاصة قيم المجتمع أي القضايا الاجتماعية، مما جعله يضع قضايا مثل الإجهاض

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

وإقامة الصلوات في المدارس، والمثلية الجنسية على قمة أولوياته. إلا أن نقطة الالتقاء كانت دوما العداء للشيوعية، وإن كان على أساس ديني وقومي، فالشيوعية كانت بالنسبة لهم تمثل التهديد الملحد لأمريكا المسيحية" 123.

ولليمين الديني موقف من الحداثة. فهو يؤمن بأن "أحوال البشرية تزداد سوءا بمرور الوقت، والبشر عاجزون وحدهم عن تحسين الأوضاع ووقف التدهور، فالأمر يحتاج إلى تدخل قوة عليا، ومن ثم، فإن عودة السيد المسيح إلى الأرض هي وحدها التي تمثل الإنقاذ والخلاص" 124.

إن البعض من أفراد هذا التيار، يؤمنون إيمانا راسخا "بعودة السيد المسيح ليحكم العالم لألف عام. والمسألة عندهم، لا تتوقف عن مجرد الاعتقاد بتلك العودة، بل هو الأساس لقراءة الأحداث العالمية، فالكتاب المقدس عندهم لا يتعرض فقط لتاريخ البشرية، بل يقدم خريطة لأحداث المستقبل، وبالتالي الدور الذي ينبغي للمؤمنين أن يلعبوه من أجل أن تتحقق تلك النبوءة ويتم إنقاذ البشرية" 125.

ومن على هذا، نلاحظ تأييد هذا التيار المطلق لإسرائيل، رغم أن الكثير من رموزه "متهمون بالعداء للسامية، إلا أن أحدا منهم لم يشكك في تأييدهم لإسرائيل. فتجمع اليهود في الأرض المقدسة أحد شروط تحقق النبوءة كلها. ثم إن المفاوضات مع الفلسطينيين عندهم بلا جدوى. فهي من ناحية، مناهضة للنبوءة، لأن إسرائيل ستظل في عداء مستمر مع أعداء المسيح، وسيتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق. ثم إن البشر عموما عاجزون عن تحسين أوضاعهم، من ناحية أخرى" 126.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وظلت مسألة تأييد إسرائيل مهمة في نظر هذا التيار، إن دوره في السياسة الخارجية الأمريكية قد تنامي، منذ بداية التسعينيات، حيث "صار يلعب دورا مهما في عدد من القضايا الأخرى. فقد كان هذا التيار من أهم القوى التي أدت مثلا إلى صدور قانون الاضطهاد الديني في 1998، وهو الذي لعب دورا أساسيا في فرض العقوبات على إيران في 1996، وكانت إحدى القوتين الرئيسيتين في الكونجرس الأمريكي دفعنا نحو إصدار قانون السلام في السودان في أكتوبر 2002. وقد اكتسب هذا التيار قوته بفضل التطور التكنولوجي، حيث صار له عددا هائلا من برامج التلفزيون والراديو، وصارت له قنوات مستقلة خاصة به، فضلا عن شبكة هائلة من المبردين يتم التواصل معهم عبر الإنترنت" 127.

ولتيار اليمين الديني نفوذ شعبي، يعود إلى منظمة الائتلاف المسيحي - Christian Coalition التي أنشأها روبرتسون بعد فشل حملته لمنصب الرئاسة الأمريكية في انتخابات 1988. "وقد تولى هذا الائتلاف الشاب رالف ريد الذي لم يتعد عمره في ذلك الوقت، الخامسة والعشرين ما بين 1993-1997، والذي يرجع إليه الفضل في تحويل هذا التيار من خلال منظمته إلى قوة بالغة الفاعلية في العمل السياسي الأمريكي. وكانت هذه المنظمة هي إحدى المنظمات المهمة التي لعبت دورا محوريا في تحقيق الفوز الساحق للجمهوريين في انتخابات 1994 التشريعية، حيث نجحوا في السيطرة على الأغلبية في الكونجرس، بمجلسيه لأول مرة منذ أربعين عاما" 128 .

والجدير بالذكر هنا هو ، أن "رالف ريد كان قد سعى إلى توسيع نطاق نفوذ هذا التيار، فدخل في تحالفات مع عدد من المنظمات الكاثوليكية اليمينية، وعدد من

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

اليهود الأرثوذكس أيضا" 129. كما نشير في هذا السياق "للعلاقات القوية لهذا التيار مع اليمين الإسرائيلي، حتى أصبح تقليدا متعارفا عليه منذ عهد مناحم بيغن، أن يزور زعماء حزب الليكود هذه المنظمات في واشنطن، قبل لقائهم بالمسؤولين الأمريكيين" 130.

يتضح لنا من هذا العرض، أن هناك نقاط اختلاف بين تيار المحافظين الجدد واليمين الديني. لكنهما يتحدان في حالة "وجود عدو خارجي. ففي الحرب الباردة، كانت نقطة الالتقاء بينهما، هي العداء للشيوعية، رغم أن أحدهما، عاذاها على أساس سياسي استراتيجي، بينما اعتبرها الطرف الآخر، تهديدا للقيم الدينية في مجتمع مسيحي" 131.

ولما انهار الاتحاد السوفيتي سابقا، انهيار العدو الذي وحد بين التيارات اليمينية المختلفة، وخاصة منها هذين التيارين، ومن ثمة، "حدثت فجوة بين هذه التيارات بشأن طبيعة الدور الأمريكي في عالم جديد. الأمر الذي أُنذر بحدوث نكسة لليمين الأمريكي بعد الصعود الذي حققه في عهد الرئيس رونالد ريغان" 132.

وبعد غياب العدو الواحد، كان من الصعب على التيارات المستخدمة للخطابات المتشددة أن "تبقى محافظة على مكتسباتها على الأرض، فقد حدثت مواجهات واتهامات متبادلة، بين تيار المحافظين الجدد واليمين الديني. واعتبر هذا الأخير، بأن المحافظين الجدد، بفكرهم العلماني، يمثل خطرا على حركة اليمين، لا تقل خطورتها عن الليبرالية، فراح اليمين الديني، يركز على أعداء الداخل المسؤولين عن الانهيار الأخلاقي" 134.

إن أحداث 2001/09/11 أعادت للتيارين قوتهما. "فقد أصبح هنا عدو جديد، وصار من السهل استخدام الخطاب نفسه، واتهام الآخرين بالتهاون معه، بالضبط كما كان الحال زمن الشيوعية. "إن المتابع لأدبيات تيار المحافظين الجدد واليمين الديني يلاحظ

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

بوضوح إعادة إنتاج الخطاب نفسه، وإن كان قد تم تكييفه ليتناسب مع العدو الجديد. الذي أحدث انقلابا في السياسة الخارجية الأمريكية" 135.

وصدر كتاب لبعض رموز تيار المحافظين الجدد بعنوان الخطر الراهن Present danger، والتعبير نفسه أطلقته مجموعة من الرموز الأولى لهذا التيار على لجنة شكلوها في السبعينيات، تسمى لجنة الخطر الراهن Committee on the present danger، "وقتها كان الخطر الراهن هو الشيوعية، أما في عام 2000، فلم يكن هناك عدوا واضحا كان الخطر الراهن، هو أن تتخلى أمريكا عن مسؤولياتها الدولية، فتخفض الميزانية العسكرية، وتتجاهل دورها في تشكيل العالم" 136، الأمر الذي من شأنه أن يخلق مخاطر حقيقية "لا تقل في تهديدها عما كان يمثلها الإتحاد السوفيتي منذ ربع قرن" 137. وتبنى تشارلز كروثامر وهو أحد رموز هذا التيار، المقولة التي اعتبرت "أن عقد التسعينيات كان عقد الفرص الضائعة، لأن إدارة جورج بوش الأب، ثم إدارتي كلينتون عجزت عن تحويل لحظة الهيمنة الأمريكية إلى عصر الهيمنة الأمريكية" 138.

وكان للولايات المتحدة لأول مرة الفرصة لتشكيل النظام العالمي، على نحو يدعم أمنها ويخدم مصالحها ومبادئها، "بدون معارضة من أية قوة دولية فاعلة، ولكن بدلا من أن تسعى للإطاحة بالديكتاتوريات الخطيرة في بغداد وبلغراد، جمعت إدارة كلينتون بين التهديد والعمليات العسكرية غير المجدية. وبدلا من أن تضغط بقوة لتغيير النظام السياسي في كل من بيونج يانج وبكين، قامت إدارتي بيل كلينتون وجورج بوش، عبر الانخراط في علاقات مع كلا النظامين، وبدلا من مواجهة التهديد الاستراتيجي والأخلاقي الذي مثلته تلك الأنظمة الشريرة، سعت الولايات المتحدة إلى العمل معها جريا وراء وهم الاستقرار" 139.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

تلك الفرصة لا تعوض إلا "بتغيير جوهري في الأسس التي تقوم عليها نظرة الحكام والرأي العام الأمريكيين لدور الولايات المتحدة في العالم" 140، بهدف الحفاظ على الهيمنة الأمريكية، وتشكيل العالم على نحو يخدم المصلحة الأمريكية، ولتحقيق ذلك ينبغي زيادة القوة العسكرية المستخدمة عند اللزوم لردع من يعارض أمريكا، المستعرضة عند الضرورة للقضاء على الإيديولوجيات المعادية" 141.

وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001، تمت إعادة إنتاج الخطاب نفسه من جديد، الذي كان يحتوى على كل المنطلقات والرؤى، والخطط، بدءاً من فكرة إحداث تغيير راديكالي في السياسة الخارجية الأمريكية، ومروراً بفكرة تغيير النظم، بما فيها النظام الصيني، ووصولاً إلى إعادة النظر في الأسس التي تقوم عليها أية تسوية للقضية الفلسطينية، وكل ما في الأمر هو أن هذا التيار كان قد نجح ببراعة في ربط كل ذلك بأحداث 11 سبتمبر 2001.

ويتضح أن هذا الخلاف تباري المحافظين الجدد واليمين الديني يتضاءل في السياسة الخارجية الأمريكية، مقارنة بسياساتها الداخلية. ورغم اختلاف منطلقا تهما، إلا أن كليهما اعتبر الشيوعية خطراً على أمريكا، وأيدا وجود جيش قوي وميزانية عسكرية كبيرة، بل إن كليهما يدعم إسرائيل بشكل مطلق، ويؤيد سياسات حزب الليكود خاصة. لذلك "يتفق هذان التياران، في مواقفهما في الكثير من القضايا الخارجية، ما جعلهما ركيزة معاً لحكم إدارة جورج بوش. فمن ناحية، يوجد لفكر المحافظين الجدد نفوذ قوى داخل هذه الإدارة، بداية من المواقع الحساسة التي تتولاها رموزه، ومن ناحية أخرى، لا يملك جورج بوش

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

استعداد اليمين الديني الذي يمثل أحد القطاعات المهمة التي تحسم الانتخابات لصالح الجمهوريين عندما يضيق الهامش بين الحزبين " 142.

وبإعادة انتخاب جورج بوش، ظلت هذه التركيبة قائمة (المحافظون الجدد، في مراكز مهمة لصنع القرار، واليمين الديني المسيحي كأحد أسس القاعدة الشعبية التي يركز عليها جورج بوش، الذي يظل لدينا لهم بالفوز). وقد جاءت ترشيحات الرئيس للمناصب المختلفة في فترة حكمه الثانية لتكون مؤشرا قويا يدل على إحكام قبضة تلك المنظومة الفكرية على عملية صنع القرار. ونستنبط أن "من وراء تلك الترشيحات المختلفة، سواء لمناصب القيادة في الشؤون الداخلية أو الخارجية، أن الولاء كان المعيار الأول للاختيار. وقد هدفت هذه الترشيحات إحكام القبضة على أداء الهيئات المختلفة للجهاز التنفيذي وتقليص مساحة الاختلاف في وجهات النظر داخلها، بل حتى داخل الحلقة الضيقة المحيطة بالرئيس" 143.

وتزداد الخطورة بالنظر إلى طبيعة العلاقة بين المؤسسات السياسية المختلفة. فالرقابة والتوازن Checks and Balances، اللذان يمثلان أهم الدعائم الرئيسية التي يقوم عليها النظام السياسي الأمريكي، قد أصابهما عطب حقيقي في عهد جورج بوش، حيث انهارت المعارضة المؤسسية. "فالكونجرس، وهو الشريك الأساسي للسلطة التنفيذية، تظل الأغلبية فيه بيد حزب الرئيس، والخطورة لا تنبع من نجاح الجمهوريين في زيادة عدد مقاعدتهم، بل تتمثل في ضعف الحزب الديمقراطي الذي يعاني من أزمة صنعها لنفسه، حينما أنحنى بالكامل لرغبات الرئيس وحزبه بعد أحداث 2001/09/11. فانحسر بذلك الكونجرس في ممارسة الرقابة الدستورية، وكذلك المؤسسة الثالثة التي كان يفترض أن تقوم بالرقابة والتوازن،

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

أي القضاء، فهي مرشحة أيضا للانحراف، حيث ستتيح للرئيس بوش فرصة تعيين قاض واحد على الأقل أثناء فترة حكمه في المحكمة العليا، الأمر الذي سيؤدي لميل المحكمة نحو اليمين فضلا عن عشرات التعيينات للمحاكم الفيدرالية الأدنى درجة" 144.

إن إعادة انتخاب جورج بوش سيعطي فرصة أربعة سنوات للمحافظين الجدد، "نحو المزيد لترسيخ أفكاره ونفوذه، وهو قادر على ذلك. بل أكثر، إنه سيعطي شرعية لليمين عموما كتيار فكري" 145.

وحيث، ستموت المعارضة المؤسسية في أمريكا، تجاه إدارة تسيطر فيها نخبة من المحافظين الجدد سعيها هو إعادة تشكيل خريطة العالم، والتركيز على قاعدة شعبية يمثلها اليمين الديني، الذي يؤكد على هوية أمريكا المسيحية، وهو من أهم قواها السياسية وأكثرها نشاطا. "إن المحافظين الجدد يعملون على رسم خريطة للعالم العربي والإسلامي، وكانت أحداث سبتمبر 2001 هدية قيمة لهذا التيار لتبرير أهدافه التي كانت معدة سلفا، وعلى رأسها غزو العراق، تم الخلط بين تبرير الإرهاب والسعي لفهمه كظاهرة، والتعامل مع العرب والمسلمين ككتلة واحدة، وعدم التفرقة بين مناهضة السياسة الخارجية الأمريكية وكرهية أمريكا والأمريكيين. وبتعبير جورج بوش بعد أيام فقط من أحداث 2001/09/11 قوله: (فهم يكرهون حرياتنا)، عبر عن حيرته من سوء الفهم (يكرهنا الناس، رغم أننا شعب خير)" 146.

وفي هذا السياق فإن ترتيب خريطة المنطقة عند المحافظين الجدد لا تكون إلا بالقوة العسكرية ومواجهة الإيديولوجيات المعادية وعلى رأسها الإسلام الذي يتسم بروح المقاومة.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

وهذه الصورة يبعديها تؤكد على وجود كتاب ومفكرين على استعداد للتنظير لها والترويج لتوجهاتها.

وبالنسبة لإعادة تشكيل العالم العربي والإسلامي، فإن الكاتبة شيرل بينارد Cheryl Benard. وهي واحدة من أصحاب هذا التيار، ففي الوقت الذي اعتبر كتاب هانتنغتون: من نحن ؟ مثالا حيا لإعادة تشكيل الهوية الأمريكية على أساس البعد الديني (اليمين الديني)، - أصدرت تقريرا عن مؤسسة راند بعنوان إسلام مدني ديمقراطي Civil Democratic Islam الشركاء والموارد والاستراتيجيات، "وتكمن أهمية التقرير هذا في طبيعة المؤسسة المشرفة عليه، وتوجهات كاتبته، وموضوعه، إن مؤسسة راند هي إحدى مراكز الفكر في أمريكا، ويوجد عددا هائلا المؤسسات المماثلة، نشأت منذ الثمانينيات من القرن الماضي، بحيث لا يلتزم باحثوها بأصول البحث العلمي، فهي مراكز للفكر، لا للدراسات والبحوث، تمولها هيئات حكومية، كمكتب وزير الدفاع الأمريكي وأجهزة الأمن والمخابرات" 147.

والكاتبة شيريل بينارد تعمل مستشارة بمؤسسة راند، وهي أحد رموز تيار المحافظين الجدد، وهي ذات صلة وثقة بالدائرة المقربة بالرئيس جورج بوش، وهي قرينة زالماني خليل زاد، ذي الأصول الأفغانية، الذي عمل في مجلس الأمن القومي تحت رئاسة كوندوليزا رايس في إدارة جورج بوش الأولى، ثم مستشارا خاصا للرئيس أثناء غزو أفغانستان، ثم سفيرا لبلاده في أفغانستان بعد احتلالها، ثم سفيرا للعراق أثناء الاحتلال الأمريكي له 2003، وممثلا لأمريكا لدى الأمم المتحدة" 148.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

إن خطورة هذا التقرير، تكمن في تجسيد خطة ينبغي التعامل بها مع الإسلام، فهي تقر بعدم الاعتماد على التيارات الموجودة في العالم الإسلامي كشركاء، وتدعوا إلى صناعة إسلام جديد وصفته في مقدمة تقريرها بعملية بناء الدين building Relegion على غرار بناء الأمم Nation building 149، والخطورة في عملية بناء إسلام جديد، أنها عملية تتم في الغرب ثم يتم تصديره إلى العالم الإسلامي كبديل عن إسلامه، لأن هذا الإسلام الحالي لا يصلح كشريك، لأنه ليس معتدلاً، بينما الإسلام الجديد الذي سيبني في مراكز فكر شيرل بينارد منزوع منه روح الاستقلال والاعتزاز بالحضارة الإسلامية، وهو بلا أنياب أو منزوع السم Defanged. حسب ما كتبت في هامش من تقريرها 150.

ولكي تصل بينارد لهذه النتيجة، فقد بدأت من مقولات إدوارد سعيد المعروفة التي فضحها فيها وأطلق عليها تعبيره الفذ تغطية الإسلام Covring Islam وهي التسمية نفسها التي أطلقها على كتابه الذي نشر عام 1981، وتلك المقولات في حقيقة الأمر تغطي أكثر مما تكشف 151.

وجاءت بينارد، بخطة تتعامل بها مع العالم الإسلامي وتعتمد على من أسمتهم بالحدثيين Modernists، وجلهم يعيشون في أوروبا وأمريكا، (خارج العالم الإسلامي)، والقاسم المشترك بينهم، هو لا صلة لهم بالعالم الإسلامي إطلاقاً، لا بقضاياها، ولا حتى بواقعها، ولا وزن لأي منهم فكرياً وسياسياً، ولا أصل لهم في الحركات الاجتماعية، فهم باحثون ومفكرون مسلمون يعملون في جامعات أمريكية وأوروبية، منهم، ابن وراق صاحب الكتاب الشهير لماذا أنا لست مسلماً ؟ باعتباره البديل الإسلامي والوجه المعتدل الوحيد للإسلام الذي يمكن لأمريكا التعاون معه 152.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

إن هؤلاء الشركاء لإعادة بناء الإسلام يوجدون في الغرب. والمطلوب هو ربطهم مع بعضهم لكسر عزلتهم الحالية، وترويج أفكارهم، ثم استخدام الإعلام لتسويقهم في العالم العربي الإسلامي. وذلك من أجل خدمة أهداف السياسة الأمريكية.

إن العالم العربي والإسلامي المتأزم، يقابله إدارة أمريكية قوية عسكريا، وهو الجانب الأول الذي تستخدم في سياستها الخارجية، وفي تعاملها مع العالم العربي الإسلامي. والسؤال الجدي المطروح: هل من سبيل لمقاومة ذلك السباق المستمر إلى الأسفل ؟ 153 ، أي المزيد من التعصب والعسكرة على الجانبين ؟ وما هو نوع المقاومة الممكنة في ظل كل هذه الأوضاع المختلفة ؟ 154.

إن الخطاب الموجود في العالم العربي والإسلامي تجاه أمريكا في العقود الماضية، وبعد إعادة انتخاب الرئيس جورج بوش الابن، ليس هو المرة الوحيدة التي كان مخيبا للآمال، فهو خطاب احتوى على الكثير من التعميم، وكان مصحوبا بحالات انفعالية، حيث كان يرى أن أمريكا حالة مرضية ميئوس من علاجها لانحيازها الدائم واللامطلق لإسرائيل، والخطاب نفسه يقدم انتقادات لانهائية لكل سياسات أمريكا الخارجية، ولم ينتقل، إلى نقطة إيجابية واحدة تتغير فيها المطالب المشروعة إلى تفكير موضوعي، يبحث في سبل مقاومة سلبات تلك السياسات، تجاه العالم العربي والإسلام، وبالتالي فلماذا لم ننجح في إحداث تلك النقلة النوعية الضرورية للتغيير مثلما فعل اليهود الصهاينة؟ "السبب هو أننا، نحن العرب والمسلمين، قد قصرنا في فهم أمريكا فهما جيدا، بحيث أن الفجوة لا تزال كبيرة وخطيرة. بين حجم الانشغال بالدور الأمريكي وأثره على مصالحنا الحيوية، وبين الاهتمام الجدي بفهم أمريكا فهما علميا دقيقا يسمح بحماية هذه المصالح" 155 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

في ظل غياب البحث العلمي، فإنه من الطبيعي أن يبقى فهمنا لأمريكا أسيرا لانطباعات ولصور نمطية مبنية على تجارب فردية أو خبرة أحداث ووقائع تاريخية بعينها، يتم من خلالها القفز إلى تعميمات لا تقوم على ضوابط منهجية. الأمر الذي يقلل من البدائل المطروحة، وتظل محصورة في نطاق الصراع الحضاري، وهو فخ لا بد من الحذر منه لأنه غلو لا يخدم إلا تيار الغلو الأمريكي 156.

ولكل هذه الأسباب، أولى إدوارد سعيد أهمية كبيرة في كتاباته لإنشاء مراكز للدراسات الأمريكية في العالم العربي 157. ففي كتاب الاستشراق Orientalism، اعتبر سعيد أن غياب مثل تلك المراكز المعنية بدراسة أمريكا، دراسة معمقة ونقدية، أحد المؤشرات الدالة على استمرار الهيمنة الثقافية 158، لأنه يسمح بقبول النموذج الرسمي لهوية أمريكا وتغيب النماذج الأخرى، مما يغلق الباب أمام العمل الفعال والمقاومة.

وفي واقع الأمر، فإن قيمة إدوار سعيد لا تتوقف عند دوره كمفكر وباحث اتسمت كتاباته بعمق نظري، تبنى من خلاله أطر تحليلية نقدية اهتم بشكل منهجي بإبراز التعقيدات الهيكلية ذات البعد التاريخي لعلاقات القوة. بالإضافة إلى تلك المساهمة الفكرية، فقد تبنى سعيد رؤية لدور المثقف، مما جعله يولي الاهتمام الكبير للمشاركة في مجرى الأحداث والتفاعل مع الحاضر والاستجابة لتحدياته، وكان سعيد نفسه نموذجا مجسدا لذلك الدور، من خلال انخراطه في العمل السياسي المباشر وكتاباته في صحف كبرى مثل الأهرام ويكلي Al Ahram Weekly التي دعا فيها إلى الاهتمام بالدراسات الأمريكية، وهي دعوة تجلّى فيها الدور الذي لعبه سعيد في التفاعل مع الحاضر وتحدياته، وبمعنى آخر، "فإن دراسة أمريكا، عند إدوارد سعيد كانت تفتح الباب للمقاومة من خلال التعرف على

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

المسكوت عنه والتفاعل معه، أي اكتشاف الوجه الآخر لأمريكا الذي يمكن التحوار معه. ففي غمرة الانشغال باليأس والغضب، تضيع بعض الخيوط المهمة، والمفتاح، إذن، هو التقاط تلك الخيوط وحياتها على نحو قد ينتج نسيجاً مختلفاً لصورة ذلك الكيان المعقد المسمى أمريكا" 159 .

ولعل انتخابات الرئاسة الأمريكية 2004، مثلاً ممتازاً يمكن استخدامه كنموذج يتم إخضاعه لذلك النوع من الدراسة التي تهدف إلى التقاط الخيوط والتركيز على المسكوت عنه.

أولاً: ليس صحيحاً القول بأنه بعدم وجود فرق بين جون كيري وجورج بوش في السياسة الخارجية. لا يظهر "الاختلاف فعلاً من خلال تصريحاتهما إزاء كل القضايا العربية، بل يتضح من خلال رؤية كل منهما للعالم وكيفية التعامل معه. إن الفرق الرئيسي بينهما، يخص الأسلوب الأمثل لإدارة الإمبراطورية الأمريكية، إن مشروع جورج بوش تقوم فيه السياسة الخارجية والأحادية في اتخاذ القرارات على الجانب العسكري، أما جون كيري فيميل إلى تيار يمين الوسط الديمقراطي، حيث يستخدم في تلك السياسة، المعونات والاتفاقات الدولية والتجارة الحرة والضغط الاقتصادي، والاستعداد لاستخدام القوة العسكرية عند الضرورة الملحة فقط" 160.

ثانياً: لا بد من قراءة الانتخابات الأمريكية في سياق النظام الانتخابي الأمريكي نفسه، "إنه نظام مصمم عن قصد لإعطاء الناخب الأمريكي دوراً، ولكنه يضع ذلك الدور دوماً تحت السيطرة من جانب النخبة، وهذا الدور محدود بقيود دور المال، والإعلام، وجماعات المصالح، فلا بد من أخذ هذه المتغيرات بعين الاعتبار، قبل إصدار أحكام جزافية

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

حول حقيقة ما قاله الأمريكيون فعلا عبر صناديق الانتخابات " 161 ، أي إن ما يجري في أي اقتراع يتطلب الانتباه إلى المسكوت عنه، بنفس قدر إلى ما يقال، فالمسكوت عنه في أحيان كثيرة يكون أكثر دلالة مما تم تناوله.

وفي الانتخابات الأخيرة، مثلا، رغم الخطاب المتضمن تصدير الديمقراطية والحرية للعالم، فإن صمتا مطبقا أحاط بقضية انحسار الحريات المدنية داخل أمريكا نفسها، وهو صمت شارك فيه المرشحين أنفسهم، وحتى الإعلام الأمريكي. ومما يثير الانتباه إليه أن من بين استطلاعات الرأي التي أجرتها المؤسسات على تنوع انتماءاتها للوقوف على طبيعة القضايا التي شكلت أولوية الناخب لحظة التصويت، - لم يضم استطلاع واحد منها قضية الحريات ولا الحقوق المدنية - ضمن القضايا أصلا.

لكن لعل المسكوت عنه في رسالة جون كيري الانتخابية كان أهم مما قاله فعلا. فما لم يقله جون كيري كان بالغ الدلالة لأنه يجيب عن أسئلة كثيرة. فعلى سبيل المثال، رغم أن جون كيري بنى حملته الانتخابية على أنه الأفضل من أجل إعادة العافية إلى تحالفات أمريكا الدولية، فإنه لم يذكر أبدا طبيعة الصلاحيات التي ستكون أمريكا على استعداد لإشراك الحلفاء فيها - إذا ما فاز بالانتخابات الرئاسية- بحيث كلما تحدث عن الحلفاء كان إشراكهم يعني فقط تحملهم الأعباء المادية والبشرية مع أمريكا، ورغم أنه لم يكف عن انتقاد إدارة جورج بوش بشأن أدائها في العراق، إلا أنه لم يجب عن أي من الأسئلة الصعبة، ولم يقدم أكثر من أفكار لا تعدو أن تكون خططا قصيرة المدى، فلم يقل، مثلا، ما هو هدف أمريكا بشكل واقعي في العراق في ضوء تردي الأوضاع، ولم يتحدث عن سقف التكلفة في الأرواح البشرية والمادية التي يمكن لأمريكا تحملها 162.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحمال سعيد

إن سكوت جون كيري عن كل ذلك يجسد حجم المأزق الذي عانى منه الديمقراطيون، وهو مأزق صنعه الحزب لنفسه ودفع جون كيري ثمنه وغيره من المرشحين، فم منذ أحداث 2001/09/11، أصاب قادة الحزب الديمقراطي الذعر من الارتفاع المذهل في شعبية الرئيس (و هي عادة الرادع الأول لعضو الكونجرس لتحدي الرئيس)، وخشوا من اتهامهم بالتهاون إزاء الأمن القومي، فباستثناء أصوات قليلة من الديمقراطيين، مثل روبرت بررد وباتريك ليهي وتيد كيندي، فضلا عن النواب السود، انهارت تماما المعارضة المؤسسية، وانحنوا بالكامل أمام رغبات الرئيس ووافقوا على الكثير من البنود الخلافية، في أجندة الرئيس الداخلية والخارجية، فوافقوا على خفض الضريبي المذهل الذي تقدم به الرئيس، وأسهموا في تمرير قانون حب الوطن (باتريوت).

واستعدت أمريكا لانتخابات تشريعية تجري في نوفمبر 2002، وهي التي تأتي في منتصف مدة الرئاسة، ينتخب فيها كل أعضاء مجلس النواب وثلث أعضاء مجلس الشيوخ، وقد شهدت البلاد في ربيع وصيف 2002 أحداثا كانت تنذر بتحول المناخ السياسي الذي ساد بعد أحداث سبتمبر 2001، حيث تفجرت سلسلة من الفضائح المالية جسدتها انهيار شركة إنرون، ومجيء صيف 2002 كان عجز الموازنة قد وصل إلى مستوى جديد، فضلا عن تزايد نسبة البطالة، الأمر الذي كان ينذر ببوادر مرحلة جديدة ربما يستعيد فيها النظام الأمريكي بعض توازنه، ولكن إدارة جورج بوش كانت لها إستراتيجية للتعامل مع انتخابات 2002، وهي تغيير الموضوع، وكانت وسيلتها هي العودة إلى قضية الأمن القومي التي هي أساس شعبية جورج بوش، وذلك عبر طرح مسألة غزو العراق في المعركة الانتخابية.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وكانت إدارة جورج بوش قد عقدت العزم على غزو العراق منذ انتهاء الحملة العسكرية على أفغانستان 163. لقد بنى الحزب الديمقراطي رصيده تقليدياً - منذ الثلاثينيات من القرن الماضي - باعتباره الحزب الأفضل في التعامل مع القضايا الاقتصادية، بينما بنى الحزب الجمهوري رصيده على أساس أنه الأفضل في التعامل مع السياسة الخارجية، فحين أُلقت إدارة جورج بوش بقضية العراق إلى المعترك السياسي، تغيرت قواعد اللعبة، فكان على الديمقراطيين أن يتبنوا إستراتيجية انتهازية كلفتهم الكثير، مقدمتا ألا ينبغي لهم السماح لجورج بوش استثمار الحالة التي عمت البلاد، بعد أحداث 2001/09/11، لتحقيق انتصار لحزبه مستخدماً شعبيته، خاصة بشأن الحرب على الإرهاب، أما بشأن الإستراتيجية البائسة، فكانت قراراً بعدم مواجهته بشأن الأمن القومي، والسعي إلى صرف الانتباه بسرعة إلى قضايا الداخل 164. بمعنى آخر، سعى الديمقراطيون إلى تحييد قضية الأمن القومي بـ "التنازل عنها بالكامل لجورج بوش، عبر إعطائه ما أراد بشأن العراق، ثم تغيير الموضوع بسرعة، حتى تحتل قضايا الداخل الأولوية في الانتخابات، لكن جورج بوش وقتها كان قد حول الحرب على الإرهاب إلى قضية داخلية أي قضية من قضايا الأمن القومي، وفعل نفس الشيء بشأن غزو العراق، فالمسألة لم تعد بالنسبة للناخب استفتاء على سياسة جورج بوش الخارجية لأنه نجح في ربط قضية العراق بشكل وثيق بأحداث 2001، وقدمها للرأي العام بوصفها جزءاً من الحرب على الإرهاب، فهي بذلك تتعلق بالأمن الشخصي للمواطن داخل الأراضي الأمريكية نفسها، أي أنها لم تعد في الواقع قضية من قضايا السياسة الخارجية" 165.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وقد أثبتت الدراسات الصادرة بعد الانتخابات صحة هذا التحليل، فعلى سبيل المثال، "ثبت أن عدد السود، وهم أهم القوى التي تعطي أصواتها بكثافة للديمقراطيين، الذين أدلو بأصواتهم في تلك الانتخابات كان الأقل بالمقارنة بآخر عامين انتخابيين (1998 و2000)، بينما كانت أعداد الناخبين اليمينيين هي الأعلى على الإطلاق بالمقارنة بأية انتخابات تشريعية سابقة. وكان الجمهوريون قد سعوا فعلا إلى دفع الناخبين المحافظين للتصويت عبر حملة تعبئة مكثفة أطلق عليها اسم مشروع 72 ساعة قام بها الحزب في الأيام الثلاثة السابقة مباشرة على الاقتراع العام" 166.

وهكذا دخل الحزب الديمقراطي معركة الانتخابات الرئاسية في 2004، "وهو يعاني من مأزق صنعه لنفسه، وقد ازداد هذا المأزق عمقا، لما كان مرشح الحزب جون كيري عضوا في مجلس الشيوخ، و قد وافق على كل تلك السلسلة من القوانين والقرارات، فلم تنجح حملة كيري بالقدر الكافي في فك الترابط الذي استخدمه جورج بوش وبين قضية العراق والأمن القومي، بمعنى أن جون كيري عجز عن تقديم بديل مقنع للناخب الأمريكي، هذا، واستطلاعات الرأي التي أجريت عقب الانتخابات تعزز ذلك، فقد فاز جورج بوش رغم تزايد قلق أغلبية الأمريكيين إزاء أجدته الداخلية والخارجية، ورغم ارتفاع نسبة من صاروا يؤمنون بأن غزو العراق كان غلطة، بل وحتى ارتفاع نسبة من اعتبروا بلادهم تسير في الطريق الخاطئ" 167.

إن أية قراءة متأنية لنتيجة إعادة انتخاب جورج بوش في 2004، "لا بد أن تأخذ في حسابها الاعتبارات المختلفة التي شكلتها، فحصول جورج بوش على 51% من الأصوات الشعبية، هي نسبة عالية قطعا مقارنة بمقاييس الانتخابات الأمريكية، ولكن هناك 49%

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

صوتوا لغير جورج بوش، فماذا عنهم؟ وحتى نسبة 51% التي صوتت لبوش تحتاج للدراسة والفرز، فهم ليسوا جميعا منتمين لليمين الديني، الذي لا تتعدى نسبته في الولايات المتحدة 23% 168، والنتيجة، هي "أن الصورة الرسمية لأمريكا صحيحة، وهي إحكام قبضة المحافظين الجدد على صنع القرار، مع وجود حالات مقصودة لإعادة تشكيل العالم، بل وحتى تشكيل هوية أمريكا ذاتها، ولكنها صورة ليست حقيقية، لأنها ليست كل أمريكا. وإنها هي الصورة المراد ترويجها للعقل الجمعي الأمريكي، ثم تصديرها للعالم باعتبارها وحدها المتحدثة باسم أمريكا والمعبرة عنها". إلا أن هذه الصورة تستبعد الكثير من القوى والتيارات والمصالح، وتفرض عليهم هذه الصورة الرسمية التي عليهم قبولها والانسحاق فيها، وهذا ما يوضح أن أمريكا الرسمية ليست كلها كتلة واحدة. فالخلاف بين جون كيري وجورج بوش هو أحد تجليات التباين داخل المؤسسة الحاكمة Polilitical Establishment، أي داخل أمريكا الرسمية نفسها" 169، وهذا الخلاف ليس هو الوحيد، بل توجد تباينات داخل أمريكا الرسمية، فهناك، على سبيل المثال، التباين التقليدي بين المؤسسات والهيئات المختلفة، والمعارك بينها (في الواقع كقاعدة وليس كاستثناء في النظام السياسي الأمريكي)، وصلت في عهد جورج بوش الابن إلى مستويات غير مسبقة 170.

والخلاف الذي برز بين وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية، من ناحية، ووزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي، من ناحية ثانية، بشأن غزو العراق ليس جديدا في الحالة الأمريكية، وقد "كان الكونجرس الأمريكي وراء قانون نقل السفارة الأمريكية للقدس في 1995، ولكن القانون لقي معارضة قوية من وزارة الخارجية الأمريكية، بل صدر دون توقيع الرئيس بيل كلينتون الذي استخدم حقه في الامتناع عن التوقيع حين واجه أغلبية ساحقة

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

في المجلسين، ولم يكن الموقف الذي تبناه المدنيون في وزارة الدفاع قبل غزو العراق، هو الموقف الوحيد بداخلها، حيث اختلف معهم العسكريون اختلافاً وصل إلى حد الصراع، والأمير نفسه بالنسبة لأجهزة المخابرات المركزية الأمريكية¹⁷¹، وبمعنى آخر، "إن الصراع المؤسسي ليس جديداً في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن جوهر الصراع وصل إلى مستويات جديدة، إذ أن إدارة جورج بوش تحدث انقلاباً حقيقياً في سياسة أمريكا عموماً". 172 .

وهناك عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين المخضرمين مثل روبرت بيرد وتيد كيندي وباتريك ليهي، "الذين عارضوا أجندة جورج بوش في الداخل والخارج معاً، وهناك معارضة المواقف التي لا تقل أهمية حتى من بعض الرموز المهمة في حزب الرئيس نفسه، حيث لا يجوز وضع أعضاء بارزين من الحزب الجمهوري مثل ريتشارد لوجار وتشاك هيغل في نفس السلة مع أنصار الحرب اللانهاية من المحافظين الجدد"¹⁷³ .

إن البديل، هو رؤية أمريكا ككيان معقد ومتعدد، ورغم كل ذلك (التيارات المتعصبة والمتسلطة والعسكرة)، توجد هناك أصواتاً مهمة بداخل أمريكا الرسمية ترفض ذلك الطرح، حيث هناك أمريكا أخرى، حسب تعبير إدوارد سعيد، يمكن التفاعل والحوار معها، وذلك لا يمكن أن يحدث بدون القيام بفرز خلاق (تفكيك أمريكا) لذلك الكيان الضخم.

إن الحديث عن "أمريكا الأخرى مقابل أمريكا الرسمية ينطوي على استخدام للشائيات التقليدية المفيدة لعملية الفرز والتصنيف كما هو الحال مع ثنائية إدوارد سعيد الخاصة بالثقافة والثقافة المضادة"¹⁷⁴ .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

لكن الفائدة لا تتحقق، "إن لم تكن مصحوبة بتفكيك فوري لتوضيح ما تنطوي عليه من إشكاليات، فبقدر التعدد الذي تنطوي عليه أمريكا الرسمية، فإن أمريكا الأخرى نفسها ليست كتلة واحدة، ينبغي هي الأخرى أن تخضع لفرز لا يقل دقة وأهمية. إنها هي الأخرى تمثلها الحركات الاجتماعية الجديدة بما تضم من تنظيمات وجمعيات لا حصر لها ذات أهداف ودوافع شتى" 175، وهي تسعى إلى "تغيير جذري سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، هذه الحركات الاجتماعية الجديدة تتميز عن الحركات التقليدية، من حيث أنها نقلت الاهتمام من القضايا الاقتصادية مثل حركة العمال، إلى الاهتمام بطبيعة العلاقات الاجتماعية، بما فيها الجوانب المتعلقة بالهوية، وهي حركات تعتبر المشاركة هدفا في حد ذاتها، لأنها تصنع لهم نوع من العلاقات التي يهدفون لإيجادها أصلا، وبالتالي فهم يسعون لبناء هويات جديدة" 176 .

وهناك الكثير من الحركات الاجتماعية داخل الولايات المتحدة الأمريكية التي تختلف من حيث النشأة والأهداف، ولكنها تتسم في "أغلبها بالانفتاح على العالم عبر التنسيق مع نظيرتها خارج الحدود الأمريكية، وتنطوي هذه الحركات تحت لواء عشرات المنظمات والتي لا تتفق بالضرورة على كل شيء، ولأغراض الفرز وحده، يمكن تصنيف التنظيمات المختلفة التي تنطوي تحت لواء هذه الحركات الاجتماعية إلى ثلاثة مجموعات رئيسية:

مجموعات هدفها سياسي لناهضة التدخل الأمريكي في الخارج، وانحسار الحريات والحقوق المدنية في الداخل. وأخرى هدفها اجتماعي، اقتصادي تقاوم العولمة الاقتصادية على أسس مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية. وثالثة هدفها ثقافي، تدعو

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

إلى احترام التنوع العرقي والثقافي وإعادة تعريف الهوية الأمريكية على نحو يعكس ذلك التوجه " 177 .

إن العمل المشترك بين هذه المجموعات، وهو الأصل لا الاستثناء، "يجعل الحدود الفاصلة بينها تتلاشى فكريا وحركيا، فضلا عن أن التلاقي الفكري الذي ينبع من الإيمان المشترك يقيم العدل والمساواة والحرية، رغم التباين في الأولويات والتكتيكات والبدائل المطروحة" 178 .

بعد أحداث سبتمبر 2001، وقبل غزو أفغانستان، "تشكلت في أمريكا حركة مناهضة للتوجهات الداخلية والخارجية، أعلنتها إدارة جورج بوش فور وقوع الحادثة، وبعد أسبوع تشكل ائتلاف سمي (العمل الآن من أجل وقف الحرب وإنهاء العنصرية) يعرف باسم أنسر ANSWER، وضم مئات المنظمات المدنية التي تختلف في نشأتها وأصولها الفكرية وأهدافها، ولكنها عملت جميعا منذ عقود طويلة من أجل الدفاع عن الحقوق المدنية في الداخل، أو ضد التدخل الأمريكي في الخارج. وقد ضمت اللجنة التنفيذية للائتلاف، عددا كبيرا من الشخصيات الأمريكية المرموقة من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعات" 179 .

ونظمت أنسر ANSWER تظاهرات واعتصامات في أنحاء الولايات المتحدة ضد إدارة جورج بوش، "وحتى من أجل فلسطين الحرة، وضد جدار الفصل العنصري الإسرائيلي، وعملت أيضا، مع ائتلافات أخرى مثل متحدون من أجل السلام والعدل وهو ائتلاف يضم حوالي 800 جماعة محلية. وكان إدوارد سعيد من أهم ، بإلقاء المحاضرات، وبالاشتراك في دعم شبكة تحالفاتها الواسعة" 180 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

والواقع إن هذه الحركات نشأت بعد أحداث 2001/09/11 لمناهضة سياسات إدارة جورج بوش، وهي في نفس الوقت امتداد لتاريخ طويل من المقاومة النشيطة لسياسات الخارجية الأمريكية. "فهناك أيضا الحركة المناهضة للسباق النووي في عهد الرئيس جيمي كارتر التي كان هدفها تجميد ذلك السباق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي" 181 .

زيادة على مناهضة سياسات أمريكا "في أمريكا اللاتينية التي كانت انتهاكا صارخا لحقوق الإنسان، بدعوى جلب الديمقراطية لتلك المنطقة من العالم" 182 . وقد "تعرضت هذه الحركة للجمود في نهاية عهد جيمي كارتر وبداية عهد رونالد ريغان، بسبب الغزو الروسي لأفغانستان 1977، وقضية الرهائن الأمريكيين في طهران" 183 . لكنها سرعان ما عادت للساحة من جديد، وقادت العمل المباشر أثناء حرب الخليج الأولى، وظلت على الساحة من أهم المدافعين عن الحقوق الفلسطينية، حتى أخذت شكلها، الذي ذكرناه بعد أحداث 2001/09/11. على الرغم من إن التعبيرات الراضية لأبعاد العولمة الاقتصادية كانت موجودة، منذ نهاية الثمانينيات، فإن البداية الحقيقية لنشأة الحركة المناهضة للعولمة بشكلها الحالي في أمريكا هي سنة 1994، بعد نهاية دورة الأرغواي ونشأة منظمة التجارة العالمية OMC، التي تزامنت مع التوقيع على اتفاقية نافتا (اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية عام 1993)، والتصديق عليها من طرف الكونغرس الأمريكي. حيث واکب ذلك التوقيع حركة مقاومة ضد تلك الاتفاقية، عملت جاهدة للضغط على صانع القرار الأمريكي، فهزمت هذه المقاومة، حينئذ أدرك نشطوها بأن المعركة لا تزال مستمرة، وقد عارض هؤلاء تلك الاتفاقيات بناء على تحليل لهيكل الاقتصاد العالمي، حيث أن تحرير التجارة العالمية بنفس الشكل، يؤدي إلى تركيز السلطة والمال بيد نخبة ضئيلة، ويعطي قوة

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

للشركات العملاقة، في دول الشمال والجنوب على حد سواء. فهو يؤدي إلى سباق إلى أسفل في كل العالم فيما يتعلق بحقوق الإنسان والبيئة 184 . وقد هاجموا، رفض منظمة التجارة العالمية OMC أخذ معايير العمالة وحماية البيئة في الاعتبار، لأنه يسمح لتلك الشركات متعددة الجنسيات التحرك بسهولة في بلدان العالم بحثا عن العمالة الرخيصة، الأمر الذي يدفع بدول العالم الثالث خصوصا إلى تخفيض معايير تشغيل العمال من أجل جذب الاستثمار. وهو الأمر الذي تنحسر معه تلك المعايير في كل مكان 185، حتى تقل معه قدرة اتحادات العمال على حماية الحد الأدنى المناسب من الأجور، وغير ذلك من الأمور التي أكدت عليها منظمة العمل الدولية، وهي تقوض أيضا من سيادة الدولة، وتعطي المزيد من القوة لتلك الشركات العملاقة التي تهدد العمال، والدول التي لا توفر المناخ الملائم للاستثمار بالهروب منها لبلدان أخرى مستعدة لتوفير ذلك 186.

وقد أدرك مناهضو العولمة أن العمل المحلي داخل دولة واحدة ضد اتفاق أو آخر لم يعد كافيا لمواجهة عملية عالمية تقوم بإعادة ترتيب هيكل الاقتصاد العالمي برمته، مما يعني ضرورة أن تكون المقاومة عالمية هي الأخرى 187. فعلى سبيل المثال، ظهرت منظمات مثل "يكفي خمسون عاما" 50 Years is Enough التي نشأت في الذكرى الخمسين لإنشاء البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، والتي تركز على مناهضة سياسات المؤسساتين التوأم، خصوصا في بلدان العالم الثالث، كبعد من أبعاد الاقتصاد العالمي وهذه المنظمات هي ائتلاف يضم عددا كبيرا من المنظمات غير الحكومية المنتمية لأكثر من 65 دولة حول العالم 188.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

وهناك منظمات أخرى تركز على العولمة الاقتصادية بكل أبعادها، مثل الجمعية الفرعية التي أنشأتها مؤسسة المواطن العام الأمريكي public citizen Inc. 189 سميت جلوبال تريد ووتش Global Trade Watch وغرضها نشر الوعي العام بشأن العولمة مثالب العولمة الاقتصادية، عن طريق إجراء البحوث ونشرها والعمل القاعدي المباشر بين الجماهير، زيادة على ضرورة وضع آليات للمساءلة والرقابة على الشركات متعددة الجنسيات، والمؤسسات المالية الدولية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وقد لعبت هذه الجمعية دورا فعالا في التحضير للمظاهرات التي اجتاحت مدينة سياتل أثناء انعقاد مؤتمر منظمة التجارة العالمية في 1999 190 .

أما عن المنظمات غير الحكومية والتي تنظم إلى تلك المنظمات الأم في شكل ائتلاف، فهي ذات طابع يتسم بالتعددية الشديدة من حيث الأهداف والرؤى والنشأة فهي تضم منظمات معنية بقضايا المرأة، والبيئة وحقوق الإنسان والديمقراطية، ومنظمات دينية، وسياسة ذات أهداف محدودة مثل الديمقراطية في اللاوس، أو أنصار التبت...، بل أن هذه الجمعيات أو المنظمات تكون ذات أهداف محلية صغيرة ثم تنضم للحركة الأكبر في لحظة بعينها، مثل جمعية صغيرة للسود الأمريكيين مقرها واشنطن، نشأت لمناهضة خصخصة إحدى المستشفيات العامة، وجدت دعما من المنظمات الائتلافية المناهضة للعولمة، حيث ساعدتها في حملتها حتى حققت هدفها، بمعنى بأن تلك المنظمات الكبرى قد تتبنى قضايا صغيرة لمنظمات غير حكومية محلية، طالما أنها ذات علاقة بالقيم التي تتبناها تلك المنظمات 191 .

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

كما سبقت الإشارة فإن تعريف الهوية الأمريكية لا يزال محل صراع مستمر لن ينته بعد. فهناك محاولات مستمرة للتعامل مع التعددية العرقية في التجربة الأمريكية، انطوت كلها على تعريف بعينه للهوية الأمريكية، ومن أولى تلك المحاولات تلك التي تبنت موقفا اعتبر قيم وثقافة الرجل الأبيض البروتستانتى القادم من أوروبا الغربية هي الأفضل للكيان الأمريكي، ومن ثمة لا بد أن تذوب فيها كافة الثقافات والقيم الأخرى، بمعنى فرض تلك الثقافة الأفضل على الآخرين 192.

ثم جاءت محاولة أخرى تبنت مفهوم بوتقة الصهر Melting-Pot التي تعني انسحاق الكل في ثقافة واحدة، إلا أن الجديد في هذه البوتقة، إن الثقافات المختلفة بما فيها ثقافة الرجل الأبيض يتم صهرها في تلك البوتقة، مما ينتج عنه ثقافة جديدة فريدة من نوعها هي نتاج لعملية الصهر، وإن ظلت في النهاية ثقافة واحدة مهيمنة، على الجميع الذوبان فيها 193 .

وقد تزامنت مع هذا الطرح محاولة أخرى بالتوازي تبنت مفهوم التعددية الثقافية Cultural-Pluralism وهي محاولة تعترف بثقافات الجماعات العرقية المختلفة وإسهامها في إثراء الحالة الأمريكية، والاحتفاء بتميز كل واحد منها عن الأخرى، ولكن هذا المفهوم جعل الاحترام والاحتفاء مقصورا على المجال الخاص، بينما ينسحق الجميع في ثقافة واحدة مهيمنة في المجال العام (و هي مرة أخرى ثقافة الرجل الأبيض)، بمعنى آخر، كان الجديد في هذا التطور هو الاعتراف بدرجة أكبر بإسهام الثقافات الأخرى في إنتاج الثقافة المهيمنة 194.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، جاءت مرحلة جديدة تعتبر امتدادا طبيعيا لحركة الحقوق المدنية بمعناها الواسع، وهي التي عرفت بحركة التنوع الثقافي: Multiculturalism، حيث قدم أنصارها تعريفا جديدا للهوية الأمريكية، مثل دعوة أمريكا لإعادة اكتشاف أصولها المتعددة، وإعادة الاعتبار للجماعات المختلفة واحترامها، لا امتصاصها في ثقافة واحدة مهيمنة. وهذا الطرح يقوم على اعتبار الثقافة عملية تقوم على التدافع والتفاعل، فهو طرح يرفض فكرة الأصل الواحد، "فالثقافة ليست كيانا ثابتا أصم، ولا يمكن خلقه خلقا ثم فرضه على الجماعات المختلفة 195.

وينطوي تيار التنوع الثقافي على تعددية بداخله، "تبرز تجلياته في الواقع الأمريكي بأشكال شتى، كالسياسة العامة أو الأدب والفكر، وأهم تجلياته تلك المعركة الفكرية الكبرى التي يخوضها أحد فصائله بشأن إعادة النظر في كتابة التاريخ الأمريكي، وما ينبغي أن يتم اعتماده للتدريس في المدارس" 196.

وقد لعب المحافظون الجدد دورا محوريا في تلك المعركة، "حين حاربوا ظهور أمريكا الأخرى من خلال كتب التاريخ، وكانت المعركة دليلا على إصرار المحافظين عموما، والمحافظين الجدد على وجه الخصوص" 197، على تقديم تاريخ أمريكا على نحو ناصع البياض، و"تحذف منه عمدا صفحات مهمة تعلق بجماعات وقوى تعرضت لمظالم وكوارث على يد أمريكا الرسمية بدءا من مأساة السكان الأصليين، والعبودية والقهر الطبقي والتمييز ضد المرأة، ولى العنصرية والتمييز المؤسسي الذي لا يزال حتى الآن ضد الكثير من الأقليات بكافة أنواعها، وقد رفضت كل تلك القوى الحكاية المهيمنة، والتي تعتبر أن

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

أمريكا ذات حكاية واحدة متصلة لا يمكن دحضها، هي حكاية التقدم المستمر نحو المساواة والحرية للجميع" 198.

وبتعبير آخر، فقد رفضت كل تلك القوى اعتبار أن الثقافة الغربية هي أعلى نقطة في تقدم الإنسانية، واعتبارها الأصل التاريخي للولايات المتحدة الأمريكية 199. ورغم أن معركة تيار التنوع الثقافي هي أمريكية بالأساس، إلا أنه بسبب الخبرة الأمريكية ذاتها فإن التيار قادر أكثر من غيره على التفاعل مع صراعات أخرى خارج الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة تلك التي تدعو لمقاومة الهيمنة الغربية بأشكالها المختلفة، العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، "فهو تيار يدعو لرؤية العالم باعتباره مكونا من أصوات وتيارات وثقافات عدة مختلفة، بل ومتناقضة أحيانا، دون أن يكون لأي منها حق الهيمنة، وهو أيضا أكثر التيارات تشككا في دعاوى الهيمنة تحت شعارات نبيلة مثل نشر الحرية والديمقراطية، لأنها مورست ضد قواه قبل غيرهم، فخبرة الأمريكيين الأصليين Native Americans تجعلهم أكثر حساسية إزاء دعاوى الهيمنة تحت شعار جلب التقدم إلى مناطق متخلفة، ودعاوى نقل الحضارة الغربية إلى أرض خاوية بلا شعب" 200، والأمريكيون من أصل لاتيني يعرفون معنى أن تندلع حرب تحت شعار الديمقراطية، وخبرة مارتن لوثر كينج علمت السود معنى أن يتهم زعماء المقاومة والدفاع عن الحقوق بالإرهاب. رغم الاختلاف حول الأهداف المباشرة والبدائل المطروحة، تظل هذه القوى جميعا، مناهضو الحروب الإمبراطورية ومناهضو العولمة، وأنصار التنوع الثقافي، "تعمل بالتنسيق مع بعضها، بناء على ما يوحد بينها وهو الإيمان بقيم مشتركة تمثل أجندة جورج بوش خطرا عليها، وهذا التنسيق ليس غريبا على الحركات الاجتماعية الجديدة، إذ هو أيضا أحد

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

خصائصها ولعله أحد مصادر قوتها، فهذه الائتلافات Coalitions التي تنشأ بين مجموعات وقوى مختلفة تتسم بالمرونة الشديدة، أي قد تنضم قوى معينة لبعضها لتقوم بعمل مشترك من أجل هدف ما اليوم، ثم تنفصل غدا لتعمل كل منها بشكل منفصل حين تختلف، ثم يأتي يوم آخر بقضية جديدة فينضم بعض هؤلاء إلى آخرين وهكذا" 201 .

وهم جميعا يعملون داخل أمريكا، ويسعون للتواصل مع حركات أخرى خارج أمريكا، فعلى سبيل المثال، "اختار ائتلاف من حركات مناهضة الحرب والعولمة أن يعقد مؤتمره في بيروت في سبتمبر 2004، وكان اختيار عاصمة عربية متعمدا، حيث كان يهدف إلى فتح باب التفاعل والتنسيق مع الحركات العربية، وقد عبر المؤتمر على الضرورة الملحة لانضمام الحركات العربية، من أجل سد الفجوة الثقافية التي تستغلها إدارة جورج بوش لاثام الحركات العربية بالإرهاب" 202 .

ولابد من الإشارة إلى الدور الفعال الذي تلعبه "الحركات الاجتماعية نحو التغيير الحقيقي في الولايات المتحدة الأمريكية، فرغم دعاوى التخويف، وسيل السخرية الذي تعرضت له كل الحركات الاجتماعية عبر التاريخ دون استثناء، فضلا عن التعتيم الإعلامي المفروض عليها، فإنها كانت في الواقع وراء كل التغيرات الكبرى في التاريخ الأمريكي" 203 .

204، فالأولى بنا عند دراسة أمريكا، أن نتجنب الوقوع في نفس الفخ، "فما يحتاجه العرب اليوم، هو النقل الحرفي لهذه الدراسات الأمريكية إلى مؤسساتنا البحثية وإعادة إنتاجه وفرضه، ثم استكمالها بما يخدم الهدف المرجو منه" 205 ، مثلا لقد ظلت الدراسات الثقافية هي "ما يطلق عليه في الولايات المتحدة بالدراسات الأمريكية، لكننا في حاجة عند تناول هذه

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أعمال سعيد

الجوانب، ألا نركز، في دراسة التاريخ الأمريكي على الجانب الرسمي منه فقط، وإنما يجب علينا أن نضعه جنباً إلى جنب مع المسكوت عنه في تلك الحكاية الرسمية" 206. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على دراسات اللغة والمجتمع، فلا يجوز أن ننقل إلى البلاد العربية، مفهوم الدراسات الأمريكية الأمريكي الذي يستبعد السياسة والاقتصاد والمال والإعلام، مما أطلق عليه تقليدياً الدراسات الأمريكية داخل أمريكا" 207 .

إن الدراسات المطلوبة عندنا حول أمريكا، يجب أن تقوم على "تكامل العلوم والمناهج البحثية، للتوصل إلى صورة مبدعة عميقة، تكشف عن حقائق مهمة عن المجتمع الأمريكي التي تغلفها الصورة الرسمية، فهي دراسة لا تقف عند حد المعرفة من أجل المعرفة، أو المعرفة من أجل استبدال حالة من الارتياح العام، بحالة الحيرة، بل هي دراسة محددة الهدف، أي التعرف على أمريكا الأخرى، للتفاعل والحوار معها في عمل مشترك" 208 . ومن ثمة، فإن العمل المشترك مع القوى والحركات الاجتماعية الأمريكية، يعمل على "تهديم أطروحة صراع الحضارات ومحاولات تكريس الهويات المطلقة من نوع الغرب ككتلة واحدة، فهي منطلقات

يجب رفضها والتحذير من الوقوع في فخ تبنيها" 209 .

وهذا العمل المشترك يجب "أن يكون مع تلك القوى الحية وهي كثيرة في مجتمعاتنا، ومن شأن هذا الاشتباك أو العمل المشترك أن يبنى على الخبرة الإنسانية وربطها بخبرات وقوى وجماعات أخرى" 210 ، بمعنى آخر، إن ربط الموقف الرسمي العربي والإسلامي، بتاريخ من الممارسات السابقة لجماعات بشرية أخرى، بل وربط الخبرات العربية ومظالم قوى أخرى، على أساس قيم إنسانية مشتركة.

المبحث 2: نقد أمريكا الرسمية وفهم أمريكا الأخرى في أحوال سعيد

إن المشكلة في العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ليست في توجهات الإدارة، وإنما في غياب رؤية واضحة عند العرب، لما يجري هناك في أمريكا وكيفية التعامل معه، والعمل المشترك المراد الانخراط فيه، يجب أن يقوم على الدعم المتبادل بين القوى والحركات الاجتماعية، والتبني المشترك للقضايا التي تعبر عن قيم إنسانية مشتركة كالعدل والحرية وحقوق البشر في حياة كريمة تحترم آدميتهم.

ومن المؤكد أن الواقع العربي بحاجة ماسة إلى فرز كالحالة الأمريكية. للتفاعل مع هذه الأخيرة دون التخلي عن الكرامة الوطنية. إن الخطر الحقيقي يكمن في تيار التعصب الأمريكي والعربي معاً، وبعبارة أخرى، "إن التهديد الحقيقي الذي تواجهه الأمة العربية مصدره تزامن صعود تيارات الغلو في أمريكا وفي مجتمعاتنا العربية في آن واحد" 211 .

وإذا كان مفتاح مواجهة الغلو الأمريكي هو الدراسة النقدية تهدف إلى التعرف بدقة على تيارات الغلو وأهدافها، والتفاعل مع غيرها من التيارات الأمريكية، فإن انحسار التيار الأساسي عن المجرى العام للفكر والرأي والعمل السياسي في العالم العربي إنما يؤدي لاختلال التوازن 212 .

وأخيراً، ليس ما هو سائد في البلاد العربية من أزمت متنوعة ومتزايدة، ناتج عن قهر خارجي وقمع داخلي معاً، وكل ذلك يولد المزيد من تيارات الغلو والتطرف، ويخنق التيار العاقل، إن المهمة الداخلية هي البحث في سبل حماية ذلك التيار بفصائله السياسية والفكرية والاجتماعية والمدنية، حتى يستعيد عافيته من أجل أن يلعب ذلك الدور المهم في التفاعل مع أمريكا الأخرى.

- 1- حسن نافة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 25.
- 2 - المرجع نفسه، ص 25.
- 3- E.W. Said, The Palestinian Experience 1969 - 1968 , Herbert Mason , Ed. Reflections On The Middle Crisis, (The Hague A Mouton, 1970) , PP 47- 127.
- 4 - حسن نافة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 26.
- 5 - المرجع نفسه ، ص 26.
- 6- إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، محاورات مع ديفيد بارساميان ، ترجمة ينال قاسه، ط 2006، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ص 7.
- 7 - إدوارد سعيد، توصيف العرب، طبعة إنفانستون: نورثويسترن، يونيفرسيتي بريس، 1970، ص ص 1- 9. راجع أيضا إدوارد سعيد، بين عوالم، (المثلث المحتوم : الولايات المتحدة، وإسرائيل، وفلسطين)، الطبعة المحدثه، كامبردج: ساوث إند بريس، 1999، ص 51.
- 8 - حسن نافة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص ص 26 - 27.
- 9 - إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط 1، 2000، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ص 25.
- 10 - المرجع نفسه ، ص 43.
- 11 - حسن نافة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 27.
- 12 - إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط 1، 2000، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ص ص 63 - 73.
- 13 - المرجع نفسه ، ص ص 75 - 83.
- 14 - المرجع نفسه ، ص 24.
- 15 - المرجع نفسه ، ص 42.
- 16 - "حوار مع إدوارد سعيد"، مجلة الشباب المصرية، يوليو 2003.
- 17 - علاء الأسواني، "من إدوارد سعيد إلى مقهى ريش"، مجلة العربي، 25 يناير 2001.
- 18 - فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط 1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 63.
- 19 - المرجع نفسه ، ص ص 99 - 107.
- 20- جستس رايد فاينر، " بيتي العتيق الجميل "، وأكاذيب أخرى اختلقها إدوارد سعيد، مجلة كومنتري، العدد شهر أيلول (سبتمبر)، 1999.
- 21 - فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، ط 1، 2000، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 31 - 58.
- 22 - رسالة هدى جندي (وهي صديقة وجارة إدوارد سعيد في طفولته بالقاهرة)، التي كذبت ما ذهب إليه الباحث اليهودي من كلام على لسانها
ني: Nadia Gindi, On The Margins of a Memoir : A Personal Reading Of Said's Out Of Place, 2000 , P 98.
- 23- حسن نافة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 33.
- 24- Daniel Barenboim and E.W.Said, Parallels and Paradoxes, Explorations in Music and Society : NY, Pantheon Books, 2003.
- 25- E.W. Said, Representation Of the Intellectual : The 1993 Reith Lectures (NY : Vintage Books, 1996), P 26
- 26 - E.W.Said, From Oslo To Iraq (NY : Pantheon Books, 2004), P 42.
- 27-E.W.Said, The question of Palestine (NY : Vintage Books , 1979) .
- 28- E.W.Said and Christopher Hitchens, Blaming the Victims : Spurious Scholarship and the Palestinian Question (London : Verso Books , 1988). كريستوفر هيتشنز شارك مع إدوارد سعيد في كتاب عن القضية الفلسطينية: لوم الضحايا، منشورات فيرسو بوكس، لندن 1988.
- 29- E.W. Said, Joseph Conrad And The Fiction Of Autobiography Cambridge : Harvard UP, 1966, P 18.

- 30- إدوارد سعيد، ما بعد السماء الأخيرة : الحياة الفلسطينية، نيويورك بانثيون، لندن فابر، 1986. (وشارك في هذا التأليف المصور السويسري جون موهر بصورة، الملتقطة عن الشعب الفلسطيني في كل أنحاء العالم).
- 31- حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 34.
- 32- E.W. Said, The question Of Palestin, (NY : Vintage Books 1979), P17
- 33 - Ibid, P 18.
- 34 - Ibid, P 20.
- 35 - إدوارد سعيد، غزة- أريحا: سلام أمريكي، تقديم محمد حسنين هيكل، القاهرة: دار الشروق، 1994 . ص 25.
- 36 - المرجع نفسه، ص ص 25 - 26.
- 37 - إدوارد سعيد، "أسس التعايش السلمي"، مجلة الحياة، 1997/11/5، ص 17.
- 38 - المرجع نفسه، ص 22.
- 39 - المرجع نفسه، ص 24.
- 40 - إدوارد سعيد، "نظرة إلى المستقبل"، مجلة الحياة، 2002/4/7، ص 33.
- 41 - المرجع نفسه، ص 35.
- 42 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 38.
- 43 - إدوارد سعيد، "نظرة إلى المستقبل"، مجلة الحياة، 2002/4/7، ص 37.
- 44 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 38.
- 45 - المرجع نفسه، ص 38.
- 46 - إدوارد سعيد، عن الكرامة والتضامن، مجلة الحياة 2 يوليو 2003، ص 11.
- 47 - المرجع نفسه، ص 11.
- 48 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 39.
- 49 - المرجع نفسه، ص 39.
- 50 - إدوارد سعيد، "أسس التعايش السلمي"، مجلة الحياة، 1997/11/5، ص 22.
- 51 - إدوارد سعيد، "نظرة إلى المستقبل"، مجلة الحياة، 2002/4/7، ص 42.
- 52 - إدوارد سعيد، "أسس التعايش السلمي"، مجلة الحياة، 1997/11/5، ص 17.
- 53 - إدوارد سعيد، "البديل الوحيد"، مجلة الحياة، 2001/3/2، ص 9.
- 54 - المرجع نفسه، ص 10.
- 55 - إدوارد سعيد، "البديل الوحيد"، مجلة الحياة، 2001/3/2، ص 12.
- 56 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 39 - 40.
- 57 - إدوارد سعيد، "البديل الوحيد"، مجلة الحياة، 2001/3/2، ص 17.
- 58 - إدوارد سعيد، "من القدس وبيروت إلى سياتل ونيويورك، تأملات في المنفى... نوبار ودرويش وكونراد وأن ترى 'العالم أجمع أرضا غريبة'، مجلة الحياة، 2003/10/1.
- 59 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 41.
- 60 - إدوارد سعيد، "من القدس وبيروت إلى سياتل ونيويورك، تأملات في المنفى... نوبار ودرويش وكونراد وأن ترى 'العالم أجمع أرضا غريبة'، مجلة الحياة، 2003/10/1.
- 61 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 42.
- 62 - المرجع نفسه، ص 42.
- 63 - حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 42.

- 64- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط 1، 2000، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ص 25.
- 65- حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص ص 42-43.
- 66 - E.W. Said , The Politics of Dispossession : The Struggle for palestinian Self-determination 1969/1994 (London :Chatto and windus, 1994), P 25.
- 67 - Ibid, P 24.
- 68 - Ibid, P 25.
- 69- حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 44
- 70 - E.W. Said , The Politics of Dispossession : The Struggle for palestinian Self - determination (London :Chatto and windus, 1969/1994), PP 26 -25.
- 71- إدوارد سعيد، التضامن مع ياسر عرفات، صحيفة نيويورك تايمز، 15 نوفمبر 1983.
- 72 -E.W.SAid, Solidly Behind ARAFAT , The New York Times , (November 15, 1983) .
- 73- إدوارد سعيد، " القيادة الفلسطينية تنسى الماضي وتغفل الحاضر "، مجلة الحياة، 1998/10/21، ص 12.
- 74- حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 45.
- 75- إدوارد سعيد، مجموعة من المقالات، مجلة الحياة، مجمعة في كتاب: غزة- أريحا: سلام أمريكي، والذي صدر بمناسبة مرور عام على إتفاق أوسلو.
- 76- إدوارد سعيد، " القيادة الفلسطينية تنسى الماضي وتغفل الحاضر "، مجلة الحياة، 1998/10/21، ص 15.
- 77- المرجع نفسه، ص 15.
- 78- إدوارد سعيد، " حضيض العجز "، مجلة الحياة، 2002/9/30، ص 9.
- 79- المرجع نفسه، ص 10.
- 80- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط3، 2004، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 57.
- 81- إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، ط 1، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع.
- 82- حسن نافعة، إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 25، السنة 2005، طبعة دار إلياس العصرية القاهرة، ص 48.
- 83- إدوارد سعيد، " صدام الجاهلات "، مجلة الحياة، 2001/10/21، ص 9.
- 84- إدوارد سعيد، " أشعيا برلين، بين الليبرالية والصهيونية "، مجلة الحياة، 1997/12/9، ص 8.
- 85- المرجع نفسه، ص 9.
- 86- إدوارد سعيد، "سارتر والعرب: ملاحظات هامشية"، مجلة الحياة، 2000/5/30، ص 9.
- 87- إدوارد سعيد، "يهودي منوهين"، مجلة الحياة، 1999/4/2، ص 14.
- 88- المرجع نفسه، ص 14.
- 89- المرجع نفسه، ص 15.
- 90- إدوارد سعيد، "فرويد والصهيونية وفيينا"، مجلة الحياة، 2001/3/16، ص 6.
- 91- المرجع نفسه، ص 6.
- 92- المرجع نفسه، ص 7.
- 93- المرجع نفسه، ص 9.
- 94- المرجع نفسه، ص 10.
- 96- المرجع نفسه، ص 10.
- 97 -Mrs. Bush's Victory "Editorial", The Washington Post Online (November 4, 2004).
- 98 - منار الشوربجي، الديمقراطية المقيدة: انتخابات الرئاسة الأمريكية، (القاهرة، دار مصر المحروسة، 2004). ص 172.

- 99 - المرجع نفسه، ص 172.
- 100 - المرجع نفسه، ص 172.
- 101 - E.W.Said, The Other America Al ahram Weekly Online 630 (March 20- 26, 2003). .
- 102 - Ibid.
- 103 - منار الشوربجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 173.
- 104 - المرجع نفسه، 173.
- 105 - E.W.Said, The Other Amrica, AL-Ahram Weekly Online 630 (March 20 - 26 2003).
- 106 - E.W.Said, Archives, Le Monde Diplomatique/ September -. October, 16, 2004.
- 107 -Goodfrey Hodgson, A History The Cobservative Acendancy In America (Ny: Houghton Mifflin Company, 1996), P 52.
- 108- Ibid, P 53.
- 109 - منار الشوربجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 174.
- 110 - المرجع نفسه، ص 174.
- 111 - المرجع نفسه، ص 174.
- 112 -George H. Nash, The Conservative Intellectual Movement In America, Since 1945 (Wilmington , Delaware: Inter Collegiate Studies Institute, 1998), P 250.
- 113 -Irving Kristol, Neo-Conservatism, The Autobiography Of An Idea (Chicago : Ivan R. Dee Publishers, 1995), P 19.
- 114- Irving Kristol, Neo-Conservatism, The Autobiography Of An Idea (Chicago : Ivan R. Dee Publishers, 1995), PP 24 - 26.
- 115 - George H. Nash, The Conservative Intellectual Movement In America, Since 1945 (Wilmington, Delaware: Inter Collegiate Studies Institute, 1998), P 250.
- 116 - منار الشوربجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 175.
- 117 - المرجع نفسه، ص 175.
- 118- George H. Nash, The Conservative Intellectual Movement In America, Since 1945 (Wilmington, Delaware: Inter Collegiate Studies Institute, 1998), P 248.
- 119 - منار الشوربجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 175.
- 120 - المرجع نفسه، ص ص 175 - 176.

- 121- Douglas koopman, Hostile Takcover : The house Republican Party 1980-1995 (lanham, MD: Rowman and Littlefield Publishers inc, 1996), PP. 50 -55 .
- 122-Ibid, PP. 60- 64.
- 123-Irving Kristol, Neo- Conservatism, The Autobiography of An Idea (Chicago : Ivan R. Dee, Publishers 1995) P 8.
124. - منار الشوريجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 176.
- 125 - المرجع نفسه، ص ص 176 - 177.
- 126- George M. Marsden, Fundamentalism And American Culture (Oxford : Oxford UP , 1980), P 209 .
- 127 -Catherin L Albanese, America Relegions and Religion (Belmont,CA: Wadsworth Publishing Company, 1999), P 370.
- 128- Ibid, P .372 .
129. - منار الشوريجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 177.
- 130- Catherin L. Albanese, America : Relegions and Religion (Belmont, CA : Wadsworth Publishing Company, 1999), P 372.
- 131- Nina J. Easton, Gang of Five, N.Y. : Simon and Schuster, 2000, PP 111- 112.
- 132 - Catherin L. Albanese, America : Relegions and Religion (Belmont, CA : Wadsworth Publishing Company, 1999), P 372.
- 133- Tony Smith, Foreign Attachements, cambridge, MA : Harvard U.P. 2000, P 120.
- 134- George M. Marsden, Fundamentalism And American Culture (Oxford : Oxford UP, 1980),P 209.
- 135- منار الشوريجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 178.
- 136 - Robert Kagan And Wiliam Kristol (San Fransisco, CA : Encounte Books ,2000), P 308.
- 137 - Ibid, P 307.
- 138 - Ibid , P 24 .
- 139- Ibid, P 4.
- 140 - Ibid, P 6.
- 141 - Ibid, P 7.
- 142- Ibid, P 9.
- 143- Ibid, P 12.
- 144 - E. J. Dionne, Why Americans Hate Politics, (N.Y : Simon And Schuster, 1991), P 56.
- 145- Ibid, P.76
- 146- منار الشوريجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 181.
- 147 - E. J. Dionne, Why Americans Hate Politics, (Cy: Simon And Schuster, 1991), P 56 -
- 148 - Chalmers Johnson, Blowback : The Costs And Consequences Of American Empire (NY: Henry Haltand Company, 2000), P 21.

- 149 - Donald E. Alberson, Do Think Tanks Matter ? Assessing The Impact Of Public Policy Institutes (Montreal : Mc Gill-Queen's UP, 2002), PP 22 - 24.
- 150 - راجع السيرة الذاتية لشيرل بينارد في: Powell's Books Online, July 21, 2004, هذا وتستخدم الكاتبة بينارد مصطلح مراكز الفكر، حيث لا يلتزم باحثوه بأصول البحث العلمي، ومن ثمة فهي مراكز منتجة للفكر، وليست مراكز للبحث العلمي.
- 151 - Cheryl Benard, Civil Democratic Islam: Partners And Strategies (CA: Rand Corporation, 2003), P 3.
- 152- Ibid, P 9.
- 153 - إدوارد سعيد ، تغطية الإسلام ، ترجمة محمد عناني، الطبعة الأولى، 2006، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 55.
- 154 - أنظر إين وراق و كتابه في : Institute For The Secularisation Of Islamic Society, jannary 24, 2005
- 155 - هذا التعبير مقتبس من أدبيات حركة مناهضة العولمة راجع : 31, Causes Of Poverty, Global Issues Online, March : 2005.
- 156 - منار الشوربجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 187.
- 157 - المرجع نفسه ، ص 187.
- 158 - المرجع نفسه، ص 188.
- 159 - E.W.Said The Other America, Al-Ahram Weekly Online 630, (March 20 -26 2003) .
- 160- E.W.Said, Orientalism (NY: Pantheon Books, 1978), p 24.
- 161 - منار الشوربجي، التمييز بين أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى انطلاقاً من فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 188.
- 162 - المرجع السابق، ص 189.
- 163 - المرجع نفسه. ص 35 .
- 164- Kerry's Acceptance Speech , The New York Times Online, July 29, 2004.
- 165 -Bob. Woodward, Bush At War (NY: Simon And Shuster, 2002), PP 48 -51.
- 166 - Dan Balz, "Gephardt Defends Election Strategy", "The Washington Post Online November 8, 2002
- 167 - منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 191.
- 168 - Eric Pianin And Christopher lee, Pelosi Poised Lead Democrats In House, " The Washington Post Online ", (November 9, 2002).
- 169 -Dana Milbank, Deeply Divided Contry Is United In Anxiety, The Washington Post Online, November 4, 20004.
- 170- Dana Milbank , For The President : A Vote Full Faith And Credit, The Washington Post Online , November 7, 2004 .
- 171 - منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 193.
- 172 - المرجع نفسه، ص 193.
- 173 - المرجع السابق، ص 193.
- 174 -David Brooks, The CIA Verus Bush, The New York Times Online, November 13, 2004.
- 175 - منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 193.
- 176 - E.W.Said, Covring Islam, (NY : Vintage Books, 1997), PP 135- 161.
- 177 - منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 194.

- 178 -Steve Brayman, "New Social Movements" Peace And Change 22.3 (july 1997).
- 179 - منار الشوريجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص ص 194 - 195.
- 180 - Steve Brayman, "New Social Movements" Peace And Change 22.3 (july 1997)
- 181 -ANSWER Online, .March 11, 2005
- 182 -United For Peace And Justice Online, March11, 2005.
- 183 -Howard Zinn, A People's History Of United States : 1492-Present, (NY : Harper Collins Publishers, 1999), P 601 .
- 184 - Howard Zinn, A People's History Of United States : 1492- Present, (NY : Harper Collins Publishers,1999), P 608. .
- 185 -Howard Zinn, A People's History Of United States : 1492-Present, (NY : Harper Collins Publishers,1999), P 604 .
- 186 -Causes Of Poverty, "Global Issues Online .March 31, 2005
- 187 -Naomi klein, "Cut The Blah Blah Blah, The Guardian, (April 19,2001) .March 30, 2005
- 188 -Naomi Chomsky, Market Democracy In A Neo Liberal Order: Doctrines And Reality, March 30, 2005
- 189 -Third World Network Online, March 31, 2005
- 190 -50 Years Is Enough Online, March 31, 2005
- 191 -Public Citizen Online, Marche 31, 2005
- 192 -Global Trade Watch Online, May 28, 2005.
- 193 - Manny Fernandez, "Varied paths, One Goal: Taming Global Capitalism, Diverse Protesters Unit Against IMF " The Washington Post Online, September 5, 2001 , May 28, 2005.
- 194- Cheryl Greenberg American Jews And Multiculturalism, eds. David Biale et al (Berkley, CA : U. Of California P, 1998), P 55.
- 195 - Cheryl Greenberg, American Jews And Multiculturalism, eds. David Bialy et al (Berkley, C A : U. Of California P, 1998) , P 58.
- 196 -Cheryl Greenberg American Jews And Multiculturalism, Eds. David Biale (Berkley, CA : U. Of California P. 1998) , P 87.
- 197 -Desmond king And Julian Murphet, Multiculturalism And The End Of Jazz, American Politics And Society Today, Ed. Robert Singh (Cambridge: Polity P. 2002), PP 187- 205.
- 198 - E.W. Said, The Other America, Al-Ahram Weekly Online 630, (March 20- 26 2003).
- 199- Arthur Schesinger, Refections On A Multiculturalism Society, N.Y. Norton 1998.
- Howard Zinn, A People's History Of United States : 1492- Present, (NY : Harper Collins Publishers,1999), P 629.
- 200 - Desmond King And Julian Murphet 'Multiculturalism And The End Of The Jazz' American Politics And Society Today, ED. Robert Singh (Cambridge : Polity P. 2002), p188.

- 201-Howard Zinn, A People's History of United States : 1492-Present, (NY : Harper Collins Publishers, 1999), P 628.
- 202- منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 199.
- 203- Global Policy Online, March 11, 2005.
- 204- منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 200.
- 205- E.W.Said, Representations of The Intellectual, The 1993 Reith lectures (New York: Vintage Books, 1996), P 12.
- 206- منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 200.
- 207- المرجع نفسه، ص 200.
- 208 - E.W.Said, Orientalism , (N. Y. : Pantheon Books, 1978), P 325.
- 209- E.W.Said, Orientalism , (N. Y. : Pantheon Books, 1978), P 327
- 210 - E. W. Said, Representations of The Intellectual, The 1993 Reith lectures (New York: Vintage Books, 1996), P 44 .
- 211-Howard Zinn, A People's History Of United States : 1492- Present, (NY : Harper Collins Publishers, 1999), PP 658 - 662.
- 212- منار الشوربجي، أمريكا الرسمية وأمريكا الأخرى في فكر إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 200 - 201.

إن تعرّف إدوارد سعيد على أفكار فيكو خلال دراسته الجامعية، وإعجابه الشديد بعمله الشهير في فلسفة التاريخ العلم الجديد، حيث وجد فيه المبادئ الأساسية للعلوم الإنسانية، وما شد سعيد لفكر فيكو أمران، أولهما قول فيكو: "أن البشر يصنعون تاريخهم، وهم الذين يحركون مسيرتهم بإرادتهم"، وثانيهما استخدام فيكو للفيلولوجيا والبحث عن أصول الكلمات للوصول إلى معانيها المستترة، ومن ثمة حضر فيكو في فكر سعيد بأول مقالة كتبها عنه عام 1967، "فيكو العصامي والإنساني".

ثم جاءت إحالة ثانية سعيد لمفكر ايطالي آخر، أنطونيو غرامشي في كتابات امتزجت بعناصر أخرى لنتج فكرا سعيديا، فظهرت اختلافات بينهما، فثورية غرامشي السياسية الاشتراكية الديمقراطية، تتجه إلى الجماعة، وتدور في إطار تاريخي اجتماعي، مرتبط بوظائف الاجتماعية للمثقف، بينما ثورية سعيد ذاتية، تتعلق بفلسطينيته وعرويته وتجربته في الوسط الأكاديمي الذي عاش في غربة نموذجية، وخطابه يدور في إطار أخلاقي إنساني.

واعتبر سعيد الحرية شرطا أساسيا للمؤسسات حياة العلمية التي يجب عليها أن تحتفظ بمسافة بينها وبين مؤسسات المجتمع الأخرى، وباستقلاليتها لتتمكن من القيام بدورها، ولن يتحقق ذلك إلا بفتح المجال أمام التغيير والتجديد والإبداع، ولا ينبغي أن يتحكم في الحرية، سوى حب المعرفة والسعي إليها بدون أي إكراه، مثل مصادرة الفكر أو الحوارات أو الكتب.

وارتبطت مجمل أعمال سعيد النقدية بالنخبة الأوروبية والأمريكية، التي تعتبر كعامل إثراء فعال لبعض المبادرات الطلائعية في العالمين الغربي والعربي، منها التي تناولت المحيط الفرنسي المعاصر، وركزت على المفكر ميشال فوكو الذي نال اهتماما واسعا، وكانت أعماله تقييما لدوره في مشروع سعيد، مما أدى إلى إعجاب سعيد به، من جهة، ونقده له، من جهة ثانية.

والمتتبع لما ورد في كتابات سعيد، يتبين له أيضا، بأن حضور فرانتز فانون في فكر سعيد ظل هامشيا، لكنه بدأ بالاقتراب التدريجي في كتابات سعيد المتأخرة، بعد اضطراره بالدور السياسي المتصاعد فتوطدت العلاقة بينهما، وعمل السياسي الباكستاني أحمد إقبال على توطيد نقاط التلاقي الفكري بين الرجلين، وكانوا جميعا محملين بوطأة التجربة الكولونيالية، والتقى وعيهم بمحن أوطانهم وبخبراتهم المكتسبة من الدول الغربية لتكوين مشروع واحد ملهم. فهم من جيل متعلم من دول خضعت للاستعمار في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، تمكنوا من استخدام خبراتهم لإعادة النظر في الصور النمطية للكتاب الغربيين للبلدان المحتلة وثقافتهم. وارتبطت دراسات ما بعد الاستعمار أشد الارتباط بنشر كتاب الاستشراق عام 1978.

وكان ثيودور آدورنو من الذين تأثر بهم سعيد ليصبح مرجعية فكرية له، فهو الناشط السياسي الذي عارض مبدئيا اتفاقيات أوسلو، إن المصالحة بين الشعبين الفلسطيني واليهودي عند سعيد تتحقق بالتفكير المستقل القائم على مبدأ رفض مقايضة العدل والمساواة وحقوق الإنسان في مقابل الأمل الكاذب، وهو موقف طالما دافع عنه في إبداعاته في النقد الموسيقي وفي تأملاته حول المنفى وحتى في موقفه حول حل الدولة الواحدة لقوميتين على منوال دولة جنوب إفريقيا.

اشتهر سعيد بصوته الحر والمستقل وبقيمه الأخلاقية، وهو المثقف المنشغل بالحقول المعرفية الأدبية والثقافية والسياسية، وأفكاره المعتدلة والمعقولة جعلته محترما ومقدرا من الغير، وكان تحديه مكونا أساسيا لجل أرائه، بل أبرز مكوناتها، وخاض حواراته الفكرية والسياسية غير عابئ بمرضه وبما وضع في طريقه من عقبات، وأعلن تيار المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية ضد أفكاره حربا شرسة، لإدراكهم فاعليتها وانتقاداتها، وحرصوا الكونغرس الأمريكي على سن قانون يمنع تكرار ظاهرة إدوارد سعيد إلى الأبد.

دخل سعيد إلى النقد الثقافي كفاعلية فكرية وليس موضوعا معرفيا قائما بذاته، لارتباطه بحياة الإنسان الاجتماعية المتكاملة، والدراسات الثقافية جزء منها، وهي آلية أساسية من آليات النقد الثقافي، اهتمت بالممارسات الثقافية وعلاقاتها بالسلطة مهما كان شكلها، وقامت الدراسات الثقافية على قاعدة مركزية النص، إذ لم يعد ينظر له مثل ما قال به جاك دريدا: "لا شيء خارج النص"، بل جاء سعيد بـ "دنيوية النصوص"، أي أن النص كمادة خام يفسر بعوامل متعددة، منها وسائل الاطلاع على الأنظمة الثقافية، وغايات اكتشافها.

ووقف سعيد على الصفات الملازمة للنصوص الغريبة في كتاباته السردية التي أخذت صبغة منهجية هامة في كتابه الثقافة والامبريالية، وفيه دراسات عن المستعمرات الغريبة كالهند، من خلال رواية كيم للمؤلف رديارد كبلينغ، وكإفريقيا في رواية قلب الظلام لجوزيف كونراد في الأدب الانجليزي، وفي الآداب الفرنسية توجد سرديات ألبير كامو عن الجزائر في كتابه الغريب، وشرح سعيد الطبيعة الامبريالية وعلاماتها المميزة في هذه النصوص التي تعيد تثبيت نفسها من أجل نفسها رغم منطلقاتها الثقافية. فهي نصوص تناولت بالبحث قوالب المستعمر الذي أوجد علاقات متجددة بين القوة والسلطة والإنشاء والتمثيلات، وأنظمتها الخطابية والرؤية النمطية للآخر. بين سعيد تعدد الخطاب الاستعماري في الفترة الاستعمارية الممتدة ما بين القرنين التاسع عشرة والعشرين.

واعتبر سعيد كل من "الأدب والنقد الكولونياليين"، و"النظرية الكولونيالية"، من فضاءات النقد الثقافي، وأوجد العلاقة ما بين خطابات فوكو وفانون، وكتابات غرامشي السياسية. ويدل مصطلح ما بعد الكولونيالية عنده على الجانب الثقافي لمرحلة الاستعمار،

إضافة إلى معناه الأصلي، وهو فترة ما بعد الاستقلال، كما يحتوي الخطاب ما بعد الكولونيالي على الدراسات الثقافية، والنقدية والفكرية المختلفة. واهتم سعيد بالدراسات ما بعد الكولونيالية للبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب المستعمر، والآخر المستعمر، كما هو ظاهر للعيان جليا في كتبه الاستشراق والثقافة والامبريالية، ويعتبر الكتاب الأخير محاولة من سعيد، لتحليل أوسع للقضايا التي طرحها من قبل في كتابه الاستشراق، بمناهج وأساليب مغايرة لتلك التي استعملها في كتابه الأول، ويحلل سعيد الخطاب الاستعماري ليبين العروة الوثقى بين هيمنة القوى السياسية بالمعرفة على الإنتاج الثقافي، وفي ذات الوقت يقدم أوصافا للمعرفة الشرقية أصبحت تحت رحمة المعرفة الغربية.

وفي كتابه الاستشراق، يحصر بإحكام دقيق، الصفات الدونية للمستعمرين، من طرف الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، وخلفيات صوره الايجابية، وهيكلية تمثيلات أنساقها الخطابية التي تمنح مصداقية الاستعمار الغربي عن طريق قبوله نصوصه عن الشرق. ونشير هنا، إلى النظرية المرتحلة التي ذكرها في كتابه العالم والنص والناقد 1983، حيث الظروف المتنوعة لميلاد النصوص وكيفية انتقالها من بيئة لأخرى، وتأثرها أو تغييرها أو تبديلها وفقا لها .

ويمثل استخدام الثقافة في المقاومة عند سعيد قوة تمكن المسود من هدم إيديولوجية السيد، ولذلك فإن المقاومة الثقافية مشروع فاعل في التغلب على السيد ودحضه، ومنه فالثقافة يمكنها أن تجعل لنفسها خطابا مضادا لثقافة المستعمر. تلك الإيديولوجية التي تمكن نصوص المستعمر من أن تعمل عملها في سياقات المجتمعات الخاضعة للاستعمار، وبهذا ينشأ دور المثقف الأصيل، الذي يطعن في السلطة ويضعها موضع المساءلة. ويشكك فيها من خلال ما أسماه سعيد القراءة الطباقية للثقافة الرفيعة أي الأدب المعتمد، وكان هدفه هو نقض شرعية السيد وإلغاء الاعتراف به، وهذا هو التقويض النقدي للاستعمار

النابع من إيمان سعيد الراسخ بالأطروحات النظرية المناهضة للإمبريالية، التي تجد طريقها في سياسات ما بعد الكولونيالية. ومن القراءة الأحادية للنصوص في الثقافة الامبريالية الغربية، ينتقل بنا سعيد إلى القراءة الطباقية الموازية لها في الثقافة الأصلانية، ويمثل ألبير كامو النموذج الأول في روايته الغريب، بينما يمثل كاتب ياسين النموذج الثاني في رواية نجمة، كما تمكن سعيد من تبيان التداخل بين الآداب والسياسة من ناحية، والثقافة والامبريالية من ناحية ثانية، ما يجعلنا نتوقف على استعماله للمنهج المقارن في دراساته النقدية ليصل إلى تفاعل الإنسان في أبعاده الزمانية والمكانية. وبقراءته الطباقية للنصوص ساهم سعيد بكيفية فعالة ونوعية في النقد الأدبي وحقق صفات عالمية ومعارضة. وبالفحص المتواضع للبعض من كتاباته يمكننا البرهنة على موقفه تجاه العديد من التيارات النقدية والنظرية المعاصرة، بوصفه باحثاً أكاديمياً. وطرحت أعماله نظرية نقدية تدفع بالإنسان للخروج من الدراسة الأكاديمية إلى عالم الحياة اليومية، والنقد من وجهة نظره عالمي وعلماني ومعارض، يهدف إلى مقاومة أشكال الاستبداد في المجتمع، وفي الدراسات الأكاديمية. وفي رؤيته النقدية والمعرفية رفض قاطع للنظرة التي ترى بأن الغرب عامة، هو مصدر إشعاع الثقافات الأخرى، ففي هذا الشأن جاء كتابه الاستشراق مفندا لهذا التسلط والمركزية الغربيتين، ولنظرتيها الإستعمارية (الفوقية). وكان من الواجب على الغرب أن يغيّر من نظرتي، مما دفع بالكثير من الباحثين والنقاد في حقول الدراسات الثقافية، والعلوم الإنسانية، الاهتمام بموضوع الشرق مقارنة بما حدده الاستعمار الغربي، وتعدى ذلك الاهتمام إلى أجناس أدبية مختلفة. والغرض من تغيير النظرة الغربية للشرق هو إعادة تأويل التاريخ والثقافة في آسيا وإفريقيا خاصة، ومن ثمة إقامة خطاب معرفي جديد يكون فيه الغرب موضوعا للبحث بالنسبة للشرق، وهذا ما قصده سعيد بالتحرك الشرقي تجاه تفكيك الغرب أي الوعي النقدي الشرقي للغرب. إن الدراسات الاستشراقية التي ذاع صيتها في المرحلة الاستعمارية الممتدة من القرن الثامن عشرة إلى غاية القرن العشرين، وانتشرت فيها الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية التوسعية، الفرنسية والبريطانية... والأمريكية، وكان ينظر إليها بوصفها أعمالا دراسية وبحثية علمية

خالية من كل أغراض هيمنية، تمكن سعيد بتفكيكه للخطاب الكولونيالي من إثبات بأنها مؤسسة ثقافية نظرا لتعاملها الذاتي مع الشرق. وكانت تحليلاته للتمثيلات الاستشراقية في الفكر الغربي، مبنية لشرعية الحكم الكولونيالي، لكنه اتخذ منها موقفا نقديا، وتقبل كأكاديمي تراث هذا الفكر ذي النزعة الإنسانية الموافقة لنزعتة، وهي نزعة تتخطى ضيق الأفق، وتتميز بالتححرر الفعلي، ومرتبطة بمفهومه للنقد الدنيوي، ومن ثمة يؤكد على حاجة الإنسانية للنظرية النقدية في مواجهة الآثار الوحشية للتطور العصري والإمبريالية المنبعثة من جديد. ويؤمن سعيد في كتاباته الثقافية إيمانا راسخا بتشابه تجارب الشعوب والأمم في عذاباتها، وهي الكتابات المتصفة ببعدها الكوني والواعي بمصائر الأفراد والمجتمعات، ونقف فيها على الدور الرئيس الذي احتله المكان والجغرافيا. إن موقف سعيد النقدي والثقافي يتمثل في تحرير المعرفة من أي استغلال سياسي أو اجتماعي، وهو موقف شبيه لموقف ستيفن ديدالس عندما قال: "لن أكون في خدمة ذلك الذي لم أعد به مؤمنا، وإن سمي نفسه أهلي أو وطني أو ديني، وسأحاول أن أعبر عن ذاتي في أسلوب من الحياة والفن بأقصى ما يمكنني من حرية ومن تكامل".

إن النقد الثقافي يجتر من الدراسات الاستشراقية، ويعيد النظر فيها على أساس علاقاتها بالثقافة، ولإدوارد سعيد مكانة عالمية في هذا النقد بمنتوجاته النقدية الثقافية الغزيرة، وهو يقول في كتابه العالم النص والناقد: "لكل نص عبقريته، كما أن لكل إقليم في العالم عبقريته، بتجاربه المتقاطعة الخاصة، وبتواريخ النزاع المتداخلة الخاصة بت، ويمكن تمييز مفيد، فيما يتعلق بالعمل الثقافي، بين الخصوصية والسيادة، ومن الجلي أنه لا ينبغي لأي قراءة، أن تعمم إلى درجة إلغاء هوية نص ما، أو مؤلف ما، قد أصبح عرضة للخلاف. إن هند كبلنغ، لها خصيصة من الديمومة والحتمية، تنتمي لا إلى تلك الرواية المدهشة وحسب، بل إلى الهند البريطانية أيضا، إلى تاريخها والمنافحين عنها".

إن الثقافة بالمفهوم السعيد هي النقد والنقد الثنائي للماضي والحاضر بحثاً عن الذات، وينبغي أن تكون النظرة للثقافة خارج سياقها المؤسسي، دون وجود ثقافة متعالية مقابل أخرى دونية، وهو مفهوم يرتبط في منظومة سعيد النقدية بهوية الناقد الثقافية بمعانيها الواسعة (الناقد المثقف، الناقد الأديب والناقد السياسي...) التي ترفض الاحتراف المهني والتخصص الأكاديمي، ومن ثمة يفقد استقلاليته، ويصير الناقد غير ملتزم بنزعتة الإنسانية، وبدون معرفة لممارساته التي لم تنطلق من المبادئ الكونية التي آمن بها وعمل من أجل تحقيقها في عالمه الدنيوي، وهي مفارقة من مفارقات سعيد: "أن يعيش المرء خارج مكانه"، وما يترتب عليه من قلق في الهوية نتيجة أن يكون في مكان غير مكانه، فعلى الناقد أن يتعلم من حياته المليئة بتنافر المفاهيم والأفكار، لكي يحيا حياة سوية تماماً حتى ولو كان في غير مكانه، حسب بتعبير سعيد في كتاب يروي لنا سيرته الذاتية (خارج المكان 1998).

إن مقارنة تجربة المنفى عند سعيد تستدعي بالضرورة وضعها في إطار مفهومه عن نفسه، ولبعض القضايا المتشابكة، مثل موضوعات الهوية واللغة والذاكرة والفقد. إن حالة اللاتوطن التي عاشها جعلته ناشزاً غير قابل للتكيف، خارج مكانه، وهي حالة تجاوز حدود الجغرافيا. إنها تمثل حالة من الرفض للسائد الذي يساهم في تأسيسه لبنى سلطوية وقمعية دينية كانت أم سياسية، لقد شخص سعيد حالة المنفى أو الغربة الدائمة التي أقام فيها طول حياته من خلال كتابه المؤثر للغاية بعد السماء الأخيرة، الذي اعتبره سيرة جماعية للمجتمع الفلسطيني، في الداخل والشتات على حد سواء، وكذا في كتابه المثير خارج المكان، وهو رؤية صدقة لسيرة سعيد الذاتية. وتبنى سعيد في أعماله النقدية مبدأ آدورنو القائل: "إن من الفضائل ألا يشعر الإنسان بالاستقرار في وطنه"،

وفي سياق قريب من هذا، جاء حديث سعيد مطولاً عن مفهوم المثقف ودوره

الرسالي، ووظائفه الاجتماعية، وتأثره بتحليلات الراهب والمفكر الفرنسي جوليان بيندا في

كتابه خيانة المثقفين، وكان تصنيف أنطونيو غرامشي للمثقفين من المناهل الأساسية لسعيد في كتابه تمثيلات المثقف، وهو المدافع عن المثقف المستقل اللامنتمي (البعيد عن دوائر السلطة)، الهامشي والمنفي، والهاوي، والمعارض، والممثل لمن لا تمثيل لهم. إن من عَرَف سعيد يستحضره بوصفه مثقفا كونيا نموذجيا، وأستاذا مهموما بشؤون طلابه، وناشطا سياسيا بامتياز...، وقبل هذا تلميذا مشاغبا في مدارس القاهرة، وهي شهادات عن حضوره الاستثنائي والإنساني في مختلف مراحل حياته، وقد اهتم كثيرا بأسلوب المرحلة الأخيرة من حياة المفكرين الكبار، مثل اهتمامه بآدورنو عندما عمل على فهم أسلوب موسيقي يتهوفن في المرحلة الأخيرة من حياته.

والقراءة المتأنية لكتاباته الأخيرة، مثل النزعة الإنسانية والنقد الديمقراطي الذي نشر عام 2004، ومقالاته الصحفية السياسية والأدبية في العامين الأخيرين قبل رحيله في 2003/09/23، تكشف لنا عن ممارسته لهذا الأسلوب، وهي تتسم بثبات في الموقف وروح قلقة، وتساؤل مشكك في الهوية، مما اعتبره من مسؤولية النقد الديوي.

وتناول سعيد الكيان العملاق (الولايات المتحدة الأمريكية) بالدراسة والتحليل بعدما ظل بحثا غائبا ولغزا غامضا، وأسيرا لمجموعة من الانطباعات والصور النمطية المفرطة في سلبياتها في العالم العربي، إذ قدم لنا سعيد أطروحة مفادها أن صورة أمريكا مبنية على فهم قاصر، يختزل مجتمعا بالغ التعقيد والتشابك والتناقض، ومصدر هذه الصورة هو مجموعة من السياسات الأمريكية السلبية، زيادة على مساهمة العرب أنفسهم بنفس القدر أو أكثر بتقصيرهم في فهم دقيق ومتابعة صحيحة للشأن الحقيقي لأمريكا غير الرسمية، أي أمريكا الأخرى كما سماه سعيد، إذ يدعونا للانتباه كعرب، لأن مناهضة أمريكا الرسمية، لا يمكننا من امتلاكها، بدون القيام بدراسة نقدية للواقع الأمريكي من مختلف جوانبه، مما

سيسمح لنا برؤية الوجه الحقيقي بمعنى الوجه الآخر لأمريكا، ومن ثمة إيجاد بدائل أخرى للتعامل معها.

يحق لنا الآن، أن نستنتج بأن طبيعة الخطاب النقدي الثقافي عند إدوارد سعيد مستمدة من عوامل متشابكة ومتداخلة فيما بينها، يقف الفكر عاجزا أمام محاولة تفكيكها إلى وحدات مستقلة بذاتها، ومن ثمة فهو نقد ثقافي من طبيعة سياسية، تاريخية، واجتماعية.

مصادر باللغة العربية:

- 1- إدوارد وديع سعيد ، صور المثقف، ترجمة غسان غصن ، بيروت، دار النهار، 2000.
- 2- إدوارد وديع سعيد، خارج المكان: مذكرات، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت: دارالأدب 2000.
- 3- إدوارد وديع سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 2000.
- 4- إدوارد وديع سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، دار الأدب الطبعة 2004، 3.
- 5- إدوارد وديع سعيد، الإستشراق، ترجمة محمد عناني، الطبعة الثانية، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006.
- 6- إدوارد وديع سعيد، الإستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1981.
- 7- إدوارد وديع سعيد، تعقيبات على الإستشراق، ترجمة صبحي حديدي، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996.
- 8- إدوارد وديع سعيد، القلم والسيوف: حوارات مع دفيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، الطبعة الثانية، دمشق: دار كنعان، 2004.
- 9- إدوارد وديع سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2006.
- 10- إدوارد وديع سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2006.
- 11- إدوارد وديع سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة سميرة خوري، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 2006.
- 12- إدوارد وديع سعيد، آلهة تفشل دائماً، ترجمة حسام الدين خضور، التكوين للتأليف والنشر، دمشق، حلبوني، 2006.
- 13- إدوارد وديع سعيد، القضية الفلسطينية والمجمع الأمريكي، دون مترجم، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2004.
- 14- إدوارد وديع سعيد، "أوسلو 2 سلام بلا أرض"، دون مترجم، القاهرة: دار المستقبل العربي، 1995.
- 15- إدوارد وديع سعيد، نهاية عملية السلام: أسلو وما بعدها، دون مترجم، بيروت، دار الآداب، 2002.
- 16- إدوارد وديع سعيد، فرويد وغير الأوروبيين: دراسة، ترجمة ثائر ديب وآخرين، بيروت: دار الآداب، 2004.
- 17- من أوراق إدوارد وديع سعيد، دون مترجم، الشارقة: مركز الخليج للدراسات، 2004.
- 18- إدوارد وديع سعيد، ودانيال بارنوبوم، نظائر ومفارقات: استكشاف في الموسيقى والمجتمع، ترجمة نائلة فلقيلي حجازي، بيروت، دار الآداب، 2005.
- 19- إدوارد وديع سعيد، تأملات حول المنفى، ترجمة ثايرديب، بيروت: دار الآداب، 2004.

20- إدوارد وديع سعيد وإعجاز أحمد، الإستشراق وما بعد: إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي، ترجمة نائل ديب، دمشق، دار ورد،

21- إدوارد وديع سعيد، غزاة - أريحا: سلام أمريكي، تقديم محمد حسنين هيكل، القاهرة، دار الشروق، 1994.

مراجع باللغة العربية:

- 1- صالح هشام، الإستشراق بين دعائه ومعارضيه، لندن : دار الساقى، 1994.
- 2- فخري صالح، دفاعا عن إدوارد سعيد، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.
- 3- بول بوفيه، الحق يخاطب القوة: إدوارد سعيد وعمل الناقد، ترجمة فاطمة نصر، القاهرة، إصدارات سطور، 2001.
- 4- الخطاب سلطان إعداد، إدوارد سعيد: آخر العمالقة... جاء من فلسطين، عمان: دار العروبة، 2003.
- 5- شفيق منير، من اتفاق أسلو إلى الدولة "ثنائية القومية": ردود على إدوارد سعيد وعزمي بشارة وآخرين. عمان: دار الشروق، 1999.
- 6- محسن صخري، فوكو قارئاً ديكاوت، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1997.
- 7- منار الشوربجي، الديمقراطية المقيدة : انتخابات الرئاسة الأمريكية، القاهرة، دار مصر الخروسة، 2004.
- 8- صادق جلال العظم، ذهنية التحريم، لندن/ قبرص: رياض الريس للكتب والنشر، 1992.
- 9- صادق جلال العظم، دفاعا عن المادية والتاريخ، بيروت: دار الفكر الجديد، 1990.
- 10- أنور مغيث، "الماركسية وإيديولوجية اليسار الصهيوني في الغرب"، القاهرة: دار قضايا فكرية للنشر والتوزيع، 1992.
- 11- حنفي حسن، دراسات فلسفية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1987.
- 12- أبو السعود عطيات، "فلسفة التاريخ عند فيكو" رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1985.
- 13- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، القاهرة: دار الفكر، 1987.
- 14- لتزفيتان تودوروف، المبدأ الحوارى: دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة فخري صالح، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1992.
- 15- وليامزيموند، الثقافة والمجتمع، ترجمة وجيه سمعان، مراجعة د.فتحى محمد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، 1986.

مصادر ومراجع باللغة الفرنسية:

- 1-Antonio Gramsci, Textes (Paris : Messidor/éditions Sociales 1983.)
- 2- G.B.Gluksman, Gramsci et L'état (Paris : Fayard 1975.)
- 3- Antonio Gramsci, Gramsci dans le texte (Paris : Editions Sociales 1975.)
- 4-Donald S. Bouchard: « Foucault, Spectacle, Document » The oxford Library Review Volume 4:2 1980.
- 5- Michel Foucault, Histoire de la folie à l'Age Classique. Paris Gallimard, 1971.
- 6- Michel Foucault, Naissance de la Clinique, Paris, P.U.F, 3 éditions, 1993.
- 7- Revue Tunisienne des sciences sociales, N. 19 Décembre 1969.
- 8- Michel Foucault, L'linguistique et sciences sociales, in Revue Tunisienne des sciences sociales, N. 19, Décembre 1969.
- 9- Albert Camus, Actuelles, 3, Chronique Algérienne 1939- 1958, (Paris 1958).
- 10- Frantz Fanon, Pour la révolution africaine, Trans Haarkoun chevalier, Harmonds Worth, Penguin 1970.
- 11- Karl Marx, Le manifeste Communiste, Traduit Par M. Rubel et L. Evrard (Paris : Bibliothèque de la Pléiade Gallimard 1965).
- 12- Elisabeth de Fontenay, Les Figures Juives de Karl Marx (Paris : Galilée, 1973).
- 13-Robert Misrahi, Marx et la Question Juive (Paris Gallimard, 1972).
- 14-Karl Marx et Friedrich Engels, L'idiologie Allemande, Traduit par Anger Badia,
- 15-Baudrillard et Carrelle (Paris : éditions Sociales, Dit et écrit (Paris : Gallimard, 2001)
- 16-Edward W. Saïd, L'Orientalisme, Traduit par Catherine Malamud, 2 éditions, Paris : Seuil 1997.
- 17- Edward W. Saïd, Culture et Impérialisme, Traduit Par Paul Chemla, (Paris, Fayard, 2000).
- 18- Frantz Fanon, Peau noir masques blancs, Trans Charles lame Markmann (London : Pluton presse, 1980.

مصادر ومراجع باللغة الإنجليزية:

- 1- Hussein Abdurrahman and Said E. W.: Criticism and Society,(London : Verso 2002).
- 2- Miller, Beginnings With a Text Diacritics 6.3 (Fall 1967).
- 3- Vasira Fazila Yacoobali, E. Said and Eqbal Ahmad: Anti- Imperialist Struggle in a Post-Colonial World, ISIM NEWS LETTER (13/12/2003).
- 4- Leela Gandhi, Post-Colonial Theory (N.Y.: Colombia UP, 1998).
- 5- Jonathan Cary and Phil. Mariani, In the Shadow of the West, Power Politics and Culture.
- 6- Jennifer Wick and Mickael Spanker, Criticism and the art of Politics, Power Politics and Culture.
- 7- David Macy, Frantz Fanon : A Biography (N. Y. Picador, 2001).0000
- 8- Eqbal Ahmad, The Contemporary Crisis Of the Third World, Arab Studies Quarterly, 2 (Summer 1980).
- 9- Georg H. Nash, the Conservative Intellectual Movement in America, Since 1945 (Washington, Delaware: Intellegiate Studies Instituted, 1998).
- 10- Catherine L. Albanese, America: Religious and Religion (Belmont, C A :Wads Worth Publishing Company, 1999).
- 11- George M. Marsden, Fundamentalism and American Culture (Oxford UP, 1980).
- 12- Tony Smith, Foreign Attachment, (C. Cambridge, M.A.: Harvard UP, 2000).
- 13- Robert Kagan and William Kristol, National Interest and Global Responsibility, Present Dangers.
- 14- E. J. Dionne, Why Americans Hate Politics (NY: Simon and Schuster, 1991).
- 15- Frantz Fanon, Toward the African Revolution, Trans, Haakon Chevalier (Harmon's Worth, Penguin Books, 1970).
- 16- Arthur M. Schlesinger, JR, The Diswritng of America: Refection On Multicultural Society (N.Y. : W. W. Norton and C., 1998).
- 17- Irving Howes, History and Literature and Imperialism, (Dissent 40 Fall, 1993).
- 18- George M. Wilson, E. Said on Contrapuntal Reading, (Philosophy and Literature 18. 1994).
- 19- Catherine Gallagher, Politics, The Profession, and The Critic (In Response) Diacritics 15.2 (Summer 1985).
- 20- Asha Varadharajan, E. Said, Exotic Parodies: Subjectivity In Adorno, Said and Spivak (Minneapolis, Lodon : U of Minisota p).
- 21- Tim Brennan, E. Said and Philology, Michael Sprinker, ED. E. Said: A Critical Reader, 46.

- 22- Said E.W., *The mind of winter: Reflections on a life in exile*, *Harpers Magazine* 269-1612. (September 1984).
- 23- Mike Dibb, Dir. *E. Said the Last Interview*. I.C.A., 2002.
- 24- Speak Jennifer, ED. *A Dictionary OF Philosophy* London, Pan (Macmillan, 1979).
- 25- Ghazoul Ferial Jabouri, *the Resonance of the Arab-Islamic Heritage In the Work of E. Said: A Critical Reader*, ED. Michael Spinker, Oxford: Blackwell, 1992.
- 26- Borges Jorge Luis, *Kafka and His Precursors, Labyrinths*, ED. Donald A. Yates and James Eirby. N.Y. Directions 1964.
- 27- Frantz Fanon, *Black Skin White Masks*, Trans, Charles Lam Marksman, (London: Pluto Press, 1986).
- 28- Frantz Fanon, *A. Dying Colonialism*, Trans Haakon Chevalier (Harmonds Worth, Penguin Books, 1970).
- 29- Gary Hentzi and Anne Mc Clintock, *Overlapping Territories: The World, The text, and the Critic, Power Politics and Culture*. Frantz Fanon, *The wretched of Earth*, Trans Constance Farrington N.Y. 1966.
- 30- Albert Memmi, *The colonizer and colonized*, Trans Howard Greenfield.
- 31- Godfrey Hodgson, *A History of the Conservative Ascendancy In America* (N.Y., Houghton Mifflin Company, 1996).
- 32- Irving Kristol, *Neo-conservations The Autobiography of an Idea* (Chicago: Ivan R. Dee Publishers, 1995).
- 33- Douglas Koopmans, *Hostile Takeover: The House Republican Party 1980-1995*, (Lanham, MD: Roman and Littlefield Publishers INC, 1996).
- 34- Chalmers Johnson, *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire* (N.Y.: Henry Holt and Company, 2000).
- 35- Cheryl Benard, *Civil Democratic Islam: Partners and Strategies* (C.A: Rand Corporation, 2003).
- 36- Bob Woodward, *Bush at War*, (N.Y.: Simon and Shuster, 2002).
- 37- Cheryl Greenberg, *America Jews and Multiculturalism*, Eds. David Biale (Berkley, C.A.: U. of California p. 1998).
- 38- Desmond King and Julian Murphet, *Multiculturalism and the end of jazz*, *American Politics and Society Today*, ed. Robert Singh (Cambridge: Polity p. 2002).
- 39- Diogène Lacrtins, *Vitae Pythogroras*, Trans. R.D. Hicks (Cambridge, MA: Harvard UP, 1979).
- 40- Peter Childs and Patrick Williams, *Introduction, on Introduction to Postcolonial Theory* (London: Prentice Hall, 1997).

41 -Jonathan Arac, *Criticism between opposition and Counterpoint*, E.Said and the Work of the Critic: Speaking Thruth Power, Paul Bové, ed. (Durham and London: Duke UP, 2000).

المجلات والدوريات:

- 1- إدوارد وديع سعيد، " أشعيا برلين، بين الليبرالية والصهيونية "، مجلة الحياة (1997/12/09).
- 2- إدوارد وديع سعيد، " سارتر والعرب: ملاحظات هامشية "، مجلة الحياة (2000/05/30).
- 3- إدوارد وديع سعيد، " يهودية منوهين "، مجلة الحياة (1999/04/02).
- 4- إدوارد وديع سعيد، " فرويد والصهيونية وفيينا "، مجلة الحياة (2001/03/16).
- 5- إدوارد وديع سعيد، " حضيض العجز "، مجلة الحياة (2002/12/30).
- 6- إدوارد وديع سعيد، " صدام الجهلات "، مجلة الحياة (2001/10/21).
- 7- إدوارد وديع سعيد، " القيادات الفلسطينية تنسى الماضي وتغفل الحاضر "، مجلة الحياة (1998/10/21).
- 8- إدوارد وديع سعيد، " من القدس وبيروت إلى سياتل ونيويورك، تأملات في المنفى، نوبار ودرويش وكونراد وأن ترى العالم أجمع أرضاً غريبة "، مجلة الحياة (2003/10/01).
- 9- إدوارد وديع سعيد، " البديل الوحيد "، مجلة الحياة (2003/03/02).
- 10- إدوارد وديع سعيد، " عن الكرامة والتضامن "، مجلة الحياة (2003/07/02).
- 11- إدوارد وديع سعيد، " نظرة إلى المستقبل "، مجلة الحياة (2002/04/07).
- 12- إدوارد وديع سعيد، " أسس التعايش السلمي "، مجلة الحياة (1997/11/05).
- 13- علاء الأسواني، " من إدوارد سعيد إلى مقهى ريش "، مجلة العربي (2001/01/25).
- 14- رسول محمد رسول، " بين التاريخ والسياسة والهوية، المثقف والمنفى: إدوارد سعيد نموذجاً "، مجلة فصول، العدد 64، (صيف 2004).
- 15- فيكو جيامباتيستا، " منطق الشعر " ترجمة سلامة محمد، مجلة البلاغة المقارنة العدد 01 (1981).
- 16- فريال غزول جبوري، " الثقافة بين الهيمنة والمقاومة "، مجلة فصول العدد 64، (صيف 2004).
- 17- ميلي ستيل، " النفي أم التجدر: سياسة الاختلاف عند إدوارد سعيد وكورنيل ويست "، ترجمة مصطفى بيومي، مجلة فصول العدد 64، (صيف 2004).
- 18- شعبان يوسف، " طرف من نقد إستشراف إدوارد سعيد: هل كان ماركس مستشرقاً؟ "، مجلة فصول العدد 64، (حريف 2004).
- 19- صبري حافظ، " رقص الذات لا كتابتها: تحولات الإستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية "، مجلة البلاغة المقارنة العدد 22، (2000).
- 20- العلوي سعيد بنسعيد، " النزعة الإنسانية في فكر إدوارد سعيد "، المجلة العربية للثقافة العدد 45، (مارس 2004).
- 21- غزول فريال جبوري، " المنهج الأسطوري مقارناً " مجلة فصول، العدد 1 و 2 (أفريل 1981).
- 22- هادي العلوي، " الإستشراف عارياً "، مجلة الكرمل، العدد 15، (1985).
- 23- عزالدين المناصرة، " إدوارد سعيد والأدب الثقافي المقارن " قراءة طباقية " مجلة فصول، العدد 64، (سبتمبر 2004).
- 24- هاشم صالح، " فيلسوف القاعة الثامنة "، مجلة الكرمل، العدد 12، (1984).
- 25- مجلة جراننا ستريت (Grand Street)، العدد 36 (1990).
- 26- مجلة جراننا ستريت (Grand Street)، العدد 13 (1984).

- 27 مجلة كريتیکل إنکوائری (Crtical Inquiry) ، (شتاء 1989).
- 28 مجلة نیولفت ریفیو (New left Review)، العدد سبتمبر /أكتوبر 1988.
- 29 مجلة الآداب، العدد 11 والعدد 12 (نوفمبر / ديسمبر 2003).
- 30 مجلة آداب ونقد، العدد 219 (2003).
- 31 مجلة مشارف، العدد 23 ، (شتاء 2003) .
- 32 مجلة الكرمل، العدد 78 (شتاء 2004).

- 1- El Moudjahid .12/12/1961. جريدة المجاهد.
- 2- MR. Bush's Victory < Editorial > The Washington Post, November5, 2004.
- 3- Said E.W., Thoughts About America, Al-Ahram Weekly, March6, 2002.
- 4- Said E. W. ,the Other America, Al Ahram Weekly, March26, 2003.
- 5- Said E.W. Archives,<Article>,Le Monde Diplomatique Sept.2004.
- 6- Kerry's Acceptance Speech, The new-York Times Online, July29, 2004.
- 7- Dan Balz, Gephardt Defends Election Strategy, The Washington post Online, Nov.8, 2002.
- 8- Dana Milk bank, Deeply Divided Country is united in Anxiety, The Washington Post Online, November4, 2004.
- 9- Eric Pianin and Christopher Lee Pelosi Poised Democrats in house, The Washington Post Online, November9, 2002.
- 10- Dana Milkbank, For The President :A vote Fall Faith and Credit, The Washington post Online, November7, 2004.
- 11- David Brooks, the C.I.A versus Bush, the New-York Times Online, November13, 2004.
- 12- Steve Brayman, New Social Movements, Peace and change, JULY 1997.
- 13- ANSWER ONLINE, March 11, 2005.
- 14- United For Peace and Justice Online, March 11, 2005.
- 15- Third World Network Online, March 31, 2005.
- 16- 50 Years is Enough Online, March 31, 2005.

فهرس المواد

11-01	مقدمة
101-12	الفصل الاول
65-13.....	المبحث الاول
91-66.....	المبحث الثاني
101-92.....	هوامش الفصل الاول
165-102.....	الفصل الثاني
134-103.....	المبحث الاول
158-135.....	المبحث الثاني
165-159.....	هوامش الفصل الثاني
214-166.....	الفصل الثالث
186-167.....	المبحث الاول
209-187.....	المبحث الثاني
214-210.....	هوامش الفصل الثالث
339-215.....	الفصل الرابع
253-216	المبحث الاول
330-254.....	المبحث الثاني
339-331.....	هوامش الفصل الرابع
349-340.....	الخاتمة
363-350.....	الفهارس
362-351.....	فهرس المصادر والمراجع
363.....	فهرس المواد